حقائق ورقائق
(٩)

ثمار .. من شجرة النبوة

رواية

د. نور الدين أبو لحية

دار الأنوار للنشر والتوزيع

حقائق ورقائق

(9)

ثمار من شجرة النبوة

د. نور الدين أبو لحية

الطبعة الثانية

1436 – 2015

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

تنطلـق هـذه الروايـة من مقولـة للمسـيح عليـه السـلام في إنجيل متى (7:15-17) يقول فيها: (احترزوا من الأنبياء الكذبة، يـأتونكم بثيـاب الحملان الوديعـة، ولكنهم من الـداخل ذئـاب خاطفة.. من ثمارهم تعرفونهم، هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية)

ولذلك هي تخاطب بالدرجة الأولى من يجمعـون بين الإيمـان بهذه المقولـة، وبين جحـود رسـالة رسـول اللـه ﷺ .. ذلـك أنـه يستحيل على رجل أمي في بيئة بدوية بعيـدة عن كـل منتجـات الحضارة أن يخرج دينا ممتلئا بالقيم وبكل معـاني الخلاص الـتي كانت تنتظرها البشرية، ولا زالت تتعطش إليها.

وهي تخاطب كذلك كل صاحب عقـل سـليم، ليجـري مقارنـة شاملة بين الثمـار الـتي جـاء بهـا رسـول اللـه ﷺ والثمـار الـتي تفتخر بها سائر الأديان.. ليخرج من تلك المقارنة - على الأقل - بأن هذا الـدين يحتـاج إلى مزيـد بحث وتأمـل، وأنـه لا يصـح أن يستعجل العاقل في الحكم عليه ابتداء.

وبناء على هـذا الهـدف كـانت أحـداث هـذه الروايـة .. والـتي تجري بين مبشر مسيحي - هو بطل الروايـة، وهـو الـذي أسـلم بعد ذلك، وحكى قصته للمؤلف – ومجموعـة من المستشـرقين المنصفين الكبـار الـذين بهـرتهم القيم العظيمـة الـتي جـاء بهـا الإسـلام، فشـهدوا شـهادات صـادقة كـانت أحسـن رد على شـهادات المجحفين والمنـاوئين من المبشـرين والمستشـرقين والمستغربين.

وتدور أحداث الرواية في جامعة السربون وما حولهـا.. وفيهـا مقارنات كثيرة بين كل ثمرة جاء بها الإسلام من خلال مصـادره المقدسـة، والثمـار الـتي جـاءت بهـا سـائر الأديـان والمـذاهب السماوية أو الوضعية.

وهي تقر في نفس الوقت بالتخلف الـذي حصـل للمسـلمين، والانحرافات التي شـوهتهم، وشـوهت دينهم.. ولكنهـا في نفس الوقت تقـر بـأن بـذور الخـير لا تـزال في هـذه الأمـة مـا دامت مصادرها المقدسة محفوظة.. ولذلك يمكنها أن تسترد حقيقتها، وأن تعود لأداء دورها الرسالي الذي كلفت به.

ومن أهداف الرواية أيضا إخراج القـارئ من تلـك التعميمـات المجحفة التي ترمي جميع المستشرقين بالعمالة وعدم العلمية والنوايا الخبيثة.. بل هي تصنفهم بحسـب أعمـالهم وأفكـارهم.. فمنهم المنصـفون .. كالأبطـال العشـرة لهـذه الروايـة.. ومنهم غيرهم، والذين لم نهتم في الرواية بـذكر أسـمائهم.. لأن هـدفنا منها هو بيان الثمـار العظيمـة الـتي جـاء بهـا رسـول اللـه ﷺ .. والتي لم تر البشرية ثمارا مثلها في تاريخها الطويل.

وقد قسمناها – كأخواتها من الروايات – إلى عشرة فصـول.. كل فصل منها يتناول ثمرة من الثمار:

وهي تبدأ بثمرة الخلاص التي جاء بها الإسلام لينقـذ البشـرية من الانهيارات التي مرت بها، وكادت تقضي عليها..

ثم بثمرة صمود هذا الدين ومصادره المقدسـة رغم الحـروب الكثيرة التي شنت عليه.

ثم بثمرة القيم الأخلاقية التي جاء بها، لا كمعان نظرية فقط، بل كتشـريعات عمليـة لا يـزال صـدى الكثـير منهـا موجـودا في الواقع الإسلامي رغم انحرافه.

ثم بثمـرة إنسـانية الإسـلام، وحفاظـه على حقيقـة الإنسـان، وحقوقه مقارنة بغيره من الأديان والمذاهب.

ثم بثمرة روحانيته وتطلعه إلى المعـارف السـامية المرتبطـة بحقائق الوجود الكبرى.

ثم بثمرة سلامه الشامل للكون والإنسان والحياة.

ثم بثمرة النظام العادل الذي دعا إليه..

ثم بثمـرة العلـوم الـتي جـاء بهـا، ودعـا إليهـا، ووضـع المنهج المثالي للتوصل إليها.

ثم بثمرة الفنون والجماليات التي شجع عليها.

ثم بثمـرة الحضـارة الـتي تحافـظ على رفـاه الإنسـان، وفي نفس الوقت تحافظ على إنسانيته.

هذه هي الفصول العشرة التي تتشكل منها الرواية، وفي كل فصـل منهـا يلتقي بطـل الروايـة مستشـرقا من المسشـترقين ليبرهين له على كل واحد منها.

وهي – كما تحاول أن تغرس الأمل في قلوب المؤمـنين بهـذا الدين – إلا أنهـا تحـذرهم من الاغـترار بمجـرد الانتسـاب إليـه .. فهذا الدين هو القيم التي جاء بها .. ولا يمثلـه إلا من امتلأ بتلـك القيم، وسار بها في النـاس.. أمـا من شـوهها، فلا يصـدق عليـه سوى قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: 26]، وقولـه تعـالى: ﴿فَخَلَـفَ مِنْ بَعْـدِهِمْ خَلْـفٌ وَرِثُـوا الْكِتَـابَ يَأْخُـذُونَ عَـرَضَ هَـذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَـا وَإِنْ يَـأْتِهِمْ عَـرَضٌ مِثْلُـهُ يَأْخُـذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَـذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَـا فِيهِ وَالـدَّارُ الْآخِـرَةُ خَيْـرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُـونَ أَفَلَا تَعْقِلُـونَ﴾ [الأعـراف: 169]

وأحب أن أذكـر في الأخـير أن هـذه الطبعـة الجديـدة تتمـيز باختصـارها مقارنة بالطبعة السابقة، فقد حذفت الكثير من التفاصيل التي قد تجهد القارئ العادي في فهمها أو الاستفادة منها.

البداية

لا أخفي عليكم أني كنت ــ قبل أن أسمع الحكاية التي سأحكيها لكم ــ أحمل مستنقعا من العقد التي نشرتها في نفسي أوهام النقص التي كنت أحملها، والتي لم يستطع ذلك الإيمان الوراثي أن ينزعها مني.

لقد كنت أنظر بأسف إلى الأمة الإسلامية التي تمثل أعظم رسول في الدنيا، وأكمل رسالة نزلت إلى الأرض، نظرة ممتلئة بالازدراء والاحتقار.

فهي أمة متخلفة في جميع الميادين.. بينما غيرها يتقدم في جميع الميادين:

هي متخلفة في السياسة، تحاول أن تقلد حرية الغرب وديمقراطيته، ولكنها لا تستطيع أن تتخلى عن مواريث الاستبداد التي تملكتها، فلذلك تنشئ ديمقراطيات مشوهة تحفظ لها استبدادها وقمعها وتسلطها وقوانين الطوارئ التي ظلت تفرضها منذ ولد الملك العضوض.

وهي متخلفة اقتصاديا.. بل ليس هناك في العالم من هو متخلف مثلها في هذا الميدان.. لقد من الله عليها بثروات يسيل لها لعاب العالم، وبمواقع استراتيجية تحسد عليها، ولكنها تأبى إلا أن تسلم جميع ثرواتها ــ مقابل متاع زهيد ــ لمن يكيلونها أصناف العذاب، بل هي تقيم المسابقات بينهم، فمن كان أكثر عداوة لها، كان أكثر تنعما بخيراتها.

وهي متخلفة اجتماعيا، لا تزال تنخر فيها العنصريات التي جاء الإسلام ليقمعها، ومعها الأعراف البائدة التي وجدت من فتاوى الفقهاء من يبررها، بل يجد لها من الأسانيد الواهية ما يحولها أصلا من الأصول، وشريعة من الشرائع.

وهي متخلفة فوق ذلك دينيا.. لا تزال الفرقة تشتت شملها.. ولا يزال التعصب للرجال يشغلها عن نبيها.. ولا يزال الاهتمام بالجزئيات والحرفيات والطقوس يشغلها عن كليات هذا الدين ومقاصده وحقائقه.

والخطر الأكبر من ذلك كله هو جهلها بتخلفها، أو حبها لتخلفها:

فساستها يناوئون كل إبداع، ويفرضون عليه من قوانين الطوارئ، ما يجعل من بلادنا جميعا معتقلا كبيرا، أو سجنا عريضا، أو زنزانة ضخمة لا يتنعم بعذابها إلا المبدعون الصادقون.

والكثير من فقهائها أو المشهور منهم يقف مع ساستها ليبرر تصرفاتهم، فهم ظل الله في أرضه، والله يؤتي ملكه من يشاء، ومن لم يطع سلطان الأرض لم ينل سلطان السماء.

أما عامتهم، فهمهم أن تملأ بطونهم، فهم لا يهتمون بشيء كما يهتمون بأصناف الغذاء، وكتب الطبخ، وموائد الولائم.. فإن انصرف اهتمامهم للدين لم يجدوا إلا الرقاة، ومفسري الأحلام، والمتشبثين بالخرافة والشعوذة.

هذه هي النظرة التي كنت أنظر بها إلى الأمة.. وكنت أتألم بسببها، وأحيانا أصيح مع ذلك الشاعر الذي كان يردد بألم قائلا: (هذه الأمة ماتت والسلام)[1]

---

1) من قصيدة للشاعر أحمد مطر بعنوان (عملاء)، يقول فيها:

الملايين على الجوع تنام، وعلى الخوف تنام، وعلى الصمت تنام، والملايين التي تصرف من جيب النيام، تتهاوى فوقهم سيل بنادق، ومشانق، وقرارات اتهام، كلما نادوا بتقطيع ذراعي كل سارق، وبتوفير الطعام.

عرضنا يهتك فوق الطرقات، وحماة العرض أولاد حرام، نهضوا بعد السبات، يبسطون البسط الحمراء من فيض دمانا، تحت أقدام السلام.

كانت تراودني ذلك الصباح ـ كما كانت تراودني كــل حين ـ هذه الخواطر..

وكيف لا تراودني، وأنا أتغذى عليها في اليوم عشر مرات.. ففي كل نشرة أخبار لا أسمع إلا أخبار قـومي الـذين ينتشـرون من المشرق إلى المغـرب.. وفي كـل نشـرة أخبـار لا يقتـل إلا قومي، ولا يقهر إلا قومي، ولا يموت من الجوع إلا قومي.

ولست الوحيد في تلك الآلام.. بل كـل من أراه كـان يتـألم ألمي.. ومنهم من كان يود أن ينسلخ من جلده، ليتحول فرنسـيا أو إنجليزيا أو ألمانيا.. فإذا لم يطق ذلك حـاول أن يلـوي لسـانه لينطــق بمــا حفظــه من الأفلام الأجنبيــة، ثم يلبس مــا رآه من ألبستها، ويسير في الشوراع كما يسيرون، ويصفر ويصفق كمــا يصفرون، وكما يصفقون.

في ذلــك الصــباح.. وبــذلك العقــل المتــألم، وبتلــك النفس المملوءة خجلا، سمعت طرق الباب.. فـرحت أهـرع إليـه لأفتحـه.. وبمجرد فتحه دخل رجل غريب ممتلئ بالأنوار، قاصدا الـبيت الـذي تعود أن يزورني فيه الغرباء، وكأن له به معرفــة، وكأنــه معي على ميعاد.

دخــل مســرعا، وخلـع حـذاءه، ثم اسـتلقى على قفـاه، وراح يقول:: هيا أسرع بالفطور.. فالجوع يعصر بطـني .. لم أصـل إليـك إلا بمشقة وعسر.

تعجبت من هذا الغريب الـذي لم يسـتأذن.. لكـني رجـوت أن يكون مثل من سبقه من الغرباء الذين ملأوا قلبي بالأشعة الجميلـة من شمسه ﷺ.

أرضنا تصغر عاما بعد عام، وحماة الأرض أبناء السماء، عملاء، لا بهم زلزلة الأرض ولا في وجههم قطرة ماء، كلما ضاقت الأرض، أفادونا بتوسيع الكلام، حول جدوى القرفصاء، وأبادوا بعضنا من أجل تخفيف الزحام.

آه لو يجــدي الكلام.. آه لو يجــدي الكلام.. آه لو يجــدي الكلام.. هــذه الأمة مــاتت والسلام.

لذلك أسرعت إلى المطبخ أبحث له عن الطعام الذي طلبه.. لكني لم أجـد إلا حبـات تمـر، وكـوب لبن، وكسـرة خـبز.. فـرحت أقدمها له، وجبيني يتقطر حياء، وأنا أقـول لـه: اعـذرني.. فهـذا مـا تعودنا على أكله، فأرجو أن تتحمل حياتنـا البسـيطة، فنحن لا نـزال نعيش الحياة البدائية.

اعتدل في جلسته، ثم ابتسم، وقال: أليست هـذه هي الحيـاة التي كان يعيشها رسول الله ﷺ؟.. ألم يكن رسـول اللـه ﷺ يأكـل التمر، ويشرب اللبن، ويأكل مثل هذه الكسر التي تأكلونها؟

قلت: بلى.. ولكن الحياة تطورت الآن، وللأسف، فقـد تخلـف قومي عنها.. تخلفوا بأميال كثيرة، وسنوات طويلة، وقد اسـتبد بهم اليأس، فتوقفوا عن السير، واكتفوا بالتفرج على السائرين.

قال: ومن هم السائرون الذين وقف قومك يتفرجون عليهم؟

قلت: أولئـك الـذين يسـكنون وراء البحـار.. أليسـوا هم رواد الحضارة وأساتذتها؟

أليسـوا هم الـذي اخـترعوا جميـع قيم الحيـاة الجميلـة، ومـا تحتاجه الحياة الجميلة؟

فهم الــذين اخــترعوا التلفزيــون والحواســيب والشــبكات العنكبوتية.. وهم الذين اخترعوا الطائرات والسـيارات والقطـارات وجميع وسائل النقل.. وهم الذين صمموا الأنبية الضخمة وناطحات السحاب.. وهم الذين اكتشـفوا أعمـاق البحـار، وقمم الجبـال، بـل راحوا إلى الأفلاك من حولهم يزورونها ويقيمون العلاقات معها.

قال: تقصد قومي؟

قلت: أأنت منهم.. أجئتني من وراء البحار؟

قال: نعم.. وأنا أعرفهم جيدا.. وأعرف الحياة التي يعيشونها..

قلت: إن حياتهم المميزة تجعلنا نشعر بالعقد الكثيرة.

قال: الحياة ليست ذلك فقط.. الحياة أعمق من ذلك بكثــير.. ولو تأملت حياة كثير من الحيوانات لوجـدت لـديها من الاختراعـات

ما يوازي بالنسبة لها جميع ما صـنعه من ذكـرت، وراحـوا يفخـرون على العالم بصنعه.

قلت: وحق لهم أن يفخروا.

قال: بم يفخر المساكين؟

قلت: بما نراه من اختراعات واكتشافات..

تنفس الصعداء، ثم قال: نعم هم الذين اخـترعوا التلفزيـون.. لكنهم لم يجـدوا مـا يملأونـه بـه، فراحـوا ــ بعقـولهم المملـوءة بالشهوات ـ يجعلونه ماخورا من مواخير الرذيلة، وحانة من حانـات الفساد.

وهم الذين أنشأوا الشبكات العنكبوتية التي تحول العالم قرية صغيرة تربط بين أطراف الأرض.. ولكن المساكين لم يجدوا إلا أن يعمقوا بهذه الشبكات ما سبق للتلفزيون والفيديو البدء به.

وهم الذين اخترعوا جميع وسائل النقل.. ولكنهم ملأوا الأرض بسببها تلوثا، وملأوا الطرقات جثثا.

وهم الذين اخـترعوا الأشـياء الكثـيرة.. ولكنهم لم يأخـذوا من الأشياء إلا ذلك الجانب المظلم منها..

شرد ذهنه قليلا، كأنه ينظر إلى شيء مجهول لا أراه، ثم قال: ولم لا تذكر ما فعله قومي بالعباد والبلاد من أنواع الفساد؟

هل يستطيع أحد في الدنيا أن يعد من قتلـه قـومي في قـرن واحد؟

وهل يستطيع أحـد في الـدنيا أن يعـرف مقـدار الـدمار الـذي تختزنـه أنـواع الأسـلحة المخبـأة في سـراديب الأرض، وأعمـاق المحيطات؟

وهل يستطيع أحد في الدنيا أن يسأل ذرات الجـو، وقطـرات المياه، وحبيبات التربة، وأنواع الحيوانات عن الجرائم الـتي ارتكبهـا قومي في حقها، والتي لم يسمع بها أحد، ولم يرها أحد؟

نعم.. ربما يكون قومي هم الذي أنشأوا هذه الأشـياء الكثـيرة التي تراها جميلة.. ولكنهم هم.. هم أنفسهم.. الذين أنشأوا بسـببها من الدمار أضعاف ما يوازي منافعها.

قلت: أنت تريد أن تجرد قومك من كل مكرمة.

قاطعني بحزن قائلا: لأنه ليس لديهم أي مكرمـة.. لقـد بحثت في بطـون التـواريخ، فلم أجـد في تـواريخهم غـير سـفك الـدماء، واللعب بالأعراض، والتجارة بالإنسان.

قلت: فقومي مثل قومك إذن.. وأنت تختزن من عقـد النقص ما أختزنه!؟

قال: وضعكم مختلف تمامـا.. لقـد أتيح لكم أن تعيشـوا تحت ظلال شجرة النبوة، وقد أمـدتكم تلـك الشـجرة المباركـة بثمارهـا اليانعة، فلذلك لم تجوعوا جوعنا، ولم تظمأوا ظمأنا، ولم تحــرقكم أشــعة الشــمس الــتي أحرقتنــا، ولم تلهب شــهواتكم شــياطين الشهوات التي ابتلعتنا.

قلت: ولكننا متخلفون.

قال: ولولا تلك الشجرة لكنتم معدومون..

ثم استأنف قائلا: نعم أنتم متخلفون.. ولكن ليس عن قـومي، وإنما عن نبيكم، وعن الصالحين الذين تربوا على يديه، وشربوا من منبعه..

أمــا قــومي، فلا حــرج عليكم أن تتخلفــوا عنهم، لأنكم إن لحقتموهم لم تجدوا إلا السراب الـذي يحسـبه الظمـآن مـاء، فـإذا جاءه لم يجده شيئا.

هكذا قومي.. يلهثون وراء السـراب.. ويظلـون يلهثـون، ثم لا يجدون المـاء العـذب الـذي يسـقيهم، ويبـل السـغب الـذي يحـرق أجــوافهم.. لأن المــاء لــديكم أنتم.. أنتم وحــدكم في هــذه الأرض الذين تملكون الماء العذب الذي يروي كل عطش.

قلت: ولكننا عطشى مثلكم.. ونحن الذين ننحني أمام قومــك

ليسقونا.

قال: تلك غفلة دبت إليكم.. وهي من الجرائم التي ارتكبها قومي نحوكم.

قلت: وما علاقة قومك بذلك؟.. أراك تنسب إليهم كل فساد.

قال: منذ اليوم الأول الذي نبتت فيه شجرة النبوة، وقومي يحاولون استئصالها، فلما لم يطيقوا حاولوا شنق الثمار التي تنتجها.

قلت: لست أفهم سر شجرة النبوة التي تتحدث عنها، وعلاقة قومي وقومك بها.

قال: كنت مثلك أجهل هذه الشجرة.. ولا أعرف قيمتها إلى أن هداني الله إليها، فعرفتها، وعرفت المعاول التي توجهت لتقطعها، والنيران التي توجهت لتحرقها.

قلت: فهل ستحدثني حديثها؟

قال: أجل.. فلم أعاني المشقات في رحلتي إليك إلا لأحدثك حديثها.. فهات قلمك ودواتك وقراطيسك لأحكيها لك.

***

بعد أن أكمل الغريب فطوره، وحمد الله، وصلى على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك، ممتلئا خشوعا، رمى ببصره إلى الأفق البعيد، ثم قال:

في ذلك اليوم من أيام الشتاء الباردة سرت إلى مدينة تمتلئ بالحضارة والثقافة والعلوم، لأذهب إلى جامعة من جامعاتها التي اشتهرت بتخريج المستشرقين.

قلت: لا شك أنك تقصد باريس، وتقصد جامعة السربون.

قال: أجل.. لقد كنت حينها ممتلئا إعجابا بما أنشأه قومي من حضارة، كانت روحي تسجد أمام كل عمارة، وتتمسح بكل جسر، وتصافح كل تمثال، وتقبل كل لوحة.

لقد كنت أنظر إلى الأشياء الكثيرة التي أمـامي، فلا أرى فيهـا غير الجمال.. الجمال الذي يصيح بكل ألوان العذوبة.

لست أدري كيف خطـر على بـالي أن أذهب إلى بـرج إيفـل، وفي الحديقـة الـتي تحيـط بـه جلسـت على كرسـي أتأمـل ذلـك الجمال الذي ينطق به هذا البرج.

خطر على بالي حينها صاحبك معلم السلام.. وتسـاءلت بيـني وبين نفسي: هل رأى هذا البرج؟.. وهـل رأى قبلـه ثمـار الحضـارة التي تنعمنا ـ معشر أهل الغرب ـ بها؟

ما استتم هذا الخاطر في ذهني حتى التفت إلى جـانبي، فـإذا به يجلس بجانبي يحدق إليه كما أحدق، ولكني لم أر في وجهه من الانبهار ما رأيت في وجهي.

صافحته بحرارة قائلا: ها نحن نلتقي أخيرا في باريس.. كيـف خطر على بالك أن تأتي إلى هذا الموضع؟

قال: لقد أردت أن أرى بعض ثمار الشجرة التي أسست هذه الحضارة؟

قلت: إنها ثمار يانعة ممتلئة طيبة.. أم أنك تخالفني في ذلك؟

قال: لا أخالفك.. ولا أوافقك.. أحيانـا قـد تكـون الثمـار يانعـة، طيبة المذاق، حلوة الرائحة، جميلة المنظـر، ولكنهـا تخـتزن السـم الزعاف.

قلت: ما الذي تقوله؟

قال: ألست ترى القتلة المجرمين إذا دسـوا سـما دسـوه في أطيب الأطعمة وألذها؟

قلت: أجل.. حتى تغري الآكلين بأكلها.

قال: فإذا أكلوها سقتهم الموت؟

قلت: ذلك عندما يكون الطعام سما.

قال: كل طعام قد يكون سما، وقد يختزن سما.

قلت: لا يـزال الشـك الـذي اعـتراك في الكتـاب المقـدس يعتريك في الطعام أيضا.

قال: لقد ذكرت لك أني لا أتيقن حتى أشك، ولا أطمئن حـتى أضطرب.

قلت: لقد سمعت بأسوار الكلمات المقدسـة الـتي تضـع في القلب اليقين بمصدرها الإلهي.. فهـل هنـاك أسـوار للثمـار الطيبـة تفرق بينها وبين الثمار الخبيثة.

قال: أجـل.. وسأضـرب لـك مثـالا يوضـح لـك هـذه الأسـوار، ويقربها لعقلك:

أرأيت لو أن بك مرضا يمنـع جسـدك من ثمـار معينـة، فـراح بعض الناس يغريك بكل صنوف الإغراء لتأكلهـا، ويتفنن في تزيينهـا لك بكل ما أتيح له من قدرات التزيين.. هل ترى هذا ناصحا لك؟

قلت: هــذا لا يريــد إلا قتلي.. ولكنــه لم يــرد أن يلطخ يــداه بقتلي، فراح يقتلني بيدي، وببطني، ويستعمل مـا ملئت بـه نفسـي من شهوات ليسقيها السم الزعاف.. إن هذا مجرم لا ناصح.

قال: ولكن الناس عندما يرونه لا يرونه إلا ناصـحا متملقـا في نصحه.

قلت: هم لا يرون ما أرى.. ولا يعيشون ما أعيش.

قال: فهذا هو الحصن الأول للثمار الطيبة.

قلت: لم أفهم..

قـال: الثمـار الطيبـة ثمـار تناسـب الإنسـان، وكأنهـا صـنعت خصيصـا من أجـل الإنسـان، وأول مـا تبحث عنـه هـذه الثمـار هـو مصلحة الإنسان.

قلت: فما الحصن الثاني؟

قال: أرأيت لو جلست في قاعة امتحان يرتبط بها مصــيرك.. مصيرك العلمي، ومصيرك الوظيفي.. فجاء بعض النـاس، وشـغلك بثمار كثيرة بهيجة المنظر حلوة المذاق، تصيح بكل لسان، وتدعوك بكل أسـلوب، فانشـغلت بهـا عن امتحانـك.. أتـرى من قـدمها لـك ناصحا؟

قلت: كلا.. فهذا لا يختلف عن ذاك.. كلاهما لا يريد إلا هلاكي.

قال: ولكنك لن تموت بأكل هذه الثمرة الأخيرة.

قلت: ولكني سأحيا حياة أشبه بالموت.

قال: فهذا هو الحصن الثاني.

قلت: لم أفهم ما ترمي إليه.

قال: كل ثمرة تبعدك عن الوظائف التي أنيطت بها حياتك، أو الرسائل التي كلفت بتبليغها ثمرة سامة، وإن بدت لـك حلـوة، هي كالشيطان الذي يتزين بكل صنوف الزينة ليجذبك إليه.

قلت: فهل هناك حصون أخرى؟

قال: لا.. هناك حصنان فقـط.. بهمـا تعـرف طيبـة الثمـار من خبثها.

قلت: فهل طبقت هذا على ما أنتجته حضارتنا؟

قال: أجل.. ولكني للأسف.. لم أجد بعد جهد مضـن إلا الثمـار الخبيثة، وقلما أظفر بثمرة طيبة.

قلت: كيف ذلك؟

قـــال: انظـــر إلى كـــل من حولـــك بعين الحقـــائق لا بعين الشهوات، وسترى ما لم تكن ترى، وتسمع ما لم تكن تسمع.

التفت لأرى ما لم أكن أرى، وأسمع ما لم أكن أسمع.. فإذا به يبتعد عني من غير أن أشعر.

أسرعت إليه، وقلت: إلى أين تذهب، وتدعني!؟

قال: أنا أبحث عن الثمار الطيبة لأكتشف من خلالها الشـجرة الطيبة.

قلت: فإذا عرفت الشجرة الطيبة، فما يغنيك معرفتك لها؟

قال: أبحث عمن زرعها.

قلت: فإذا عرفته؟

قال: إذا عرفته جعلته إمامي الذي به أأتم، وقدوتي الـتي بهـا أقتدي، ولم أتناول ثمرا إلا من يديه.

***

بعد أن تركني وسار، حاولت أن أقترب أكثر من تلك الجمـوع لأرى ما لم أكن أرى، وأسمع ما لم أكن أسـمع، فـرأيت، وسـمعت ما ملأ نفسي بالغثاء..

لقد تخيلت نفسي في حضـيرة حيوانـات لا هم لهـا إلا العلـف الذي تعلفه، والحياة البهيمية التي لا تعيش إلا من أجلها..

***

عند باب جامعة السربون، رأيت رجلا لاح لي من مظهره أنـه رجل دين، بل يظهر من مظهره أن له مكانة في الكنيسـة، ولكـني تعجبت منه إذ رأيته يرمي صليبه الذي كان يطـوق رقبتـه، ويـرتمي على الأرض ساجدا، يبلل الأرض بدموعه.

اقتربت منه لأسمع ما يقول، واقترب جمـع من النـاس نحـوه كما اقتربت.

كانت الدموع تحول دون فهم الجمع لما يقول، فلـذا تصـوروه مجنونا، فانصرفوا عنه، أما أنا، فقد وعيت كل كلمة نطق بها.

لقد كان يردد ما قاله المسـيح في إنجيـل مـتى (7:15-17): (احترزوا من الأنبياء الكذبة يأتونكم بثياب الحملان الوديعـة، ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة.. من ثمارهم تعرفونهم، هـل تجتنـون من الشوك عنبا، أو من الحسـك تينـا.. هكـذا كـل شـجرة جيـدة تصـنع

أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية)

عندما قام من سجوده، اقتربت منه، وحييته، وقلت: لقد رأيتك تفعل عجبا حيرني.. أنت تسجد سجود المسلمين، ثم تقرأ في سجودك إنجيلنا نحن المسيحيين، فهل أنت مسلم أم مسيحي؟

قال: أنا مسلم مسيحي.. أو مسيحي مسلم..

قلت: لا يمكن أن تخلط بين الأديان، فالمسلمون لا يقبلون مسيحيا يظل على مسيحيته، والمسيحيون لا يقبلون مسلما يظل على إسلامه.

قال: لقد كنت مسيحيا خالصا، بل مسيحيا متعصبا.. ولكني الآن تحولت إلى المسيحية الحقيقية التي جاء المسيح يبشر بها.

قلت: فما هي هذه المسيحية؟.. وكيف وصلت إليها؟

قال: لقد ظللت سنة في هذه الجامعة.. أستمع من علمائها: الصديق منهم والعدو.. ورحت أقارن كل ما أسمعه عن الإسلام بما في سائر الأديان والمذاهب والأفكار.. وقد كانت خلاصتي تفكيري ما رأيته الآن..

ثم التفت إلي، وقال: لقد كنت سائرا الآن لألقي موعظة في حفل من الناس دعوني لأذكر لهم ثمرات المسيحية في الدين والحياة.. وكنت أحمل الكتاب المقدس.. وأقلب طرفي في ذلك السور المنيع الذي وصفه المسيح للنبوة الصادقة.

قلت: تقصد سور الثمرات.

قال: أجل.. من أراد أن يعرف النبي الصادق من الكاذب، فلينظر إلى تعاليمه، وإلى ثمار تعاليمه؟

قلت: فهل وجدت في ثمار محمد ما دلك على صدق نبوته؟

قال: أجل..

قلت: فما وجدت؟

قال: لا يمكنني أن أعبر لك عن كل ما وجدت.. لقد طبقت قول المسيح: (لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا ردية، ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة، كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار، فإذن من ثمارهم تعرفونهم) (متى: 7:18-20) على جميع ما أعرفه من المذاهب والأديان، فلم أجد شجرة طيبة إلا شجرة محمد..

فما عرفت ذلك حتى سجدت.. ورحت أترنم بالنص المقدس الذي سمعته من المسيح.. والذي جعله الله سبب هدايتي.

قال ذلك، ثم استمر سائرا من غير أن يسألني عني، قلت له: إلى أين؟

قال: لقد تأخرت.. والجماعة تنتظرني.

قلت: لكنك قد غيرت رأيك.

قال: بل صححت رأيي.. إن أعظم ثمرة للمسيح هي دلالتنا على محمد.. ولذلك.. فإن كل ثمرات محمد ثمرات للمسيح.

هؤلاء كلهم أنبياء.. ولا أحد منهم ينازع الآخر، أو يصارعه.. الصراع لا تجده إلا عندنا..

قال ذلك ثم انصرف.. والبسمة تملأ محياه.

***

بعد هذه المواقف التي كانت توجهني وجهة واحدة.. وكأنها تحثني على الاستعداد العقلي والنفسي لتلقي هذا النوع من الأشعة.. ذهبت إلى جامعة السربون، وهناك طلبت مقابلة مدير الجامعة، الذي رحب بي غاية الترحيب.. ثم دار بيننا هذا الحوار الذي حاول من خلاله أن يبين لي الوظيفة التي تنتظرني في هذه الجامعة.

قال: لقد تعودت أن أستقبل كل من ترسله الكنيسة بنفسي..

قلت: لم تكلف نفسك هذا مع كثرة أشغالك؟

قال: بالإضافة إلى احترامي العظيم للكنيسة ورجال الكنيسة، هناك سببان يدعواني لهذا الاهتمام:

أما أولهما، فلأن ما أقوله لرجال الدين الذين يشرفون مكتبي هذا يكاد يكون سرا لا ينبغي أن يسمع به أحد.

وأمـــا الثـــاني، فلأني لا أجـــد فيمن أراهم معي من يحملـــون العزيمة التي أحملها، والتي تجعلهم يبلغون الرسالة كما ينبغي.

قلت: فكلي آذان صاغية، فحدثني عن الرسالة الـتي تريـد أن تبلغني إياها.

قال: قبل أن أحدثك عن تلك الرسالة.. والتي جعلتنـا نطلبـك، أو نطلب بالأحرى من له من القـدرات العلميـة واللغويـة مـا لـك.. أريد أن أحدثك عن علاقة هذه الجامعة بالـدين.. أو بـالأحرى علاقـة التبشير بالاستشراق.

هذه الجامعة ـ كما تعلم ـ جامعة تهتم بالدراسات الشرقية، أو بالخصوص الدراسات المهتمة بالإسـلام.. وهي تحمـل في الظـاهر لواء العلميـة والموضـوعية، ولكنهـا في نفس الـوقت تحمـل نفس اللواء الذي يحمله المبشرون..

التفت إلي مبتســما، وقــال: أنتم تبشــرون بالمســيح، ونحن نقـرب المسـلمين لكم لتبشـروهم بالمسـيح.. فنحن نقـوم بعمـل متكامل.

قام من مجلسه، وقال: ربما لم تفهمني جيدا، وربما فهمتــني فهما خاطئا، ولذلك سأوضح لك أكثر.

في البداية.. لم يكن هناك استشراق..

ابتســـمت، وقلت: في البدايـــة لم يكن أي شـــيء.. ليس الاستشراق وحده.

نظر إلي، وقال: لم تفهمني.. لم أقصد ما فهمتـه.. حـاول أن تركز معي.

ركزت معه كما طلب مني.

كـان يحـاول أن يقـول أشـياء كثـيرة، وكنت أشـعر أنـه كـان يستحي من ذكرها، ولكنه كان مضطرا لقولهـا، فلـذلك كـان يبـدوا مضـطربا ينحـرف ذات اليمين وذات الشـمال ليعـبر عمـا يريـد أن يوصله لي، وهو مع كـل ذلـك ينظـر إلى وجهي بدقـة ليحـدد مـدى استيعابي لما يقوله.

قال: أقصد أن الاستشراق لم يبدأ من هذه الجامعـة.. ولا من أي جامعة من جامعات الدنيا.

قلت: فمن أين بدأ؟

قال: من الكنيسة.. لقد كانت البدايـة الرسـمية للاستشـراق من الكنيسة.

نظرت إليه متعجبا، فقال: لا تتعجب.. لقد بدأ الاستشراق من مجمع فينا الكنسي سنة 1312 من ميلاد المسيح، فقد أوصى هـذا المجمع بإنشاء عدة كراسي للغات، ومنها اللغة العربيـة، ولا سـيما التشريع الحادي عشر الذي قضى فيـه البابـا (إكليمنس الخـامس) بتأسيس كراسي لتدريس العبريـة واليونانيـة والعربيـة والسـريانية والآرامية في الجامعات الرئيسية[1].

وكانت هذه التوصية قائمة على دعوة (ريموند لول)[2] لإنشاء كراسي للغة العربية في أماكن مختلفة، لقد كان هدفه واضـحا من تلك الدعوة..

لقد كان الهدف تبشيريا محضا، ولم يكن له علاقة بالدراسات العلمية المجردة.

نظر إلي ليرى تأثير ما يقولـه على وجهي، فلمـا رآني منصـتا

---

1) إدوارد سعيد، الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء، ترجمة: كمال أبو ديب، قم: دار الكتاب الإسلامي، 1984 م - ص 328.

2) ريمونـد لـول(1235 -ـ 1316 م)، إسـباني، كـان دومينيكيـا ثم تحـول إلى الفرنسيسكانية، وهو من جزيزة ميورقة، تبنى فكـرة السـيطرة على الشـرق بالتبشـير لا بالحروب، ووضع خطة لذلك، وسعى إلى إنشاء مدرسة ميرامار للمنصـرين، ثم تواصـلت محاولاته لإنشاء مدارس تنصيرية أخرى، ومارس التبشير في شمال إفريقية، وبها تـوفي، وكان وراء قرار مجمع فينا الكنسي المشهور سنة 1311 ـ 1312 م، الذي قضى بإنشاء كراسي للغات، ومنها اللغة العربية، من آثاره: رواية تنصيرية، وكتاب المنطق في الحـوار مع الكفرة (انظر: عبد الجليل شلبي: الإرساليات التبشيرية: ص 151 - 156)

مستغرقا في الإنصات أتاح له ذلك حرية الكلام، فقال: منذ ذلك الحين نال الاستشراق رعاية الكنيسة ومباركتها.. وخاصة عندما فشلت الحروب العسكرية من خلال انحسار المد الصليبي بعد جهود قرنين من الزمان.

ولهذا اتجهت الكنيسة الغربية إلى التبشير من خلال الفكر والثقافة والعلم.. فكان التوجه إلى الحرب الفكرية، لتحقق ما فشل فيه سلاح الغزو الحربي.

لقد كان الهدف من هذه الدعوة هو أن تؤتي محاولات التبشير ثمارها بنجاح من خلال تعلم لغات المسلمين، وقد عبر عن هذه الثمار في دعوة (لول) بارتداد العرب إلى المسيحية من الإسلام، كما كان (غريغوري العاشر) يأمل في ارتداد المغول إلى المسيحية، وقبله كان (الإخوة الفرنسيسكان) قد توغلوا في أعماق آسيا يدفعهم حماسهم التبشيري، ومع أن آمالهم لم تتحقق في وقتها إلا أن الروح التبشيرية قد تنامت منذئذ.

وهذا يعني بتعبير أوضح (إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي)[1]

سكت قليلا، ثم استأنف قائلا: لقد انتظم الاستشراق في الفاتيكان، وانتشر واستمر على أيدي البابوات والأساقفة والرهبان، فكان رجال الدين، ومجمعهم الفاتيكان يومئذ، يؤلفون الطبقة المتعلمة في أوربا، ولا سبيل إلى إرساء نهضتها إلا على أساس من التراث الإنساني الذي تمثلته الثقافة العربية، فتعلموا العربية، ثم اليونانية، ثم اللغات الشرقية للنفوذ منها إليه.

نظر إلي وتمعن في تأثير كلماته علي، ثم قال: مما يدلك على الصلة العظيمة بين الاستشراق والتبشير أنه كان هناك فئة مهمة من المستشرقين لم تتورع عن قبول اللقب الديني، أو الرتبة الدينية.. فمنهم (الأب).. ومنهم (الأسقف).. ومنهم (البطريرك).. ومنهم (المطران)

سأضرب لك بعض النماذج عن هؤلاء:

---

1) محمود حمدي زقزوق، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري،ط 2، القاهرة: دار المنار، 1409 هـ - 1989 م - ص 35.

لاشك أنك تعرف الأب آسين بلاثيوس (1871 - 1944 م) الإسباني، ذلك الرجل الذي اشتهر بدراسة حركة التفاعل الثقافي بين الإسلام والمسيحية، والذي كتب عن (مذهب ابن رشد، ولاهوت توما الإكويني)، وعني بـ (محيي الدين بن عربي)، وأجرى (مقارنة بين ابن عباد الرندي ويوحنا الصليبي)، وصنف في (الغزالي والمسيحية)، وكتب في (الآثار الإنجيلية في الأدب الديني الإسلامي)[1]

لقد حاول كل جهده أن يلبس الإسلام ثوب المسيحية، وقد نجح في ذلك، ولا تزال آثاره تتداول.. أتدري من كان؟.. لقد كان أبا مسيحيا.. كان رجل دين قبل أن يكون رجل استشراق.

ومثله الأب أبوجي(1819 - 1895 م) الفرنسي، لقد كان من الرهبان اليسوعيين[2]، وقد صنف كتبا دينية ومدرسية، لقد جمع هذا الرجل الفاضل بين الوظيفتين: وظيفته الدينية ووظيفته العلمية، بل استخدم الوظيفة العلمية في خدمة وظيفته الدينية.

ومثلهما نعمة الله أبو كرم (1851 - 1931 م)، لقد كان من مستشرقي المدرسة المارونية بلبنان، نصب مطرانا، وكان قد تخرج من جامعة القديس يوسف ببيروت، وعاون في تحرير مجلة البشير، ثم عين رئيسا للمدرسة المارونية في رومة، ومستشارا في المجمع الشرقي، ومن آثاره: قسطاس الأحكام في القانون مع مقارنته بما يقابله في الشرع الإسلامي.

ومثلهم الأب يوسف الأشقر (ق 18 م)، لقد كان من مستشرقي المدرسة المارونية بلبنان، ترجم إلى الفرنسية من العربية والسريانية كتبا كثيرة أشهرها سلسلة تواريخ بطاركة الموارنة الأنطاكيين، وقد اعتمد عليه (لي كيين) في كتابه الشرق المسيحي.

---

1) عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين: 121.

2) اليسوعيون أو الجزويت من الجماعات التبشيرية النشطة، ومؤسسها هو القديس إجناتياس لويولا (1491 - 1559 م)، وكان جنديا إسبانيا، وهي لا تتبع مذهبا معينا، لكنها تعد من المبشرين، انظر: طلال عتريسي: البعثات اليسوعية مهمة إعداد النخبة السياسية في لبنان، دراسة تاريخية وثائقية، بيروت: الوكالة العالمية للتوزيع، 1987 م، ص 28 - 34.

كان هناك غيرهم ممن لا يحمل هذه الألقاب.. ولكنه مع ذلك لم يتتلمذ إلا في المدارس اللاهوتية المسيحية أو اليهودية:

منهم أرنست رينان (1823 ـ 1892)، الذي تلقى تعليمه في المدارس اللاهوتية، وتعلم العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وزار المشرق وعاش بلبنان فترة من الزمن، واهتم بالعقيدة الإسلامية.

لاشك أنك تعرف موقفه المشهور من العقل السامي، وأنه لا يصلح لدراسة العلم(1).

ومنهم جورج سيل (1697-1736) الذي ولد في لندن، والتحق بالتعليم اللاهوتي.. لقد كان من أبرز أعماله ترجمته لمعاني القرآن التي قدم لها بمقدمة احتوت على كثير من الشبهات الجادة(2).

ومنهم وليام ميور (1819 -1905).. لقد كان مستشرقا ومبشّرا وموظفا إداريا.. وهو إنجليزي، تعلم العربية في أثناء عمله في الهند واهتم بالتاريخ الإسلامي شارك في أعمال جمعية تنصيرية في الهند.

وقد ألف كتاباً يناصر الجهود التنصيرية بعنوان (شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية).. ومن أهم مؤلفاته كتابه في سيرة محمد في أربعة مجلدات، وكتابه حول الخلافة، كما ألف كتاباً حول القرآن بعنوان (القرآن تأليفه وتعاليمه)(3)

وغيرهم كثير..

---

1) وقد ردّ عليه كل من جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في كتابه (الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية)

2) ومع ذلك يقول عبد الرحمن بدوي عن ترجمته:(ترجمة سيل واضحة ومحكمة معاً، ولهذا راجت رواجاً عظيماً طوال القرن الثامن عشر إذ عنها ترجم القرآن إلى الألمانية عام 1746)، ويقول في موضع آخر:(وكان سيل منصفاً للإسلام برئياً رغم تدينه المسيحي من تعصب المبشرين المسيحيين وأحكامهم السابقة الزائفة) (عبد الرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين.(بيروت:دار العلم للملايين) 1984.ص 252).

3) وقد تولى ميور منصب مدير جامعة أدنبره في الفترة من عام 1885حتى عام 1903. انظر: عبد الرحمن بدوي. موسوعة المستشرقين.(بيروت:دار العلم للملايين)

قلت: فأنت ترى إذن بأن التبشير هو الأصل الحقيقي للاستشراق؟

قال: أجل.. وليس العكس كما يذهب أغلب الباحثين.

قلت: ولكن الاستشراق ليس خاصا بالمسيحيين، فهناك مستشرقون يهود وعلمانيون.. بل وملحدون[1].

قال: بورك كل أولئك المستشرقين.. ولا يهمنا من يكونون ما دمنا نتفق على نفس الهدف..

قلت: أتبارك الملحدين واللادينيين؟

قال: لم أباركهم أنا.. أنتم الذين باركتموهم.. الكنيسة هي التي تبارك كل من يقف في وجه الإسلام.. ولا يهمها من يكون، ولا ما يرتدي.

قلت: سمعت كل ما ذكرته، وفهمته، ولكني لم أع الرسالة التي تريد أن تبلغني إياها من خلال هذا الكلام.

قال: اصبر علي.. فليس من عادتي أن أملي على أحد ما يفعل.. عادتي مع جميع من ينتمي لهذه الجامعة أن أقنعه، وأبعث فيه الهمة، ثم أترك له الأسلوب الذي يراه مناسبا لتحقيق القناعة التي أوصلته إليها.

ليس ذلك مع من ينتمي لهذه الجامعة فقط.. أنا أمارس هذا الأسلوب مع أولادي.. أكتفي بحوارهم وإقناعهم، ثم أترك لهم بعد ذلك اختيار القرار المناسب.

قلت: لقد ذكرت لي علاقة التبشير بالاستشراق، وحاولت أن تقنعني بأن أصل الاستشراق هو التبشير.

---

1) من المعلوم أنه ليس كل المستشرقين ينتمون إلى المسيحية، ففيهم المستشرقون اليهود الذين خدموا اليهودية من خلال دراساتهم الاستشراقية، كما أن فيهم الملحدين الذين خدموا الإلحاد من خلال اهتمامهم بالمنطقة العربية والإسلامية، ومحاولاتهم نشر الإلحاد في هذه البقاع بديلا عن الإسلام، ومنهم العلمانيون، فهناك انتساب واضح إلى العلمانية عند فئة من المستشرقين، كما أن هناك انتسابا صريحا للصهيونية عند فئة أخرى من المستشرقين. انظر: الاستشراق والتنصير، لعلي بن إبراهيم الحمد النملة.

قال: بورك فيك.. لقد وعيت كل ما ذكرته لك.

قلت: ولكني لم أع الرسالة التي يحملها هذا الكلام.

قال: لقد كان ذلك في البدء.. في البدء ولـد الاستشـراق في محضنة الكنيسة، وظل وفيا لها عهودا طويلـة.. ولكنـه أحيانـا كـان ينحرف عن مساره، ويظهر بعض المستشرقين المتمـردين الـذين يتصــورون ـــ حســب أوهــامهم ـــ أنهم يغلبــون المنهج العلمي الموضوعي على الرؤية الذاتية الدينية.

قلت: أعلم ذلك.. وأعلم كذلك أن المسلمين يتبنون هذا النوع من المستشرقين، ويفرحون بهم، وينقلون شهاداتهم في كتبهم.

قـال: وهـذا هـو مصـدر الخطـورة.. إن وجـود هـذا النـوع من المستشرقين أحدث شرخا خطيرا في المقاصد الـتي يـرمي إليهـا الاستشراق.. لقد تاه أولئك المستشرقون عن الهدف..

لقد صاروا كذلك المحارب الذي لم يكتف بأن يـرمي سـلاحه، ويولي دبره، وإنما ذهب، وأمد العدو بسلاح كثير، وقنابل كثيرة.

قال ذلـك، ثم صـاح بنـوع من الهسـتيرية: إنهـا خيانـة.. خيانـة عظمى.. لو كنت حاكما عسـكريا لحكمت على أولئـك بالشـنق.. لا يجدي معهم غير الشنق.

التفت إلى نفسه، ورأى خطأه في إظهار مـا تكنـه نفسـه من ألوان الحقد، ثم ابتسم، وقال: اعذرني.. كنت أمزح فقـط.. لسـت أدري لم طغت لغة الحرب هذه الأيام.. صـرنا لا نتكلم إلا بالمـدافع والأسلحة والقنابل.. لعل ذلك من تأثير وسائل الإعلام.

ثم قــال: على العمــوم، فقــد كــان هــذا النــوع الخطــير من المستشرقين أفـرادا محـدودين، ومـع ذلـك كـان لهم ذلـك التـأثير الخطير.. ولكنهم ـ الآن ـ أمـة من النـاس.. هم الآن يتكـاثرون كمـا تتكاثر الطفيليات.. لهذا صار خطرهم أعظم.. ولهـذا صـرنا نفضـل المستغربين على المستشرقين.

المستغربون جاءونا أصلا لينسلخوا من هويتهم.. فلذلك نراهم يتزلفون كما لا يتزلف أحد.. أما أولئك المستشرقون الأغبياء.. فهم

لا يزالون يلقون أسلحتهم ليمدوا بها عدوهم.

قلت: وهل يوجد أمثال هذا النوع من المستشرقين في هذه الجامعة؟

قاطعني، وقال: أجل.. وهم يتكاثرون كما يتكاثر النمل.. وقد عرفنا السر في ذلك التكاثر.

قلت: وما هو؟

قال: العلمانية.

ابتسمت، وقلت: وما علاقة العلمانية بهذا؟.. ثم ألسنا في دولة علمانية؟

قال: العلمانية هي فصل الدين عن الحياة وعن الدولة وعن الأخلاق..

قلت: أعلم ذلك.

قال: وهؤلاء فصلوا الدين.. أو فصلوا اهتمامهم الديني وانتماءهم الديني عن دراساتهم لتراث المسلمين وفكر المسلمين.

قلت: وما يضيرنا من ذلك.. فهم إن لم يدخلوا بعدهم المسيحي أدخلوا بعدهم الإلحادي، أو بعدهم الوجودي، أو أبعاد أخرى.

قال: ليت الأمر سار على هذا النحو.. هؤلاء أدخلوا البعد الموضوعي.. لقد صاروا يتعاملون مع التراث الإسلامي والفكر الإسلامي بموضوعية وحياد..

قلت: هذا بعد جيد..

قال: وخطير جدا..

قلت: ما خطره؟.. ما داموا يلبسون ثياب العلم، ويتبنون التحقيق العلمي.

قال: لم تفهم إذن كل ما قلت لك.

قلت: بـــل فهمت.. ولكـــني لم أفهم خوفـــك من البعـــد الموضوعي.

سار في أرجاء القاعة، وكأنه يهم أن يقـول شـيئا يخـاف على نفسه منه، أو يخاف علي منه.

لكنه تحدى ذلك، وقال بلسان متلعثم: البحث الموضوعي في تراث المسلمين خطير.. خطير جدا..

ثم قال، وكأنه يستعيد ذكريات مر بها: سلني أنا.. لقـد جـربت في شبابي هذا النوع من البحث.. ولكني كدت أحترق.. لقـد كـانت شمس محمد شمسا محرقة كادت تصليني بنارها..

لست أدري مدى صدق قومه في إطلاق لفظ الساحر عليـه.. ولكنه ــ معي ــ لا يوجـد لقب أصـدق منـه.. لقـد سـحرني كمـا لم يسحرني أحد من الناس.. ظللت دهرا من عمري منشغلا بـالتفكير فيه، وفي الشجرة التي تركها لترمي كل حين من الثمار مـا يجعـل وجوده حيا مستمرا.

لست أدري كيـف قلت لـه مقاطعـا: فلمـاذا تريـد قطـع هـذه الشجرة؟

قال ــ وكأنـه لا يـدري مـا يقـول ــ: لسـت أنـا الـذي أريـد أن أقطعها.. كلهم يريد أن يقطعها.. وما نحن إلا معاول بسيطة.

قلت: ومن يشارككم في الاهتمام بقطعها؟

قال: كثيرون.. منهم أنتم المبشرون.. ومنهم أولئـك العسـاكر المستعمرون.. بالإضـافة إلينـا نحن المستشـرقون.. بالإضـافة إلى أولئك الذيول من المستغربين..

كلنا نشكل معاول لهدم شجرة ذلك الساحر التي تـؤتي أكلهـا كل حين، ولا تمل من إعطاء الثمار كل حين.

قلت: فلم نهتم جميعا بقطعها؟

قال: لأنها الشجرة الوحيدة في العالم التي تقف في وجه شجرتنا، وتمنع امتدادها.

قلت: فلم لا نترك الشجرتين تتعايشان مع بعضهما، فنأكل ثمرا ناضجا من كليهما(1)؟

انتفض، وقال: يستحيل ذلك.. يستحيل ذلك..

قلت: وما وجه الاستحالة؟

قال: ألا تعلم أن شجرة محمد شجرة مسحورة!؟.. إن كل من أكل من ثمارها أصابه سحر محمد.

ابتسمت، وقلت: أراك تؤمن بالسحر، وتبالغ في الإيمان به؟

قال: لو لم أجرب تأثيره ما آمنت به.

قلت: فلنفرض أنا قطعنا شجرة محمد..

قاطعني قائلا: ذلك مستحيل.. هي شجرة ضاربة الأطناب في التربة، بل لعل لها جذورا في السماء يستحيل قطعها.

قلت: فلم نجتهد في تحقيق المستحيل؟

قال: ذلك منهج خاطئ سلكه أسلافنا، ونحن اليوم نعرف استحالته.

قلت: فهل رأيت منهجا آخر يمكن سلوكه؟

قال: أجل.. نترك للشجرة وجودها.. لكنا نترك ثمارها تتساقط من غير أن يأكلها أحد.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ذلك بسيط.. نحذر من ثمارها.. نصف حلاوة ثمارها بحلاوة العلقم، ونصف إكسيرها وترياقها بالسم الزعاف.. ثم نرمي كل من يأكل ثمارها بالتخلف والرجعية والإرهاب والخرافة..

---

1) أقصد (حوار الحضارات) الذي هو مطلب إسلامي بدل (صراع الحضارات) الذي يتحدث عنه الغرب.

قلت: وحينذاك لن يقترب منها أحد.

قال: وحينذاك ستذبل الشجرة وتموت من غير أن نقطعها.

قلت: فكرة جيدة.. ولكن ألسنا نسيء للبشرية إن فعلنا هذا؟

قال: بل نحسن غايــة الإحســان.. لا يمكن للبشــرية أن تعيش على ثمــار شــجرتين متناقضــتين غايــة التنــاقض.. لــذلك إن أردنــا السلامة لشجرتنا، فهذا ما ينبغي أن نمارسه مع شجرة محمد.

قلت: فهل تسيرون في هذا السبيل؟

قال: كنا نســير فيــه.. ولكنــه ظهــرت فئــة من المستشــرقين غفلت عن مبادئها وهدفها وغلبت الموضوعية العلمية في تصورها.. ونخاف على هذه الفئة أن يصيبها سحر محمد.

قلت: فما دوري أنا في هذا؟

قــال: لســت وحــدك.. هنــاك إخــوان كثــيرون لــك في هــذه الجامعة، وهم ينتشرون بين هؤلاء المستشــرقين ليقــدموا لهم من الرقى والتعاويذ ما يقيهم من سحر شجرة محمد.

قلت: أطلبتم حضوري لأقدم لكم رقى ضد السحر؟

قال: ليس ضد كل سحر.. ضد سحر محمد وحده.

قلت: لا أعــرف هــذا النــوع من الــرقى.. بــل لا أكــاد أؤمن بالسحر.

ابتســم، وقــال: أنت لم تفهمــني.. الــرقى الــتي نقصــدها هي الشبهات.. ليس هناك شيء يقتل شجرة محمد كالشبهات.

قلت: فهمت.. أنت تريـــدني أن أتصـــل بهـــذا النـــوع من المستشــرقين لأملأ عقــولهم بالشــبهات الــتي تبعــدهم عن شــجرة محمد.

قال فرحا: أجل.. هذا ما أريــده، وقــد ذكــرت لــك أنــك لســت وحدك في هذه الجامعة.. هناك كثيرون من أمثالك.

قلت: إن هذا يحتاج وقتا..

قال: لقد أعددنا لك في هذه الجامعة كل ما يريحك، وكـل مـا يخدمك، ويخدم الهدف النبيل الذي جئت من أجله.

لقد وفرنا لك مسـكنا لائقـا، وسـيارة فارهـة، وأمـوالا سـوف تصـب كـل حين في رصـيدك.. وإن احتجت إلى أي نفقـات زائـدة، فليس عليك سوى الاتصال بي.

قــال ذلـــك، ثم التفت إلى صـــليب كنت أعلقـــه ليشـــير إلى وظيفتي الدينية، فأمسكه بيده، ثم قبله، وقال: لا أطلب منك سوى طلب واحد.

قلت: وما هو؟

قال: انزع هذا الصليب..

قلت: لم؟

قال: لا تظهر أي علاقـة لـك بالـدين في هـذه الجامعـة.. نحن في جامعة علمانية، ولذلك حاول أن تكون علمانيا في ظاهرك قدر ما استطعت، وخاصـة أمـام أولئـك المرتـدين الـذين لبسـوا لبـاس الموضوعية العلمية، وتركوا الرسالة النبيلـة الـتي كلفتهم بهـا أمتنـا العظيمة.

***

خـــرجت من مكتبـــه، فصـــحبني مرشـــد جـــال بي في أنحـــاء الجامعة، ثم أعطـاني دفـترا يعرفـني بالمستشـرقين الـذين يطلب مني الاتصال بهم والتعامل معهم، ثم سار بي إلى المسكن الفـاره المعد لي.. ومعه كل ما تهفو إليه النفوس من الحياة الرغيدة.

لقد ظللت في تلـك الجامعـة سـنة كاملـة، رأيت فيهـا أشـياء كثيرة، واستمتعت نفسي بنعم كثيرة.. لكني لا أذكر منها إلا عشـرة أيام..

لقد كـانت تلـك الأيـام العشـرة هي الأيـام الـتي تنعمت فيهـا بأشـعة جديـدة من شـمس محمـد ﷺ.. ولن أحكي لـك في هـذه

الرحلة إلا حكاية تلك الأيـام العشـرة.. أمـا مـا عـداها فـأكثره لغـو فارغ.

أولا ـ خلاص

في اليــوم الأول من تلــك الأيــام العشــرة المباركــة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يـده أول ثمـرة من شـجرة النبـوة، وهي (ثمرة الخلاص)

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَـا مِنْ بَشِـيرٍ وَلا نَـذِيرٍ فَقَـدْ جَـاءَكُمْ بَشِـيرٌ وَنَـذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُـلِّ شَـيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة:19)

وعـرفت بهـا سـر قولـه ﷺ: (إن ربي أمـرني أن أعلِّمكم مـا جهلتم مما عَلَّمني في يومي هذا: كل مال نَحَلْته عبادي حلال، وإني خلقت عبــادي حُنَفَــاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشــياطين فأضَــلَّتْهُم عن دينهم، وحَرَّمَتْ عليهم ما أحللت لهم، وأمـرَتْهم أن يشـركوا بي مـا لم أنزل به سلطانا، ثم إن اللــه، عــز وجــل، نظـر إلى أهـل الأرض فَمَقَتَهُمْ، عجَمَهم وعَرَبَهُم، إلا بقايا من أهل الكتاب)(1)

فهذه النصوص المقدسـة تخـبر عن الحالـة الـتي كـان عليهـا العالم حين جاءه الإسلام.. وتشير ـ في نفس الـوقت ــ إلى الــدور العظيم الــذي قــام بــه الإســلام في إنقــاذ البشــرية وتخليصــها من الهلاك الذي كاد يقضي عليها.

***

سمعت بتوماس وولكـر آرنولد(2)، وهـو مستشـرق بريطـاني كان من النوع الذي حدثني عنه مدير جامعة السربون، واسـمه من

---

1) رواه أحمد، ومسلم، والنسائي.

2) أشير بهذا الاسم إلى المستشرق Sir Thomas Walker Arnold (1864-1930) وهو من كبار المستشرقين البريطانيين، وقد بدأ حياته العلمية في جامعة كامبردج حيث أظهر حبـه للغـات، فتعلم العربيـة، وانتقـل للعمـل باحثـاً في جامعـة (عليكـرا) في الهنـد، حيث أمضى هناك عشر سنوات ألف خلالها كتابه المشهور (الدعوة إلى الإسلام)

من المهام العلمية التي شارك فيهـا عضـوية هيئـة تحريـر الموسـوعة الإسـلامية الـتي صـدرت في ليــدن بهولنــدا في طبعتهــا الأولى، والتحــق بمدرســة الدراســات الشــرقية والأفريقيـة بجامعـة لنـدن بعـد تأسيسـها عـام 1916. وعمـل أسـتاذاً زائـراً في الجامعـة المصرية عام 1930.

الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد، وقد كنت أتحين الفرص للقائه والاستماع إليه، ولكني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

فقد كنت سائرا أمام حديقة بيته، فوجدته يسقي شجرة ذابلة تكاد تموت.

رفعت كل كلفة، واقتربت منه، وحييته باللغة العربية التي كان يتقنها غاية الإتقان، ويحب أن يجد من يحدثه بها.

نظر إلي، وابتسم، وقال: هل أنت من الشام، أم من مصر؟

قلت: لا هذا ولا ذاك..

قال: فأنت من المغرب إذن؟

قلت: أنا من ألمانيا..

قال: نسبا، أم جنسية مكتسبة؟

قلت: بل نسبا.. أنا ألماني أبا وأما.. ولم أعش في أي دولة عربية.

قال: أنت تتقن العربية جيدا، وكأنك عربي..

قلت: أنا مهتم بها كثيرا، ومهتم بكل ما يرتبط بها من ألوان الثقافة.

قال: هذا شيء جيد.. أنت مثلي في هذا.. أنا أيضا أحب هذه

له عدة مؤلفات سوى كتابه (الدعوة إلى الإسلام) ومنها (الخلافة) وكتاب حول العقيدة الإسلامية.

وهو صاحب فكرة كتاب (تراث الإسلام) الذي أسهم فيه عدد من مشاهير البحث والاستشراق الغربى. وقد أشرف أرنولد على تنسيقه وإخراجه، وهو أول من جلس على كرسي الأستاذية في قسم الدراسات العربية في مدرسة اللغات الشرقية بلندن، وقد وصفه المستشرق البريطاني المعروف (جب) بأنه (عالم دقيق فيما يكتب، وأنه أقام طويلاً في الهند وتعرف إلى مسلميها، وأنه متعاطف مع الإسلام، وكل هذه أمور ترفع أقواله فوق مستوى الشهادات)(دراسات في حضارة الإسلام، ص 244) ذاع صيته بكتابيه: (الدعوة إلى الاسلام) الذي ترجم إلى أكثر من لغة، و(الخلافة). كما أنه نشر عدة كتب قيمة عن الفن الإسلامي.

اللغة، وكل ما يرتبط بها من ثقافة، ولست أدري سر ذلك..

نظر إلى الشجرة الذابلة التي كان يسقيها، ثم قال: لعل سر ذلك يعود إلى الإكسير الذي أعاد لهذه الشجرة حياتها.

قلت: ما علاقة هذه الشجرة باهتمامك باللغة العربية، والثقافة العربية؟

قال: لقد كان مصير هذه الشجرة هو الفناء والذبول والموت.. لقد أحاط بها الموت من كل جانب، ولم يعد لي أمل في حياتها.. ولكن بعضهم أهداني إكسيرا عجيبا، ما إن وضعته في الماء، وسقيته بها حتى عادت إليها الحياة، وأنت تراها الآن مقبلة على حياة جميلة تنتظرها.

قلت: لا أزال عاجزا عن فهم علاقة الشجرة والإكسير الذي أعاد إليها الحياة باللغة العربية والثقافة العربية.

قال: يمكن أن تشبه العالم الذي نعيش فيه بهذه الشجرة..

قلت: من أي جهة؟

قال: من جهة الحياة والموت.. والمرض والصحة.. والذبول والنشاط.

قلت: ذلك صحيح.. فالشجرة كائن حي لا يختلف عن الإنسان.. يعتريه ما يعتري الإنسان من أسباب العافية والبلاء.

قال: لعل هذا هو سر اهتمامي بالعربية والثقافة العربية.

قلت: هذا ما لم أفهمه.

قال: أنا مهتم كثيرا بتاريخ العالم.. وبأسباب عافيته وأسباب بلائه.. وأوقات انحداره وأوقات ارتفاعه.. ولحظات إنسانيته ولحظات بهيميته..

في بيتي سجلت منحنيات كثيرة للسقوط وللنهوض، وللصعود وللهبوط.

لم أشـأ أن أقاطعـه لأسـتفهم عن سـر هـذا الكلام الغـامض، فأخذ يقول: لقد وجدت العالم في جميع فتراته يشبه هذه الشجرة التي اعتراها الذبول وكاد يميتها.. ولكنها عادت للحياة من جديد لما سقيتها بإكسير الحياة.

قلت: فهل وجدت البشرية في فترات سـقوطها من يسـقيها إكسير الحياة؟

قال: لقد سـجلت أعظم انحـدار لمنحـنى سـقوط البشـرية.. ورأيت بأم عيني الإكسير الذي حمى البشرية من الفناء الـذي كـان يترصد بها.. وذلك الإكسـير هـو الـذي حملـني على أن أتعلم اللغـة العربية، وأسافر إلى البلاد العربية، وأتعلم الثقافة العربية.

قلت: فما ذاك الإكسير؟

قال: هو أعظم رجل على الإطلاق.. لعلـه هـو المخلص الـذي عناه المسـيح عنـدما قـال لتلاميـذه: (إن كنتم تحبونـني، فـاحفظوا وصاياي، وأنـا أطلب من الآب فيعطيكم معزيـاً آخـر، ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبلـه، لأنـه لا يـراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم، ويكـون فيكم.. إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي وإليه نأتي، وعنده نصنع منـزلاً.

الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الـذي تسـمعونه ليس لي، بل للآب الذي أرسلني، بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المعـزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شـيء، ويذكركم بكل مـا قلتـه لكم.. قلت لكم الآن قبـل أن يكـون، حـتى متى كان تؤمنون، لا أتكلم أيضاً معكم كثيراً، لأن رئيس هذا العـالم يأتي، وليس لـه فيّ شـيء) (يوحنـا 14/15 – 30)(1).. نعم.. بـل هو..

لقد كانت البشرية تنتظر الخلاص.. لقد كانت كالظمـآن الـذي كاد يهلكه العطش، ولولا محمد، ولولا المياه العذبـة الـتي جـاء بهـا لماتت البشرية من الظمأ.

قلت: كيف تقول ذلك؟.. لقد كـان محمـد في بيئـة صـحراوية

1) انظر التفاصيل المرتبطة بهذه النبوءة في (أنبياء يبشرون بمحمد)

بدوية.. وكان مع ذلك أميا.. كيف كان هو المخلص؟

قال: أحيانا كثيرة يجعل الله فيما نحتقره من أشياء سر خلاصنا..

هذه الشجرة مثلا.. يئست منها، وتألمت ليأسي، كنت أراها تذبل أمامي، وأنا لا أطيق معها أي حراك.. ولكن ذلك الرجل الفاضل، بل العبقري الفذ وصف لي إكسيرها.

في البداية عندما وصفه ضحكت بيني وبين نفسي.. بل ظننته يسخر مني، وعندما جربته لم أجربه إلا كما يجرب الغريق تعلقه بقشة لا تغني عنه شيئا.. ولكني بعد أن طبقت ذلك الإكسير العجيب فعل فعله، وأعاد لهذه الشجرة حياتها.

وبالمناسبة.. فالرجل الذي وصف لي هذا الإكسير رجل أمي.. هو يشبه تماما محمد الذي كان أميا، ولكنه كان يحمل الإكسير الذي أعاد به الحياة لشجرة البشرية.

قلت: لقد كانت في عهد محمد حضارات عريقة وديانات قديمة.. ألم يكن في أحدها سر الخلاص؟

قال: لقد كان من سر الخلاص الذي جاء به محمد أنه لم يكن في بقعة من بقاع الأرض غير تلك البقعة البسيطة القريبة جدا من الفطرة.

قلت: لم؟.. هل تعادي الحضارات؟

قال: لا أعاديها، ولكن محمدا لو ولد في بيئة غير تلك البيئة لتلطخت تعاليمه كما تلطخت تعاليمنا نحن المسيحيين.

لقد ذكر القرآن شيئا قريبا من هذا عندما قال:﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(الأنعام:124)

لقد طلب هؤلاء القوم أشياء مماثلة لما جاءت بها الرسالات السابقة، والتي امتلأت تحريفا، فرد عليهم القرآن بأن الله أعلم بالمحل الذي يجعل فيه رسالته.

قلت: أراك تتحامل على تلـك الحضـارات العريقـة.. والـتي لا زلنا نشم عطر ما أنتجته.

قال: كلامك يحتاج بحثا موضوعيا بعيدا عن لغة الخطاب الـتي تعودنا أن نسمعها.

قلت: وما الكلام الموضوعي في هذا؟

قال: الموضوعية العلمية تتطلب استقراء واقـع البشـرية في عصر محمد، لـنرى بموضـوعية تامـة الحالـة الـتي كـانت تعيشـها، والدواء الذي كانت تبحث عنه.

قلت: فهل تسمعني حديث ذلك؟

قال: لا يسرني إلا ذلـك.. تعـال معي إلى الـبيت.. فمثـل تلـك التفاصيل لا يمكن أن نتحدث عنها ونحن واقفون.

أمراض الجاهلية

دخلت إلى بيته الـذي لا يختلـف في تصـميمه الـداخلي عن البيوت العربية، وقد فرش على أرضـه زرابي عربيـة رأيتهـا في رحلتي إلى بلاد الشام.

أحضـر لي (تومـاس) الشـاي، وأحضـر لي معـه مجموعـة خرائط، وقال: في هذه الخرائط، سنتعرف على العالم القديم.. وكيف كان حاله وقت بعثة محمد.

ولتكون دراستنا موضوعية.. فسنبحث عن جانبين لا مناص لمن يريد أن يعرف الخلاص الـذي جـاء بـه محمـد من أن يبحث فيهما.

قلت: ما هما؟

قال: الحضارات.. والديانات.

قلت: ما وجه الحصر في ذلك؟

قال: الحضارات تنبئ عما وصل إليه الفكر البشري من البحث عن خلاص البشر.

قلت: والديانات؟

قال: هي الوحي الإلهي المنزل لإنقاذ البشر.

قلت: أفلم يكن في كل الحضارات والديانات المنتشرة في ذلك الوقت ما يحمل سر الخلاص؟

قال: لنرى ذلك.. تعال بنا نطبق ما ذكرناه من القواعد في هذا المجال.

حضارات

قلت: أجل.. ولنبدأ بالحضارات(1).

أشار إلى بقعة كبيرة من الأرض، وقال: هذه هي حدود **الدولة الرومانية**.. وفي هذه البقعة الواسعة نشأ ما يسمى بالحضارة الرومانية.

التفت إلي، وقال: لاشك أن اسمها يقرع الأذن بهيبة عظيمة.

قلت: ذلك صحيح.. فالدولة الرومانية دولة ترمز إلى القوة والشباب والحياة.

قال: وترمز إلى الاستبداد والانحلال والتجبر.

---

1) رجعنا في وصف الحضارات والديانات المعاصرة لبعثة رسول الله ﷺ إلى كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لأبي الحسن الندوي، فهو المرجع الذي رجع له الكثير في هذا الباب، وقد رجع هو بدوره إلى مراجع مختلفة عربية وإنجليزية.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن أكثر مراجعنا في هذا الكتاب هي ما يطلق عليه الكثير (الكتب الفكرية) ككتب سيد قطب ومحمد قطب وأبي الأعلى المودودي ومحمد الغزالي والشهيد الصدر، وغيرهم.. بالإضافة إلى كتب المستشرقين المتعلقة بالإسلام والحضارة الإسلامية.. بالإضافة إلى الكتب المؤرخة للأفكار والأديان والمذاهب، وخاصة (الموسوعة اليهودية) للمسيري، فهي من أوثق المراجع العلمية في هذا الباب.

قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد بلغ الاستبداد غايته في الدولة الرومانية، فعلى كثرة مصائب الرعية ازدادت الإتاوات، وتضاعفت الضرائب، حتى أصبح أهل البلاد يتذمرون من الحكومات، ويبغضونها بغضا شديداً، بل ويفضلون عليها كل حكومة أجنبية، وقد حدثت لذلك اضطرابات عظيمة وثورات.

لقد هلك عام 532 في الاضطراب ثلاثون ألف شخص في العاصمة، وعلى شدة الحاجة إلى الاقتصاد في الحياة أسرف الناس فيه، ووصلوا في التبذل إلى أحط الدركات.. بل أصبح الهم الوحيد اكتساب المال من أي وجه، ثم إنفاقه في الترف وإرضاء الشهوات.

لقد ذابت أسس الفضيلة، وانهارت دعائم الأخلاق، حتى صار الناس يفضلون العزوبة على الحياة الزوجية ليقضوا مآربهم في حرية.

وكان العدل كما يقول (سيل) يباع ويساوم مثل السلع، وكانت الرشوة والخيانة تنالان من الأمة التشجيع.

لقد قال (جيبون) يصف كل ذلك: (وفي آخر القرن السادس وصلت الدولة في ترديها وهبوطها إلى آخر نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم في حين من الأحيان تستظل بظلها الوارف، ولم يبق منها إلا الجذع الذي لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً)

أما المجتمع الروماني، فقد كان مليئا بالتناقض والاضطرابات، وقد صور حاله صاحب كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) بقوله: (كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في

الأبحاث الدينيـة العميقـة، والجـدل البـيزنطي، ويتشـاغل بهـا، كمـا طبعت الحياة العادية العامة بطـابع المـذهب البـاطني، ولكن نـرى هؤلاء ـ في جانب آخر ـ حريصين أشـد الحـرص على كـل نـوع من أنواع اللهـو واللعب، والطـرب والـترف، فقـد كـانت هنـاك ميـادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألـف شـخص، يتفرجـون فيهـا على مصارعات بين الرجال والرجال أحيانًا، وبين الرجـال والسـباع أحيانًا أخرى، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين: لون أزرق ولـون أخضـر، لقـد كـانوا يحبـون الجمـال، ويعشـقون العنـف والهمجيـة، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان، وكانت عقـوبتهم فظيعـة تقشـعر منهـا الجلـود، وكـانت حيـاة سـادتهم وكـبرائهم عبـارة عن المجـون والـترف، والمـؤامرات والمجـاملات الزائـدة، والقبـائح والعادات السيئة)

بالإضافة إلى هذا، فقد كان الرومان متجبرين غاية التجـبر، عنصـريين غايـة العنصـرية، لقـد كـان المبـدأ الأساسـي الـذي يجتمعون عليـه، ويجمعـون عليـه هـو تقـديس الـوطن الـرومي، والشعب الرومي.

ولم تكن الأمم والبلاد الـتي كـانت تسـيطر عليهـا الدولـة الرومانية[1] إلا خادمة لمصلحتها، وعروقاً يجـري منهـا الـدم إلى مركزها.. فلهذا كانت الدولة الرومانية تستهين بكل حـق ومبـدأ، وتـدوس كـل شـرف وكرامـة، وتسـتحل كـل ظلم وشـنيعة، لا يمنعها من ذلـك الحيـف والظلم اشـتراك في دين وعقيـدة، ولا إخلاص ووفاء للملكة.

يقول مؤرخ عربي شامي عن الحكم الروماني في الشـام: (كانت معاملة الروماني للشاميين بادئ ذي بدء عادلة حسنة مع ما كانت عليه مملكتهم في داخليتهـا من المشـاغب والمتـاعب،

1) كانت الإمبراطوريـة الرومانيـة الشـرقية تعـرف بالإمبراطوريـة البيزنطيـة، وكـانت تحكم دول اليونان والبلقان وآسيا وسـوريا وفلسـطين وحـوض البحـر المتوسـط بأسـره, ومصر وكل إفريقيا الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية.

ولما شاخت دولتهم انقلبت إلى أتعس ما كانت عليه من الرق والعبودية، ولم تضف رُومية بلاد الشام مباشرة ولم يصبح سكانها وطنيين رومانيين، ولا أرضهم أرضاً رومانية، بل ظلوا غرباء ورعايا، وكثيراً ما كانوا يبيعون أبنائهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق، وبهذه الأيدي عمر الرومان ما عمروا من المعاهد والمصانع في الشام)(1)

وقد كان ذلك السلوك العنصري المتجبر هو سبب سقوط الدولة الرومانية، يقول (Robert Briffault)ـ عند ذكره لسبب سقوط الدولة الرومانية: (لم يكن سبب انقراض الدولة الرومية وسقوطها الأساسي الفساد الزائد (كالرشوة وغيرها) بل كان الفساد والشر وعدم المطابقة بالواقع مما صحب نشوء هذه الدولة من أول يومها وتغلغل في أحشائها، إن كل مؤسسة بشرية تقوم على أساس زائف منها ولا تستطيع أن تنقذ نفسها بذكاء أو نشاط، ولما كان الفساد مما قامت عليه هذه الدولة فكان لا بد أن تبيد يوماً وتنهار، لقد رأينا أن الدولة الرومية إنما كانت وسيلة لرفاهية طبقة صغيرة على حساب الجماهير الذين كانت هذه الطبقة تستغلهم وتمتص دمائهم، لقد كانت التجارة تسير في رومة بأمانة وعدل، وقد كان ذلك مما طبعت عليه هذه الدولة، وقد كانت فائقة في قوة الحكم والقضاء، وفي الكفاءة، ولكن هذه المحاسن كلها لم تكن لتحفظ الدولة من عواقب الزيف الأساسي والخطأ)

***

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي **الهند**.

1) خطط الشام للأستاذ كرد علي: 1 / 101.

قلت: إنها معدن الحكمة، وينبوع العدل والسياسة، وأهل الأحلام الراجحة، والآراء الفاضلة.. هكذا وصفها صاعد الأندلسي في طبقات الأمم.

قال: ولكنها كانت في العهد الذي جاء فيه محمد على حافة الهاوية، كانت كتلك الشجرة الذابلة التي رزقها الله إكسير الحياة.

لقد اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدواره الهند ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، أي في العهد الذي تزامن مع مجيء محمد(1).

لقد اشتركت الهند مع جاراتها وشقيقاتها في التدهور الخلقي والاجتماعي، الذي شمل الأرض جميعا في ذلك الزمن.. وأخذت نصيباً غير منقوص من هذا الظلام الذي مد رواقه على المعمورة.

لقد كان النظام الاجتماعي السائد هو نظام الطبقات الجائر المبالغ في جوره.. بل لم يعرف في تاريخ أمة من الأمم نظام طبقي أشد قسوة، وأعظم فصلاً بين طبقة وطبقة، وأشد استهانة بشرف الإنسان من النظام الذي اعترفت به الهند دينياً ومدنياً، وخضعت له آلافاً من السنين.

وقد بدت طلائع التفاوت الطبقي في آخر العهد الويدي بتأثير الحرف والصنائع وثوراتها، وبحكم المحافظة عل خصائص السلالة الآرية المحتلة ونجابتها.

وقبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ازدهرت في الهند الحضارة البرهمية، ووضع فيها مرسوم جديد للمجتمع الهندي، وألف فيه قانون مدني وسياسي اتفق عليه البلاد وأصبح قانوناً

---

1) انظر هذه التفاصيل في (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين)

رسمياً ومرجعاً دينياً في حياة البلاد ومدنيتها وهو المعـروف الآن بـ (منوشاستر)

يقسـم هـذا القـانون أهـل البلاد إلى أربـع طبقـات ممتـازة وهي البراهمة، وهي طبقة الكهنة ورجال الدين.. وشتري رجـال الحرب.. وويش رجال الزراعة والتجارة.. وشودر رجال الخدمة.

وقد منح هـذا القـانون طبقـة البراهمـة امتيـازات وحقوقـاً ألحقتهم بالآلهـة، فقـد ذكـر أن البراهمـة هم صـفوة اللـه، وهم ملوك الخلـق، وإن مـا في العـالم هـو ملـك لهم، فـإنهم أفضـل الخلائق وسادة الأرض، ولهم أن يأخذوا من مال عبيدهم شـودر من غير جريرة مـا شـاءوا، لأن العبـد لا يملـك شـيئاً وكـل مالـه لسيده.

ونص هذا القانون على أن الـبرهمي الـذي يحفـظ رك ويـد (الكتاب المقدس) هو رجل مغفور له، ولـو أبـاد العـوالم الثلاثـة بذنوبـه وأعمالـه، ولا يجـوز للملـك حـتى في أشـد سـاعات الاضطرار والفاقـة أن يجـبي من البراهمـة جبايـة أو يأخـذ منهم إتاوة، ولا يصح لبرهمي في بلاده أن يموت جوعـاً، وإن اسـتحق بـرهمي القتـل لم يجـز للحـاكم إلا أن يحلـق رأسـه، أمـا غـيره فيقتل.

أما الشـتري، فـإن كـانوا فـوق الطبقـتين (ويش وشـودر)، ولكنهم دون البراهمة بكثير.. يقول (منـو): (إن الـبرهمي الـذي هو في العاشرة من عمره يفوق الشتري الـذي نـاهز مائـة كمـا يفوق الوالد ولده)

أما شودر (المنبوذون)، فكانوا في المجتمع الهنـدي ــ بنص هـذا القـانون المـدني الـديني ــ أحـط من البهـائم وأذل من الكلاب، فيصرح القانون بأن من سعادة شودر أن يقوموا بخدمة البراهمة وليس لهم أجر وثواب بغير ذلك، وليس لهم أن يقتنـوا

مالاً أو يدخروا كنزاً فإن ذلك يـؤذي البراهمـة، وإذا مـد أحـد من المنبوذين إلى برهمي يداً أو عصاً ليبطش بـه قطعت يـده، وإذا رفسه في غضب فدعت رجلـه، وإذا هم أحـد من المنبـوذين أن يجالس برهمياً، فعلى الملـك أن يكـوي إسـته وينفيـه من البلاد، وأما إذا مسه بيد أو سـبه فيقتلـع لسـانه، وإذا ادعى أنـه يعلمـه سقي زيتاً فائراً، وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والــوزغ والغراب والبومة ورجل من الطبقة المنبوذة سواء.

أما المـرأة.. فقـد نـزلت في هـذا المجتمـع منزلـة الإمـاء، وكـان الرجـل قـد يخسـر امرأتـه في القمـار، وكـان في بعض الأحيان للمرأة عدة أزواج، فإذا مات زوجها صارت كالموءودة لا تتزوج، وتكون هدف الإهانات والتجريح، وكانت أمـة بيت زوجهـا المتوفى وخادم الأحماء وقد تحرق نفسها على إثر وفـاة زوجهـا تفادياً من عذاب الحياة وشقاء الدنيا.

***

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القــديم، وقال: هذه هي **مصر**.

قلت: إنهـا بلـد النيـل السـعيد، والخـير الكثـير، والحضـارة العظيمة.

قــال: ولكنهــا كــانت تعيش في ذلــك العهــد أســوأ أيــام حياتها(1).. لقـد كـانت في القـرن السـابع من أشـقى بلاد اللـه بالمسيحية، وبالدولة الرومية معاً، أما الأولى فلم تستفد منها إلا خلافات ومنـاظرات في طبيعـة المسـيح، وفي فلسـفة مـا وراء الطبيعة والفلسفة الألهية، وقـد ظهـرت في القـرن السـابع في شـر مظاهرهـا، وأنهكت قـوى الأمـة العقليـة، وأضـعفت قواهـا العملية.

---

1) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

وأمـا الأخـرى فلم تلـق منهـا إلا اضـطهاداً دينيـاً فظيعـاً واستبداداً سياسياً شنيعاً تجـرعت في سـبيلهما من المرائـر في عشر سنين ما ذاقته أوربا في عهد التفـتيش الـديني في عقـود من السنين، فألهاها ذلك عن كل وطر من أوطـار الحيـاة، وعن كـل مهمـة شـريفة من مهمـات الـدين والـروح، فلا هي تتمتـع بالحرية السياسـية رغم كونهـا مسـتعمرة روميـة، ولا هي تتمتـع بالحرية الدينية والعقلية، رغم كونها مسيحية.

يقول الدكتور غوستاف لوبون في كتابه المعروف (حضارة العرب): (ولقـد أكـرهت مصـر على انتحـال المسـيحية، ولكنهـا هبطت بذلك إلى حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سـوى الفتح العربي، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الـزمن، وكـان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية، وأنهكهـا اسـتبداد الحكـام تحقـد أشد الحقد على سادتها الروم، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين)(1)

وفوق هذا، فقد اتخذها الروم مصر شاة حلوبـاً يسـتنزفون مواردها، ويمتصون دماءها، يقول ألفرد: (إن الروم كانوا يجبون من مصر جزية على النفوس وضرائب أخرى كثيرة العدد.. ممـا لاشك فيه أن ضرائب الروم كانت فوق الطاقـة، وكـانت تجـري بين الناس على غير عدل)

وهكـذا اجتمـع لمصـر من الاضـطهاد الـديني، والاسـتبداد السياسي والاستغلال الاقتصادي ما شغلها بنفسها، وكـدر عليهـا صفو حياتها، وألهاها عن كل مكرمة.

***

1) حضارة العرب، تعريب عادل زعيتر: 336.

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي **أوروبا**، وهذه بالتحديد أقاليمها الشمالية الغربية.

قلت: أوروبا بلد الحضارة الراقية والطبيعة الفاتنة.. إنها بلادنا التي غذونا من لبانها.

قال: لقد كانت ــ في ذلك الحين ــ تتسكع في ظلام الجهل المطبق، والأمية الفاشية، والحروب الدامية.. يقول (Robert Briffault): (لقد أطبق على أوربا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر، وكان هذا الليل يزداد ظلاماً وسواداً، قد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً وأفظع من همجية العهد القديم، لأنها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفنت، وقد انطمست معالم هذه الحضارة وقضي عليها بالزوال، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي، كإيطاليا وفرنسا، فريسة الدمار والفوضى والخراب)

***

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه **آسيا الوسطى** وهذا بالتحديد شرقها.

قلت: إنها بلد المغول والترك واليابانيين.

قال: لقد كانت هذه الشعوب ـ في ذلك الوقت ــ بين بوذية فاسدة، ووثنية همجية، لا تملك ثروة علمية، ولا نظاماً سياسياً راقياً، إنما كانت في طور الانتقال من عهد الهمجية إلى عهد الحضارة، ومنها شعوب لا تزال في طور البداوة والطفولة العقلية.

***

أشار (توماس) إلى بقعة أخرى في خارطة العالم القديم، وقال: هذه هي **بلاد العرب**، وهذه هي جزيرتهم.

قلت: إنها بلاد محمد، وقد امتازوا ـ في ذلـك الحين ــ بـأخلاق كادوا يتفردون بهـا، كالفصـاحة وقـوة البيـان وحب الحريـة والأنفـة والفروسية والشجاعة والحماسة في سبيل العقيدة والصـراحة في القول وجودة الحفظ وحب المساواة وقوة الإرادة والوفاء والأمانة.

قال: لكنهم ـ في ذلك الحين أيضـا ــ ولشـدة تمسـكهم بـدين آبائهم وتقاليد أمتهم أصيبوا بانحطاط ديني شديد، ووثنيـة سـخيفة، قلما يوجد لها نظير في الأمم المعاصرة لهم.

بالإضافة إلى ذلك، فقد كان فيهم أدواء كثيرة متأصلة:

لقد كان شرب الخمر واسـع الشـيوع، شـديد الرسـوخ فيهم، يتحدث عن معاقرتها والاجتماع على شربها الشعراء، وقـد شـغلت جانباً كبيراً من شعرهم وتاريخهم وأدبهم، وكثرت أسماؤها وصفاتها في لغتهم، وكثر فيها التـدقيق والتفصـيل كـثرة تـدعو إلى العجب، وكانت حوانيت الخمارين مفتوحة دائماً.

قال قتادة: كان الرجل في الجاهليـة يقـامر على أهلـه ومالـه فيقعد حزيناً سليباً ينظر إلى ماله في يد غيره، فكانت تــورث بينهم عداوة وبغضاً.

وكان أهل الحجاز، العرب واليهود، يتعاطون الربا، وكان فاشياً فيهم، وكانوا يجحفون فيه ويبلغون إلى حد الغلو والقسوة.

أما المرأة، فقد كانت في ذلك المجتمـع عرضـة غبن وحيـف، تؤكل حقوقها وتُبْتز أموالهـا، وتُحـرم إرثهـا، وتعضـل بعـد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يـورث المتـاع أو الدابة.

لقد ذكر القرآن كل ذلك مصـحـحا لـه، ففي القـرآن: يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَـاءَ كَرْهـاً وَلا تَعْضُـلُوهُنَّ لِتَـذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِـالْمَعْرُوفِ

فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً (النساء:19)

قال ابن عباس في تفسيرها: (كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضُهم تزوجها، وإن شاءوا زَوَّجُوها، وإن شاؤوا لم يُزَوِّجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك)(1)

وقد بلغت كراهة البنات إلى حد الوأد، وقد ذكره القرآن، ففيه: وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ(8) بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ (9) (التكوير)، وفيه: وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (الاسراء:31)

وكانت العصبية القبلية والدموية شديدة جامحة، وكان شعارهم في ذلك قولهم (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً) فكانوا يتناصرون ظالمين أو مظلومين.

قلت: لقد ورد في حديث محمد هذا الشعار!؟

قال: لقد قاله محمد مصححا له، فقد ورد في الحديث: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما)، قيل: كيف أنصره ظالما؟ قال: (تحجزه عن الظلم، فان ذلك نصره)(2)

استأنف توماس حديثه عن طبيعة العرب قائلا: وفوق ذلك كان الحرب والغزو مما طبعت عليه طبيعتهم العربية، وألهمتهم إياه معيشتهم البدوية، حتى صارت الحرب مسلاة لهم، قال قائلهم:

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

1) رواه البخاري وأبو داود، والنسائي، وابن مَرْدُويه، وابن أبي حاتم.

2) رواه أحمد والبخاري والترمذي.

لقد هانت عليهم الحرب وإراقة الـدماء حـتى كـانت تثيرهـا حادثة ليست بـذات خطـر، فقـد وقعت الحـرب بين بكـر وتغلب ابني وائل ومكثت أربعين سنة أريقت فيها دماء غزيرة، وما ذاك إلا لأن كليباً، وهو رئيس معدّ رمى ضلع ناقة البسوس بنت منقذ فاختلـط دمهـا بلبنهـا، وقتـل جسـاس بن مـرة كليبـاً،واشـتبكت الحرب بين بكر وتغلب.

ديانات:

التفت إلي توماس، وقـال: هـذه هي دول العـالم.. وتلـك هي حضارتها وانحطاطها.. لقد كانت أشبه شيء بتلك الشجرة قبـل أن أعالجها بذلك الإكسير.

قلت: والأديـان.. أين ذهبت الأديـان؟.. وأين ذهب رجالهـا من الأحبار والرهبان؟

قال: لقد تحول الـدين إلى تجـارة لا تختلـف عن سـائر أنـواع التجارة..

لقد ذكر القرآن هذا، ففيه: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا إِنَّ كَثِـيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِـلِ وَيَصُـدُّونَ عَنْ سَـبِيلِ اللَّهِ ﴾ (التوبة:34)

وقد دفعهم حبهم للمال وتعظيمهم له إلى تحريـف الـدين من أجلـه، كمـا في القـرآن: ﴿ فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُـونَ الْكِتَـابَ بِأَيْـدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْـتَرُوا بِـهِ ثَمَنـاً قَلِيلاً فَوَيْـلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ (البقرة:79)

قلت: هذا النقد القرآني قد يصـح مـع اليهـود.. ولكنـه لا يصـح أبدا عن **المسيحية** التي هي دين الزهاد والرهبان والعباد.

قال: اسمح لي أن أصارحك بموقفي من المسيحية..

قلت: لا بأس.. تحدث كما تشاء.

قـــال: لم تكن المســـيحية في يـــوم من الأيـــام أهلا لخلاص الإنسان.

قلت: ما تقـول؟.. والمسـيحية هي الـدين الوحيـد في العـالم الذي يصيح بالخلاص، ويستعمل مصطلح الخلاص.

قال: الخلاص الذي يصيحون به أقرب إلى الأسطورة منه إلى الحقيقة..

سكت قليلا، ثم قال بأسف(1): لقد كـان في المسـيحية أثـارة من تعليم المسيح كان يمكنها أن تخلص البشرية، لكن بولس جـاء، فطمس نورها، وطعّمها بخرافات الجاهلية التي انتقل منها والوثنية الـتي نشـأ عليهـا، وقضـى قسـطنطين على البقيـة الباقيـة، حـتى أصبحت المسيحية مزيجاً من الخرافات اليونانيـة والوثنيـة الروميـة والأفلاطونيـــة المصـــرية والرهبانيـــة، اضـــمحلت في جنبهـــا تعليم المسيح البسـيطة كمـا تتلاشـى القطـرة من اليم، وعـادت نسـيجاً خشـبياً من معتقـدات وتقاليـد لا تغـذي الـروح، ولا تمـد العقـل ولا تشعل العاطفـة، ولا تحـل معضـلات الحيـاة، ولا تنـير السـبيل، بـل أصبحت بزيادات المحرفين، وتأويل الجـاهلين، تحـول بين الإنسـان والعلم والفكر، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية.

ثم ثـــارت حـــول الديانـــة، وفي صـــميمها مجـــادلات كلاميـــة، وسفسطة من الجـدل العقيم شـغلت فكـر الشـعوب، واسـتهلكت ذكاءهـا، وابتلعت فـدرتها العمليـة، وتحـولت في كثـير من الأحيـان حروباً دامية وقتلاً وتدميراً وتعذيباً، وإغارة وانتهابـاً واغتيـالاً، وحـولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات دينيـة متنافسـة، وأقحمت البلاد في حرب أهلية.

---

1) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وانظر تفاصيل أخـرى في الفصـول القادمة.

وكان أشد مظاهر هذا الخلاف الـديني مـا كـان بين مسـيحيي الشام والدولة الرومية، وبين مسيحيي مصـر، أو بين (الملكانيـة) و (المنوفيسية)

لقد كان شعار الملكانية عقيدة ازدواج طبيعة المسـيح، وكـان المنوفيسـيون يعتقـدون أن للسـيد المسـيح طبيعـة واحـدة، وهي الإلهية التي تلاشت فيها طبيعة المسح البشرية، كقطرة من الخـل تقع في بحر عميق لا قرار له.

وقــد اشــتد الخلاف بين الحــزبين في القــرنين الســادس والسابع، حتى صار كأنه حرب عوان بين دينين متنافسـين، أو كأنـه خلاف بين اليهـود والمسـيحيين، كـل طائفـة تقـول للأخـرى: (إنهـا ليست على شيء)

لقد ذكر القرآن هذا، ففيه: فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْـلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (مريم:37)

لقد حاول الإمبراطور هرقل (610-641) بعـد انتصـاره على الفرس سنة 638 جمع مذاهب الدولة المتصارعة وتوحيـدها، وأراد التوفيق بينها، وتقررت صورة التوفيـق، وهي أن يمتنـع النـاس عن الخوض في الكلام عن كنه طبيعة المسيح، وعما إذا كانت له صفة واحـدة، أم صـفتان، ولكن عليهم بـأن يشـهدوا بـأن اللـه لـه إرادة واحدة أو قضاء واحد.

وفي صدر عام 631 حصل وفـاق على ذلـك وصـار المـذهب المنوثيلي مـذهباً رسـمياً للدولـة، ومن تضـمهم من أتبـاع الكنيسـة المسيحية، وصمم هرقل على إظهار المذهب الجديد على ما عداه من المذاهب المختلفة له متوسـلاً إلى ذلـك بكـل الوسـائل، ولكن القبط نابذوه العداء، وتبرأوا من هذه البدعة والتحريف، وصمدوا له واستماتوا في سبيل عقيدتهم القديمة.

وحـاول الإمـبراطور مـرة أخـرى توحيـد المـذاهب وحسـم

الخلاف، فـاقتنع بـأن يقـر النـاس بـأن اللـه لـه إرادة واحـدة، وأمـا المسألة الأخرى، وهي نفاذ تلك الإرادة بالفعل، فأرجـأ القـول فيـه، ومنع النـاس أن يخوضـوا في مناظراتهـا، وجعـل ذلـك في رسـالة رسمية، وبعث بها إلى جميع جهات العالم الشرقي، ولكن الرسـالة لم تهدئ العاصفة في مصر ووقع اضـطهاد فظيـع على يـد قـيرس في مصر واستمر عشر سنين، وقع خلالها ما تقشـعر منـه الجلـود، فقـد كـان الرجـال يعـذبون ثم يقتلـون إغراقـاً، وتوقـد المشـاعل وتسـلط نارهـا عليهم حـتى يسـيل الـدهن على الأرض، ويوضـع السجين في كيس مملـوء من الرمـل ويـرمى بـه في البحـر.. إلى غير ذلك من الفظائع.

قلت: **واليهود**؟

ابتسم، وقال: ألا تعرف اليهود!؟.. إنهم وباء العالم وسـرطانه القاتل، وقد كانوا في ذلك الوقت أضعب الأمم، فقـد كـانوا عرضـة للاضطهاد والاستبداد، والنفي والجلاء، والعذاب والبلاء.

وقد أورثهم تاريخهم الخـاص ومـا تفـردوا بـه بين أمم الأرض من العبودية الطويلة والاضطهاد الفظيع والكبرياء القومية، والإدلال بالنسب، والجشع وشهوة المـال وتعـاطي الربـا، أورثهم كـل ذلـك نفسية غريبة لم توجد في أمة وانفردوا بخصائص خلقية كـانت لهم شعاراً على تعاقب الإعصار والأجيـال، منهـا الخنـوع عنـد الضـعف، والبطش وسـوء السـيرة عنـد الغلبـة، والختـل والنفـاق في عامـة الأحوال، والقسوة والأثرة وأكل أموال الناس بالباطل.

وقد وصفهم القرآن في آيات كثيرة وصفاً دقيقاً عميقـاً يصـور مـا كـانوا عليـه في القـرنين السـادس والسـابع من تـدهور خلقي، وانحطاط نفسي، وفساد اجتماعي، عزلوا بسببه عن قيادة العالم.

وقد تجدد في أوائل القرن السـابع من الحـوادث مـا بغضـهم إلى المسـيحيين، وبغض المسـيحيين إليهم وشـوه سـمعتهم، ففي

السنة الأخيرة من حكم فوكاس (610 م) أوقع اليهود بالمسيحيين في أنطاكية، فأرسل الإمبراطور قائده (أبنوسوس) ليقضي على ثورتهم، فذهب وأنفذ عمله بقسوة نادرة، فقتل الناس جميعاً، قتلاً بالسيف، وشنقاً وإغراقاً وتعذيباً، ورمياً للوحوش الكاسرة.

قلت: **والديانات الأخرى**.. ورجالها.. ألم يكن فيهم من يصلح لإنقاذ البشرية؟

أشار توماس إلى بقعة من الأرض، وقال: هنا كانت تنتشر **المجوسية.**

قلت: ألم يكن في المجوسية ما يصلح لإنقاذ البشرية؟

قال: لقد جاء زرادشت، ودعا إلى التوحيد، وأبطل الأصنام[1]، وقال: (إن نور الله يسطع في كل ما يشرق ويلتهب في الكون)،

---

1) ذكر كثير من علماء المسلمين إلى نبوة زرادشت، ويسمونه (نبي المجوس)، وممن انتصر لذلك، وقد توفر له من (العلم بالملل والنحل ما يؤهله لذلك ابن حزم، فقد قال في الفصل: (أما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته) ثم عقب على ذلك بقوله:(ليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله ﷺ لمن صحت عنه معجزة، قال تعالى: { وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(فاطر:24)، وقال تعالى:﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾(النساء:164))

ثم بين أن الذي ينسب إليه المجوس من الأكذوبات باطل مفترى منهم، واستدل على ذلك بالتحريفات الواقعة في الديانات المختلفة،، ثم بين قاعدة جليلة في ذلك فقال: (وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصورين على رجال من أهلها، وكانا محظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضمون فيهما، وكتاب المجوس وشريعتهم إنما كان طول مدة دولتهم عند المؤبذ، وعند ثلاثة وعشرين هربذا، لكل هربذ سفر قد أفرد به وحده لا يشاركه فيه غيره من الهرابذة ولا من غيرهم، ولا يباح بشيء من ذلك لأحد سواهم، ثم دخل فيه الخرم بإحراق الإسكندر لكتابهم أيام غلبته لدارا بن دارا، وهم مقرون بلا خلاف منهم أنه ذهب منه مقدار الثلث ذكر ذلك بشير الناسك وغيره من علمائهم)(الفصل في الملل والأهواء والنحل:1/90)

ونفس ما دفع به ابن حزم عن زرادشت ما نسبه إليه المجوس ذكره غيره من العلماء، قال الباقلاني:(وكذلك الجواب عن المطالبة بصحة أعلام زرادشت إما أن نقول إنها في الأصل مأخوذة عن آحاد، لأن العلم بصدقهم غير واقع لنا، أو نقول إنه نبي صادق ظهرت على يده الأعلام، ودعا إلى نبوة نوح وإبراهيم، وإنما كذبت المجوس عليه في إضافة ما أضافته إليه من القول بالتثنية وقدم النور والظلام وحدوث الشيطان من فكرة وشكة شكها بعض أشخاص النور، وهو بمنزلة كذب النصارى على المسيح عليه السلام من دعائه إلى اعتقاد التثليث والاتحاد والاختلاط، وأن مريم ولدت مسيحا بلاهوته دون ناسوته وغير ذلك)(تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل:203)

وأمر بالاتجاه إلى جهة الشمس والنار وساعة الصلاة، لأن النور رمز إلى الإله وأمر بعدم تدنيس العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والتراب والماء.

وجاء بعده علماء سنوا للزرادشتيين شرائع مختلفة، فحرموا عليهم الاشتغال بالأشياء التي تستلزم النار، فاقتصروا في أعمالهم على الفلاحة والتجارة.

ومن هذا التمجيد للنار واتخاذها قبلة في العبادات تدرج الناس إلى عبادتها حتى صاروا يعبدونها عيناً ويبنون لها هياكل ومعابد، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وجُهلت الحقيقة ونسي التاريخ(1).

ولما كانت النار لا توحي إلى عبّادها بشريعة ولا ترسل رسولاً، ولا تتدخل في شئون حياتهم ولا تعاقب العصاة والمجرمين أصبحت الديانة عند المجوس عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة خاصة في ساعات خاصة، أما في خارج المعابد، وفي دورهم ودوائر حكمهم وتصرفهم، وفي السياسة والاجتماع، فكانوا أحراراً يسيرون على هواهم، وما تملي عليهم نفوسهم، أو ما يؤدي إليه تفكيرهم، أو ما توحي به مصالحهم ومنافعهم، شأن المشركين في كل عصر.

وهكذا حُرِم الفرس في حياتهم ديناً عميقاً جامعاً يكون تربية للنفس، وتهذيباً للخلق، وقامعاً للشهوات، وحافزاً على التقوى وفعل الخيرات، ويكون نظاماً للأسرة وتدبيراً للمنزل وسياسة

وقد ذكر ابن حزم أن هذا القول ليس بدعة للمتأخرين، بل أن من السلف من قال بذلك، قال:(وممن قال أن المجوس أهل كتاب علي بن أبي طالب وحذيفة ، وسعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أصحاب أهل الظاهر، وقد بينا البراهين الموجبة لصحة هذا القول في كتابنا المسمى الإيصال في كتاب الجهاد منه وفي كتاب الذبائح منه ثم قال:(ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم، وقد حرم الله عز وجل في نص القرآن في آخر سورة نزلت منه وهي براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابي)(الفصل في الملل والأهواء والنحل:1/90)

1) انظر تاريخ إيران تأليف شاهين مكاريوس: 221 – 224.

للدولـة، ودسـتوراً للأمـة، ويحـول بين النـاس وطغيـان الملـوك، وعسف الحكام، ويأخذ على يد الظالم، وينتصف للمظلوم، وأصـبح المجـوس لا فـرق بينهم وبين اللادينـيين والإبـاحيين في الأخلاق والأعمال.

أشـار إلى بقعـة أخـرى من العـالم، وقـال: هـذه هي الصـين القديمة، وهنا ـ وفي ذلك الزمان ـ كانت تنتشر ثلاث ديانات: ديانـة (لا وتسو)، وديانة (كونفوشيوس)، والبوذية:

أما **ديانة (لا وتسو)،** فقد تحولت إلى ديانة وثنيـة في عهـد قريب، فهي تُعني بالنظريـات أكـثر منهـا بالعمليـات، وكـان أتباعهـا متقشفين زاهدين، لا يتزوجون ولا ينظرون إلى المرأة، ولا يتصلون بها، فلم يكن لها أن تكـون أُسّاً لحيـاة سـديدة أو حكومـة رشـيدة، حتى التجأ الذين جاءوا بعـد مؤسسـها إلى مخالفتـه والعـدول عنـه إلى غيره.

أما **(كونفوشيوس)** فقـد كـان يعـني بالعمليـات أكـثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمـه في شـؤون هـذه الـدنيا وتـدبير الأمور المادية والسياسية والإدارية، وقـد كـان أتباعـه لا يعتقـدون ـ في بعض الأزمنـة ـ بعبـادة إلـه معين، فيعبـدون مـا يشـاءون من الأشجار والأنهار، وليس فيها نور من يقين ولا بـاعث من إيمـان ولا شرع سماوي، وإنما هي حكمـة حكيم وتجـارب خبـير، يسـتفيد بهـا الإنسان إذا شاء ويرفضها إذا شاء.

أمـا **البوذية**، فقـد فقـدت بسـاطتها وحماسـتها، وابتلعتهـا البرهمية الثائرة الموتورة، فتحولت وثنية تحمل معها الأصـنام حيث سارت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت ونزلت.

وقد غمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهـرت في عهد ازدهار البوذية.

ولم يزل وجود الإله الإيمان به في البوذية موضع خلاف وشك

عند مؤرخي هذه الديانة ومترجمي مؤسسـها، حـتى يحـار بعضـهم ويتساءل: كيف قامت هذه الديانة العظيمة على أساس رقيــق من الآداب الـتي ليس فيهـا الإيمـان باللـه، فلم تكن البوذيـة إلا طرقـاً لرياضة النفس وقمـع الشـهوات، والتحلي بالفضـائل، والنجـاة من الألم، والحصول على العلم.

أشار إلى جزيرة العرب، وقال: في هـذه المنطقـة الـتي ولـد فيها محمد لم يكن يعبد إلا التماثيل التي يصنعها الناس بأيديهم.

لقد كان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص، بل كان لكل بيت صنم خصوصي.

وقد استهترت العـرب عبـادة الأصـنام، فمنهم من اتخـذ بيتـاً، ومنهم من اتخذ صنماً، ومن لم يقدر عليه ولا على بنـاء بيت نصـب حجـراً أمـام الحـرم، وأمـام غـيره، ممـا استحسـن، ثم طـاف بـه كطوافه بالبيت وسـموها الأنصـاب، وكـان في جـوف الكعبـة وفي فنائها ثلاث مائة وستون صنماً، وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة جنس الحجارة.

وكان للعرب آلهة شتى غير هذه الأصـنام من الملائكـة والجن والكـواكب، فكـانوا يعتقـدون أن الملائكـة بنـات اللـه، فيتخـذونهم شفعاء لهم عند الله ويعبدونهم ويتوسـلون بهم عنـد اللـه، واتخـذوا كذلك من الجن شركاء لله وآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم[1].

أشار إلى مناطق أخرى، وقال: لم تكن الوثنية سائدة في بلاد العرب وحدها، بل كل هذه المناطق كانت لا تعرف دينا غير الوثنيـة المتطرفة.

لقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السـادس، فقـد كـان عـدد الآلهة في (ويد) ثلاثـة وثلاثين، وقـد أصـبحت في هـذا القـرن 330 مليون.

---

1) كتاب الأصنام: 44.

وقد أصبح كل شيء رائع، أو كل شيء جذاب، بل كل مرفق من مرافق الحياة إلهاً يعبد.

ولهذا جاوزت التماثيل والآلهة والإلاهات الحصر، وأربت على العد، فمنها أشخاص تاريخية، وأبطال تمثل فيهم الله في عهود وحوادث معروفة، ومنها جبال تجلى عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج الذي خرج من رأس (مهاديو) الإله، ومنها آلات الحرب وآلات الكتابة وآلات التناسل وحيوانات أعظمها البقرة والأجرام الفلكية وغير ذلك، وأصبحت الديانة نسيجاً من خرافات وأساطير وأناشيد وعقائد وعبادات لم يستسغها العقل السليم في زمن من الأزمان.

وقد ارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد، وبلغت أوجها في القرن السادس والسابع، حتى فاق هذا العصر في ذلك العصور الماضية.

وقد عكفت الطبقات كلها، وعكف أهل البلاد من الملك إلى الصعلوك على عبادة الأصنام، حتى لم تجد الديانة البوذية والجينية منها بدا، وتذرعت هاتان الديانتان بهذه الوسيلة للاحتفاظ بحياتهما وانتشارهما في البلاد.

ولعل أشهر ديانة ارتبطت بذلك ديانات الهند منذ العهد القديم، فقد تناقلت الكتب الهندية، وتحدثت الأوساط الدينية عن ظهور صفات الإله، وعن وقوع الحوادث العظيمة وعن تعليل الأكوان روايات وأقاصيص عن اختلاط الجنسين من الآلهة وغارة بعضها على البيوت الشريفة تستك منها المسامع ويتندى لها الجبين حياء.

وتأثير هذه الحكايات في عقول المتدينين المخلصين المرددين لهذه الحكايات في إيمان وحماسة دينية وفعلها في عواطفهم وأعصابهم واضح، زاد إلى ذلك عبادتهم لآلة التناسل

لإلههم الأكبر (مهاديو)، وتصويرها في صورة بشـعة، واجتمـاع أهـل البلاد عليها من رجال ونساء وأطفال وبنات.

أضف إلى ذلك مـا يحـدث بـه بعض المـؤرخين من أن رجـال بعض الفرق الدينية كانوا يعبدون النساء العاريات، والنسـاء يعبـدن الرجال العراة.

وقـد أصـبح كثـير من المعابـد مواخـير فسـاد، يترصـد فيهـا الفاسق طلبته، وينال فيها الفاجر بغيته، وإذا كان هذا شأن الـبيوت الـتي رفعت للعبـادة والـدين، فمـا ظنـك ببلاط الملـوك وقصـور الأغنياء!؟

إكسير الإسلام

بعد أن استعرض توماس من ذاكرته التاريخية ما كان عليه أهـل العصـر الـذي ولـد فيـه محمـد ﷺ من انحطـاط وارتـداد وسـقوط، قـال لي: في هـذا الوضـع الـذي ذبلت فيـه شـجرة البشرية جاء الإكسير الذي أعاد لها الحياة.

قلت: تقصد الإسلام.

قال: أجل.. لقد جاء الإسلام بتلك القيم النبيلة.. ولم يكتف بأن يبشر بها في جزيرة العرب، بل راح ينشرها على العالم.

فقد كان من مزايـا الإسـلام الكـبرى الـتي خـولت لـه هـذا الدور كونه دينا عالميـا.. لا يـدبن بـه قوميـة من القوميـات.. ولا شعب من الشعوب.

قلت: لقد تم ذلك بحد السيف؟

قـال: لقـد فعـل ذلـك التـاريخ، وليس الإسـلام.. ذلـك أنـه يستحيل أن تحصل أي قناعة بالسيف.

الدعوة:

قلت: ولكن .. ما سر انتشار الإسلام مع كونه لم يستعمل أي شدة أو عنف في فرضه؟

قال: شيئان، كلاهما يطلق عليه الإسلام (الدعوة)

قلت: ما هما؟

قال: السلوك الطيب الـذي أبـداه المسـلمون مـع أهـل البلاد التي دخلوا إليها، ووسائل الإقناع بالحجة والبراهين التي مارسوها.

قلت: فحدثني عنهما.

قال: أما في عهد محمد.. فقد كـانت سـيرة محمـد الممتلئـة بالطهارة والصدق والإيمان تجذب القلوب إليه جذبا.. فلـذلك دخـل الكثير إلى الإسلام بسبب سلوكه وأخلاقه وإيمانه ومـا كـان لـه من الدلائل الكثيرة التي أرشدتهم إلى نبوته.

وأما في عهد من بعده.. فقد كان سـلوك محمـد الـذي ورثـه أتباعـه وراحـوا ينشـرون طيبـه هـو السـر في دخـول النـاس في الإسلام أفواجا.

لقد شهد أصدقاؤنا من المستشرقين للإسلام بهذا..

لقد قال أوليفر: (إن الإسلام لم يأخذ طريقـه خلـف الصـحراء بإفريقية، إلا بعد انحلال دولته الكبرى في المغرب، وكـانت وسـيلة الإسلام لهذه البقاع هي الثقافة والفكر والـدعوة، فانتشـر الإسـلام بين شعوب البربر، وقامت خلف الصـحراء دول إسـلامية لعبت في التاريخ دورا كبيرا)

وقال اللورد هـدلي: (لا أظن أبـدا أن المسـلمين اجتهـدوا في حين من الأحيان أن يحشوا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية في حلـوق الناس وصدورهم بالقوة أو الفظاعة أو التعذيب، ولم يشهر محمـد السـلاح إلا حين الحاجـة القصـوى لحمايـة البشـرية، وإن أعـداء

الإسلام لأعجز من أن يأتوا بدليل أومثل من الأمثلة التي أثرت فيها الحرب على هداية قبيلة واحدة أو شخصواحد)

ويقول المسيو (هنري ديو كاستري)، وهو أحد حكـام الجزائـر الفرنسيين في كتابه عن الإسلام: (هكذا كانت تعاليم النـبي محمـد بعد أن دخل العرب في الإسلام، وقد اقتفى أثره خلفاؤه من بعده، وذلك يضـطرنا الى القـول بمـا قالـه (روبنسـون) قبلنـا: أن شـيعة محمـد هم وحـدهم الـذين جمعـوا بين محاسـنة الأجـانب، ومحبـة انتشار دينهم، هذه العاطفة هي التي أثرت دفعتهم في سبيل الفتح وهـو سـبب لا حـرج فيـه... فنشـر القـرآن جناحيـه خلـف جيوشـه الظافرة، وانقضوا انقضـاض الصـاعقة على افريقيـا الشـمالية من البحر الاحمر الى المحيـط الاطلسـي، ولم يـتركوا أثـرا للعنـف في طريقهم، إلا ما كان لا بد منه في كل حرب، ولكنهم لم يبيـدوا أمـة قط أبت الإسلام)

أنا لم أكتف بالشهادات وحدها.. وإن كان لها تأثيرهـا الخطـير في إبراز الحقائق..

ولكني رحت أتتبع مسيرة الدعوة الإسلامية في كل مراحلها.. وقد تبين لي ـ بعـد البحث الطويـل ــ أن الإسـلام لم يكـره في أي فترة من فترات تاريخه أي أحد في الدخول للإسلام..

حتى مـا أظهـر المتطرفـون الـذين يطلـق عليهم المسـلمون (الخوارج)، فقـد كـانوا مـع شـدتهم مـع مخـالفيهم من المسـلمين متسامحين مع غيرهم من أهل الديانات الأخرى ممــا اضــطر بعض المسلمين إلى التظاهر بالكفر حتى يحتموا منهم.

لقـد كـان حـاديهم إلى ذلـك مـا ورد في القـرآن من تـأمين المخالفين، ففيه: ﴿ وَإِنْ أَحَـدٌ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ اسْـتَجَارَكَ فَـأَجِرْهُ حَتَّى يَسْـمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْـهُ مَأْمَنَـهُ ذَلِـكَ بِـأَنَّهُمْ قَـوْمٌ لَا يَعْلَمُـونَ (6)﴾ (التوبة)

وقد روي أن واصل بن عطاء أقبل في رفقة فلقيهم ناس من الخوارج، فقالوا لهم: من أنتم؟ قال لهم واصل: مستجيرون حتّى نسمع كلام اللّه، فاعرضوا عليّنا. فعرضوا عليهم فقال واصل: قد قبلنا. قالوا: فامضوا راشدين، قال واصل: ما ذلك لكم حتى تبلغونا مأمننا. قال اللّه تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾، فأبلغونا مأمننا)، فجاءوا معهم حتى بلغوا مأمنهم(1).

سكت قليلا، ثم قال: تلك الآية تمثل حقيقة الدعوة في الإسلام.. وعلاقة السيف بها.

الإسلام ــ إذا استعمل السيف ــ لا يستعمله إلا ليوفر للمخالفين الجو المناسب الذي يتيح لهم أن يسمعوا القرآن.. هذه الآية تشير إلى ذلك.

ولهذا كان محمد يعطي الأمان لمن جاءه، مسترشدًا، ولو كان من المحاربين، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، منهم: عروة بن مسعود، ومِكْرَز بن حفص، وسهيل بن عمرو، وغيرهم واحدًا بعد واحد، يترددون في القضية بينه وبين المشركين، فرأوا من إعظام المسلمين لمحمد ما بهرهم وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم.

وقد استنتج الفقهاء من هذا أن من قدم من دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة، أو طلب صلح أو مهادنة أو حمل جزية، أو نحو ذلك من الأسباب، فطلب من الإمام أو نائبه أمانًا، أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام، وحتى يرجع إلى مأمنه ووطنه.

التفت إلي، وقال: قلب الطرف في جغرافية البلاد التي

1) رواه المدائني.

انتشر فيها الإسلام لتعلم أن الدعوة هي التي جذبت قلـوب النـاس للإسلام لا السيف..

فـأكثر المسـلمين في العـالم ينتشـرون في بلاد لم تطأهـا جيوش المسلمين..

لقد دخلت شعوب عظيمـة في الإسـلام دون أن تطـأ أرضـها جيوش المسلمين كشعوب جنوب شرقي آسـيا الـتي انتشـر فيهـا الإسلام على أيدي التجار والدعاة، وتفـوق الإسـلام في أندونيسـيا، وتفوق على الديانات الكنفوشية والبوذية والمسيحية.

حتى المغول الذين اكتسحوا العالم الإسلامي فقتلـوا وحرقـوا ودمـروا، نجـدهم بعـد ذلـك يـدخلون في الإسـلام، وينضـوون تحت لوائــه، ويكونــون من حماتــه.. لقــد قلت في كتــابي (الــدعوة إلا الإسـلام) أذكـرهم: (لا يعـرف الإسـلا م بين مـا تـرك بـه خطـوب وويلات خطبا أعنت قسوة من زوات المغول.. على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته، وظهـر بين الأطلال، واسـتطاع بواسـطة دعاته أن يجذب هؤلاء الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه)

أتدري السر في كل ذلك؟

قلت: ما سره؟

قال: تلك السماحة والسلام والنبـل والـترفع الـذي ربى عليـه محمـد أتباعـه.. لقـد كـانت البـذور الـتي بـذرها محمـد في نفـوس أتباعه، والتربية التي رباهم عليها هي السر في كل ذلك النجاح.

لقــد أرســل البطريــرك النســطورى الثــالث إلى البطريــرك (سمعان) زميله فى المجمع بعد ظهور الإسلام رسالة يقـول فيهـا: (إن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا معنا، ومع ذلك نراهم لا يعرضون النصرانية بسوء، فهم يســاعدوننا ويشــجعوننا على الاحتفــاظ بمعتقــداتنا، وإنهم ليجلــون الرهبــان

والقسيسين، ويعاونون بالمال الكنائس والأديرة)

وقد قال المؤرخ العالمى (هـ. ج. ويلز) فى كتابه (معالم تاريخ الإنسانية): (لقد تم فى 125 عاماً أن نشر الإسـلام لـواءه من نهـر السند إلى المحيط الأطلسى وإسبانيا، ومن حدود الصين إلى مصر العليا، ولقد ساد الإسلام لأنه كـان خـير نظـام اجتمـاعى وسياسـى استطاعت الأيام تقديمه، وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شـعوباً بليـدة سياسـياً: تسـلب وتظلم وتخـوف، ولا تعلم ولا تنظم، كذلك وجدت حكومات أنانية سقيمة لا اتصال بينها وبين أى شعب. فكان الإسلام أوسع وأحدث وأنظف فكـرة سياسـية اتخـذت سـعة النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم، وكان يهب بنى الإنسان نظاماً أفضل من أى نظام آخر)

لقد كان ذلك العدل الذي طالما حلمت الشعوب به هو السـر الأكبر في انتشار الإسلام..

لقد فتح المسلمون مصر، وكان سكانها على دين المسـيحية، فلم يكرههم المسلمون على اعتناق الإسلام، ولو كان هناك إكـراه ما بقى الأقباط على دينهم حتى هذه اللحظة.

إنما أقـام المسـلمون العـدل الـذي أمـرهم بـه دينهم، فـردوا للأقباط كرامتهم الإنسـانية المفقـودة الـتى سـلبهم إياهـا حكـامهم الرومان، وهم على نفس الدين، ولكن على مذهب مخالف.

لقد كان الرومان يلهبون ظهور الأقبـاط بالسـياط لمخـالفتهم إياهم فى المـذهب، فلا يتحـرك الأقبـاط لـرد العـدوان، ولا يجـدون ملجـأ يلجئـون إليـه يمنحهم الحريـة الاعتقاديـة ويمنحهم العـدل والكرامة، فلما جاء المسلمون منحوهم كل ذلك.

سكت قليلا، ثم قال: لقد بحثت في تاريخ الدعوات، فلم أجـد دعوة اكتملت، واكتمل لها من أسـباب النجـاح مـا اكتمـل لمحمـد، ولدين محمد.

قلت: أنت وصلت لهذا.. وغيرك ربما وصل إلى غيره.

قال: كل الصـادقين من البـاحثين من أصـحابنا المستشـرقين ومن غـيرهم وصـلوا إلى مـا وصـلت إليـه.. ولكن منهم من كسـر الحواجز، فأقر، ومنهم من كسرته الحواجز، فسـكت، أو شـهد بمـا لم يعلم..

سأنقل لك بعض شـهادات[1]من عـرفتهم من المستشـرقين الـذين كـانوا يبحثـون عن المثـالب قـدر مـا اسـتطاعوا.. لكنهم لم يجدوا غير المناقب، فراحوا يشهدون بما علموا[2]:

لقد قال (رودي بـرت)، وهـو من علمـاء ألمانيـا المعاصـرين: (كان العرب يعيشون منذ قرون طويلـة في بـوادي وواحـات شـبه الجزيرة يعيثون فيها فساداً،حـتى أتى محمـد ودعـاهم إلى الإيمـان بإله واحد خالق بارئ، وجمعهم في كيان واحد متجانس)

ويقول (مارسيل بوازار)[3]، وهو مفكر، وقانونى فرنسى: (لم يكن محمد على الصعيد التاريخي مبشـراً بـدين وحسـب، بـل كـان كذلك مؤسـس سياسـة غـيرت مجـرى التـاريخ وأثـرت في تطـور انتشار الإسلام فيما بعد على أوسع نطاق)

ويقول (أرنولد توينبي)، وهو المؤرخ البريطاني الشـهير: (لقـد كرس محمد حياته لتحقيق رسالته في كفالة هذين المظهـرين في

1) سـنحاول في هـذه الرسـالة جمـع أكـبر قـدر من الشـهادات المرتبطـة بـالثمرات المختلفة للإسلام، ولا يخفى ما لهذه الشـهادات من اعتبـار برهـاني علمي، بالإضـافة إلى اعتبارها التأثيري في المسلمين أنفسهم، وخاصة من بهرهم الغرب، والحضارة الغربية.

ويحضـرني في هـذا أن بنت الشـيخ المـراغي شـيخ الأزهـر، كـانت مسـافرة مـع أبيهـا فصـادفت في تلـك الرحلـة امـرأة من (الخواجـات) فـراحت تـذكر لابنـة الشـيخ إعجابهـا بالعقاد، وخصوصاً (العبقريات)، وهنا راحت ابنة الشيخ تطلب العبقريـات من أبيهـا، فقـال الشيخ بحسرة:(أنا شيخ الأزهر، وابنتي لم تسمع لي، وسبق أن كلمتها عن العقاد وكتبـه، فلما حدثتها الخواجة استمعت لها وصدقتها) ، ثم عقب بألم ومرارة قـائلاً:(يبـدو أننـا لن نؤمن ولن نصدق بالإسلام إلا إذا آمن الخواجة به)

2) هذه النقول من كتاب (قالوا عن الإسلام)، من مواضع متفرقة منه.

3) سنجري حوارنا الافتراضي معه في فصل (إنسانية)

البيئـة الاجتماعيـة العربيـة، وهمـا: الوحدانيـة في الفكـرة الدينيـة، والقانون والنظام في الحكم، وتم ذلك فعلاً بفضـل نظـام الإسـلام الشامل الذي ضم بين ظهرانيه الوحدانية والسلطة التنفيذيـة معـاً، فغدت للإسلام بفضل ذلك قوة دافعة جبارة لم تقتصـر على كفالـة احتياجات العـرب، ونقلهم من أمـة جهالـة إلى أمـة متحضـرة، بـل تـدفق الإسـلام من حـدود شـبه الجزيـرة واسـتولى على العـالم السوري بأسره من سواحل الأطلسي إلى شواطئ الأوراس)

ويقـول الـدكتور م. ج. دوراني: (وأخـيراً أخـذت أدرس حيـاة النبي محمد، فـأيقنت أن من أعظم الآثـام أن نتنكـر لـذلك الرجـل الرباني الذي أقام مملكة الله بين أقوام كانوا من قبل متحـاربين لا يحكمهم قانون، يعبدون الـوثن، ويقـترفون كـل الأفعـال المشـينة، فغيَّر طرق تفكيرهم، لا بل بـدل عـاداتهم وأخلاقهم، وجمعهم تحت راية واحدة وقانون واحد ودين واحد وثقافة واحدة وحضارة واحـدة وحكومة واحدة، وأصبحت تلـك الأمـة الـتي لم تنجب رجلاً عظيمـاً واحداً يستحق الذكر منذ قرون، أصبحت تحت تـأثيره وهديـه تنجب ألوفـاً من النفـوس الكريمـة الـتي انطلقت إلى أقصـى أرجـاء المعمـورة تـدعو إلى مبـادئ الإسـلام وأخلاقـه ونظـام الحيـاة الإسلامية، وتعلم الناس أمور الدين الجديد)

ويقول (غوستاف لوبـون)، وهـو المـؤرخ المعـروف: (إنَّ هـذا الكتاب (القرآن) تشريع ديني وسياسي واجتماعي).

ويقول (مونتجومري وات) عميد قسم الدراسات العربيـة في جامعة أدنبره سابقاً: (يعتبر القرآن قلاقل العصر نتيجة أسباب دينية بـالرغم من الأسـباب الاقتصـادية والاجتماعيـة والأخلاقيـة، وأنـه لا يمكن تقويمها إلا باستخدام الوسائل الدينية مثـل كـل شـيء، وإنـه لمن الجرأة الشك في حكمة القرآن نظراً لنجـاح محمـد في تبليـغ الرسالة)

ويقول العالم (مايكل هارت) الأمريكي الشـهير: (إن محمـداً

كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشـكل أسـمى وأبـرز في كلا المسـتويين الـديني والـدنيوي.. إن هـذا الاتحـاد الفريـد الـذي لا نظير له للتأثير الديني والدنيوي معاً يخوله أن يُعْتَبَر أعظم شخصية ذات تأثير في تاريخ البشرية)

ويقول (إدوارد بـروي)، وهـو بـاحث فرنسـي معاصـر وأسـتاذ بهذه الجامعـة: (عنـدما قبض النـبي العـربي عـام 632م كـان قـد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسـمو كثـيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسـلام، وصـهرهم في وحدة قوية وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة لم تعرف مثلها من قبل)

ويقـول (فيليب حـتي): (إذا نحن نظرنـا إلى محمـد من خلال الأعمال التي حققها فإن محمـداً الرجـل والمعلم والخطيب ورجـل الدولة والمجاهد يبدو لنا بكل وضوح واحـداً من أقـوى الرجـال في جميع أحقاب التاريخ، لقد نشر ديناً هو الإسـلام، وأسـس دولـة هي الخلافة، ووضـع أسـاس حضـارة هي الحضـارة العربيـة الإسـلامية، وأقام أمة هي الأمة العربية، وهو لا يزال إلى اليوم قوة حية فعالـة في حياة الملايين من البشر)

ويقـول (السـير لنتجنسـتادير): (إن تـاريخ الحكم الإسـلامي يدحض ظنون بعض الغربيين من أن الإسلام لا يصـلح لإقامـة دولـة تسـاس فيهـا الأمـور على قواعـد المصـلحة الاجتماعيـة وحسـن العشرة بين المسلمين وغير المسلمين، وأن مفكـري الإسـلام في جميع العصور بحثوا قواعد الحكم والعـرف من الوجهـة الفلسـفية، وأخرجوا لأممهم مذاهب في السياسة والولاية تسـمو إلى الطبقـة العليا)

ويقول (إدوارد كيبـون): (إن من عبقريـة النـبي العـربي وفي خلال أمته وفي روح دينه أسباب انحلال الدولة الرومانيـة الشـرقية وسقوطها، وإن أبصارنا لتتجه دهشة إلى ثـورة من أعظم الثـورات

التي طبعت أمم الأرض بطابع خالد)

ويقول (برناردشو) بأسلوبه الساخر: (إنَّ محمداً أصلح العــالم وهو جالس يشرب قهوة في المدينة)

ويقــول (صــامويل هنتغتــون) المفكــر الأمــريكي في إحــدى محاضـــراته: (لا آدم ســـميث ولا تومـــاس جيفرســـون ســـيفيان بالاحتياجات النفسـية والعاطفيـة والأخلاقيـة للإنسـان، ولا المسـيح سيفي بها على المدى الطويل، محمد سينتصر)

التنوير:

قلت: وعيت هذا.. وأحسـب أن كـل من قـرأ كتابـك (الـدعوة إلى الإسلام) سيعيه مثلما وعيته.

قال: لقد كتبت ذلـك الكتـاب في بدايـة بحـثي عن الحقيقـة.. وقد ذكرت فيه بعض ما نـدمت عليـه بعـد ذلك[1].. ولكن الحقيقـة أعظم من أن يحتويها كتابي ذلك أو غـيره.. إن الحقيقـة أعظم من أن تحويها جميع كتب الدنيا.

قلت: لقد ذكـرت لي الإكسـير الـذي اسـتفاد منـه من اهتـدوا بهدي الإسلام، وانضموا تحت لوائه.. وبقينا نحن.. نحن الوحيــدون.. أهل أوروبا.. الذين لم يصـبنا إكسـير الإسـلام.. ولكنـا مـع ذلـك من أكثر شعوب العالم تحضرا.

ابتسم، وقال: لولا إكسير الإسلام ما نال قومنـا من الحضـارة ما نالوا.. لولا الإسلام لظلت أوروبا في ظلمات القرون الوسطى.. أو لقضى بعضها على بعض.

قلت: كيف ذلك؟

---

1) مع شهرة تومـاس بالاعتـدال إلا أن البعض شـكك في ذلـك (انظـر:محمـود حمـزة عـزوني، دراسـة نقديـة لكتـاب الـدعوة إلى الإسـلام تـأليف تومـاس ولكـر آرنولـد، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الدعوة من المعهد العالي للـدعوة الإسـلامية بالمدينـة المنورة)

قال: لقد بحثت في هذا كما بحثت في غيره.. وسأعطيك خلاصة موجزة لأبحاثي في هذا المجال.

لقد قدم الإسلام لقومي خدمات لا يمكن إحصاؤها، وهي تشمل الجانبين: الدين والحياة.

الدين:

قلت: الدين!؟.. وما علاقة ديننا بإكسير الإسلام؟

قال: إن له علاقة وطيدة.. ليس بالمسيحية وحدها.. بل باليهودية أيضا..

وسأبدأ بتأثيره على اليهودية التي هم أم المسيحية الأولى..

لقد كان الإسلام والتعاليم العظيمة التي جاء بها سببا من أهم أسباب حركات التنوير التي حصلت في اليهودية(1).. فقد انطلق دعاة حركة التنوير اليهودية من المنطلقات نفسها التي انطلقت منها حركة الاستنارة الغربية بكل محاسنها ومساوئها وبكل تعميماتها وتناقضاتها.

فقد أنكر دعاة التنوير ما تصوروه طفيلية اليهود وهامشيتهم، وهي سمات مرتبطة بالوظائف التقليدية لليهود ومسألة التجارة والربا، فطالبوا بضرورة تغيير ذلك حتى يمكن تحويل اليهود من عناصر هامشية منعزلة إلى عناصر منتجة مندمجة.

كما طالبوا بضرورة تشجيع اليهود على الاشتغال بالزراعة والحرف اليدوية.

ولم يكن للدعوة إلى تحديث وظائف اليهود وحرفهم ومهنهم مضمون اقتصادي وحسب، وإنما كان لها مضمون ثقافي ونفسي عميق، إذ كانت دعوة إلى أن يتحرك أعضاء الجماعة من مسام

1) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

المجتمع كجماعة وظيفية وسيطة منعزلة لها ثقافتها الخاصة إلى نخاعه أو صلبه. فيصبحون مثل بقية أعضاء المجتمع، يتحدثون بلغته ويرتدون أزياءه وينتمون إليه ويدينون له وحده بالولاء.

وقد طالب هؤلاء التنويريون بأن تتم العملية التعليمية خارج الإطار الديني وأن تشمل الجماهير كلها وليس الأرستقراطية الفكرية وحدها من الحاخامات وغيرهم، كما طالبوا إخوانهم في الدين بأن يرسلوا أولادهم إلى المدارس غير اليهودية حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية، مثل الهندسة والزراعة، وشجعوا ممارسة الأعمال اليدوية، كما دافعوا عن تعليم المرأة.

وبالفعل، بدأت المدارس اليهودية العلمانية تظهر، لأول مرة في تاريخ الجماعات اليهودية الأوربية، مع منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وافتُتحت أول مدرسة يهودية لتعليم المرأة في روسيا عام 1836. وكان دعاة التنوير يرون أن التعليم العلماني هو السبيل إلى تحديث اليهود ودمجهم وعلمنتهم.

وقد حاولوا أن يُدخلوا نزعة عقلانية على اليهودية، فأحيوا كتابات المفكر العربي (الإسلامي) المؤمن باليهودية موسى بن ميمون الذي كان يطالب منذ العصور الوسطى بإدخال التعليم غير الديني على الدراسات الدينية اليهودية.

ويُعَدُّ المفكر الألماني موسى مندلسون، الذي تأثر بأعمال موسى بن ميمون، أباً للتنوير اليهودي.

وقد صاغ موسى بن ميمون المبادئ الثلاثة عشر التي جعلها أساس الدين اليهودي وأركان الإيمان فيه على غرار أصول الإيمان في الإسلام، وأدرج فيها بعض أصول الإيمان الإسلامية مما لم يكن معروفًا في اليهودية من قبل أو مدرجًا في العهد القديم، كالاعتقاد بأن الله عالم، وبالثواب والعقاب في الآخرة، والاعتقاد في بعث الموتى.

وحدد مفهوم النبوة والمعجـزة لأول مـرة في اليهوديـة، وقـد جاء إما متأثرًا بنظريـة الفلاسـفة المشـائين كالفـارابي وابن سـينا، وإمـا متابعًـا لجمهـور علمـاء الإسـلام في اسـتدلالهم على هـذه المعتقدات بالنصوص القرآنية.

وقد أقر ابن كمونة بعدم ذكر الثـواب والعقـاب الأخـروي في التوراة وراح يعتذر عن ذلك ويحاول تسـويغه، وهـذا يؤكـد اقتبـاس ابن ميمون هذه الأصول من الإسلام.

بالإضافة إلى هذا، فقـد بـدأ نقـد التـوراة، يقـول (واكسـمان) صاحب كتاب (الأدب اليهـودي): (في القـرن الحـادي عشـر دخلت الفلسـفة اليهوديـة مرحلـة جديـدة متـأثرة بالمؤلفـات الفلسـفية الإسلامية والأفكار الإسلامية، وكان من أثر هـذا أن بـدأ الشـك في التلمود، وبدأت تظهر أفكار حرة، ولم يقتصر الهجوم والنقـد الـذي قام به القراءون والطوائف المتصلة بهم على التلمـود، بـل شـمل الكتاب المقدس أعظم إنتاج عقلي في الدين اليهودي)[1]

أما التأثير الإسلامي على المسيحية، فواضح لا شك فيه.

ولعـل أهم هـذه الآثـار هـو حمايـة الإسـلام المسـيحية من السقوط في حمأة الوثنية التي كـان لا يفـرق بينهـا وبينهـا إلا قـاب قوسين أو أدنى.

قلت: إن ما تقوله غير صحيح.. فلم تقترب المسيحية في يوم من الأيام من رجس الوثنية.

وكيف تقترب من الوثنية، وكتابها المقدس يقول لها: (لا تصنع لك تمثالا منحوتا، ولا صورة ما مما في السماء من فـوق، ومـا في الأرض من أسفل، ومـا في المـاء من تحت الأرض. لا تسـجد لهن، ولا تعبدهن لأني أنا الرب إلهك غيور) (سفر التثنية: 5: 8)

---

1) نقلا عن إبراهيم موسى هنداوي، الأثر العربي في الفكر اليهودي. ص 144، مكتبة الأنجلو المصرية 1963 م.

ويقول لها: (فاحذروا لأنفسكم جدا، فأنتم لم تـروا صـورة مـا حين خاطبكم الرب في جبل حوريب من وسط النـار. لئلا تفسـدوا فتنحتوا لكم تمثالا لصورة ما لمثال رجل أو امرأة)(تثنية: 4: 15)

ويقـول لهـا: (لا تصـنعوا لكم أصـناما، ولا تقيمـوا لكم تماثيـل منحوتة، أو أنصابا مقدسـة، ولا ترفعـوا حجـرا مصـورا في أرضـكم لتسجدوا له) (اللاويين: 26: 1)

هـذه هي نصـوص التـوراة الـتي وردت في النهي عن عمـل الصـور والتماثيـل وعن عبادتهـا، والسـجود لهـا.. وأنت تعـرف أن التوراة تعتبر كتابا مقدسا لدى المسيحيين، بالإضـافة إلى أن العهـد الجديد خال من أي دعوة لعبادة الأوثان.

قـال: ولكن المسـيحيين اقتبسـوا هـذه العبـادة كمـا اقتبسـوا غيرها.. بل كادت تصبح ديانة وثنية لولا أن حماها الله بالإسلام.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا تسمع بالأيقونات[1]؟

قلت: بلى..

قال: ألم تسمع بأنه مر بها يوم من الأيام صارت تعبد فيه من دون الله؟

سكت، فقال: لقد جاء يوم على المسيحية عبدت فيه الصــور والتماثيـل، فلا تكـاد تجـد ديـرا أو كنيسـة إلا وهمـا ممتلئـان بشـتى الصور والتماثيل، للمسيح، ولمريم، والقديسين منهم، وهي موضـع تقديسهم وعبادتهم.

---

1) (الأيقونة) باليونانية (آيكون) بمعنى (صورة) أو (تمثيل)، ومنهـا (التـأيقن) بـالنحت. وفي السياق المسيحي، تشير كلمة (أيقونة) إلى (لوحة) أو (رسـم بـارز) (بالفرنسـية: بـا رليـف bas-relief) أو "لوحـة فسيفسـائية للمسـيح أو العـذراء (وأحيانـاً أحـد القديسـين). وكانت الأيقونات تُعتبَر أداة مساعدة أو وسيطاً للعابـدين حـتى يمكن للشـخص المقـدَّس المصوَّر في الأيقونة والمتجسِّد فيهـا، أن يسـتمع لـدعواتهم، انظـر: الموسـوعة اليهوديـة للمسيري.

وبـالتتبع التـاريخي لهـذه الشـعيرة نجـد أنهـا لم تكن في أول أمرها كما هي عليه الآن، بل قد كانت نشـأتها في البدايـة محـدودة النطاق، ثم ما لبثت أن نمت تدريجيا، وانتشرت انتشارا واسـعاً، ثم أصبحت من ضمن شعائر المسيحية، وذلك عن طريق مجامعهم.

هذا ليس كلامي.. بل إن الشهود من المسيحيين يثبتون هذا.. يقول المؤرخ المسيحي (ول ديورانت): (كانت الكنيسة أول أمرهـا تكره الصور والتماثيل، وتعدها بقايا من الوثنية، وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهـة، ولكن انتصـار المسيحية في عهد قسطنطين، وما كان للبيئة والتقاليـد والتماثيـل اليونانية من أثر.. كل هذا قد خفف من حدة مقاومـة هـذه الأفكـار الوثنية.

ولما تضاعف عدد القديسين المعبـودين، نشـأت الحاجـة إلى معرفتهم وتذكرهم، فظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصــور، ولم يعظم الناس الصور التي يزعمون أنها تمثل المسيح فحســب، بل عظموا معها خشبة الصليب، حتى لقد أصبح الصـليب في نظـر ذوي العقول الساذجة طلسماً ذا قوة سحرية عجيبة.

وأطلــق الشـعب العنــان لفطرتــه، فحــول الآثــار، والصــور، والتماثيل المقدسـة إلى معبـودات، يسـجد النـاس لهـا، ويقبلونهـا، ويوقدون الشـموع ويحرقـون البخـور أمامهـا، ويتوجونهـا بالأزهـار، ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي.

وفي البلاد التي تتبـع مـذهب الكنيسـة اليونانيـة بنـوع خـاص، تستطيع أن ترى الصـور المقدسـة، في كـل مكـان، في الكنـائس، والأديــرة، والمنــازل، والحــوانيت، وحــتى أثــاث المــنزل، والحلي، والملابس نفسها لم تخل منها.

وأخذت المـدن الـتي تتهـددها أخطـار الوبـاء، أو المجاعـة، أو الحرب، تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينيـة أو على مـا فيهـا

من الأولياء والقديسين للنجاة من هذه الكوارث)

ولكنه ما إن انتشـر الإسـلام، وعم أرجـاء المعمـورة، وخاصـة في القرن الثامن الميلادي، وعرفت تعاليمه لغـير أهلـه ــ ومـا فيـه من النهي عن اتخاذ الصور والتماثيل فضلا عن تقديسها ـ حتى بــدأ بعض المنصـفين من المسـيحيين وأربـاب السـلطان في نبـذ هـذه البدعة والعمل على إزالتها.

ومن هـؤلاء الإمـبراطور (ليـو الثـالث)، الـذي تشـبعت نفسـه بفكـرة سـرت إليـه من المسـلمين وغـيرهم الـذين ذمـوا عكـوف جمهرة المسيحيين على تعظيم الصور والتماثيل في الكنائس وفي خارجها، فعقد مجلسا من الأساقفة وأصدر مرسوما عــام (726م) يطلب فيه إزالة جميع الصور والتماثيل الدينية من الكنائس، وحـرم تصوير المسيح والعذراء، وأمر بأن يغطي بـالجص مـا على جـدران الكنــائس من صــور، لكن لم يقابــل هــذا المرســوم بالموافقــة الجماعية، فكان أن عارضته الكنيسة، وثار عليـه الشـعب. واتفقـوا على عزل (ليو) وطرده من الحكم.

واجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابـا (جريجـوري الثاني)، وصب اللعنـة فيـه على محطمي الصـور والتماثيـل، إلا أن أولاد (ليــو الثــالث) ســاروا على نهجــه، منهم ابنــه (قســطنطين الخامس 741 – 775م) حيث جمع هذا الإمـبراطور مجلسـا من أساقفة الشرق في القسطنطينية سـنة (754م) قـرر فيـه بصـفة قاطعة: تحريم اتخاذ الصـور والتماثيـل في العبـادة، ووصـفها بأنهـا عمل ممقوت، وحرم طلب الشفاعة من العذراء، وأمر بــأن يمحى أو يدمر كل ما في الكنائس من صور وتماثيل.

وعلى هذا سار أحفاده من بعده حتى كان عام (787م) حيث دعت الإمبراطورة (إيريني) ـ التي كانت معاصرة لهارون الرشـيد ـ رجال الدين في العالم المسيحي إلى عقد مجمـع عـام للبحث في مسألة (الصور والتماثيل)، واتخاذ قرار حاسم بشـأنها. فـاجتمع في

مدينة نيقية عام (787م) حـوالي (377) أسـقفا، وأصـدروا قـرارا بتعظيم صور المسيح وأمه والقديسين، لا بعبادتها.

وجاء في قرار هذا المجمع ما يلي: (نحكم بـأن توضـع الصـور ليس في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط، بــل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات، لأننـا إن أطلنـا مشـاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدتـه القديسـة والرسـل، وسـائر القديسـين في صورهم، شـعرنا بالميـل الشـديد إلى التفكـير فيهم، والتكـريم لهم، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور)

واستمر الحال هكذا، حتى قامت حركة الإصـلاح الكنسـي في القرن الخامس عشر الميلادي، وكان من مبادئها منع اتخـاذ الصـور والتماثيل في الكنائس والسجود لها متأثرين في ذلك بمـا رأوه من المسلمين عن طريق الحروب الصليبية.

بالإضافة إلى هذا، فقد ظهر لمقاومة هذه الظـاهرة الخطـيرة حركة تُسمَّى (أيكونوكلازم) (iconoclasm)، أي (تحطيم الأيقونــات) أو (تحطيم الأوثان)، وقد ظهرت حـول القسـطنطينية في القـرنين الثامن والتاسع تحت تأثير الإسلام.

لقد رأت هذه الحركة أن الأيقونات تشكل سقوطاً في الوثنية باعتبـار أن كثـيراً من المصـلين أصـبحوا يظنـون أن الأيقونـة هي نفسها الشخص المقدَّس المرسوم عليها.

وقد نجحت الحركة بشـكل مـؤقت إذ ظهـر أبـاطرة معـادون للأيقونـات، وحـتى بعـد قمـع الحركـة، كـان الفنـانون البـيزنطيون يحاولون الابتعاد عن التصوير الواقعي والميل نحـو التجريـد، وذلـك حتى يبتعدوا عن التجسيم والتوثين.

ليس هذا فقط هو تأثير الإسلام في المسيحية..

فمن تأثيره فيها مـا دعـا إليـه البروتسـتانت من حريـة قـراءة

الكتاب المقدس، ورفض احتكـار الكنيسـة تفسـيره، والـتي فتحت الباب أمام حركة نقد الكتـاب المقـدس في الغـرب، تلـك الحركـة المنهجية التي تدين بالفضل لعلماء الإسـلام الـذين كتبـوا في الـرد على هذا الاحتكار كابن حزم والغزالي والقرطـبي وابن تيميـة وابن القيم، وغيرهم.

لقد شهد قـاموس (بـرتلس مـان) لـديانات العـالم على تـأثير الإسلام في المسيحية، فقال: (لقـد أثَّر الإسـلام تـأثيرًا عظيمًـا في العقيدة المسيحية والفلسفة، وقاد على سـبيل المثـال إلى نقـاش جديد حول عبادة الصور وتقديسها في المسيحية)

الحياة:

قلت: وعيت كلامـك في تـأثير الإسـلام في الإصـلاح الـديني.. فما تأثيره في إصلاح الحياة.. حياتنا نحن الأوروبيين؟

قال: لهذا أيضا بعض علاقة بالدين.. وبالخصوص بالكنيسة.

قلت: كيف ذلك؟

قال: أنت تعلم أن الكنيسة كانت ذات سطوة عنيفة على كل مرافق الحياة فى أوروبـا فى قرونهـا الوسـطى المظلمـة.. وكـان سبب ذلك سيطرة الفساد الكامن فى الكنيسـة على كـل مرافـق الحياة.

لقد أخطأ بعض قومنا، أو كثير منهم، فتصـوروا أن الـدين هـو سبب ذلك التخلف، وسبب ذلك الظلام الذي غمر قروننا الوسـطى بينما الدين بريء من ذلك..

لقد كان المسلمون في تلك العصور في أزهى فترات حياتهم مع كونهم كانوا ملتزمين بدينهم.

وقد ذكر التاريخ ــ الـذى تكـره أوروبـا الاعـتراف بـه إلا القلـة

المنصفة ـ أن أوروبا بدأت تخرج من ظلمات قرونها الوسطى المظلمة حين احتكت بالمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، سواء فى الحروب الصليبية، أو البعوث التى بعثتها للتعلم فى مدارس المسلمين فى الأندلس بصفة خاصة، وفى صقلية وغيرها من البلاد التى نورها الإسلام.

بل تذكر الروايات التاريخية أن رجال الدين المسيحى أنفسهم كانوا يتعاطون الثقافة الإسلامية فى تلك المدارس، أو فيما ينقل منها إلى اللغات الأوروبية، وأنهم كانوا يترقون فى مناصب الأكليروس بقدر ما يحصلون عليه من تلك الثقافة.

وقد قال روجر بيكون فى القرن الثالث عشر الميلادى: (من أراد أن يتعلم، فليتعلم العربية لأنها هى لغة العلم)

لقد وجدت أوروبا عندما احتكت بالمسلمين ـ في المواطن المختلفة التي أتيح لها أن تحتك بهم فيها[1] ـ عالما عجيبا بالنسبة لها، ليس فيه بابورات، ولا رجال دين.. وليست فيه أسرار عقدية يختص بعملها فريق من الناس دون فريق.. وليس فيه نبلاء يستعبدون الناس فى إقطاعياتهم.. وليس فيه حجر على العقول أن تفكر، ولا حجر على العلم أن يبحث ويجرب وينشر أبحاثه على الناس.

قال (راندال) فى كتابه (تكوين العقل الحديث): (وبنوا ـ يقصد المسلمين ـ فى القرن العاشر فى أسبانيا حضارة لم يكن العلم فيها مجرد براعة فحسب، بل كان علما طبق على الفنون والصناعات الضرورية للحياة العملية، وعلى الإجمال كان العرب يمثلون فى القرون الوسطى التفكير العلمى والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلهما فى أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة)[2]

---

1) سنذكر بعض هذه المواطن في هذا المبحث.

2) تكوين العقل الحديث، ترجمة جورج طعمة: 1 / 314.

وقال ليوبولد فايس ـ الـذي بهـره الإسـلام، فأسـلم، وتسـمى محمد أسد ـ فى كتابه (الإسلام على مفترق الطرق): (إن العصـور الوسطى قد أتلفت القوى المنتجة فى أوروبـة.. كـانت العلـوم فى ركود، وكانت الخرافة سائدة، والحياة الاجتماعية فطرية خشنة إلى حد من الصعب علينا أن نتخيله اليوم، فى ذلـك الحين أخـذ النفـوذ الإسـلامى فى العـالم ــ فى بـادئ الأمـر بمغـادرة الصـليبيين إلى الشرق، وبالجامعات الإسـلامية الزاهـرة فى أسـبانيا المسـلمة فى الغـرب، ثم بالصـلات التجاريـة المتزايـدة الـتى أنشـأتها جمهوريتنـا جنـوة والبندقيـة ــ أخـذ هـذا النفـوذ يقـرع الأبـواب الموصـدة دون المدنية العربية.

وأمـام تلـك الأبصـار المشـدوهة، أبصـار العلمـاء والمفكـرين الأوروبيين، ظهرت مدنية جديدة، مدنية مهذبة راقية خفاقة بالحياة، ذات كنوز ثقافية كانت قد ضاعت، ثم أصبحت فى أووربة من قبـل نسيا منسيا، ولكن الذى صـنعه العـرب كـان أكـثر من بعث لعلـوم اليونان القديمـة.. لقـد خلقـوا لأنفسـهم عالمـا علميـا جديـدا تمـام الجدة.. لقد وجدوا طرائق جديدة للبحث وعملوا على تحسينها، ثم حملوا هذا كله بوسائط مختلفة إلى الغرب، ولسنا نبالغ إذا قلنـا إن العصر العلمى الحديث الذى نعيش فيه لم يدشن فى مـدن أوروبـا النصـــرانية، ولكن فى المراكـــز الإســلامية: فى دمشـــق وبغـــداد والقاهرة وقرطبة)(1)

قلت: فكيف تسـنى لأوروبـا أن تتصـل بالمسـلمين، وتسـتفيد منهم، بالرغم مما كان بينهما من شحناء وبغضاء لا تزال أثارة منهـا إلى يومنا هذا؟

قال: لقد كانت لـذلك طـرق كثـيرة.. وجسـور ممتـدة.. وأنت تعرف المسلمين.. فهم أكثر الناس طيبة ولو مع أعدائهم.

لقد كان من تلك الجسور التي وصلت أوروبا بالإسـلام جسـر

1) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ، ص 39 – 40.

الأندلس(2).. أو إسبانية حالياً.. فالأندلس قطعة من أوروبة، تجاور فرنسا وهي قريبة من إيطاليا وإنكلترا وغيرها من الأقطار الأوروبية.

وقد أرسلت كثير من البلاد الأوروبية أبناءها على شكل بعثات ترعاها مستويات رسمية عالية، للدراسة في بلاد الأندلس.. وتصدى كثيرٌ منهم للقيام بعملية ترجمة لأمهات كتب التراث العربي الإسلامي إلى اللاتينية وغيرها، وعلى رأس ذلك كله القرآن، وقد بدأوا بدراسة العلوم، واستمر الانتفاع مما لدى أهل الأندلس من علوم نظرية وفلسفية وعلوم مادية وتطبيقية طيلة وجود العرب في الأندلس.

وبذلك تعتبر المكتبة الإسبانية العامة في مدريد من المكتبات المهمة التي تحتوي على الكثير من المخطوطات العربية والإسلامية، التي تصدى الغرب لدراستها والانتفاع منها بعد نقلها إلى لغاتهم، وهكذا كانت بذور النهضة الأوروبية.

ومن تلك الجسور الحروب الصليبية التي وضعت الأوروبيين في مواجهة مباشرة مع الشرق وحضارته وعلومه، ورغم الإساءة في البداية إلى التراث العربي الإسلامي إذ حرق الصليبيون في أنطاكية عند الاستيلاء عليها الكثير من المخطوطات العربية الإسلامية، فقد التفت الأوروبيون إلى ضرورة الانتفاع من هذا التقدم الذي يشاهدونه، فنقلوا في سفنهم كل ما استطاعوا نقله من كتب، وأدوات، ومحاصيل يمكن زراعتها في بلادهم، حتى الحِرَف المختلفة نقلوها إلى بلادهم، ونشطوا في إقامة المعاهد والجامعات وتدريس كتب العرب المسلمين في جامعاتهم.

لقد بقي كتاب (القانون) في الطب لابن سينا يُدرّس في بروكسل ــ بلجيكا ــ حتى 1909م، ومثل ذلك كتب الجبر، والرياضيات، وعلوم الطب، والصيدلة، وعلم الحيل (الميكانيك)،

2) انظر: الثقافة الإسلامية وأثرها في الحضارة. الأستاذ محمود الشرقاوي.

والكيمياء، والنبات، كل ذلك انتقل إلى جامعاتهم، واسـتمر تـدريس تلك الكتب لعدة قرون، وبذل علماؤهم جهوداً كبـيرةً في الدراسـة التطبيقيـة والتجريبيـة حـتى وضـعوا بلادهم على عتبـة الحضـارة الحديثة والمعاصـرة، وعجّت معـاجمهم بـالمفردات والمصـطلحات العربيـة الإسـلامية العلميـة، على اختلاف أنواعهـا مـع شـيء من تطويع هذه المفردات لإدخالها في لغتهم.

ومن تلـك الجسـور جسـر صـقلية وجنـوب إيطاليـا، فقـد فتح العرب المسلمون صقلية في العهد العباسي، وحيثمـا حـلّ العـرب حلّت معهم رسالتهم وعلومهم.

وحتى عندما غادر العرب جنوب إيطاليا وصقلية على يد روجر النورمندي، حرص روجر على تشجيع العرب المسلمين للبقـاء في صقلية، وذلـك لعلمـه بغـزارة علـومهم وعظمـة حضـارتهم، ومنهم الشريف الإدريسي الذي رسم العالم المعروف لديه على لـوح من الفضة وأهداه للملـك، كمـا أهـداه كتابـاً في الجغرافيـة هـو (نزهـة المشتاق في اختراق الآفاق)[1]

كما شجع روجر ترجمة العلـوم العربيـة الإسـلامية إلى لغتهم، وسار على نهجه من بعده، أمثال فريدريك ملك صقلية، الذي بشّـر بالحضارة الإسلامية في أوروبة، وبنى مدرسـة للطب في سـالرنو، وأسس جامعة نابولي.. وهكذا وجدت الحضـارة العربيـة الإسـلامية طريقاً ثالثاً سلكته إلى أوروبة.. فكانت ولادة الحضارة الأوروبية.

قلت: ولكن الأوروبيين اليوم ينكرون ذلك أعظم إنكار؟

قال: دعهم ينكروا.. فلا خير فيمن ينكر خير غيره..

ومع ذلك، فليس كل الأوروبيين بذلك الحقد.. لقد كـان هنـاك علماء منصفون شهدوا بتأثير الحضارة الإسلامية العظيم في أوروبا وحياة أوروبا ونهضة أوروبا.

---

1) انظر: الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي: 1/284.

ومنهم المؤرخ الفرنسي المعروف (جوستاف لوبون) الذي تناول في كتابه (حضارة العرب) تأثير حضارة الإسلام في الغرب وأرجع فضل حضارة أوربا الغربية إليها وقال: (إن تأثير هذه الحضارة بتعاليمها العلمية والأدبية والأخلاقية عظيم، ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير العظيم الذي أثره العرب في الغرب الا إذا تصور حالة أوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة)(2)

وقد ذكر في كتابه هذا بأن عهد الجهالة قد طال في أوربا العصور الوسطى، وأن بعض العقول المستنيرة فيها لما شعرت بالحاجة إلى نفض الجهالة عنها، طرقت أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم في ذلك العهد.

ويقرر لوبون أن العلم دخل أوربا بواسطة الأندلس وصقلية وإيطاليا، وأنه في سنة 1120م أنشئت مدرسة للترجمة في طليلة بالأندلس بعناية (ريمولة) رئيس الأساقفة، وأن هذه المدرسة أخذت تترجم إلى اللاتينية أشهر مؤلفات المسلمين، ولم يقتصر هذا النقل على كتب الرازي وابن سينا وابن رشد فحسب بل نقلت اليها كتب اليونان التي كان العرب قد نقلوها إلى لسانهم.

ويضيف لوبون أن عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللاتينية يزيد على ثلثمائة كتاب.

وهو يؤكد فضل العرب على الغرب في حفظ تراث اليونان القديم بقوله: (فإلى العرب، وإلى العرب وحدهم، لا إلي رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى وجود اللغة اليونانية، يرجع الفضل في معرفة علوم الأقدمين، والعالم مدين لهم على وجه الدهر لإنقاذهم هذا الكنز الثمين، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها، مدة خمسة قرون، موردًا علميًا سوى مؤلفاتهم وأنهم هم الذين مدنوا أوربا مادة وعقلاً، وأخلاقًا، وأن التاريخ لم يعرف

---

2) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص 26.

أمة أنتجت ما أنتجـوه في وقت قصـير، وأنـه لم يفـوقهم قـوم في الإبداع الفني)(1)

وأكد لوبون أثر الاسلام وأثـر حضـارته في كـل بلـد اسـتظلت برايته قـائلاً: (كـان تـأثير العـرب في عامـة الأقطـار الـتي فتحوهـا عظيمًا جدًا في الحضارة، ولعل فرنسا كـانت أقـل حظـاً في ذلـك، فقد رأينا البلاد تتبدل صورتها حينما خفق علم الرسول الذي أظلهـا بأسرع مايمكن، ازدهرت فيهـا العلـوم والفنـون والآداب والصـناعة والزراعة أي ازدهار)(2)

وأشاد لوبون بفضل العرب في نشر العلـوم وفتح الجامعـات في البلاد التي استظلت برايتهم فيقول: (ولم يقتصـر العـرب على ترقية العلوم بما اكتشفوه، فالعرب قد نشروها، كـذلك بمـا أقـاموا من الجامعات وما ألفوا من الكتب، فكان لهم الأثر البالغ في أوربـا من هذه الناحية، ولقد كـان العـرب أسـاتذة للأمم المسـيحية عـدة قرون، وأننا لم نطلع على علوم القدماء والرومان الابفضل العرب، وأن التعليم في جامعاتنـا لم يسـتغن عمـا نقـل إلى لغاتنـا من مؤلفات العرب)(3)

ومن الشهداء المنصفين الفيلسوف الفرنسـي (رينيـه جينـو)، الذي أسلم، وتسمى (عبد الواحد يحيى)، فقد قال: (والأثر الواضـح الذى يثبت لنا انتقال المؤثرات الثقافية من المسلمين إلى أوربا هو تلك الكلمات العربية الأصل التي تستعمل لنقل الأفكار وإظهـار مـا تكنه النفوس، فإن من السهل علينا أن نستنتج انتقال تلـك الأفكـار والآراء الإسلامية نفسها، وفي الحق أن تأثير الحضارة الإسلامية قد تناول إلى درجـة بعيـدة، وبشـكل محسـوس كـل العلـوم والفنـون والفلسفة وغير ذلك، وقد كانت إسبانيا مركز الوسـط إلهـام الـذي

1) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 26.

2) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 66.

3) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص569.

انتشـرت منـه تلـك الحضـارة، فالكيميـاء احتفظت دائمـا باسـمها العربي، وعلم الفلك أكثر اصطلاحاته الخاصة ماتزال محتفظـة في كل اللغات الأوربية بأصلها العربي، كما أن كثيرا من النجوم مايزال علمـاء الفلـك في كـل الأمم يطلقـون عليهـا أسـماء عربيـة، ومن السهل جدًا أن نوضح أن كثيرًا من المعارف الجغرافية عـرفت من الرحالـة العـرب الـذين جـابوا كثـيرًا من الأقطـار وحملـوا معهم معلومات جمة.. وإننا لنجـد أثـر الثقافـة الإسـلامية في الرياضـيات أكـثر وضـوحًا، وهـذا علم الحيـوان الـذي يسـهل علينـا من اسـمه العــربي أن نعــرف طريــق انتقالــه إلى الغــرب، كمــا أن الأرقــام الحسابية التي يستعملها الأوربيون هي نفس الأرقام التي استعملها العـرب، وأن كثـيرًا من المعـاني الـتي جـادت بهـا قـرائح الكتـاب والشـعراء المسـلمين أخـذت واسـتعملت في الأدب الغـربي، كمـا نلاحظ أن أثر الثقافة الإسلامية واضح كل الوضـوح وبصـفة خاصـة في فن البناء وذلك في العصور الوسطى.

ولم تكن هناك وسيلة لتعرف أوربـا الفلسـفة اليونانيـة الا عن طريق الثقافة الإسلامية، لأن التراجم اللاتينيـة لأفلاطـون وأرسـطو لم تنقل أو تترجم من الأصـل اليونـاني مباشـرة، وإنمـا أخـذت من التراجم العربية، وأضيف إليها ماكتبه المعاصرون المسـلمون مثـل ابن رشد وابن سينا في الفلسفة الإسلامية.

ويختم رينيه جينو شهادته بقولـه: (هـذا جـزء من كـل من أثـر الثقافة الإسلامية في الغرب، ولكن الغربيين لايريدون أن يقولوا به لأنهم لا يريدون الاعتراف بفضل الشرق عليهم، ولكن الزمن كفيل بإظهار الحقائق)(1)

ليس العلماء وحدهم هم الـذين شـهدوا لفضـل الإسـلام على الغرب.. هناك ساسة منصفون شهدوا له أيضا.. ففي مطلع القرن الحادي والعشـرين الميلادي، ظهـر كتـاب (توكيـد الـذات الأوربيـة:

---

1) انظر: الفيلسوف رينيه جينو أو عبد الواحد يحيى، للدكتور عبد الحليم محمــود، ص 50 – 60.

آفـاق القــرن الحـادي والعشـرين) للمستشـار الألمـاني هيلمـوت شميت، وقـد وضـح فيـه مسـاهمة الثقافـة الإسـلامية العربيـة في روافد الثقافة الأوربية، وضرورة الإسلام في تطور أوروبا مستقبلاً.

وقد أفرد لهذه النقطة عشر صفحات في كتابه الذي يقـع في 255صـفحة، وهـو يقـول في ختـام معالجـة هـذه النقطـة: (خلال القرن الجديد سيصـبح الجـوار الجديـد مـع الإسـلام أحـد الشـروط الأساسية لتأكيد الذات الأوربية والحفـاظ عليهـا، ومن المحتمـل أن يعتمد إحلال السلام والاستقرار في أوروبا على هذا الشرط)

في حفـل تكـريم المستشـرقة الألمانيـة (آنـا مـاري شـميل) وتسـليمها جـائزة السـلام من (رابطـة الكتـاب الألمـان)، في 10/1/1995م، لمناصـرتها الفكـر الإسـلامي، ودعوتهـا إلى فهمـه وتغيير الصورة الشـوهاء الـتي شـكلها الإعلام الأوربي عن الإسـلام والمسلمين، ألقى الرئيس الألماني (رومان هوتسـوج) كلمـة دعى فيهـا إلى أهميـة فهم الإسـلام فهمـاً صـحيحاً، وأشـاد فيهـا بـالتنوير الإسلامي الذي حفظ للغرب ـ قبل سـتة أو سـبعة قـرون ــ أجـزاء عظيمة من التراث القديم

وقال الرئيس الألماني: (هل يجـوز لنـا أن نصـنف المسـلمين الأتقيـاء مـع (الأصـوليين الإرهـابيين) فقـط لمجـرد افتقادنـا نحن للإحسـاس السـليم تجـاه اسـتهزاء بالمشـاعر الدينيـة للآخـرين، أو لكوننا لم نعد قادرين على التعبير عن هذا الإحساس السليم)

وفي الختـام دعـا الـرئيس الألمـاني إلى فهم الإسـلام فهمـاً صحيحاً لتحديد موقف آخر منه غير الموقف الذي بنى على الجهـل به.

بالإضافة إلى هؤلاء ألقى الأمير تشـارلز (ولى عهـد بريطانيـا) خطاباً في قسم الدراسات الإسلامية بإحدى الجامعـات البريطانيـة في بدايات النصف الثاني من تسعينات القـرن العشـرين الميلادي،

تحدث فيه عن جوانب في علاقة الغرب بالإسلام ودعا إلى ضرورة التعاون بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، وأهمية التواصل فيما بينهما، ونبذ ما تركته الحروب الصليبية في العالم الإسلامي من آثار سيئة لا تزال متبقية في النفوس.

وقد أشار إلى وجود نقاط اتفاق بين الإسلام والغرب أكثر من وجود نقاط اختلاف فيما بينهما، وانتقد الصورة الشوهاء التي يروجها البعض، فيقول: (والكثيرون في الغرب يرون الإسلام على أنه حرب أهلية دامية في الشرق الأوسط، وأصولية إسلامية إن حكمنا قد شابه التشوه لاعتبار أن التطرف هو القاعدة، ويظن الكثيرون أن أحكام الشريعة غير عادلة، ولكن ينبغي أن نتدارس تطبيقاتها قبل أن نصدر أحكاماً.. إن هناك عدداً من الدول الإسلامية أعطت حق التصويت للمرأة في نفس الوقت مع أوروبا، كما أن النساء المسلمات لا يعتبرن مواطنات من الدرجة الثانية)

ولم يتوقف إنصاف الأمير تشارلز للإسلام عند هذا الحد، بل أكد فضل الإسلام والحضارة الإسلامية على أوروبا في نهضتها الحديثة، وقال بصراحة: (كثير من السمات التى تفخر بها أوروبا الحديثة جاءت إلينا من الأندلس.. إن الإسلام جزء من ماضينا ومن حاضرنا)

وأخذ الأمير في خطابه يلح على الحوار بين الإسلام (يقصد المسلمين) والغرب ويوضح أهمية اتسام هذا الحوار بالصبر، ويقول: (لكن ذلك يتطلب جهداً ًشاقاً لكي يفهم بعضنا الآخر، ولكي نتمكن من إبعاد شبح الخوف والتشكك)

كما دعا الأمير تشارلز في كلمة ألقاها في مؤتمر سنوي للخارجية البريطانية بمركز (ويلتون بارك) بلندن، في عام 1997 م، رجال الدين من بني جنسه، وكذلك خبراء الاقتصاد، إلى الاستعانة بالمسلمين في حماية القيم لدى الصغار، وقال: (في كل أنحاء العالم يمكننا أن نجد من يريد تعلم الإنجليزية، لكننا هنا في

الغرب نحتاج إلى التعلم على أيدي مدرسين مسـلمين كيـف نتـدبر الأمور مرة أخرى، بقلوبنا لا بعقولنا فقط)

كما أردف قائلاً: (إننا في الغرب يمكننا الاستفادة من الرسالة الإسلامية في اكتشاف جذور مفاهيمنا الحالية التي ندين فيها للقيم الإسلامية التي تحترم الطبيعية الثابتة للقوانين الطبيعية)

قلت: ذكرت لي الجسـور الـتي كـانت صـلة وصـل بيننـا وبين المسلمين، وذكرت لي الشهادات المنصفة التي تثبت حصول ذلـك التأثير، ولم يبق إلا أن تحـدثني عن نمـاذج عن بعض ذلـك التـأثير.. فالنماذج هي التي تحدد المدى الذي وصل إليه التأثير.

قــال: لا يمكنــني في هــذا المجلس أن أعــدد لــك إلا بعض النماذج التي يظهر فيهـا أثـر المسـلمين علينـا.. وكـل نمـوذج منهـا سيل من السيول تكونت بعده أنهار كثيرة لا نزال نستقي منها.

لقد كان تأثير الثقافة الإسـلامية على أوربـا تـأثيرًا عميقًـا في شتى نواحى الحياة.. وسأختار لك منها ما يرتبط بالمعارف والعلوم والفنون:

ففي **الأدب**.. قــامت صــلة وثيقــة بين طائفــة من عبــاقرة الشعر في أوربا بأسـرها، خلال القـرن الرابـع عشـر الميلادي ومـا بعـده، وموضـوعات الأدب العـربي والثقافـة الإسـلامية على وجـه لايقبل التشكيك.

ومن هــؤلاء (بوكاشــيو) و(بــترارك) و(دانــتي) وهم من أعلام النهضــــة الايطاليــــة، و(شســـــر) الكــــاتب الانجلـــيزي الشـــهير، و(سرفانيتس) الإسباني، وإلى هؤلاء يرجـع التـأثير البـارز في قيـام النهضة الأدبية في أوربا.

ففي عام 1346م كتب بوكاشيو حكاياته التي سماها (الليالي العشرة)، وحذا فيها حذو ليالي ألف ليلة وليلة، التي كانت منتشـرة

حكاياتها في مصر والشام، وقد ضمن حكاياته مائة حكاية على غرار ألف ليلة وليلة، وأسندها إلى سبع من السيدات وثلاثة من الرجال الذين اعتزلوا في بعض ضواحي المدينة فرارا من مرض الطاعون، وفرضوا على كل منهم حكاية يقصها على أصحابه في كل صباح لقضاء وقت الفراغ، وقد ملأت هذه الحكايات أقطار أوربا، واقتبس منها الكاتب الإنجليزي (وليم شكسبير) موضوع مسرحية (العبرة بالخواتيم)، واقتبس منها (ليسينج) الألماني مسرحية (ناتان الحكيم).

وكان شوسر إِمام الشعر الحديث في اللغة الإنجليزية من أكبر المقتبسين من بوكاشيو في زمانه، لأنه التقى به حين زار إيطاليا، ونظم بعد ذلك قصصه المشهورة باسم (قصص كانتربري)

وكانت صلة دانتي(1) بالثقافة الإسلامية وثيقة، لأنه أقام في صقلية في عهد الملك فردريك الثاني، الذي درس الثقافة الإسلامية في مصادرها العربية الأصيلة، وقد لاحظ أحد المستشرقين أن الشبه قريب جدًا بين وصف الجنة في كلام الصوفي الكبير محي الدين بن عربي (1164-1240م) في مؤلفه الكبير (الفتوحات المكية) وأوصاف دانتي لها في الكوميديا الالهية.

وقد كان دانتي يعرف شيئا غير قليل من سيرة محمد، فاطلع على الأرجح من هذا الباب على قصة الإسراء والمعراج ومراتب السماء، ولعله اطلع على رسالة الغفران لأبي العلاء المعرى، واقتبس من كل هذه المصادر معلوماته عن العالم الآخر التي أوردها في الكوميدا الالهية، وأكبر القائلين بالاقتباس على هذا النحو هو عالم من أمة الأسبان انقطع للدراسات العربية، وهو الأستاذ آسين بالسيوس(2).

---

1) هو دانتى البجيري (1265-1321م) وهو من مفاخر عصر النهضة، وهو صاحب الكوميديا الالهية، وقد قام بترجمتها إلى اللغة العربية الدكتور حسن عثمان.

2) انظر: عبد الرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوربي، بيروت 1965، ص 63-84.

وقـد عـاش بـترارك في عصـر الثقافـة الإسـلامية بإيطاليـا وفرنسا، ودرس العلم بجامعتي مونبلييه وباريس بفرنسـا وكلتاهمـا قامتا على تلاميذ علماء المسلمين في الجامعات الأندلسية.

أما سرفانتيس فقـد عـاش في الجزائـر بضـع سـنوات وألـف كتابه (دون كيشوت) بأسلوب لا يشـك من يقـرأه في اطلاع كاتبـه على العبارات العربية والأمثال التي لاتزال شائعة بين العرب حـتى هذه الأيام. وقد جزم برسكوت صاحب الاطلاع الواسـع على تـاريخ الأسبان بأن فكاهة (دون كيشوت) كلها أندلسية في اللباب.

أما عن الشعر، فقد ذكر دانـتى أِنّ الشـعر الايطـالي ولـد في صقلية بفضل الشعر العربي وبتأثير منـه، ولقـد شـاع نظم الشـعر بالعامية في إقليم بروفانس في جنوب فرنسا، وانتشر الشـعر في ذلـك الإقليم على يـد الشـعراء الجـوالين الـذين عرفـوا باسـم (التروبـادور) وواضـح أن الأوربـيين اشـتقوا هـذا الاسـم من كلمـة طروب العربية، وقد وجدت في أشعار الأوربـيين بشـمال الأنـدلس كلمات عربية وأشارات لعادات إسلامية.

والشـعر العـربي الأندلسـي في الموشـحات والزجـل كـان السـبب في نشـأة الشـعر الأسـباني نفسـه، والزجـل يكـون عـادة باللغة الدارجـة، بينمـا يكـون الموشـح بالعربيـة الفصـحى، وهـذان اللونان من النظم من ابتكار أهل الأنـدلس، وهمـا اللـذان أثـرًا في نشـأة الشـعر الأوربي، وقـد أثبت البـاحثون انتقـال بحـور الشـعر الأندلسي والموسيقي العربية إلى أوربا.

وامتـد التـأثير العـربي في نشـأة الشـعر الأوربي إلى بعض الموضوعات كالمغامرات، وطريقـة علاج هـذه الموضـوعات، كمـا يتمثل هذا في فكرة الحب العذري الـتي تسـود الغـزل في الشـعر البروفنسالي، فإنه يرتد إلى الشعر الأندلسي، وأزجال ابن قزمـان، وقـد عـرض فكـرة الحب العـذري، ابن حـزم في كتابـه (طـوق الحمامة).

أما في مجال القصة الأوربية، فنجد أن هذه القصة تأثرت في نشـأتها بمـا كـان عنـد العـرب من فنـون القصـص في العصـور الوسـطى وهي: المقامـات، وأخبـار الفروسـية، وأمجـاد الفرسـان مغامراتهم لإحراز المجد أو في سبيل الحب.

وتـرى طائفـة من النقـاد الأوربـيين أن رحلات (جليفـر) الـتي ألفها سويفت، ورحلة (روبنسون كروزو) التي ألفهـا ديفـوى، تـدين لقصـص ألـف ليلـة وليلـة، ولرسـالة حى بن يقضـان الـتي ألفهـا الفيلسوف الأندلسـي المسـلم ابن الطفيـل، وقـد وضـح أنـه كـان لترجمة ألف ليلة وليلة إلى اللغات الأوربية أول القرن الثاني عشـر أثر عظيم وبالغ الخطورة على الأدب الأوربي.

ولم تنقطـــع الصـــلة بين الأدب الإســـلامي والآداب الأوربيـــة الحديثة حتى اليوم، ويكفي لبيان الأثر الذي أبقاه الأدب الإســلامي في آداب الأوربيين أننا لا نجد أديبا واحدا من نوابغ الأدباء عندهم قد خلا شــعره أو نــثره من الإشــارة إلى بطــل إســلامي، أو نــادرة إسلامية، ومن هؤلاء: شكسبير، أديسون، بايرون، سودى، كـولردج، شيلي من أدباء الإنجليز، ومن أدباء الألمان، جيته، هـرور، وليسـنج، ومن أدباء فرنسا: فولتير، لافونتين.

وقد صرح لافونتين باقتدائه في أسـاطيره الـتي ألفهـا بكتـاب (كليلة ودمنة) الذي عرفه الأوربيون عن طريق المسلمين.

وقــد ذكــر (ألفــارو القرطــبي) اهتمــام أهــل الأنــدلس من المسيحيين بالآداب العربيـة، فقـال: (يطـرب إخـواني المسـيحيون بأشعار العرب وقصصـهم، فهم يدرسـون كتب الفقهـاء والفلاسـفة المحمديين لا لتفنيـدها، بـل للحصـول علي أسـلوب عـربي صـحيح رشيق، فأين تجد اليوم علمانيا يقرأ التعليقات اللاتينيـــة علي الكتب المقدسة؟ وأين ذلك الذي يدرس الإنجيل وكتب الأنبيـاء والرسـل؟ وأسـفاه! إن شـباب المسـيحيين الـذين هم أبـرز النـاس مـواهب، ليسوا علي علم بأي أدب ولا أية لغة غير العربية، فهم يقرأون كتب

العرب ويدرسونها بلهفة وشغف، وهم يجمعون منها مكتبات كاملـة تكلفهم نفقات باهضة ن وإنهم ليترنمون في كل مكان بمدح تراث العرب. وإنـك لـتراهم من الناحيـة الأخـري يحتجـون في زرايـة إذا ذكرت الكتب المسيحية بأن تلك المؤلفـات غـير جـديرة بالتفـاتهم، فواحر قلباه! لقـد نسـب المسـيحيون لغتهم، ولا يكـاد يوجـد منهم واحـد في الألـف قـادر علي إنشـاء رسـالة إلي صـديق بلاتينيـة مستقيمة! ولكن إذا استدعي الأمر كتابة العربيـة ن فكم منهم من يستطيع أن يعبر عن نفسـه في تلـك اللغـة بـأعظم مـا يكـون من الرشاقة، بل لقد يقرضون من الشـعر مـا يفـوق في صـحة نظمـه شعر العرب أنفسهم)(1)

أمـا في **الفلسـفة**، فقـد كـان أثـر المسـلمين في التفكـير الفلسفي لأوربا عظيمًا، وكـانت أسـبانيا هي مركـز تـأثير الفلسـفة الإسلامية على الفكر الأوربي الغربي، لأن أوربا لم تعـرف فلاسـفة الشـرق إلا عن طريـق الأنـدلس حيث أشـرف ريمونـد أسـقف طليطلة على ترجمة أعمال الفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم.

والمسلمون هم الذين حفظوا فلسـفة كبـار فلاسـفة اليونـان وعلى ما سطروه في كتبهم وبخاصة أرسطو وأوصلوا هذا الـتراث إلى الغرب، فاتصـال العقليـة الأوربيـة الغربيـة بـالفكر العـربي هـو الذي دفعها لدراسة الفلسفية اليونانية.

وقد قرر روجر بيكون أن معظم فلسفة أرسطو ظلت عديمة الأثر في الغرب لضياع المحفوظات الـتي حـوت هـذه الفلسـفة أو لندرتها وصعوبة تذوقها حتى ظهر فلاسفة المسلمين الـذين قـاموا بنقل فلسفة أرسطو وشرحها وعرضها على الناس عرضًا شاملاً.

ومن فلاسفة الأندلس الذين كان لهم أعمـق الأثـر في الفكـر الأوربي، ابن باجه، وابن الطفيل، وابن رشد.

---

1) حضارة الإسلام، جرونيباوم، ص 81- 82 م.

ويعد ابن رشد الشارح الأعظم لفلسفة أرسطو، وكان أول من أدخل فلسفته إلى أوربا (ميخائيل سكوت) سنة 1230م، ولم يأت منتصف القرن الثالث عشر حتى كانت جميع كتب هذا الفيلسوف قد ترجمت إلى اللاتينية، ولم ينتصف القرن الخامس عشر حتى صار ابن رشد صاحب السلطان المطلق في كلية بارو بإيطاليا والمعلم الأكبر دون منازع(1).

ويبدو أثر ابن رشد واضحًا في خروج كثير من الغربيين على تعاليم الكنيسة وتمسكهم بمبدأ الفكر الحر وتحكيم العقل على أساس المشاهدة والتجربة.

وقد ظهر أثر آراء ابن رشد واضحًا في فلسفة القديس توما الأكويني (1125-1274م) حتى أن الفصول التي كتبها توما في العقل والعقيدة وعجز العقل عن إدراك الأسرار الإلهية ليست إلا مقابلاً لما كتبه ابن رشد في باب (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة ومن الاتصال)

وبلغ تأثر توما بفلسفة ابن رشد أن كتاب (الخلاصة) لتوما يحوي بعض مذاهب إسلامية الأصل، مما يثبت أن الأثر الذي تركه ابن رشد في عقلية الغرب لم يكن مجرد شروح كتابات أرسطو، وإنما كان أبعد وأعمق من ذلك بكثير(2).

ويعد الفيلسوف الألماني المعاصر كانت من أكبر تلاميذ ابن رشد، وقد قال جوستاف لوبون عن ابن رشد: (إِنه كان الحجة البالغة للفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر من الميلاد، لما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة 1473م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربي ومذهب أرسطو)(3)

---

1) جوده هلال ومحمد صبح: قرطبة في التاريخ الإسلامي، ص104-105.

2) سعيد عاشور: فضل العرب على الحضارة الأوربية. القاهرة 1957، ص 36.

3) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص 569.

وكان للفيلسوف الصوفي المسلم محي الدين بن عربي (560هـ ـ 638هـ) أثر كبير في عقول النساك والمتصوفة من فقهاء المسيحية الذين ظهروا بعده، وقد ذكر (آسين بلاسيوس) المستشرق الأسباني أن نزعات دانتى الصوفية وأوصافه لعالم الغيب مستمدة من محي الدين بن عربي بغير تصرف كثير.

ومن المعلوم أن أول الفلاسفة الصوفيين من الغربيين هو جوهان أكهارت الألماني، فقد نشأ في القرن التالي لعصر ابن عربي ودرس في جامعة باريس، وهي الجامعة التي كانت تعتمد على الثقافة الأندلسية في الحكمة والعلوم، وأكهارت يقول كما يقول ابن عربي: (إِن الله هو الوجود الحق ولا موجود سواه[1]، وأن الحقيقة الإلهية تتجلى في جميع الأشياء، ولا سيما روح الإنسان التي مصيرها إلى الاتصال بالله من طريق الرياضة والمعرفة والتسبيح، وأن صلة الروح بالله ألزم من صلة المادة بالصورة، والأجزاء بالكل، والأعضاء بالأجسام)[2]

وقد اقتبس الفيلسوف المتصوف الأسباني ــ رايموندلول ـ من ابن عربي خاصة في كتابه (أسماء الله الحسنى) لأنه كان يحسن العربية، وعاش بعد ابن عربي بقرن واحد، وجعل أسماء الله مئة، وهي لم تعرف بهذا العدد في الديانة المسيحية قبل ذاك.

أما في **الطب**.. فقد عرف في طب العرب موسوعات طبية إسلامية ترجمت كلها إِلى اللاتينية، اطلع عليها أطباء أوربا، ونهلوا من معينها حتى مطلع العصور الحديثة، كان في مقدمتها كتاب (القانون) لابن سينا في القرن الثاني عشر، وقد جمع خلاصة الطب عند العرب واليونان والسريان والأقباط، وضم ملاحظات

---

1) ذكرنا المعاني الحقيقية المقصودة من كلام العارفين في هذا المجال الذي أساء البعض فهمه، فراح يرميهم بالكفر والبدعة من غير فهم لمقاصدهم، ولا ذوق لمشاربهم في رسالة (أكوان الله) من (رسائل السلام)

2) عباس محمود العقاد: أثر العرب في الحضارة الأوربية. القاهرة 1963، ص 98-99.

جديدة عن الالتهاب الرئوي وعـدوى السـل، مـع وصـف لسـبعمائة وسـتين دواء، وقـد ترجمـه جـيرار الكريمـوني إلى اللاتينيـة وطبـع عشرات المرات.

كما ترجم الحاوي للرازي (ت 320هـ/ 926م) وهـو أكـبر من القانون وأوسع مادة وموضوعًا، وقد أكمله تلاميذ الرازي بعد موته، وترجم إلى اللاتينية في عام 1486م، وفيه آراء جديـدة عن الفتـق والحجامة والحميات وأعصاب منطقة الحنجرة وعضلاتها، وله كتاب (المنصـوري) الـذي تـرجم عـام 1481م ورسـالة عن الجـدري والحصبة بوصف وتشخيص آية في الدقة لأول مرة.

وكان الكتاب الملكي في الطب لعلي بن عباس (ت 384هـ / 994م) شائعًا عند الأوربيين لستة قرون من الزمـان[1]، كمـا كـان خلـف بن قاسـم الزهـراوي (ت414هـ/1013م) معروفـاً عنـد الأوربيين بكتابه (التصريف لمن عجز عن التـأليف) بأجزائـه الثلاثـة، وقـد أفـرد القسـم الأخـير منهـا للجراحـة، وفيـه أشـار إلى أهميـة التشريح للجراح، ووصـف كثـيرًا من الجراحـات باسـهاب، وأجـرى جراحات في شق القصـبة الهوائيـة وتفـتيت الحصـارة في المثانـة وخاصة عند النساء عن طريق المهبل، وسـبق إلى اسـتخدام ربـط الشرايين، ووصف استعداد بعض الأجسام للنزيف وعلاجـه بـالكى، وقد زود كتابه برسـوم للآلات الجراحيـة، وقـد ترجمـه إلى اللاتينيـة جيرار الكريموني وطبع في أوربا عشـرات المـرات، وكـان مرجعًـا في جامعات سالرنو ومونبليه وغيرهما.

وفطن المسلمون إلى أمراض النساء والولادة، وقد كتب في هـذا المجـال علي بن عبـاس في توليـد الجـنين الميت، والأدويـة المانعة للحمل، أو النصائح التي تتعين مراعاتها عند التوليد.

وكان الأطباء في البلاد الإسلامية في القرن العاشـر، يعلمـون تشـريح الجثث في قاعـات مدرجـة خصصـت لـذلك في جامعـة

1) سيديو، تاريخ العرب العام: 2/77.

صقلية، واكتشف ابن النفيس الدمشقي المصري الـدورة الدمويـة الصغرى، ونقلها عنه (هارفن) الإنجليزي وعزاها لنفسه ومثل ذلـك فعل (سرفينوس) الإيطالي، ويدعم ذلك ما قاله المـؤرخ المعاصـر (مـايرهوف): (إن مـا أذهلـني حقًـا، مماثلـة الجمـل الأساسـية في أقوال هذين الطبيبين لما كتبه ابن النفيس وكأنهـا تـرجمت ترجمـة حرفية)، ويؤيد ذلك ايضًـا العـالم (الـدوميالي) في كتابـه عن علـوم العرب، كما يؤيده الأستاذ الدكتور (ليون بينـه) أسـتاذ الفسـيولوجيا بباريس.

قلت: أهذه هي العلوم التي برع فيهـا المسـلمون.. واقتبسـها منهم أجدادنا؟

قـال: هـذه بعض العلـوم فقـط.. والأهم من ذلـك كلـه هـو المناهج التي كان يمارس بها المسلمون تفكيرهم، وكنا نفتقر إليها.

قلت: تقصد المنهج العقلي.

قال: لا.. أقصد المنهج التجريبي[1].

قلت: ذلك منهجنا.. به عرفنا.. وعليـه قـامت حضـارتنا.. فقـد أسسه في بلادنا (روجر بيكون) و(فرنسيس بيكون)

قال: لقد اعترف الأول بأنه اقتبس هذا المنهج من المسلمين.

يقـول دوهـرنج: (إن آراء روجـر بيكـون فى العلـوم أصـدق وأوضـح من آراء سـميه المشـهور(فرنسـيس بيكـون).. ومن أين اسـتقى روجـر بيكـون مـا حصـله فى العلـوم؟)، ثم يجيب: (من الجامعات الإسلامية فى الأندلس)

ويقول بريفولت فى كتابه: (بناء الإنسانية): (إن روجر بيكون درس اللغة العربية، والعلم العـربى، والعلـوم العربيـة فى مدرسـة

---

1) سنتحدث عن المناهج المختلفة، ونقارن بينها وبين المناهج التي قررهـا الإسـلام، وأخذ بها علماء المسلمين في فصل (معارف) من هذه الرسالة.

أكسفورد، على خلفاء معلميه العـرب فى الأنـدلس، وليس لروجـر بيكون ولا لسميه الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب إليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريـبى، فلم يكن روجـر بيكـون إلا رسـولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى أوروبا المسيحية، وهو لم يمـل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغـة العربيـة وعلـوم العـرب، هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة0 والمناقشات التى دارت حـول واضعى المنهج التجريبى، هى طرف من التحريـف الهائـل لأصـول الحضـارة الأوروبيـة، وقـد كـان منهج العـرب التجريـبى فى عصـر بيكون قـد انتشـر انتشـاراً واسـعاً، وانكب النـاس، فى لهـف، على تحصيله فى ربوع أوروبا)(1)

ويقول: (لقد كـان العلم أهم مـا جـادت بـه الحضـارة العربيـة على العالم الحديث، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج.. إن العبقريـة التى ولدتها ثقافة العرب فى أسبانيا، لم تنهض فى عنفوانها إلا بعد مضى وقت طويل على اختفاء تلك الحضـارة وراء سـحب الظلام، ولم يكن العلم وحـده هـو الـذى أعـاد إلى أوروبـا الحيـاة، بـل إن مؤثرات أخرى كثيرة من مؤثرات الحضارة الإسلامية بعثت بـاكورة أشعتها إلى الحياة الأوروبية)(2)

ويقول: (إنه على الرغم من أنـه ليس ثمـة ناحيـة واحـدة من نـواحى الازدهـار الأوروبى إلا ويمكن إرجـاع أصـلها إلى مـؤثرات الثقافة الإسلامية بصورة قاطعة، فإن هذه المـؤثرات توجـد أوضـح ما تكون وأهم ما تكون، فى نشأة تلك الطاقة التى تكون ما للعالم الحديث من قوة متمايزة ثابتة، وفى المصدر القـوى لازدهـاره، أى فى العلوم الطبيعية، وفى روح البحث العلمى)(3)

ويقول: (إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيمـا قـدموه إلينـا

1) بناء الإنسانية، ص202.

2) بناء الإنسانية، ص202.

3) بناء الإنسانية، ص190.

من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين لها بوجوده نفسه، فالعالم القديم ـ كما رأينا ـ لم يكن للعلم فيه وجود، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوماً أجنبية استجلبوها من خارج بلادهم، وأخذوها عن سواهم، ولم تتأقلم فى يوم من الأيام، فتمتزج امتزاجاً كلياً بالثقافة اليونانية، وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبى، كل ذلك كان غريباً تماماً عن المزاج اليونانى، ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم إلا فى الإسكندرية فى عهدنا الهلينى، أما ما ندعوه (العلم) فقد ظهر فى أوروبا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة، بطرق التجربة والمقاييس وتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح، وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوروبى)(1)

التفت إلي، وقال: هذا في الماضي.. ونحن إلى الآن لا نزال نستفيد من خبرات المسلمين وعلمائهم وباحثيهم.. بل نحن نمارس كل الوسائل لنمتص كل القدرات والكفاءات لننعم بها نحن دونهم(2).. ثم نظل على جحودنا وكبريائنا وحقدنا.

***

ما وصل (توماس) من حديثه إلى هذا الموضع حتى انهمرت

---

1) بناء الإنسانية، ص109.

2) أشير بهذا إلى هجرة الكفاءات والعقول.. فالغرب إن كان قد اعتمد في تشييد النهضة الحديثة على إنجازات الحضارة الإسلامية في العصورالوسطى، فإنه لم يتوقف عند ذلك الحد.. بل هاجرت إلى الدول الغربية والأمريكية أعداد من الكفاءات العلمية والخبرات التقنية، تحصيها مجلة (العلم والمجتمع) في عددها الصادر في ديسمبر 1977م بثلاثين ألفا، كما ذكر كتاب (رجال ونساء العلم الأمريكيين) 754 من العلماء المتخصصين في مجالات متنوعة، منهم 321 من الدول العربية، 167 من الهند وباكستان، 106 من إيران وأفغانستان، 76 من تركيا (وهى دولة إسلامية) وحصى الكتاب من العلماء المسلمين 226 مهندساً، 313 في العلوم الطبية البيولوجية، 255 في العلوم الطبيعية والرياضية.

دموع حارة من عينيه، فأخرج منديلا من جيبه، وراح يمسحهما به.

قلت له: ما الذي دعاك إلى البكاء؟

قال: أمران طالما هطلت دموعي بسببهما.

قلت: مـــا همـــا؟.. فعســـاك تهيج من دمـــوعي مـــا هيج من دموعك.

قال: أولهما.. أني ذكرت تلك النفوس الطيبة التي ربيت على يدي محمد.. فـراحت تنشـر خيرهـا وخلاصـها للأمم لا تبتغي بـذلك أجـرا.. فحـررت العبيـد.. وأنـارت الـدنيا.. ونشـرت من القيم مـا لا تستطيع الدنيا جميعا إحصاءه.

قلت: فما يبكيك من هذا؟

قال: لم يبكـني مـا فعلـوا بنـا.. ولا بأهـل الأرض من إخواننـا.. ولكن يبكيني ما فعلنا بهم..

لقد رحنا بجشـعنا وحرصـنا وطمعنـا ننهب خـيرات البلاد الـتي آوتنا وعلمتنا.. ورحنا نعض الأيـدي الـتي تـوجهت لتحريرنـا من كـل القيود التي طوقت أعناقنا.. ورحنا نقتل أحفاد من سـالت دمـاؤهم في سبيل خلاصنا.

قلت: هذا الأول.. وهو جدير بأن يجعلني أشاركك في بكائـك.. فما الثاني؟

قال: أبكاني قـومي الـذين نهلـوا من خلاص محمـد القشـور، وتركوا اللباب.. لقـد اهتمـوا بـالظواهر، ونسـوا البـواطن، واهتمـوا بالعلوم، ونسوا القيم، واهتموا بالدنيا، ونسوا الآخرة.

قلت: فما كنت فاعلا لو رجعت إلى ذلك الزمان؟

قال: آخذ بخلاص المسلمين روحه وجسده.. باطنه وظاهره.

قلت: أتسمح لي حضرة العلامة الجليل أن أسألك سؤالا قد يحرجك؟

قال: سل ما بدا لك.

قلت: أنا أتعجب من كل هذه الحماسة التي تبديها للإسلام، ولكني مع ذلك أراك تحتفظ بصليبك، ودينك.. هل ترى أن الذي قدم كل هذا الخلاص للبشرية كان كاذبا في دعوى النبوة؟

انتفض، وقال: يستحيل ذلك.. يستحيل ذلك..

قلت: ولكني لا أزال أراك على دينك.. كيف هذا؟

صمت قليلا، ثم قال: لن أحدثك عن نفسي.. سأذكر لك ما قال (اللورد هدلي).. وافهم أنت ما تشاء.

قلت: أعرفه.. فما قال؟

قال: لقد قال: (إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم)

قلت: لكن (اللورد هدلي) أظهر إسلامه، وتحدى كل من وقف في طريقه.. وقد كان لإسلامه ضجة كبيرة، وذلك لمكانته بين قومه، وعلو قدره العلمي، وقد حج بيت الله الحرام، ومر في طريقه بالإسكندرية، فأقام له أهالي الثغر حفلة كبيرة برعاية الأمير عمر الطوسوني، وبرئاسة الشيخ عبد الغني محمود شيخ علماء الإسكندرية آنذاك.

قال: لقد قال في سبب اعتناقه الإسلام: (عندما كنت أقضي ـ أنا نفسي ـ الزمن الطويل من حياتي الأولى في جو الكنيسة كنت أشعر دائماً أن الدين الإسلامي به الحسن والسهولة، وأنه

خلو من عقائـد الرومـان والبروتسـتانت، وثبتـني في هـذا الاعتقـاد زيارتي للشرق التي أعقبت ذلك، ودراستي للقرآن الكريم)

ويقـول: (فكـرت وصـليت أربعين سـنة كي أصـل إلى حـل صحيح)

ويقـول: (إذا أصـبح كـل فـرد في الإمبراطوريـة الإنجليزيـة محمـدياً حقيقيـاً بقلبـه وروحـه لأصـبحت إدارة الأحكـام أسـهل من ذلك، لأن الناس سيقادون بدين حقيقي)

ويقول: (ليس هناك في الإسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه، إنه أمام الجميع وفوق الجميع، وليس هناك قدوس آخـر نشـركه معـه، إنه لمن المدهش حقاً أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقـول والألباب على هذا القدر من الغباوة، فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء)

ويقول في شعوره بعـد إسـلامه: (إن الـدين الإسـلامي تملـك رشدي صـدقاً، وأقنعـني نقـاؤه، وأصـبح حقيقـة راسـخة في عقلي وفؤادي، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهـا قـط من قبـل، كمـا استنشق هواء البحـر الخـالص النقي، وبتحققي من سـلامة وضـياء وعظمة الإسلام ومجـده، أصـبحت كرجـل فـر من سـرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار)

كانت هذه النصوص تخرج من أعماق أعماق قلبه.. وكأنها قـد ولدت تلك اللحظة، قلت: لقد سمعت بكل ما قال من هذا وغيره.. وأنا لا أسألك عنه.. وإنما أسألك عن نفسك.

قال: أحيانا تجد غيرك يوفق في التعبير عما في نفسـك أكـثر من قدرتك.. فتكتفي بتعبيره عن تعبيرك.. وبلسانه عن لسانك.

قلت: فأنت مقتنع بما قال؟

قال: وأنا حزين لما أفعل.

قـال ذلـك.. ثم صـمت صـمتا طـويلا.. اسـتحييت أن أقطعـه عليه.. فخرجت، ومعي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلــك إلى شمس محمد ﷺ.

ثانيا ـ صمود

في اليوم الثاني من تلك الأيام العشرة المباركة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة الصمود من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9)، وسر قوله تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (32) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (33) ﴾(التوبة)

وعرفت بها سر قوله ﷺ: (لن يبرح هذا الدين قائما يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة)(1)

وقوله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله، وهم ظاهرون)(2)

وقوله ﷺ: (ليبلغن هذا الأمرُ ما بلغ الليلُ والنهار، ولا يترك الله بيت مَدَر ولا وَبَر إلا أدخله هذا الدين، بعِزِّ عزيز، أو بِذُلِّ ذليل، عزا يعز الله به الإسلام، وذلا يذل الله به الكفر)(3)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن التأييد الذي أمد الله به هذا الدين، فقام صامدا في وجه كل المؤمرات التي كانت ولا تزال تحاك ضده.

وإلى جنب هذا عرفت سر تلك النصوص الكثيرة التي تنبئ المسلمين عن العداوات الكثيرة التي تختزنها لهم الأيام، والتي عبرت عنها النصوص القرآنية والنبوية خير تعبير:

قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ

1) رواه مسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

3) رواه أحمد .

أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِـرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَـا خَالِـدُونَ (217)﴾(البقرة)

وقــال تعــالى:﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا لَـوْ تَغْفُلُـونَ عَنْ أَسْـلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُـونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَـةً وَاحِـدَةً وَلَا جُنَـاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَـانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُـذُوا حِـذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (102)﴾(النساء)

وقال تعالى:﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُـوا لَكُمْ أَعْـدَاءً وَيَبْسُـطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2)﴾(الممتحنة)

وقال تعالى:﴿ كَيْـفَ وَإِنْ يَظْهَـرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُـوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُـونَكُمْ بِـأَفْوَاهِهِمْ وَتَـأْبَى قُلُـوبُهُمْ وَأَكْثَـرُهُمْ فَاسِـقُونَ (8)﴾ (التوبة)

فهــذه النصــوص المقدســة جميعــا تقريــرات ربانيــة تخــبر المسلمين عبر التاريخ عما يريد الجـاهلون والجـاهليون أن يفعلـوه بالشجرة المباركة التي بذر بذورها نبيهم ﷺ.

***

سمعت بـ (جابرييلي فرانشيسكو)(1) وهو مستشرق إيطــالي كان من النوع الذي حدثني عنه مدير جامعة السربون، واسـمه من الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سـلمني إيـاه المرشـد، وقـد كنت أتحين الفرص للقائه والاستماع إليه، ولكني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

في صباح ذلك اليوم سرت إلى حديقة جميلة بضاحية باريس، سمعت أن بها شجرة ولدت قبل أن تولد أكثر مباني المدينـة، كـان

---

1) هو في الأصل abrieli Francesco. (1904 ـ 1997) مستشرق إيطالي، كان مهمتاً باللغة العربية وآدابها حتى عيّن كبير أسـاتذة اللغـة العربيـة وآدابهـا بجامعـة رومـا، عـرف بدراسته للأدب العربي، وفي تحقيق التاريخ الإسلامي، انتخب عضواً مراسـلاً في المجمـع العلمي العربي بدمشق عام 1948. واشـتهر فرانشسـكو بمواقفـه المعتدلـة من التـاريخ الإسلامي. (انظر: سمير القريوتي، (رحيل فرانشسـكو جـابرييلي) في الشـرق الأوسـط، عدد:6592، 5شعبان 1417(15ديسمبر 1996م)

يأتيها الشيوخ ليتذكروا شـبابهم، ويأتيهـا الشـباب، ليسـألوا اللـه أن يمدهم من العمر ما أمدها.

عندما رأيتها لم أصدق أنها شجرة عجـوز، فقـد كـانت نضـارة الشباب تملؤها، فأوراقها لا تـزال غضـة طريـة، وسـيقانها الجديـدة تضاهي سيقان أصغر الأشجار وأرقها، وثمارها لا تـزال تـؤتي أكلهـا كل حين بإذن ربها.

ولكن ما أكد لي هذا العمر الطويل الذي رزقها اللـه إيـاه هـو ضخامة أصولها، وامتداد جذورها، وتعالي هامتها، ورسوخها الشـديد في أرضـها، فهي لا تهزهـا العواصـف، ولا تعبث بهـا الأعاصـير، ولا تميد بأغصانها الرياح.

وفـوق ذلـك، فقـد اكتسـبت مقاومـة فعالـة ــ لسـت أدري مصـدرها ــ ضـد كـل تلـك الحشـرات الضـارة الـتي عبثت بصـحة نظيراتها، فأسلمتها إلى الموت المحتوم.

هناك رأيت (جـابرييلي فرانشيسـكو) المستشـرق الإيطـالي، جالسا على عشب تلك الحديقة، يحـدق بشـدة إلى تلـك الشـجرة، وكأنه يرى في أوراقها وأغصانها وهامتها ما لا يرى سائر الناس.

فرحت فرحا شديدا للقائه، فحييته باللغة العربية، لأنال فرصة الحديث معه، فقد كنت أعلم هيامه الشديد بها.

عندما سمعني أتحدث بالعربية، طلب مني أن أجلس بجانبــه، فجلست، وبـدأ يسـألني عـني، فـذكرت لـه مـا أذن لي في ذكـره، وحجبت عنه ما نهيت عن ذكره.

قلت له بعدها: أراك مستغرقا في هذه الشجرة، أتتـذكر فيهـا شبابك؟

قال: لا.. أتذكر فيهـا رجلا غـرس شـجرة لا تختلـف كثـيرا عن هذه الشجرة.. لقد غرسها منـذ قـرون طويلـة، ومـع ذلـك لا تـزال غضة طرية ممتلئة شبابا.

مرت عليها الأعاصير.. كل الأعاصير.. فلم تجتثها.

أصيبت الأرض بجانبها بالزلازل، ولكن أرضها لاتـزال مسـتقرة ثابتة.

اجتمعت جميع أسود الدنيا وسباعها لتغرز أنيابهـا في أصـولها، وتقطع منابع الرزق عن فروعها، فعادت إليها أنيابها خاسئة حسيرة عاجزة.

صــوبت في وجههــا المــدافع.. فلم تفلح المــدافع، ولم يفلح القائمون عليها.

أضرمت حولها النيران، فلم تحرقها، ولم تجفف أوراقهــا، ولم تشوه صورتها.

ثم نظـر إلى، وقـال: هـذه الشـجرة تـذكرني بتلـك الشـجرة العظيمة.

قلت: من ذلك العظيم الذي غرس تلك الشجرة العظيمة.

قال: صدقت، فالشجرة العظيمة لا يغرسها إلا عظيم.

قلت: فمن هو؟

قال: محمد.

قلت: أي محمد تقصد؟

قال: وهل هناك غير محمد؟

قلت: لعلك تقصد نبي العرب.

قـال: بـل نـبي العـالم.. نعم إن شـجرة محمـد نبتت في بلاد العرب، ولكن أغصانها وأوراقها وثمارها شملت العالم أجمع.

قلت: أي شيء أغراك بتلك الشجرة حتى نالت منك كل هــذا الاهتمام؟

قال: الصمود..

قلت: الصمود!؟.. ما تعني بالصمود؟

قال: لقد كنت مغرما منذ صغري بالأبطال الصامدين الـذين لا يهتزون لشيء، ولا يتأثرون لشيء.. الأبطال الثابتون على مبـادئهم أمام كل ترغيب، وأمام كل ترهيب.

وقد كان من الأبطال الـذين امتلأ قلـبي تعظيمـا لهم محمـد.. لقد سمعت قوله لعمه الذي جاء يخبره بما أغـراه قومـه بـه، وبمـا رهبـوه.. فقـال: (يـا عم.. واللـه لـو وضـعوا الشـمس في يميـني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمـر حـتى يظهـره اللـه أو أهلك فيه ما تركته)(1)

قلت: والمسيح ـ أيضا ـ ثبت أمام خشبة الصليب.. لقد قضـى ست ساعات على الصليب، وقد تألم فيها بـأنواع عديـدة من الآلام لم تزعزعه، ولم تهد كيانه المقدس.

لقد تألم آلاما كثيرة.. آلاما في جسده.. وآلاما في نفسه.

لقد تفل عليه، وضرب بالسياط، ووضعوا إكليـل شـوك فـوق رأسه القدوس، وهو الملك صاحب التيجان الكثيرة.

وطعنوه بحربة في جنبه، وسالت منه ينابيع الغفران من خلال ذلك الدم الذي يطهر من كل خطية، والـذي لا يـزال يتكلم ويطلب الغفران لأجلنا.

ثقبوا يديه ورجليـه بمسـامير حديديـة غليظـة بواسـطة أيـدي الجنود الرومانيين الذين كانت قلوبهم غليظة.

رددت هـذا الكلام من غـير شـعور، فقـال: أنت مهتم بالـدين المسيحي إذن؟

قلت: وكيف لا أهتم، وأنا مسيحي؟

قـال: وأنـا مثلـك مسـيحي.. أذهب كـل أحـد إلى الكنيسـة.. ولكني لا أشعر بأي اهتمام بالمسيحية.

---

1) رواه ابن إسحق وغيره.

قلت: لم؟

قال: ألم أذكر لك بأني مغـرم بالبطولـة والصـمود إلى الغايـة التي لا تتصورها؟

قلت: ولم تتجل البطولة في أحد كما تجلت في المسيح، وهو على خشبة الصليب.

قال: إن شئت الحق، فإن هنـاك آلاف المصـلوبين في العـالم أبدوا من البطولة والصمود على ما هو أخطر من الصليب أضـعاف ما ذكر عن المسيح..

بـل إنـه لا أحـد من المجـرمين المصـلوبين من صـاح بـذلك الرعب الذي صاح به المسيح عندما قوّله كتبتنا قولـه: (إيلي إيلي.. لماذا شبقتني!؟ أي إلهي إلهي لماذا تركتني) (متى:27)[1]

ثم التفت إلي، وقال: حتى لو فرضنا أن ما حصل من المسيح صـمود لا نظـير لـه، فإنـه صـمود شـخص يبعث على الإعجـاب.. لا صمود أمة..

قلت: ولكن أتبـاع المسـيح أبـدوا من الصـمود والثبـات مـا لا نظير له.

إن التاريخ يشهد بالبطولات العظيمة التي أبداها أتباع المسيح في القـــرون الثلاثـــة الأولى تجـــاه جميـــع أنـــواع المحن والبلايـــا والاضطهادات التي مورست عليهم.

قال: ولكنهم ـ في الأخير ـ تزعزعوا أمام إرادة الامبراطور..

نعم.. لم تطق معهم أسلحة الترهيب.. ولكن أسلحة الترغيب جـــذبتهم.. فتحـــولت المســـيحية من دين المســـيح إلى دين قسطنطين.. يغير فيها ما يشاء، ويثبت ما يشاء.

قلت: كيف تقول هذا؟

1) هذا بناء على ما يعتقده المسيحيون، أما المسيح.. فقد كان سيد الأبطال الثابتين، والبطولة لا تتجلى على الصليب وحده..

قال: أنا مؤرخ.. ولا أتعامل إلا مع الوثائق التاريخية، ولـدي من الوثائق الكثيرة ما يثبت تلك الانحناءات الخطيرة التي انحناها ورثـة المسيح، ليتركوا ـ في الأخير ـ الأمر للبابا الأول حضرة الامــبراطور قسطنطين ليتصرف في دينهم كيف يشاء.

اسمح لي.. يا أخي.. أن أقـول لـك بـأن ديننـا الـذي نـدين بـه ورثناه من الامبراطور، لا من المسيح.

قلت: إن هذا الكلام الذي تقوله خطير جدا.

قال: ولكنه صحيح جدا للأسف..

قلت: لا بأس قد أقـر لـك بمـا ذكـرت .. ولكن كيـف صـمدت الثمار التي جاء بها الإسلام؟

نظر إلى الشجرة برهة، ثم قال: ألم تتساءل عن سر نشــاط هذه الشجرة وحياتها واستمرارها في العطـاء طـول تلـك السـنين التي مرت بها؟

قلت: لا أحتاج إلى التساؤل عن ذلك.. فهـو واضـح.. فأرضـها طيبة تمـدها بالمـاء ومـا تحتاجـه من غـذاء الأرض، وهواؤهـا عليـل يمدها بما تحتاجه من غذاء السماء.. وهي مع ذلك كريمة لا تحتفظ بهذه الأقوات لنفسـها.. بـل تمـد بهـا من قصـدها، فتحييـه بحياتهـا، وتشمله ببركاتها.

قال: فكذلك الشجرة التي غرسها محمد.. لقـد كـان لصـمود المصادر التي تغذت بها شجرته أثرها الكبير في حفـظ حيـاة دينـه، وحفظ ثمراته.

قلت: ولكنا نرى الإسلام تقزم بعد أن كان عملاقا، وهرم بعــد أن كان شابا.

قال: هـو هـرم مزيـف، وهـو تقـزم تكـذب العين في رؤيتـه.. الإسلام في حقيقتـه لا يـزال يحتفـظ بكـل مقومـات حياتـه.. ولكن

الحروب العظيمة الـتي ووجـه بهـا جعلتنـا نـرى في المسـلمين مـا نـراه.. ولـو أن هـذه الحـروب تـوقفت أيامـا، وتـركت المسـلمين لأنفسهم لعادوا إلى قوتهم التي تختزن في مصادرهم.

إن الشـجرة الـتي غرسـتها المصـادر المقدسـة لهـذا الـدين شجرة لا تنتج إلا الثمار الطيبة.. وهي ثمار قـد يعـرض عنهـا البعض في وقت من الأوقات، ولكنهم سرعان ما يحنون إليها، ويحـدو بهم الشوق للأكل منها.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله.

قـال: ولن تجـد عنـدي إلا تفاصـيله.. لقـد عشـت كثـيرا في المجتمعات المسلمة.. ومع كونها تخلفت كثيرا عن دينها، ولكنها مع ذلك لا تزال تحتفظ بكل المقومات التي يمكن أن تعيـد لهـا الحيـاة من جديد، وتعيد لهذا الدين دوره الرائد في العالم.

العقيدة:

قلت: فلنبدأ بالعقيدة.. والتي هو أصل أصول الدين، وأسـاس أسسه.

قال: لقد بحثت في الأديان جميعا.. وقرأت تراثهـا المقـدس.. وتغلغلت في أديرتها ومعابدها لأبحث عن صورة مقدسة للـه.. فلم أجدها إلا في دين محمد..

إنه الدين الوحيد الذي يعرض تعريفا لله ينسـجم مـع الفطـرة والعقل والكون والحياة..

إن كل شيء يـبرهن على كـل كلمـة يحملهـا دين محمـد عن الله.

والمسـلمون في جميـع فـترات تـاريخهم يحملـون تصـورات مقدسة عن الله تسمو كثيرا عن كل مـا حصـل في جميـع الأديـان

من تحريفات.

أنت مثلي تحب التفاصـيل.. ولا تقنـع بالأسـلوب الخطـابي.. فلذلك سأذكر لك مـا يـبرهن لـك على أن الشـجرة الوحيـدة الـتي صمدت في وجه جميع التحريفات هي الشجرة التي غرسها محمد.

إن أهم ما يميز العقيـدة الإسـلامية هـو تناسـبها مـع الفطـرة السليمة التي يلتقي فيها العقل والروح والنفس من غير أن يحصل بينهـا أي اضـطراب.. لقـد عـبر القـرآن عن هـذه الخاصـية بقولـه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَـكَ لِلـدِّينِ حَنِيفـاً فِطْـرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَـرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا لا تَبْـدِيلَ لِخَلْـقِ اللَّهِ ذَلِـكَ الـدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَـرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُـونَ﴾ (الروم:30)

هذه العقيدة الفطرية تشـرحها سـورة قصـيرة قـل أن يوجـد مسلم لا يستظهرها هي سورة الإخلاص.. وهي السورة التي نزلت جواب إلهياً للمشركين عندما سألوا محمدا أن يصف لهم ربه.

وهذه الحقيقة هي التي تجذب اهتمام وتركيز دارسي الإسلام من أول لحظة، وتدفع من كتبت له الهداية منهم إلى نفض ما علق بفطرته من ركام والدخول في دين اللـه بطمأنينـة، ذلـك أن (أول ما يستشعره القلب والعقل أمام العقيدة الإسلامية هـو الاسـتقامة والبسـاطة والوضـوح..وهـذه السـمة الـتي تجتـذب الأفـراد الـذين يـدخلون في هـذا الـدين من الأوربـيين والأميركـيين المعاصـرين فيتحدثون عنها بوصفها أول ما طـرق حسـهم من هـذا الـدين وهي ذاتها السمة التي تجتـذب البـدائيين في إفريقيـا وآسـيا في القـديم والحديث لأنهـا سـمة الفطـرة الـتي يشـترك فيهـا النـاس أجمعين متحضرين وبدائيين)(1)

لقـد قـال بعض قومنـا من المسـيحيين ممن عشـقوا هـذه العقيـدة الفطريـة المنطقيـة: (بـدأت أدرس الأديـان بصـفة عامـة،

1) خصائص التطور الإسلامي:228.

والإسلام على وجه الخصوص، فأيقنت في غضون دراستي أن دنيـا تفكـيري وإحساسـي أقـرب للإسـلام منهـا للمسـيحية، وبالتـدريج اكتشفت أن الإسلام كمنهج حياة كان ينسجم من كافة الوجوه مـع فطرتي البشرية)

ويقول: (عندما درسـت وجهـة النظـر الإسـلامية حـول النـبي عيسـى عليـه السـلام ابن اللـه، كمـا عـرفت فيمـا بعـد من أسـتاذ بروتستانتي أن عدداً كبيراً من المسـيحيين ــ حـوالي 80 بالمائـة ـ منهم أقرب إلى الإسلام منه إلى المسـيحية في هـذه الناحيـة على الأقل من عقيدتهم، أمـا من الناحيـة العمليـة فحـتى قبـل إسـلامي كنت أنفر من الخمـور والـرقص ومـا شـابه ذلـك من الأمـور الـتي عرفت فيمـا بعـد أنهـا محرمـة في الإسـلام، وهكـذا كـان الإسـلام بالنسبة لي كعملية اكتشافي لفطرتي)(1)

ويقــول: (والعجيب في قضــية التثليث الــتي تنســب أوروبــا الفضل في إنكارهـا إلى فلاسـفة عصـر التنـوير (ق18) من أمثـال فولتير، ويعرب بعض الباحثين عن دهشتهم لان عقلية جبارة كتلــك التي يتمتع بها ديكارت لم تستنكر هذه العقيدة ولو بكلمـة واحـدة.. هذا في حين أن الإسلام ـ دين اللـه الحـق ــ سـبق إلى نقص هـذه العقيدة وإبطالها ليس من خلال تنفيره العـام من الشـرك وإنكـاره المطلق فحسب بل أفرد الحديث عنها استقلالاً وفصـله من وجـوه منوها بأنها عقيدة وثنية قديمة وهي الحقيقة التي لم تعرفها أوروبـا إلا بعد ظهـور علم مقارنـة الأديـان الـذي يعـد من أحـداث علومهـا النظرية، قال تعالى: وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَـالَتِ النَّصَـارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَـوْلُهُمْ بِـأَفْوَاهِهِمْ يُضَـاهِئُونَ قَـوْلَ الَّذِينَ كَفَـرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (التوبة:30))(2)

هـذا في العقيـدة في اللـه الـتي هي أصـل العقائـد ولبابهـا..

1) رجال ونساء اسلموا، عرفات كامل العشي:1/24-25.

2) رجل ونساء اسلموا،عرفات كامل العشي:1/24 – 25.

وهكذا في سائر العقائد.

قارن بين موقفنا من الخطيئة الموروثة التي تنبني عليها المسيحية، وبين قول القرآن: قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (الأنعام:164).. وقوله: مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً (الاسراء: 15).. وقوله: إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (الزمر:7)

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تنفي مسؤولية الإنسان على ما لم يعمله.. بل إن القرآن ينفي مسؤولية الإنسان على ما أكره عليه.. لأن العمل لايعتبر عملا يستحق الجزاء إلا إذا كان عن طواعية تامة.. يقول القرآن: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (النحل:106).. ويقول: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (النساء:65)

قارن هذه العقيدة التي تنسجم مع المنطق العقلي بعقيدتنا في الخطيئة الموروثة..

لقد أزعجت الخطيئة المورثة فولتير وباسكال.. بل أقلقت الضمير الأوروبي كله وأرقته منذ أن اعتنقها إلى الآن..

أما القرآن، فإنه يذكر الحادثة باعتبارها حدثا تاريخيا يذكر للعبرة.. لا لتبنى حياة البشر كلها على أساسه..

بالإضافة إلى ذلك.. فالقرآن ذكر القصة مذيلة بذكر التوبة

والاستغفار وبيان أن الله قبل التوبة وغفر الخطيئة، ففي سورة البقرة ينتهي سياق القصة إلى قوله: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (البقرة:37)

وفي سورة الأعراف تنتهي القصة بقوله: قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (لأعراف: 23)

وفي سورة طه يقول: فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(121)ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122)(طه)

انظر.. إن الآيات القرآنية لا تعطي الخطيئة ذلك الحجم الضخم الذي تعطيها إياه تعاليم الكنيسة، فهي أمر عرضي في حياة آدم، بل في حياة كل بشر، تمحوه التوبة ويذهبه الاستغفار.

أما الهبوط إلى الأرض ـ على حسب القرآن ـــ فقد كان هو الغرض الأصلي من خلق آدم.. فقد قال الله للملائكة قبل خلق آدم: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقرة:30).. ولم تكن المعصية إلا سببا لذلك(1)..

إن هذه العقيدة المنطقية ـــ مقارنة بعقيدتنا ـــ هي الأساس السليم الذي بني عليه السلوك الإسلامي الرفيع.

أما تصوراتنا.. فقد كانت محل سخرية من المسلمين.. ومحل نقد لاذع.. وقد كان علماء المسلمين أسبق من فلاسفة عصر التنوير وأتباع مدرسية النقد التاريخي في هذا المضمار.. كما قال ابن القيم: (فنسبوا الإله الحق سبحانه إلى ما أنف أسقط الناس وأقلهم أن يفعله بمملوكة وعبده، وإلى ما يأنف عباد الأصنام أن

---

1) ويدل لهذا ما روي من محاجة آدم موسي ـ عليهما السلام ـــ حين عاتبه على أنه تسبب في إخراج بنيه من الجنة، فرد عليه آدم كما ذكر النبي ﷺ:(أفليس تجد فيما أنزل الله عليك أنه سيخرجني منها قبل أن يدخلنيها)، قال: بلى قال ﷺ:(فحج آدم موسى (ثلاثاً)) رواه البخاري.

ينسبوا إليه.. ونسبوه إلى غاية السفه حيث خلصهم من العذاب بتمكينه أعداءه من نفسه حتى قتلوه وصلبوه وأراقوا دمه، ونسبوه إلى غاية العجز حيث عجزوه أن يخلصهم بقدرته من غير هذه الحيلة ونسبوه إلى غاية النقص حيث سلط أعداءه على نفسه وابنه ففعلوا به ما فعلوا.. وبالجملة فلا نعلم أمة سبت ربها ومعبودها وإلهها بما سبت به هذه الأمة)

هذا الكلام نموذج من بين انتقادات عقلية لا حصر لها دونها علماء المسلمين قبل أن يخلق سبينوزا وباسكال وفولتير بقرون، وقبل أن تفكر أوروبا في شيء اسمه (النقد التاريخي) أو حرية التفكير.

قلت: أنا أقر بالكثير مما ذكرت من الانحرافات الخطيرة التي دخلت المسيحية.. ولكنها مع ذلك لا تقل عن الانحرافات التي دخلت الإسلام.. وبذلك انحنى الإسلام أمام الهرطقات الكثيرة التي دخلته كما انحنت المسيحية..

قال: لا.. لقد أتيحت لي فرصة الاطلاع على مقولات الفرق الإسلامية المرتبطة بهذا الجانب.. فوجدتها كلها تصب في بحر واحد هو بحر الوحدانية والتقديس والتعظيم.. المسلمون كلهم موحدون لله.. يحملون تصورات غاية في القداسة عن الله.

قلت: ولكني قرأت الكثير من الكتب والمطويات التي تحذر من طوائف المبتدعة من المؤولة والمفوضة والمشبهة والمجسمة..

قال: تلك ـ كما يقال ـ زوبعة في فنجان.. وأولئك قوم من المتطرفين.. هم أشبه الناس بأولئك الذين اجتمعوا بأمر قسطنطين في مجمع نيقية.. ليس لهم من هم إلا التفريق بين صفوف إخوانهم..

قلت: ولكن لقولهم مصداقية عظمى.

ابتسم، وقال: لقد أتيحت لي مخالطة بعضهم.. وقد رأيت من قصر عقولهم ما صرفني عن الاستماع لهم..

قلت: ولكن كلامهم مهم جدا.. لقد لاحظت اهتمام الكنيسة به.

قال: إن الكنيسة تهتم بمقولاتهم لأنها من التبشير غير المباشر.. أما الحقيقة.. فلا خلاف بين المسلمين جميع المسلمين في جميع مسائل العقيدة.

قلت: الشيعة والسنة والمعتزلة والخوارج..

قال: أجل.. جميعهم يعبدون إلها واحدا.. ويؤمنون بنبي واحد.. وكل الذي يثار ليس إلا زوبعة في فنجان(1).

الشعائر:

قلت: عرفت صمود ثمار عقائد الإسلام.. فهل صمدت ثمار شعائره؟

قال: أجل.. وبنفس صمود عقيدته.. ذلك أن كليهما يستمد من مصادر ثابتة صحيحة غاية في القوة..

قلت: فهل صمد الإسلام في هذا الميدان؟

قال: كما لم يصمد دين من الأديان.. بل هو لا يزال غضا طريا كما جاء.. وقد كان للنظام الذي اتسمت به شعائر الإسلام السر الأكبر في بقائها وصمودها.

فكل الشعائر التي وضعت النصوص الإسلامية المقدسة طرقها وأساليبها ليس لها إلا هدف واحد هو ربط المسلمين بربهم ورسولهم ودينهم، فلا يمر وقت من الأوقات على المسلم يكون

---

(1) هناك تفاصيل كثيرة ترتبط بهذا، وتجيب عن الشبه المتعلقة به في رسالة (الباحثون عن الله)

فيه بعيدا عن ربه وذكره وعبادته(2):

فارتباط المسلم بربه مستمر دائم في كل لحظة من لحظات عمره، بل هو على صلة دائمة به: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِـرْتُ وَأَنَـا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163) ﴾ (الأنعام)

فهو يصلي كل يوم وليلة خمس صلوات مفروضة، في أوقات محـددة موقوتـة، ليس لـه أن يتقـدم عليهـا أو يتـأخر بـدون عـذر شـرعي.. وهـو مـأمور بالطهـارة الكـبرى والصـغرى لكـل صـلاة منها..هذا عدا نوافل الصلاة المؤكدة وغيرها مما لا حصر له منها..

وهـو يصـوم شـهرا كـاملا في السـنة فرضـا لا يسـقطه عنـه سقوطا مؤقتا أو مطلقا إلا عذر شـرعي..هـذا عـدا نوافـل الصـوم التي أفضلها صوم يوم وإفطـار يـوم على القـادر في عمـره كلـه.. وهناك أيام محـدودة في الأسـبوع وفي الشـهر وفي العـام يشـرع للمسلم صيامها..

وهو يحج حجا مفروضا عليه مرة في عمره، لا يجوز له تركــه إلا بعذر شرعي.

وهو يخرج زكاة ماله في أوقاته المحـددة، لا يجـوز لـه تـأخير ذلك، وأمره الله تعالى بنوافل الصدقات والإنفاق ممـا رزقـه اللـه، في كل ما يحقق الخير للإسلام والمسلمين..

وهو مأمور بذكر الله تعالى الواجب والمندوب، بحيث لا يـزال لسانه رطبا بذكر ربه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْـراً كَثِـيراً (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42)﴾ (الأحزاب)

وهو مأمور بتعاطي ما أحل الله، وترك ما حـرم اللـه في كـل تصرفاته، فلا يخلو المسلم في أي وقت من أوقاته من فعل طاعة

2) انظر: الإسلام دين هداية ورحمة واستعصاء، د. عبد الله قادري الأهدل.

أو ترك معصية.

فليس له أن يعصر خمرا ولا يبيعهـا ولا يعلن عنهـا ولا يسـقيها ولا يملكها..

وليس له أن يصنع سلاحا أو يبيعـه لمن يقتـل بـه نفسـا حـرم الله قتلها مسلما كان أو غير مسلم بغير حق، ولا يتلف بـه مـالا ولا حرثا ولا حيوانا..

وليس له أن يبيع أو يشـتري بيعـا أوشـراءا فيـه غش للنـاس، وضرر بهم.

وليس له أن يسرق مال غيره ولا يغتصـب أرضـه ولا يسـتحل عرضه ولا يطلع على عورات جاره..

فهو في كل حال من أحواله مرتبط بربـه، لأنـه يضـبط جميـع تصرفاته بطاعته وترك معصيته..

وهـو مرتبـط بجماعـة المسـلمين من أي جنس كـانوا، وفي جميـع أنـواع الشـعائر.. ففي الإسـلام عبـادات جماعيـة، يقـوم بهـا المسلمون قياما جماعيـا، سـواء كـان التكليـف بهـا فـرض عين أو فرض كفاية أو مندوبا..

ولهذا شرع للمسلمين عمارة الجوامع والمسـاجد في مـدنهم وأحيائهم، وشـرع لهم عمارتهـا بـذكر اللـه فيهـا، وبخاصـة صـلوات الجماعــات خمس مــرات في اليــوم والليلــة، وصــلوات الْجُمَــع الأسبوعية، التي ينادي المؤذنون فيها لكل صلاة من تلك الصلوات.

وشرع لهم أن يكون أئمتهم من القراء الذين يحفظون كتــاب الله أو كثيرا منه، ويفقهون أحكام الله، فيسمع منهم المصلون في الصلوات الجهرية ما يقرؤون من كتاب اللـه، فيتدبرونـه وينتفعـون به..

والمسلم في هذه الحالة العباديـة الخاشـعة الراغبـة الراهبـة، شديد البحث والتفتيش عن نفسه في آيات كتاب ربه، ليعــرف أين هو فيهـا من النـواحي الإيمانيـة والعباديـة والأخلاقيـة، والاجتماعيـة، والفقهية والدعوية، أين هو من رضا ربه أو سـخطه.. وهـل يتصـف بصفات من رضي الله عنهم من المؤمنين، أو بصـفات من سـخط الله عليهم من الكافرين والمنافقين، وهل صلته بالله تؤهله لدخول الجنان أو لعقاب ربه في النيران.

ويتـدبر ذكـر ربــه المشــروع في قيامــه وركوعــه وسـجوده وقعوده، فيمتلئ قلبه حبا لله ورغبة فيمـا عنـده وخوفـا ورهبـة من قوته وجبروته، وطمعا في عزته ونصره على أعدائـه، فلا يخـاف إلا اللـه ولا يطلب العـزة إلا من مـولاه، فلا يخـرج من صـلاته إلا وقـد تحقق له الهدف من إقامتها والحكمة من أدائهـا.. ﴿ اتْـلُ مَـا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ (العنكبوت:45)

يضــاف إلى هــذه الصــلوات الخمس صــلوات أخــرى لهــا مناسبات معينة.. لا علاقة لأي منها بأي قومية أو عنصرية أو وثنية:

منها صلاة الاستسقاء عند الجـدب والقحـط لطلب الغيث من ربهم الذي يسـقي أرضـهم وينبت زرعهم ويـدر ضـرعهم ويغـذيهم ويغذي أنعامهم..

ومنهـا صـلاة الكسـوف والخسـوف عنـدما تكسـف الشـمس ويخسف القمر، تضرعا إلى الله تعـالى من أن لا يـنزل بهم غضـبه عقابا على معصيته، ففي الكسوف والخسوف تذكير لعباده بكمـال قدرته، وتغيير الأحوال المعتادة إلى غيرهما مما لا قدرة لأحــد على اتقائه إلا برحمة الله وفضله (1)..

ومنها صلاة العيدين: عيـد الفطـر وعيـد النحـر، اللـتين يؤديهـا

1) انظر مراعاة الشريعة للنواحي الصحية في صلاة الكسوف في رسـالة (معجـزات علمية) من هذه السلسلة.

المسـلمون في مشـارق الأرض ومغاربهـا، في يـوم واحـد أو أيـام متقاربة، بحسب المطالع.

وللمسلمين يومُ عيدٍ أسبوعي، وهو يوم الجمعة الـذي فـرض فيه على كل مكلف من رجالهم، حضور خطبتيه وصلاته، حيث يعلو خطباء الجوامـع الكبـيرة والصـغيرة في القـرى و المـدن و الأحيـاء المنابر، أمام الجموع الحاشدة، لتذكيرهم بكل ما يحتاجون إليه في حيـاتهم من أمـر الإيمـان والعبـادة والأخلاق والحلال والحـرام في المعاملات، والشئون السياسية والعلاقات الدولية، مبنية كلهـا على كثير من آيات القرآن والسنة وما استنبطه منهما علماء الإسلام.

إنهـا مظـاهرة مشـروعة في يـوم واحـد وفي كـل مكـان من الأرض لنصـر هـذا الـدين وجمـع كلمـة المسـلمين على الحـق، وتفقههم في دين الله، لا يستطيع أحد أن يمنعها.

وفـرض على المسـلمين جميعـا فـرض عين على كـل قـادر صيام شهر رمضـان كلـه، لـذلك تـرى المسـلمين في هـذا الشـهر المبارك، جميعا صائمين نهاره، تجتمـع أسـرهم في المنـازل لتنـال وقت الإفطـــار ووقت السـحور، في غايـــة من الفـــرح والحبـــور، يتسابقون في مناولة أحدهم أخاه حبات التمر أو لقمة العيش.

وهكذا تجد جماعاتهم في المساجد عند أذان المغرب، يمدون موائـدهم ويقربـون تمـرهم وأطعمتهم، ويتنافسـون في استضـافة المصلين على مشاركتهم في الإفطار معهم.

إنه شهر تربية وتدريب وإيمان وتقوى وعبادة جماعية ذات أثر عظيم في جمع الكلمة والثبات على هذا الدين وقـوة الصـلة بـرب العالمين..

وفـرض على الصـائمين في ختامـه حقـا لفقـرائهم، سـميت بزكاة الفطر، لتكون طهرة لهم وغناء لإخوانهم المحتاجين في يـوم العيد الذين يفرحون فيه بتوفيق الله لهم بإتمام الصـيام، فلا يفـرح

فيه الغني دون الفقير، ولا يترك الفقـير فيـه يتكفـف لقمـة عيشـه وعيش أولاده.

وهكذا تراهم في الحج يفدون إلى الـبيت الحـرام من كـل فج عميق، يملأون الجو والبر والبحر، متحدين لباسا ونية وذكرا، مؤدين نسكهم في وقت واحد طوافا وسعيا ووقوفا، ومبيتـا ورميـا ونحـرا، بصفة قلما تجد لها نظيرا في أمة من الأمم، وهم يلهجون في كــل أوقاتهم بذكر الله.

يلتقي المسلمون ليحققـوا في لقـائهم مـا ذكـره القـرآن من حكم الحج ومنافعـه: ﴿ لِيَشْـهَدُوا مَنَـافِعَ لَهُمْ وَيَـذْكُرُوا اسْـمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ (الحج:28)

يُعَلِّم عــالِمُهم جــاهلَهم، ويتحــاورون فيمــا يعــود عليهم وعلى أمتهم بالخير في دينهم ودنياهم.

التفت إلي، وقال: قارن هذا بشعائرنا وقداساتنا الــتي يتحــول فيها الخبز جسدا، والخمر دما.. أو قارنه بصكوك الغفران..

إن كثيرا من قومنا امتلأوا إعجابا بشـعائر المسـلمين التعبديـة التي يتوجه فيها المسلم مباشـرة إلى اللـه من غـير حاجـة إلى أي وسائط..

يقول توماس أرنولد: (إنه لا يتـأتي لأحـد يكـون قـد رأى ذلـك المشهد أن يبلغ تأثره به أعمـاق قلبـه وأن لا يلحـظ ببصـره القـوة التي تمتاز بها هذه الطريقة من العبادة عن غيرها)(1)

وقال رينان: (لم أدخل مسـجداً إلا شـعرت بانفعـالات نفسـية وأسف بالغ حينما أذكر أنني لست مسلماً)(2)

ويقــارن المستشــرق الأمــريكي (بــودلي) بين المســيحية

1) إلى الدين الفطري الأبدي:الطرازي:263.

2) إلى الدين الفطري الأبدي:الطرازي:264.

والإسلام في ذلـك قـائلاً: (لـو أن القـديس بطـرس عـاد إلى رومـا لامتلأ عجبـاً من الطقـوس الضـخمة وملابس الكهنـوت المزركشـة والموسيقى الغربية في المعبد المقرونة باسمه، ولن يعيـد البخـور والصور والـرقى إلى ذهنـه أي شـيء من تعـاليم سـيده المسـيح.. ولكن إذا ما عاد محمد إلى أي مسجد من المساجد المنتشـرة بين لندن وزنجبار فإنه سيجد نفس الشعائر البسيطة التي كـانت تقـام في مسجده في المدينة الذي كان من الآجر وجذوع الشجر)(1)

أمـا المهزلـة العظمى (صـكوك الغفـران) الـتي تعـد صـفحة سوداء في تاريخ الإنسانية، فلا يستطيع أحـد من أعـداء الإسـلام أو دعاة العلمانية مهما بلغت بـه المكـابرة أن يـزعم أنهـا وجـدت في التاريخ الإسلامي فضلاً عن أصوله التشريعية ذاتها.

فهذه المهزلة لم يعرفهـا المسـلمون حـتى في أحـط وأحلـك عصورهم حين فشا الجهل وعلقت بعض الخرافات بأذهـان الجهلـة والعوام.. فلم يحدث قط أن كتب أحد ممن يسـمون أوليـاء وثيقـة غفران.. ذلـك أن الأمـة الإسـلامية مهمـا انحـرفت وتخبطت تظـل لديها مسكة من عقل وبقية من إيمان تمنعها عن ارتكاب مثل هذه الحماقات الصفيقة التي لم يتورع عنها بابوات الكنيسة قرابة ثلاثـة قرون.

قلت: ولكن مع ذلك.. فقد انتشرت بدع كثيرة بلاد المسلمين.

قال: لقد طفت المجتمعات الإسـلامية كمـا ذكـرت لـك.. بـل دخلت مساجدها.. فلم أر إلا صلاة واحـدة، لعلهـا هي الصـلاة الـتي صلاها محمد.. بل إن الأسانيد الكثـيرة تشـير إلى أنهـا نفس صـلاة محمد..

ولم أر المسلمين يصومون إلا شهرا واحـدا قـد يختلفـون في يوم من أيامه.. ولكنهم يتفقون في كل أيامـه.. ويتفقـون مـع ذلـك

1) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين:23-24.

في كل أحكامه..

وأنت ترى المسلمين يقصدون كعبة واحدة، ويصلون خلف إمام واحد، ويقفون على جبل واحد.. هو نفس الجبل الذي وقف عليه محمد، وخطب خطبة الوداع.

ألا ترى في كل هذا دلائل صمود الإسلام؟

قلت: ولكني أرى حلقا كثيرة تعقد تختلف فيها المجتمعات..

قال: تقصد حلق الذكر التي قد يختلط فيها الرقص واللعب.

قلت: أجل.. أليس ذلك انحناء؟

قال: لا.. تلك عادات توارثتها تلك الشعوب، وحاولت أن تمزجها ببعض شعائر الإسلام.. والإسلام يتساهل كثيرا في هذا الباب.

قلت: فهو انحناء إذن.

قال: ليس هذا انحناء.. وإن كان انحناء فهو انحناء عادات الشعوب للإسلام وعقيدة الإسلام.

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن تلك العادات كانت مملوءة بالوثنية أو بغيرها من العناصر التي يرفضها الإسلام، وهي في حركاتها من اللهو المباح الذي لا يرفضه الإسلام.. ولذلك وقف العدول من المسلمين موقفا وسطا.. حفظوا بها عادات تلك الشعوب.. وحفظوا به في نفس الوقت سلامة عقيدتها.

قلت: فما هذا الموقف الوسط؟

قال: أقروا الحركات التي لا علاقة لها بالدين.. وأضافوا إليها ذكر الله.. والترنم بحبه.. فتحولت العادة عبادة.. وتحولت الطقوس

الوثنية طقوسا دينية.

قلت: لم أفهم ما تقصد.. فإني أرى البعض يعتبر هؤلاء مارقة من الدين.

قال: تلك نظرة المتطرفين.. وهم لا يشكلون إلا جزءا لا يكـاد يذكر أمام جماهير المسلمين.

أما عوام المسلمين.. وعلماء المسلمين.. فهم متشددون في أصول الدين.. متساهلون في العادات الـتي لا تمس جـوهر الـدين، ولا تؤذي حقيقته.

قلت: فأنت تقر كل ما يمارس في تلك المجامع.

قال: أنا ليس لي سلطة الإقرار ولا سلطة الإنكـار.. ولكـني لا أرى في ذلـك خطـرا على الإسـلام.. بـل أرى فيـه صـمودا عجيبـا للإسلام.

ذلك أن أولئك يمارسون كل شعائر الإسـلام بحـرص شـديد.. ولا يكتفون بذلك، بل يحولون عاداتهم عبادة، ولهوهم ذكرا.

قلت: ولكن العوائد مختلفة.. وهي تفرق بين المسلمين.

قـال: مفهـوم الوحـدة في الإسـلام مفهـوم أسـمى من كـل المفاهيم التي نعرفها.. ذلك أنه يقرر القواعـد والأصـول.. ثم يـترك لأتباعـه ميـادين كثـيرة يمكنهم أن يختلفـوا فيهـا من غـير أن ينكـر بعضهم على بعض(1).

السلوك:

قلت: فلنتحدث عن الناحيـة الثالثـة من نـواحي الـدين.. وهي السـلوك.. وهي الناحيـة الـتي أرى أن حضـارتنا المؤسسـة على الكنيسة أفلحت فيها.. وخفق الإسلام.

1) سنتحدث عن التفاصيل المرتبطة بهذا في فصل (الروحانية) من هذه الرسالة.

قال: كيف عرفت ذلك؟

قلت: ألسنا أصحاب السلوك الحضاري الذي لم يصل أحد في الدنيا إلى سلوكه.

ابتسم، وقال: أي سلوك حضاري؟.. لو كنت قلت: إن هذه الحضارة التي سلمت زمامها للشيطان جمعت كل جرائم من سبقها من الحضارات كنت صادقا..

قلت: كيف ذلك؟

قال: تفصيل ذلك يطول.. وربما تجد من يتحدث لك عن تفصيل المقارنات في هذا الجانب[1].. ولكني أقول لك من وحي دراستي للمصادر الإسلامية والتاريخ الإسلامي.. بل والواقع الإسلامي لكثير من شعوب المسلمين:

ليس هناك في الدنيا.. ولا في التاريخ.. ولا في مصادر الأديان سلوك أنظف ولا أرفع ولا أسمى من سلوك المسلمين.. ذلك أن السلوك في الإسلام عبادة لا تقل عن أي عبادة شعائرية.

ولهذا وردت النصوص الكثيرة تخبر بأن أرفع المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، ففي الحديث: (خياركم أحاسنكم أخلاقا)[2]، وفي الحديث: (إن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، وخياركم خياركم لنسائهم)[3]

بل ورد ما هو أعظم من ذلك، وهو أن درجة القرب من محمد ـ الذي يمثل الكمال الإنساني ـ بقدر حسن الخلق، ففي الحديث: (إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا وإن من أبغضكم إلي وأبعدكم مني يوم القيامة

1) سنذكر الكثير من الأدلة المثبتة لهذا في الفصول القادمة.

2) أحمد.

3) الترمذي، وقال: حديث صحيح.

الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهـون) قـالوا: (يـا رسـول اللـه قـد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون) قـال: (المتكـبرون) (1)

ولذلك، فإن الدرجات العليا والأجور العظيمة لا يحوزها إلا من حسن خلقه، ففي الحديث: (ما من شيء أثقل في ميزان المـؤمن يـوم القيامـة من حسـن الخلـق، وإن اللـه تعـالى ليبغض الفـاحش البـذيء)(2)، وفي الحـديث: (أنـا زعيم بـبيت في ربض الجنـة لمن تـرك المـراء وإن كـان محقـا، وبـبيت في وسـط الجنـة لمن تـرك الكذب وإن كان مازحا، وببيت في أعلى الجنـة لمن حسـن خلقـه) (3)، فجعل البيت العلوي جزاء لأعلى المقامات الثلاثة، وهي حسـن الخلق والأوسط لأوسطها وهـو تـرك الكـذب، والأدنى لأدناهـا وهـو ترك المماراة وإن كان معه حق ولا ريب أن حسن الخلق مشـتمل على هذا كله.

وسئل محمد عن أكثر ما يدخل النـاس الجنـة، فقـال: (تقـوى الله وحسن الخلق)، وسئل عن أكثر ما يـدخل النـاس النـار فقـال: (الفم والفرج)(4)

بـل أخـبر أن (المـؤمن ليـدرك بحسـن خلقـه درجـة الصـائم القائم)(5)

ولهذا فإن القرآن يربط بين قضايا الإيمان والعبادة والسـلوك في كل آياته.. ففي الآية التي تصف أصول البر يقـول: لَيْسَ الْبِـرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَـلَ الْمَشْـرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِـرِ وَالْمَلَائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَـالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي

1) الترمذي.

2) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

3) الطبراني، وإسناده صحيح.

4) الترمذي، وقال: حديث صحيح.

5) أبو داود.

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة:177)

وفي الآية التي تثني على أوصاف المؤمنين يقول: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (الأحزاب:35)

انطلاقا من هذا.. فإن للأخلاق الإسلامية مزايا كثيرة تميزها عن غيره من أنواع الأخلاق التي جاءت بها الأديان والمذاهب والفلسلفات..

فمن مزاياها (1) الثبات.. فالثبات في الأخلاق ضرورة، لأنها الضوابط التي تضبط سلوك الناس، ولأنّها المقياس الذي يلتقي عنده الجميع.. وتتميز الأخلاق الإسلاميّة في ذلك على الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد، والتي هي متغيرة لأنها من وضع الإنسان القاصر.

ومن مزاياها الفطرية.. وذلك ما يجعلها يسيرة وفعّالة في حياة البشر.. أمّا الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد فتكون في أحيان كثيرة منافية للفطرة، وعلى وجه الخصوص في حالات انتكاس المجتمع وتدهور أخلاقياته، وتكون في أحيان أخرى مثاليّة ومجافية لواقع النفس البشريّة، وهذا يعني أنّ الأخلاق الإسلاميّة واقعيّة، لأنها تراعي واقع الإنسان وفطرته.

ومن مزاياها العملية.. فهي إيمان وعمل، وهي تختلف عن

1) انظر: دراسات في الفكر الإسلامي، بسام نهاد جرار.

الأخلاق في المنظـور الفلسـفي، حيث أنّ الفلسـفة تقـدم الجـانب المعرفي ولا تهتم بالجانب العملي التطبيقي.

ومن مزاياها.. أنها تستند إلى العقيدة، وتنبثق عنهـا، وهـذا مـا يجعلهـا قناعـات قبـل أن تكـون سـلوكاً، على خلاف الأخلاق الـتي تستند إلى العادات والتقاليد؛ فكثيراً مـا تُمـارس هـذه الأخلاق على أسـاس من التقليـد غـير الـواعي وبُحكم العـادة، ويغلب أن يكـون الدافع إليها الرغبة في إرضاء المجتمع.

ومن مزاياها.. أنها عبادة يثاب فاعلهـا، ويتقـرب بهـا إلى اللـه تعالى، مما يجعلها ذات منفعة دنيويّة وأخرويّـة، على خلاف الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد، ولذلك يسهل نبذها عنـدما تتعـارض مع المصالح الدنيويّة للفرد أو الجماعة.

ومن مزاياها.. أنهـا مُلزمـة، وتـأتي سـلطة الإلـزام ابتـداءً من القناعــة الدينيّـة، ثم من الرغبــة في مثوبــة الخــالق والرهبــة من عقوبته، ثم من نظرة المجتمع المؤمن الـذي يعيش فيـه المسـلم، ثم ما يكون من قـانون يُنظّم المجتمـع ويحمي قيمـه.. أمّـا الأخلاق المنبثقة عن العادات والتقاليد فتضعف فيها سـلطة الإلـزام والـتي يغلب أن تكـون منحصـرة في نظـرة المجتمـع، حيث أنّ القـانون الوضعي لا يشمل الكثير من مسائل الأخلاق.

ومن مزاياها.. أنها شاملة لكل سلوكيات الإنسـان، لا يسـتثنى من ذلـك أي سـلوك.. ثم هي تشـمل الفـرد والجماعـة، والحـاكم والمحكوم، وتشمل جميع فئات المجتمع في جميع الظروف.. وهي تشمل ظاهر الإنسان وباطنه وجميع جوانب شخصـيّته، على خلاف الأخلاق المنبثقــة عن العــادات والتقاليــد والفلســفات، حيث أنهــا قاصـرة ولا تشـمل كـل سـلوك، ثم هي تتعامـل مـع الظـاهر ولا سلطان لها على الباطن، ثم هي في ظروف الحرب، مثلاً، تختلــف عنها في ظروف السلم، ونجدها أحياناً تختلف بين حاكم ومحكــوم، وخادم ومخدوم، وصغير وكبير، وطبقة اجتماعيّة أخرى.

قلت: ولكن الواقع الإسلامي يختلف كثيرا عن هذه المثالية التي تذكرها.

قال: نعم.. الواقع الإسلامي متخلف كثيرا عن هذه المثل.. ولكن.. ألم تتساءل عن سر ذلك؟

قلت: لم أتساءل.

قال: أنا تساءلت عن ذلك، وبحثت عنه، وقد وجدت أن أولئك المتخلفين لم يتتلمذوا على محمد في سلوكهم، ولم يتعرضوا لأشعة محمد حتى يرتفعوا إلى هذه المثل.

قلت: فعلى من تتلمذوا؟

قال: علينا نحن.. تتلمذوا على ما نبثه لهم عبر وسائل الإعلام الكثيرة التي لا هم لها إلا إفسادهم وتضليلهم.

قلت: فقد انحنى الإسلام في هذه الناحية إذن؟

قال: لا.. مدرسة الإسلام لم تنحن.. ولكن بعض المسلمين انحنوا.. ولو أتيح لهم الجو المناسب، فسيقومون من جديد..

قلت: من ضمن لك ذلك؟

قال: أنا لست في شك من ذلك.. لأن الفطرة التي تملأ نفوسهم لن يؤثر فيها أي انحراف.

الانتشار:

قلت: فحدثني عن صمود الانتشار..

قال: لقد ذهبت إلى التاريخ أقارن أنواع البلاء التي تعرضت لها العقائد والمذاهب والأفكار، فلم أجد مواجهات عنيفة كتلك المواجهات التي قوبل بها الإسلام.. ولم أجد صمودا كذلك الصمود الذي أبداه المسلمون.

إن تـاريخ الإسـلام حافـل بالمواجهـات بينـه وبين أعدائـه والمكيدين له والمتآمرين عليه.. وفي كل مرة كان الإسـلام يخـرج منتصرا شامخا(1)..

لقد اجتمع على محمد العدوان الثلاثي: المشـركون كلهم في جزيرة العرب، واليهـود والمنـافقون في غـزوة الأحـزاب، فخرجـوا من ذلك العدوان منتصرين.

وحاربتهم الدول العظمى في ذلك العهد: الروم في الشـمال، والفـرس في الشـرق، والأحبـاش في الجنـوب، فكـان النصـر لهم على تلك الدول جميعا.

واجتمعت على حربهم الـدول الصـليبية، وكـانوا في غايـة من الضعف والتفرق، ولكن أعداءهم خرجوا في النهايـة يجـرون أذيـال الهزيمة..

واجتـاح التتـار وزعيمهم هولاكـو عاصـمة الخلافـة بغـداد، وسـيطروا على المسـلمين سـيطرة لم يكونـوا يظنـون أنهم سيطردون منها شر طردة، ولكن النصر كان حليف المسلمين.

واسـتجاب أتـاتورك لليهـود والصـليبيين، وأغلـق مـدارس المسلمين وغير مناهجهم وأكرههم على إظهار موافقتـه في كتابـة أغلى كتاب على وجه الأرض بغـير حروفـه العربيـة، وأرغمهم على الأذان بغـير ألفاظـه العربيـة، وأنـزل بالمسـلمين من المحن والمصائب ما لا يخفى على قارئ التاريخ، ولكن المسلمين درَّسـوا أولادهم في دهاليز منازلهم، وفي حظائر دوابهم القرآن والحـديث، والفقه، والتفسير، والتـاريخ الإسـلامي، وإذا الجيـل الـذي نشـأ في عهده يظهر بعد إدباره حافظا للقرآن، متقنا للغة العربية، متمسـكا بدينـه.. رافضـا مبـادئ أتـاتورك وزمرتـه على رغم تسـلطهم واستبدادهم الشامل الذي تدعمه القوة العسكرية..

1) انظر: العالم الإسلامي والمكائد الدولية، فتحي يكن، والإسلام دين رحمة وهدايـة واستعصاء.

وجثم الاتحـاد السـوفييتي على صـدور المسـلمين في آسـيا الوسطى سبعين عاما، قتل من قتـل، واعتقـل من اعتقـل، وشـرد من شرد، وحظر على المسـلمين حمـل القـرآن، ومـع ذلـك خـرج الجيل الذي نشأ في ظل هذا النظام الظالم، وهـو يحفـظ القـرآن، ويحفظ أحكام دينه ويلتزم بها، وما جوهر دودايـيـف، وزملاؤه الـذين سلكوا سبيله إلى الآن إلا دليل على أن المسلمين يستعصون على أي عدو يحاول القضاء عليهم وعلى دينهم..

والمحتلون الأوربيون البريطانيون، والفرنسـيون والإيطـاليون، والبرتغاليون، والألمان والأسبان، الذين اغتصـبوا بلـدان المسـلمين في مشـارق الأرض ومغاربهـا، وبقـوا فيهـا فـترات طويلـة، حـتى أصبحت في ظاهر الأمر جزءا من بلد المحتل، خرجـوا جميعـا وهم يجرون أذيال الهزيمة..

وهاهم المسـلمون اليـوم، يجاهـدون أعـداءهم الأقويـاء ماديـا المعتـدين عليهم في بلـدانهم، في فلسـطين والعـراق والفيليـبين والشيشان وأفغانستان وغيرها من البلدان، برغم ضعفهم المـادي، صـابرين مستبسـلين، لا يخـافون إلا ربهم، وسـيبقون كـذلك حـتى يحقق الله لهم النصر على عدوهم..

ولم تكن الحـرب حربـا عسـكرية فقـط.. ولم يكن الصـمود صمودا عسكريا فقط..

لقـد وضـعت مخططـات كثـيرة.. وحيكت مـؤامرات كثـيرة لينحرف المسلمون عن دينهم.. لكنها كلها باءت بالفشل..

لقـد قـال (زويمـر) في بدايـة المـؤتمر العـالمي للتبشـير في القدس سنة (1933) يفضح هذه المؤامرات، ويبين الهـدف منهـا: (إن مهمتكم إخراج المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقا لا صلة لـه بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاقية التي تعتمـد عليهـا الأمم في حياتها، إنكم أعددتم شبابا في بلاد الإسلام لا يعـرف الصـلة باللـه،

ولا يريد أن يعرفها، وأخـرجتم المسـلم من الإسـلام، وبالتـالي جـاء النشء الإسـلامي طبقـا لمـا أراده لـه الإسـتعمار، لا يهتم بعظـائم الأمـور ويحب الراحـة والكسـل ولا يصـرف همـه في الـدنيا إلا في الشهوات، فإذا تعلم فللشهوات وإذا جمـع المـال فللشـهوات، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بأغلى ما يملك)

ويقول زويمر: (إن السياسية الإستعمارية لما قضت منذ سنة (1882) على برامج التعليم في المدارس الإبتدائيـة أخـرجت منهـا القرآن، ثم تاريخ الإسلام، وبذلك أخرجت ناشـئة لا هي مسـلمة ولا هي مسـيحية ولا هي يهوديـة، ناشـئة مضـطربة ماديـة الأغـراض لا تؤمن بعقيدة ولا تعرف حقا للدين ولا للوطن حرمة)

ويقول (هاملتون جب) المستشرق الإنجليزي في كتابه (جهـة الإسلام) سنة (2391م): (إن العالم الإسلامي سيصبح خلال فـترة قصيرة لا دينيا في كل مظاهر حياته)(1)

هذا ما كان قومنا يتوقعونه من الأجيـال القادمـة.. لقـد عـادوا يفركون أيديهم فرحا بعد أن رأوا مجموعات من خريجي جامعاتهم لا يعبـأون بـدين، ولا يهتمـون بخلـق ولا قيمـة، ولكن كـل تلـك المخططات باءت بالفشل، وانحنت أمام صمود الإسلام.

لقد أنفقوا أموالهم وأحكموا خططهم ودبروا مكائدهم لإخراج جيل لا ديني، توقع سـادته أن يكـون سـحق الإسـلام في المنطقـة على يده، وأقموا الجامعـات وفرضـوا الإختلاط وأقصـوا الصـادقين من حملة القيم والأخلاق عن كل المراكز الحساسة، وقربـوا دعـاة الإباحية والإلحاد والعلمانية والفساد إليهم، ونصبوهم قضـاة وسـادة وأقاموا حولهم الهالات، ونفخوا في الأقـزام حـتى أضـحوا عمالقـة في أعين الرعاع والدهماء، ولكن هـل كـان لهم الـذي أرادوا؟ هـل أقصي الإسلام نهائيا عن حياة الفرد والأسرة والمجتمع؟

1) انظر هذه المقولات وغيرها في كتاب (الخنجر المسموم) لأنور الجنـدي، و(أجنحـة المكر الثلاث) لعبد الرحمن حبنكه، و(قادة الغرب يقولون) لجلال العالم.

قلت: نعم.. لقد نجحوا في كثير من ذلك..

قال: ولكن تلك المدارس التي خططوا لها أن تصير مدارس علمانية لا صلة لها بدين ولا خلق راحت تدفع بالأفواج إلى الإسلام.

لقد أضحت الجامعات التي سهروا على منهاجها وظنوها مراكز التدمير تقدم نماذج من الشباب الصادق الملتزم الذي يضحي بكل شيء من أجل عقيدته ودينه.

لقد أصبحت الجامعات كبلاط فرعون يربى فيه موسى عليه ليهدم بيده عرش فرعون ويسحب البساط من تحت رجليه.

أما سحر حضارتنا.. فلم يعد يخدع الأبصار.. فقد تفتحت أعين المسلمين على نور الإسلام، وانفتحت بصائرهم لتقبل الحق، بعد انبلاج الحق وسطوع نوره على القلوب والنفوس.

فحيثما تتوجه الآن في الكرة الأرضية تجد رجوعا إلى الإسلام.. تجد نفوسا متعطشة للدين، حتى تستظل بفيئه بعد أن أضناها لفح الهاجرة وأرهقها طول المشي في التيه(1).

قلت: ولكن الإسلام ـ الآن ـ يواجه حروبا عظيما.. حروبا في كل النواحي، ومن كل الجهات.. فهل تراه سيصمد لها؟

قال: لا أقول يصمد لها فقط.. بل إنه سينتصر فيها.. وسيعود أولئك المحاربون إلى الإسلام أفواجا كما عاد القرشيون..

هذا (ديباسيكييه) المفكر الفرنسي، يرشح الإسلام كمنقذ وحيد للبشرية فيقول: (إن الغرب لم يعرف الإسلام أبدا، فمنذ ظهور الإسلام اتخذ الغرب موقفا عدائيا منه، ولم يكف عن الإفتراء عليه والتنديد به لكي يجد المبررات لقتاله، وقد ترتب على هذا التشويه أن رسخت في العقلية الغربية مقولات فظة عن الإسلام، ولا شك أن الإسلام هو الوحدانية التي يحتاج إليها العالم

1) انظر: الإسلام ومستقبل البشرية، عبد الله عزام.

المعاصر ليتخلص من متاهات الحضارة الماديـة المعاصـرة الـتي لا بد أن استمرت أن تنتهي بتدمير الإنسان)(1)

إن هؤلاء الكتاب الغربيين يقفون نفس الموقـف الـذي وقفـه هرقل عندما وصله كتاب محمد، فقد سأل أبـا سـفيان عن أحـوال محمد، وبعد أن أخبره قال هرقل لأبي سفيان: (إن كـان مـا تقـول حقا، فسيملك موضع قـدمي هـاتين، وقـد كنت أعلم أنـه خـارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقــاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه)(2)

لقد كان هرقل عاقلا يدرك أن أمر العقائـد إلى إقبـال، وأمـر السلطان الذي لا يدعمه فكر وعقيدة إلى زوال، كان هرقل آنــذاك يحكم إمبراطورية لا تغيب عنها الشمس، ولكنه يراها متفسخة من داخلها، وسرعان ما تتهاوى على رؤوس أصحابها، ولأول ضربة من ضربات أعدائها.

ولهذا فإن أعداء الإسلام الذين درسوا تاريخه يعرفـون قدرتـه على الممانعــة والمواجهــة والخــروج من الأزمــات.. يقــول ابن غوريون: (نحن لا نخشى الإشـتراكيات ولا القوميـات ولا الملكيـات في المنطقة، إنما نخشى الإسلام، هذا المارد الذي نام طويلا وبدأ يتململ في المنطقـة، إني أخشـى أن يظهـر محمـد جديـد في المنطقة)

وبمثل هذا شهد أصدقاؤنا من المستشرقين، يقول (كوستاف لوبون): (مع ما أصاب حضارة العرب من الدثور، كالحضارات التي ظهرت قبلها: لم يمس الزمن دين النبي الذي له من النفوذ مـا لـه في الماضي، والذي لا يزال ذا سلطان كبير على النفـوس، مـع أن الأديان الأخرى التي هي أقدم منه تخسر كل يوم شيئًا من قوتهــا.. وتجمع بين مختلف الشعوب التي اتخذت القرآن دستورًا لها وحـدة

1) مجلة الإيمان اللبنانية عدد (75) السنة الثانية آذار سنة (0891م)

2) رواه البخاري ومسلم.

اللغة والصلات التي يسفر عنها مجيء الحجيج إلى مكـة من جميـع بلاد العالم الإسلامي. وتجب على جميـع أتبـاع محمـد تلاوة القـرآن باللغة العربية بقدر الإمكان، واللغـة العربيـة هي لـذلك أكـثر لغـات العالم انتشارًا على مـا يحتمـل، وعلى مـا بين الشـعوب الإسـلامية من الفـروق العنصـرية تـرى بينهـا من التضـامن الكبـير مـا يمكن جمعها به تحت علم واحد في أحد الأيام)(1)

ويقول: (كان سلطان الإسلام السياسي والديني قويًا في بلاد الهند، ورسخ فيها ثمانية قرون بفضل ملوك الإسلام الـذين تـداولوا حكمها، ولا يزال سلطان الإسلام الـديني قائمًـا في بلاد الهنـد، وإن توارى سلطانه السياسي عنها، وهو يمضي قدمًا نحو الاتساع)(2)

ويقول: (تأثير دين محمد في النفوس أعظم من تأثير أي دين آخر، ولا تزال العروق المختلفـة الـتي اتخـذت القـرآن مرشـدًا لهـا تعمل بإحكام كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنًا)(3)

ويقـول: (دخلت حضـارة العـرب في ذمـة التـاريخ منـذ زمن طويل، ولا نقـول، مـع ذلـك أنهم مـاتوا تمامًـا، فـنرى الآن ديـانتهم ولغتهم اللتين أدخلوهما إلى العالم أكثر انتشارًا مما كانتـا عليـه في أنضر أدوارهم.. ولا يزال الإسلام جـادًا في تقدمـه.. واليـوم يـدرس القرآن، فيما عدا جزيرة العرب، في مصر وسورية وتركيـة وآسـية الصغرى وفارس وقسم مهم من روسية وأفريقية والصين والهنـد، وتنـاول القـرآن مدغشـقر وأفريقيـة الجنوبيـة، وعـرف في جـزر الملايو، وعلمه أهـل جـاوة وسـومطرة وتقـدم إلى غينيـا الجديـدة، ودخل أمريكا مع زنوج أفريقية.. ويتقدم الإسلام في الصـين تقـدمًا يقضي بالعجب.. حيث اضطر المبشرون الأوروبيون إلى الاعـتراف بالحدود وسيقوم الإسـلام – كمـا يقـول وازيليـف – مقـام البوذيـة،

1) حضارة العرب، ص 126.

2) حضارة العرب، ص 186.

3) حضارة العرب، ص 417.

ومسلمو الصين لا يشكون في ذلك وهذه المسألة على جانب عظيم من الأهمية. فإذا اعتنقت الصين دين الإسلام تغيرت علاقات العالم القديم السياسية تغيرًا عظيمًا وأمكن دين محمد أن يهدّد النصرانية من جديد)(1)

يقول جب في كتابه (Wither Islam) (جهة الإسلام)، وهو كتاب كتبه مجموعة من المستشرقين نتيجة أبحاث قدمت لمؤتمر في جامعة (برنستون في أمريكا: (إن الحركات الإسلامية تتصور عادة بسرعة مذهلة مدهشة، فهي تنفجر انفجارا مفاجئا قبل أن يتبين المراقبون من إماراتها ما يدعوهم إلى الإستراية في أمرها، فالحركات الإسلامية لا ينقصها إلا الزعامة وظهور صلاح الدين)

***

عندما وصل (جابرييلي فرانشيسكو) من حديثه إلى هذا الموضع استأذنني في الانصراف، فقلت له: اسمح لي حضرة الأستاذ الفاضل أن أسألك هذا السؤال الذي حيرني..

قال: تريد أن تسأل عن سر عدم إسلامي مع هذه الحماسة التي أبديها للإسلام.

قلت: أجل.. فأنا في غاية العجب منك.

قال: أنت تعلم ما قاله (اللورد هدلي)

قلت: تقصد قوله: (إنني أعتقد أن هناك آلافاً من الرجال والنساء أيضاً، مسلمون قلباً، ولكن خوف الانتقاد والرغبة في الابتعاد عن التعب الناشئ عن التغيير، تآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم)

قال: أجل.. وهذا ما أستطيع أن أجيبك به، ولن أزيد.

---

1) حضارة العرب، ص 616 – 61 7.

قال ذلك.. ثم انصرف سائرا من غير أن يسألني عني..

بقيت أتأمل تلك الشجرة العظيمة لأرى فيها من عزة الإسلام وصموده ما كان محجوبا عن بصيرتي.

وفي تلك الأثناء تنزلت علي أنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلــك إلى شمس محمد ﷺ.

ثالثا ـ قيم

في اليـوم الثـالث من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة القيم من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُـو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِـهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْـوَانَهُ سُـبُلَ السَّـلَامِ وَيُخْـرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِـهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (16)﴾ (المائدة)

وسر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّـرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (9)﴾(الإسراء)

وعرفت بها سر قوله ﷺ: (إنما بعث لاتمم مكارم الاخلاق)[1]

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن مقصد شريف من مقاصـد الإسـلام، وهـو التزكيـة والتربيـة وبث القيم الرفيعـة في النفـوس والمجتمعات المسلمة، وهو هدف لم يتحقـق إلا في الإسـلام.. ولم أعرف برهان ذلك إلا في ذلك اليوم المبارك.

***

منذ وطئت قدماي أرض السربون كـان لي شـوق عظيم لأن ألتقي (آرثر جون آربري)[2].. لقد كنت أشعر بأن بيننا صلات قرابة

---

1) البخاري ومسلم.

2) هـو (1905-1969) Arthur John Arberry ولـد في مدينـة بورتسـموث بجنـوب بريطانيا، التحق بجامعة كامبريدج لدراسة اللغات الكلاسيكية اللاتينية واليونانيـة، وشـجعه أحد أساتذته (منس) على دراسة العربية والفارسية.

ارتحل إلى مصر لمواصلة دراسته للغة العربية. عاد إلى مصر ليعمـل في كليـة الآداب رئيساً لقسم الدراسات القديمة (اليونانية واللاتينية) وزار فلسطين وسوريا ولبنان.. اهتم بالأدب العربي فترجم مسرحية (مجنون ليلي) لأحمد شـوقي كمـا حقـق كتـاب (التعـرف إلى أهل التصوف)، واصل اهتمامه بالتصوف وذلك بنشره كتاب (المواقف والمخاطبـات) للنفري، وترجمه إلى الإنجليزية. (انظر: عبد الرحمن بدوي: موسـوعة المستشـرقين: 5-

كثيرة..

فهو يهتم بالقيم الإنسانية الرفيعة، ويعتبرها الثمرة الكبرى لكل دين، بل يقيم الأديان على أساسها، وكنت مثله في ذلك.

وقد كانت القيم التي يبشر بها هي نفس القيم التي أشعر بأهميتها الكبرى في بناء الحياة الإنسانية.

وقد كان مع ذلك يتألم كثيرا لتخلف القيم عن المجتمعات المعاصرة التي باعت نفسها للشياطين الذين وضعوا لها دساتير تخالف دساتير الفطرة التي طبعت عليها.

في ذلك الصباح الجميل.. وفي حديقة من حدائق باريس تشتهر بأنواع جميلة من الأزهار.. تفوح بكل روائح العطر العذبة.. وتشرق منها جميع ألوان الابتسامة.. رأيته كراهب يجثو أمام زهرة من الزهرات يتأملها، ويغرق في تأمله.

كنت أعلم حبه للغة العربية.. فلذلك اقتربت منه، وأنشدته قول مسعود سماحة:

تمتعْ بأزهارِ هذي الحياة	فإِن حياتكَ بعضُ الزمنْ
وخلِّ النضارَ وجمعَ النضار	فما زاد نفسكَ غيرُ الكفنْ

التفت إلي، وقال: صدقت.. ولا فض فوك..

ثم نظر إلى الأزهار، وقال: صدق مسعود سماحة.. لقد عبر خير تعبير عن جمال الحياة التي تختزنها هذه الأزهار.

قلت: أراك غارقا في التأمل فيها.. فهل ترى فيها ما لا نرى؟

قال: ربما ترى فيها أنت ـ ما دمت تتذوق الشعر ــ ما أرى.. ولكن الكثير ممن ترى لا يرى ما نرى.

(8

قلت: أنــا لا أرى إلا زهــرة تفــوح بــأريج العطــر، وتملأ العين بثغرها الجميل المبتسم.

قال: إن هذه الزهرة التي تراها تختزن جميع القيم الكريمة..

ثم التفت إلى البشر الذين حوله، وقال: لقد كـان في إمكـان كل فرد من هؤلاء أن يكون كهذه الزهرة.. وكان في إمكان البشــر جميعا أن يتحولـوا إلى أزهـار طيبـة تفـوح بأعـذب ألحـان العطـر.. وكان في إمكان الأرض أن تصبح بذلك حقلا كبيرا وحديقـة عظيمـة وجنة من الجنان لا تقل عن جنان الآخرة..

قاطعته قائلا: فما الذي حال بينهم وبين أن يكونوا كذلك؟

قـال: الشـهوات الـتي ملأتهم بهـا الشـياطين، والأنانيـة الـتي جعلتهم يدوسون كل زهرة، ويخنقون كل عطر.

قلت: فـأنت يـائس إذن من البشــر.. سـلمت نفسـك لعـالم الأزهار..

قـال: لا.. لســت يائســا.. لقـد تـرك رجـل من البشــر وطئت قدماه ثرى الأرض ذات يوم بذورا كثـيرا لأزهـار جميلـة ظلت تتفتح في كل العصور.. لعلها في يوم من الأيام تستطيع أن تحول الأرض حديقة غناء..

قلت: تقصد المسيح.. لا شك أنك تقصده.

قال: المسيح ترك بذورا كثيرا لأزهار جميلة.. لكن المجــرمين خنقوهـا في مهـدها، لعلهم حـافظوا على ألوانهـا وبعض روائحهـا، ولكنهم سقوها السم الزعاف، فلا يقـترب منهـا أحـد إلا أصـابه من سمها.

قلت: فمن هذا الذي بقيت أزهاره سالمة لم تخنق؟

قال: محمد.

قلت: نبي المسلمين.

قال: نـبي العـالمين.. إنـه النـبي الوحيـد الـذي لا تـزال بـذور أزهاره حية عطـرة جذابـة يمكنهـا أن تحـول الأرض جميعـا حديقـة غناء.

قلت: أنت مغـرم باللغـة والأدب.. وقـد قـرأت لـك ترجمتـك لمسرحية (مجنون ليلي) لأحمد شوقي.. فما الذي جعلك تربط بين تعاليم محمد، وبين الأزهار؟.. أو ما هو وجه الشبه بينهما؟

قـال: انظـر إلى هـذه الزهـرة الجميلـة.. وأخـبرني عن سـر جمالها.

قلت: أنت تكلفني عنتا.. فالجمـال ذوق من الصـعب الحـديث عن أسراره.

قال: أما أنا.. فقد حاولت أن أجعله علما.. وحــاولت أن أبحث عن سر أسراره.

قلت: لم؟

قال: لأبحث عن كيفية تحويل البشر إلى أزهـار.. لقـد وجـدت أثناء بحثي المضني سبعة أسرار.. فلمـا انتهيت من تحديـدها رحت أبحث في الفلسفات وفي الأديان عمن عبقت تلك الأسرار السبعة من تعاليمه، وفي الأجيال التي تربت على تعاليمه، فلم أجد ذلك إلا في دين محمد.

قلت: فما هذه الأسرار السبعة.

قال: العفاف، والكرم، والنبـل، والتضـحية، والقـوة، والأمانـة، والصدق.. وقد رأيت من خلال بحثي عن سـر الزهريـة في الأزهـار أنها كلها ترجع إلى العفاف.. أو كلهـا تنطلـق من العفـاف.. فـالفرد العفيف مأوى لكل فضيلة، والمجتمع العفيف مأوى لكل القيم.

لقد صدق محمد عندما عبر عن ذلك، فقال: (إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الاولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت)[1].. فالحياء الذي أساس العفة.. هو الحاجز بين الإنسان وكل رذيلة، وهو الحامل لكل إنسان على كل فضيلة.

قلت: فهل ترى في هذه الأزهار ما تذكره من هذه الصفات؟

قال: لولا توفر الأزهار على هذه الصفات ما كانت أزهارا..

قلت: فحدثني عنها.

قال: حديثها طويل.. وسأختصره لك اختصارا.. ولكني لن أحدثك عن القيم التي جاء بها محمد حتى أحدثك عن القيم التي نشرتها شياطين الرذيلة في مجتمعاتنا.. فلا يظهر جمال النور إلا في الظلمة.

قيم الجاهلية

نظر إلى الأزهار بحزن، ثم قال: لقد خلق الله البشر مثل هذه الأزهار براءة وعذوبة وجمالا.. لقد كان عبير البشر الأزهار يسيح في الأرض، فيملأها بالجمال..

لكن المجرمين الذين استسلموا لأهوائهم راحوا يحولون من تلك الأزهار الجميلة أشواكا وسموما.. فصارت الأرض التي كانت جنة سجنا.. وصارت الأرض التي كانت مأوى الطيبة والعفاف ماخورا للخبث والرذيلة..

لقد صارت كما ذكر القرآن في (جاهلية)..

قلت: نعم.. لقد وصف القرآن قوم محمد بأنهم كانوا يعيشون جاهلية.

قال: كما وصف غيرهم بأنهم في جاهلية.. فالجاهلية في

1) البخاري وغيره.

المفهوم القرآني لا تعني فترة زمنيـة.. ولا محلا مكانيـا.. بـل تعـني قيما منحطة، ونظما جائرة، وأخلاقا منحرفة، وفكرا شيطانيا..

إن الجاهلية في المفهوم القرآني هي الكلمة البديلـة عن كـل ذلك..

لقد ذكر القرآن جاهلية التصـور، فقـال: وَطَائِفَـةٌ قَـدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ (آل عمران:154)

وذكــر جاهليــة الحكم، فقــال: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُــونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (المائدة:50)

وذكر جاهلية التبرج، فقال: وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (الأحزاب:33)

وذكر جاهلية العصـبية والقوميـة والوطنيـة، فقـال: إِذْ جَعَـلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ (الفتح:26)

قلت: ولكن الجاهلية مشتقة من الجهل.. والجهـل لا يعـني إلا تخلف العلم.

قال: أعظم الجاهليات هي الجاهليـات الـتي تحـول من العلم حمارا تركبه لتنفذ به مآربها الخسيسة.. لا تحـول العلم فقـط.. بـل تحول كل مسؤولية تناط بها.

وقد كان قومنا من هؤلاء..

أما رجال ديننا، فحولوا من الكتاب المقدس شبكة يصـطادون بها أموال الناس وأعراضهم..

وأمـا رجـال دنيانـا، فحولـوا من السـلطات الـتي خـولت لهم وسيلة لجر رعاياهم إلى مستنقعات الشياطين، لأنه لا يستقيم لهم الأمر إلا إذا عبدت رعيتهم الشياطين.

قلت: أراك متحاملا على رجال الدين ورجال الدنيا!؟

قال: لست متحاملا.. ولكنها الحقيقة التي عرفتها بعد كل تلك السنين..

لقد عرفت أن القيم النبيلة لم تكن في يوم من الأيـام إلا في الإسلام.. وأنها لن تكون في يوم من الأيام إلا بالإسلام..

الإسـلام وحـده هـو الإكسـير الـذي يقضـي على كـل سـموم الجاهلية.

المسيحية:

نظر إلي، ثم قـال: قـد تتهمـني بالحيـاد.. وتخطئ في ذلـك.. لأني لم أكن في يوم من الأيام مسـلما، ولكـني أحـدثك عن جهـود وبحوث امتدت بي إلى ما تراه من عمر.

لقـد بـدأت بالمسـيحية.. بحكم كـوني من أسـرة مسـيحية.. وأعجبت بالرهبـان الـذين مثلـوا العفـاف والمـروءة والنبـل ــ في نظـري في ذلـك الـوقت ــ في أرقى درجاتهـا.. ولكـني بعـد ذلـك عرفت أن سلوك الرهبان لم يزد الفجور إلا انتشـارا، ولا الانحـراف إلا رسوخا.

قلت: كيف ذلك؟

قال: حديث ذلك يطـول.. فالجاهليـة الـتي تغلغلت في جميـع مناحي الحياة من الصعب جمع جميع تفاصـيلها.. ولـذلك سـأحدثك عن بذرة خطيرة من بذور الجاهليـة، وهي في نفس الـوقت ثمـرة من أخطر ثمارها.

لقد اعتبرها الإسلام حماية الفرد والمجتمـع منهـا مقصـدا من مقاصده، بل من ضروريات مقاصده.

قلت: تقصد حفظ العرض والنسل.

قـال: أجـل.. لقـد قـال محمـد يـبين خطـورة هـذا النـوع من الانحراف: (من وقاه الله شـر مـا بين لحييـه، وشـر مـا بين رجليـه دخل الجنة)(1)

وقد وضـع الإسـلام لأجـل وقايـة المجتمـع لأجـل تحقيـق هـذا المقصد منظومة كاملة من التشريعات.. لا يـزال قومنـا يسـخرون منها ويضحكون مع أنـه لا يمكن للبشـر أن يتحولـوا إلى أزهـار من دونها.

قلت: لقد كنت تحدثني عن الرهبان..

قال: أجل.. لقد أراد الرهبـان أن يصـادموا الفطـرة بمـوقفهم من المرأة، فصدمتهم.

لقد كان الرهبـان..حسـب مـا اسـتنتجت بعـد ذلـك سـببا من أسباب الرذائل التي تعيشها مجتمعاتنا.

لقد كانوا ينشرون إيحاء عاما في المجتمع بأن المرأة مخلوق شيطانى دنس ينبغى الابتعاد عنه.. وكانوا يرون أن الزواج ضــرورة غريزية حيوانية للعامة، ولكن السعيد الأتقى من استطاع أن يرتفـع عنها ولا يتزوج(2).

لقد قال أحد رجال الكنيسة لتلاميذه مرة: (إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائناً بشـرياً، بـل ولا كائنـا وحشـياً، وإنمـا الـذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان)(3)

وقد عبرت (رأى ستراتشى) إحدى المطالبات بحقوق المـرأة فيمـا بين الحـربين، عن موقـف الرهبانيـة، فقـالت: (يسـتفاد من النظرية التى أوصت بهذا التطاول عن المرأة أن الشهوة الجنسـية

1) رواه الترمذي والحاكم وابن حبان.

2) انظر: جاهلية القرن العشرين، لمحمد قطب.

3) أشعة خاصة بنور الإسلام: 29.

هى أشنع الخطاياً جميعاً، وأنهـا كـانت فى الحقيقـة الخطيئـة الـتى سـببت سـقوط الإنسـان، وإن العفـة الكاملـة هى أعلى مثـل فى الحياة وأنه يجب أن يلعن النساء لأنهن سبب الغوايـة، وكـان يقـال أن الشيطان مولع بالظهور فى شكل أنثى وأنه طالما زار النســاك بهذه الصورة فى كهوفهم الجبلية وصفوة القول أن مجرد التفكـير فى النساء كان خطراً وأن المرأة نفسها كان نحسـاً من النحـوس) (1)

ومضت الأمور على ذلك حيناً طويلا: مباذل شـنيعة بشـعة فى الإمبراطورية الرومانية على اتساعها، ورهبانية واسعة الآفـاق على حدود الصحارى، وفى داخل المدن، فراراً من الفساد.

لقـد ذكـر (ليكى) فى كتابـه (تـاريخ الأخلاق فى أوروبـا) تـأثير سلوك الرهبان السلبي في انتشار الرذائل، فقال: (كانت الدنيا فى ذلك الحين تتأرجح بين الرهبانيـة القصـوى والفجـور الأقصـى، وإن المدن التى ظهر فيها أكبر الزهاد كانت أسبق المـدن فى الخلاعـة والفجور، وقد اجتمع فى هـذا العصـر الفجـور والـوهم اللـذان همـا عدوان لشرف الإنسان وكرامته)(2)

ويصور الكاتب النفور من المرأة وما يرتبـط بهـا من علاقـات فى ظـل الرهبانيـة، فيقـول: (وكـانوا يفـرون من ظـل النسـاء، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصـادفتهن فى الطريق والتحدث إليهن، ولـو كن أمهـات أو أزواجـاً وشـقيقات تحيط أعمالهم وجهودهم الروحية)

وقال ترتوليان Tertulian، وهـو أحـد أقطـاب المسـيحية الأول وأئمتها، مبينا نظرية المسيحية فى المرأة: (إنهـا مـدخل الشـيطان إلى نفس الإنسـان، وإنهـا دافعـة بـالمرء إلى الشـجرة الممنوعـة، ناقضة لقانون الله. ومشوهة لصورة الله ـ أى الرجل ـ)

1) تاريخ العالم: 1/297.

2) عن كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبى الحسن الندوى.

وقال كرائى سوستام Chry Sostem الذى يعد من كبار أوليـاء الديانة المسيحية فى شأن المرأة: (هى شـر لابـد منـه، ووسوسـة جبلية، وآفة مرغوب فيهـا، وخطـر على الأسـرة والـبيت، ومحبوبـة فتاكة، ورزء مطلى مموه)

لقد كانت هذه أقوالهم.. ولكن أفعالهم لم تكن كأقوالهم..

فالتاريخ يشهد في جميع فتراتـه على الفضـائح الكثـيرة الـتي كانت تنتشر داخل دور العبادة وبين الرهبـان والراهبـات.. ولا تـزال مثل هذه الفضائح تنشرها الجرائد كل حين..

نظــر إلي، وقــال: لا تســتغرب.. فمن يقــرأ مــا في الكتــاب المقدس من نصوص تكـاد تصـور الرذيلـة للعين، بـل تكـاد تجعلهـا شيئا مقدسا لا يستغرب أن يحصل كل ذلك.

ففي الكتاب المقدس نصوص كثـيرة تـبيح الرذيلـة، بـل تكـاد تقدسها[1].

فــ (البغـاء) من الوظـائف المحترمـة في الكتـاب المقـدس، والبغيُّ شخصـية مقبولـة فيـه، وإن كـانت مُحتقَـرة في المجتمـع العبراني القديم، ففي سفر التكوين (38/14 ـ 19) ذكـر أن يهـودا عاشر عاهرةً نظير أجر، ولا يوجد في السياق ما يدل على أن هــذا أمر مرفوض أخلاقياً، وقـد اتضـح فيمـا بعـد أن العـاهرة هي تامـار زوجة ابنه الذي مات، وقد أنجبت من والد زوجها طفلين.

ويـذكر سـفر يشـوع قصـة العـاهرة راحـاب الـتي سـاعدت العبرانيين على دخول أريحا (يشوع 2/1 ـ حتى نهاية السفر)، وترد في سـفر الملـوك الأول (3/16 ـ 27) قصـة سـليمان مـع الأُمَّين اللتين تنازعتا طفلاً، وهما في القصة عاهرتان.

وتوجد في سفر القضاة (16/1) إشارة إلى زيـارة شمشـون

1) انظـر الأمثلـة الكثـيرة من الكتـاب المقـدس الدالـة على ذلـك في (الكلمـات المقدسة)، فصل(الأدب)

لعاهرة في غزة.

ليس ذلك فقط.. بـل إن إبـراهيم ذلـك النـبي الـذي اجتمعت الأمم على فضله يتحـول في الكتـاب المقـدس إلى بـائع لعرضـه.. ففي العهد القديم إشارة صريحة إلى أن إبراهيم قد اسـتفاد ماليـاً من العلاقة الجنسية لزوجته بفرعون مصر.

وإستير البطلة اليهودية التي يوجد في الكتاب المقدس سـفر مسمَّى باسمها هي الأخرى عاهرة.

والإشارات والقصص في الكتاب المقدس كلهـا تـدل على أن مهنة البغاء مهنة طبيعية، قد تكون وضيعة ولكنها، مع هذا، جزء من البناء الاجتماعي والأخلاقي.

وقد ورد في العهد القديم فقرات لا تُحرِّم البغاء في حد ذاتـه، وإنما تُحرِّم على العبرانيين أن يدعوا بناتهم يعملن بهذه المهنـة: (لا تدنس ابنتك بتعريضها للزنى لئلا تزني الأرض وتمتلئ الأرض رذيلة) (لاويين 19/29)

وهناك فقرات تُحرِّم على الكهنة الزواج من عاهرات: (امـرأة زانية أو مدنَّسة لا يأخذ ولا يأخذوا امرأة مطلقة من زوجها) (لاويين 21/7). وهي تحريمات ليست عامة أو مطلقة وإنما مقصورة على أفراد معيَّنين وتحت ظروف معيَّنة. ولذا، فإننا نجد إشـارات عديـدة في العهد القديم إلى عاهرات يقمن بوظيفتهن بشكل شـبه عـادي (أمثال 7/1. ـ 23، أشعياء 23/16، ملوك 22/38)(1)

طأطأت رأسي خجلا، فقال: ليت الأمر اقتصر على هذا.

قلت: أهناك ما هو أخطر من هذا؟

قال: أجل.. لقد تحولت الكنائس الـتي يـأوي إليهـا الشـاردون الذين غلبتهم شهواتهم لتملأهم بالعفاف محال لا تكتفي بالسـكوت

1) انظر: الموسوعة اليهودية لعبد الوهاب المسيري.

على الرذائل فقط.. بل تيسر الطريق إليها..

سأذكر لك شهادة رجل مسلم عاش في أمريكا مدة، واختلط ببعض كنائسها، وقد وصف بدقة ما رآه [1]..

لقد قال يقـدم لتلـك الشـهادة: إن كثـيرين ممن لم يعيشـوا بعض الوقت فى أوروبا أو أمريكا ـ أو ممن عاشوا هناك ولكنهم لم يتعمقوا وراء الظواهر ـ كثيراً ما تخدعهم كثرة الكنائس وانتشارها ـ وبخاصة فى الولايات المتحدة ـ حيث تقوم فى البلد الصـغير الـذى لا يتجـاوز تعـداده عشـرة آلاف نسـمة أكـثر من عشـرين كنيسـة أحيانـاً.. وكثـيراً مـا تخـدعهم كـثرة مظـاهر الاحتفـالات الدينيـة والمراسم والأعياد الدينية.. وكثيراً ما تخدعهم كثرة الأحـزاب الـتى تحمل أسماء (المسيحية).. ثم كثيراً ما يخـدعهم مـا يكتبـه ويذيعـه رجال الدين من كتب ومقـالات وبحـوث وإذاعـات فى موضـوعات الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية البحتة أحياناً..

كثيراً ما يخدعهم هذا كله فيحسبون أن للدين شأناً فى أوروبا وأمريكا، وأن لرجال الدين أثراً فى الحياة الاجتماعية هناك.. وهــذه نظرة سطحية لا تدرك حقيقة ما هو واقع هناك.

إن الكنيسة ـ بعد أن ذاقت مرارة الإهمال، ووحشة البعـد عن الحياة الاجتماعية، بعد شرود الناس منها منذ عصر النهضة، وخاصة منذ عصر التنوير، ثم عصر الفلسفة الوضعية الماديـة ــ قـد عـادت تلهث وراء المجتمع، وتتعلق بأهـداب النـاس. لا لتقـود المجتمـع ولا لتنقـل النـاس إلى الـدين. ولكن لتجـرى وراء المجتمـع، ولتتملـق شهوات الناس!

عادت لتقيم فى الكنائس ــ بعـد القـداس ــ حفلات مختلطـة للجنسين يشرب فيها النبيذ، وتدور حلقـات الـرقص، وتعـرض فيهـا ألعـاب التسـلية، ويتخاصـر فيهـا الفتيـان والفتيـات المخمـورين،

---

1) هو سيد قطب، وقد ذكر ذلـك في كتابيـه: الإسـلام ومشـكلات الحضـارة، وأمريكـا التي رأيت.

ويلتذون نشوة المخاصرة والعناق حتى الفجر.. كل أولئك لاجتـذاب الشبان والشواب إلى الكنيسة!

لقد جربت الكنيسة حين وقفت ـ بالباطـل ــ فى وجـه ميـول الناس الفطرية، كيف خرجوا عليها وداسوها وأهملوها، فعادت الآن تتجنب أن تقف ـ بالحق ـ فى وجـه شـهواتهم ونـزواتهم، فيدوسـوا عليها ويهملوها!

لقد عادت أوروبا إلى حياة الرومان القديمة التى تسمح للآلهة والأرباب أن تنطق بالرجز على ألسنة الكهان، وأن تكون مواسـمها مواسم بهجة ولذة ومتاع.. وذلك دون أن يسمحوا لها بالتـدخل فى شئون حياتهم أو توجيهها وجهة تنافى اللذة والمتاع.

بعد هذه المقدمـة ذكـر بعض مشـاهداته في كنـائس أمريكـا، فقال: (إذا كانت الكنيسة مكاناً للعبادة فى العالم النصرانى ــ على تفاوت ـ فإنها فى أمريكا مكان لكل شىء إلا للعبادة، وإنه ليصـعب عليك أن تفرق بينها وبين أى مكان آخر معد للهو والتسـلية، أو مـا يسـمونه بلغتهم good (fun) time ومعظم قصـادها إنمـا يعـدونها تقليـداً اجتماعيـاً وضـرورياً، ومكانـاً للقـاء والأنس، ولتمضـية (وقت طيب) وليس هذا شعور الجمهور وحده، ولكنه كذلك شعور سـدنة الكنيسة ورعايتها.

ولمعظم الكنائس ناد يتألف من الجنسـين ــ شـباناً وشـواب ـ ويجتهـد راعى كـل كنيسـة أن يلحـق بالكنيسـة أكـبر عـدد ممكن، وبخاصة أن هناك تنافسـاً كبـيراً بين الكنـائس المختلفـة بالمـذاهب والنحل.

ولهــذا تتســابق جميعــاً فى الإعلان عن نفســها بالنشــرات المكتوبة، وبالأنوار الملونة على الأبواب والجـدران، للفت الأنظـار، وبتقديم البرامج اللذيذة المشوقة، لجلب الجماهير، بنفس الطريقة الـتى تتبعهـا المتـاجر، ودور العـرض السـينمائى والتمثيـل.. وليس

هنـاك من بـأس فى اسـتخدام أجمـل فتيـات المدينـة وأرشـقهن وأبرعهن فى الغناء والرقص والترويح.. تماماً كما تقـف فتيـات فى ثياب شديدة اللمعـان والإثـارة فى مـداخل وطرقـات دور السـينما لجذب الأنظار..

وهذه ـ مثلاًـ محتويات إعلان عن حفلة كنيسة، كـانت ملصـقة فى قاعة اجتماع الطلبـة فى إحـدى الكليـات،لجـذب طلبـة الكليـة وطالباتها إلى كنيسة معينة فى المدينـة الجامعيـة الصـغيرة: (يـوم الأحد ــ أول أكتـوبر سـنة 1950ــ فى السـاعة السادسـة مسـاء.. عشاء خفيف. ألعاب سحرية. ألغاز. مسابقات. تسلية. رقص)

وليس فى هــذا أى غرابــة. لأن راعى الكنيســة لا يحس أن عملـه يختلـف فى شـئ عن مـدير المسـرح، أو المـدير المتجـر.. النجاح أولاً وقبل كـل شـئ.. ولا تهم الوسـيلة.. وهـذا النجـاح يعـود عليه بنتائجـه الطيبـة: المـال، والجـاه، فكلمـا كـثر عـدد الملتحقين بكنيسته عظم دخلـه وزاد كـذلك احترامـه ونفـوذه فى البلـدة. لأن الأمريكى بطبيعته يؤخذ بالضخامة فى الحجم والعدد. وهى مقياسه الأول فى الشعور والتقدير)(1)

قلت: علمت ما حصل للعفة.. فما حصل لغيرها؟

قال: لقد ذكرت لك أن العفاف هو الأساس الذي تقوم عليـه القيم.. فمن ذهب العفاف عنه تملكته الشياطين، ولم يــدر في أي واد من أوديتها يهلك.

ولهـذا كـان محمـد يحـذر من الوقـوع في الفـواحش.. وكـان يقول: (إن الدنيا حلوة خضـرة، وإن اللـه مسـتخلفكم فيهـا فنـاظر كيـف تعلمـون، فـاتقوا الـدنيا واتقـوا النسـاء، فـان أول فتنـة بـني إسرائيل كانت في النساء)(2)

1) من كتاب (أمريكا التي رأيت) لسيد قطب.

2) رواه مسلم.

اليهودية:

التفت إلي، فرآني صامتا لا أجد كلمة أستطيع أن أرد بها على ما ذكره من فضائح الكنيسة.. فقال: ذلك عندنا.. معشر أتباع المسيح.. أو معشر عبدة المسيح..

أما عند اليهود.. فالأمر لا يختلف كثيرا.. ولا يستغرب ذلك من دين يمتلئ كتابه المقدس بكل تلك الرذائل الخلقية.

ولهذا كان من أهم الوظائف التي مارسها اليهود في المجتمعات التي حلوا فيها في جميع فترات التاريخ تجارة الرقيق الأبيض[1].

نظر إلى الأزهار الجاثية أمامه بألم، ثم قال: ليت الأمر اقتصر على البغاء المجرد.. لقد حاول هؤلاء الذين لم ينالوا من أنبيائهم غير اللعنات أن يجعلوا الأرض جميعا ماخورا من مواخير الرذيلة.

لقد نقلوا فن الرذيلة إلى الجامعات والمدارس.. بل إلى المستشفيات والعيادات النفسية.. ليجعلوا الإنسان كائنا جنسيا لا هم له إلا إرواء شهواته.. وبأي السبل؟

قلت: أراك تلمح إلى فرويد!؟

قال: فرويد وغيره من الذين أرادو أن يمسحوا كل براءة لا زالت تطبع وجه البشرية.

قلت: ولكن ما علاقة فرويد وأوليائه باليهود؟

ابتسم، وقال: لم يكن فرويد إلا ثمرة من الثمار اليانعة التي أثمرتها شجرة اليهودية الملقحة ببراعم الوثنية.

قلت: نعم.. فرويد نبت بين اليهود.. ولكنه ليس واحدا منهم.. ولا ينبغي أن نتهم دينا من الأديان لانحراف فرد من أفراده.. وإلا لم

---

1) انظر التفاصيل الكثيرة المرتبطة بهذا في (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

يبق دين في الأرض.. بما فيها الإسلام.

قال: لقد كنت أقول قولك هذا إلى أن بان لي وجه الحق الذي حاول البعض ستره.

قلت: فما بان لك(1)؟

قال: لقد قرأت أقوال الكثير من المحللين الذين ربطوا بين فرويد واليهودية (2).. ولم أقتنع بكل ما قالوا إلى أن سمعت ما قال فرويد نفسه.

قلت: فما قال؟

قال: لقد رأيت فرويد يربط كثيرا بين التحليل النفسي وانتمائه اليهودي، فالمقاومة التي لاقاها التحليل النفسي كانت، في تَصوُّره، جزءاً من رفض الحضارة الغربية لكل ما هو يهودي، والتحليل النفسي في تصوره كان من إبداعه.. لقد قال: (لمدة

---

1) انظر: الموسوعة اليهودية، البُعد اليهودي في رؤية فرويد The Jewish Dimension Of Freud's World VIEW.

2) ذكر المسيري في (الموسوعة اليهودية) أن الكثير من مؤرخي الأفكار يذهبون إلى القول بأن التحليل النفسي (علم يهودي) يضرب بجذوره في طبيعة اليهود النفسية (وهذه مقولة أخذ بها النازيون وكثير من الصهاينة).

والمدافعون عن هذا الرأي (أ. روباك A.Roback ـ إيزيدور سادجر Sadger ـ إرنست جونز Jones)، وهم يسوقون قرائن عديدة من بينها أن اليهود دائمو التأمل في أسباب الظواهر، ويتضح هذا في مزامير داود وفي التلمود، وهذا التفسير يربط بين التحليل النفسي وبعض الصفات الأزلية الثابتة في طبيعة اليهود.

وهناك من يحاول أن يُدخل بُعداً تاريخياً فيذهب إلى القول بأن التحليل النفسي هو محاولة اليهودي أن يعالج عُصابه الناجم عن وجوده الدائم في المنفى.

وتذهب سوزان هاندلمان إلى أن فرويد إن هو إلا تعبير عن تقاليد الهرمنيوطيقا المهرطقة، وهو جزء من انتقام اليهودي من مجتمع الأغيار الذي اقتلعه من مكانه، ولذا فاليهودي يقوم بتفكيك الحضارة الغربية المسيحية، تماماً كما قامت هذه الحضارة بتفكيكه.

وقد ذكر المسيري أن مثل هذه الأفكار تلاقي رواجاً غير عادي في بعض الأوساط في العالم العربي، وتُستخدَم في تدعيم الرأي القائل بوجود (مؤامرة يهودية) تعبِّر عن الجوهر اليهودي.

عشر سنوات كنت أنا الشـخص الوحيـد الـذي انشـغل بـه ولا أحـد يعرف أكثر مني ما هو التحليل النفسي)

وكان فرويد يتصـور أن عـالم الأغيـار (غـير اليهـود) سـيرفض التحليل النفسـي بسـبب يهوديتـه، ولـذا كـان يتصــور أنـه لابـد من إعطائه واجهة (مسيحية)، وكان هـذا هـو الـدور المُوكَـل ليـونج ابن الراعي السويسري.

فكتب فرويد إلى كارل أبراهام خطاباً يحثـه فيـه على كسـب مودتـه، (فيـونج مسـيحي وابن قسـيس (ولـذا فهـو) يجـد عناصـر مقاومة داخلية شديدة تعوق اقترابه مني. ونحن لا غنى لنـا إطلاقـاً عن رفاقنا الآريين كافة، وإلا سقط التحليل النفسي ضـحية معـاداة اليهود)

وحينما اعترض أتباع فرويد على ترشيح يونج لرئاسة الجمعية الدولية قال لهم فرويـد: (إن معظمكم من اليهـود، ومن ثم فـإنكم لن تستطيعوا ضم أصـدقاء للفكـر الجديـد، على اليهـود أن يَقنَعـوا بـدورهم المتواضـع في تمهيـد الطريـق، فمن أشـد الأمـور أهميـة بالنسبة لي أن أستطيع إيجاد روابط مع دنيا العلم. وهـا أنتم تـرون أني أتقدم في السن وأشـعر بـالتعب من الهجـوم المتواصـل. إننـا جميعاً (أي اليهود العاملين في حقل التحليل النفسي) في خطر)

ثم أمســك فرويـد بثنيــة ســترته، ومــضى يقــول بطريقـة مســرحية: (إنهم لن يــتركوا لي ســترة أغطي بهــا ظهــري ولكن السويسريين (أي المسيحيين) سينقذوننا سينقذونني، وسينقذونكم جميعاً أيضاً)

وكان فرويد كثيراً ما يتباهى باليهودية وبانتمائه اليهودي، فكان يرى أن الشعب اليهودي قَدَّم التوراة للعـالم، وأن اليهوديـة مصـدر طاقة لكثير مما كتب.

وقد أكـد أكـثر من مـرة أنـه كـان دائمـاً مخلصـاً لشـعبه (ولم

أتظاهر بأنني شيء آخر: يهودي من مورافيا جاء أبواه من جاليشيا)

وحينما سـأله صـديق يهـودي عمـا إذا كـان من الـواجب على اليهود أن يوجهوا أولادهم لاعتناق المسيحية، وهو أمـر كـان شـائعاً بين اليهود آنـذاك، بل من المعروف أن بعــض أقــارب فرويـد قـد تَنصَّروا، رد قـائلاً: (اليهوديـة مصـدر طاقـة لا يمكن أن تُعـوَّض بـأي شيء آخر، (فاليهودي) عليه كيهـودي أن يكـافح، ومن الواجــب أن يُنـمِّي في نفسـه كل هذا الكفاح، فلا تحرمه من هذه الميزة)

وقد انضم فرويد لجماعة (بناي بريت) عام 1895 وفيها ألقى أولى محاضــراته عن تفســير الأحلام. وفي 6 مــايو عــام 1926 أقامت الجمعية حفلاً خاصاً بمناسبة بلوغه السبعين من عمره، ولم يَحضُر فرويد هـذا الحفـل وأنـاب عنـه في حضـوره طبيبـه الخـاص البروفسور لدفيج براون الذي ألقى كلمته والتي تضـمنت قولـه (.. إن كونكم يهوداً لأمر يوافقني كل الموافقة لأنني أنا نفسي يهودي. فقد بدا لي دائماً إنكار هـذه الحقيقـة ليس فقـط أمـراً غـير خليـق بصاحبه، بل هو عمل فيه حماقـة أكيـدة. إنـني لتربطـني باليهوديـة أمور كثيرة تجعل إغراء اليهودية واليهود أمراً لا سبيل إلى مقاومته، قوى انفعالية غامضة كثيرة كلما زادت قوتها تَعذَّر التعبـير عنهـا في كلمات. بالإضافة إلى شعور واضح بالذاتية الداخلية، الخلـوة الآمنـة لتركيب عقلي مشترك. ثم بعد هـذا كلـه كـان إدراكي أنـني مـدين بالفضل لطبيعتي اليهودية فيما أملك من صـفتين ممـيزتين لم يكن في وسعي الغناء عنهما خلال حياتي الشاقة: فلأني يهـودي وجـدت نفســي خلــواً من التحــيزات الــتي أضـلت غـيري دون اسـتخدام ملكاتهم الذهنية، وكيهودي كنت مسـتعداً للانضـمام إلى المعارضـة وللتصرف دون موافقة الأغلبيـة السـاحقة. وهكـذا وجـدت نفسـي واحــداً منكم أقــوم بــدوري في اهتمامــاتكم الإنســانية والقوميــة، واكتسبت أصدقاء من بينكم، وحثثت الأصدقاء القليلين الذين تبقـوا على الانضمام إليكم)

ولكنه بعد خمسة أعوام نجده يكتب رداً على تهنئة حاخام فيينا له بمناسبة عيد ميلاده الخامس والسبعين يقول: (في مكان ما في أعماق روحي أشعر أني يهودي متعصب.. وأني شديد الدهشة أن أكتشف نفسي هكذا، رغم كل جهودي للوصول للموضوعية ولإنكار التحيز)، أي أن اليهودية التي جعلته خلواً من التحيزات في سن السبعين، جعلته غير قادر على إنكار التحيز في سن الخامس والسبعين.

بل إن فرويد كان يغازل الصهيونية ويظهر هذا في تباهيه بما يُسمَّى (الشعب اليهودي)، وكان يعرف تيودور هرتزل ويوليه الاحترام ويشير إليه باعتباره (الشاعر والمحارب من أجل حقوق شعبنا)، وأرسل إليه أحد كتبه مع عبارة إهداء شخصي عليه، وكان أحد أبناء فرويد عضواً في جماعة قديما الصهيونية، كما كان هو نفسه عضواً فخرياً بها.

وقد كتب فرويد إلى إحدى تلميذاته من العاملات بالتحليل النفسي، وهي إشبيلر اين، بعد أن علم أنها توشك أن تضع طفلاً، يقول لها: (أود لو خرج الطفل ذكراً أن يصير صهيونياً متعصباً.. إننا يهود، وسنظل يهوداً.. وسيبقى الآخرون، على استغلالهم لنا، دون أن يفهمونا، أو يقدرونا حق التقدير)(1)

قلت: أراك تريد أن تثبت لي بأن المنظومة الفرويدية (منظومة يهودية)، وأن التحليل النفسي (علم يهودي).. إن هذا هو نفس ما يدَّعيه الصهاينة وأعداء اليهود في آن واحد؟

قال: بل هو نفس ما يدعيه فرويد..بل هو نفس ما تبرزه الأدلة الكثيرة التي تبين النشأة الحقيقية لتلك النظرية التي لم يكن لها من هدف غير الإجهاز على البقية الباقية من البراءة الإنسانية.

ولتستوعب ذلك، وتقتنع به تحتاج إلى دراسة متمعنة للتلمود،

---

1) الخطاب مؤرخ في أغسطس 1913 ولكنه لم يُنشَر إلا عام 1982، الموسوعة اليهودية.

وللقبَّالاه، باعتبارها من التراث المقدس لليهود(2).

فـأهم نقـط التماثـل بين المنظومـة الفرويديـة والمنظومـة القبَّاليـة هي مركزيـة الجنس في كليهمـا، فقـد سُـمِّيت الفرويديـة (النظرية الجنسية الشاملة) أي (الواحدية الجنسـية)، وهي تسـمية لها ما يبررها، فالجنس ـ حسب تصور فرويد ـ ليس وراء كل سـقم نفسي وحسب، بل إن طاقته هـي المحـرك أيضـاً لكـل مـا يَصـدُر عنه من وجوه النشـاط من لحظة أن نُولَد، والجنس ليس مقصوراً على العلاقة الجنسية، ولكنه في واقع الأمر صـورة مجازيـة تتخلـل على نحو ما كل النشـاط الإنسـاني، وضـمن ذلـك نشـاط الإنسـان العلمي والفني، وهذا لا يختلف كثيراً عن اسـتخدام القبَّالاه للجنس كصورة مجازية أساسية في رؤيتها للعالم، فقد عزا التراث القبَّالي إلى الإله صفة الجنسية، فالتجليات النورانيـة العشـرة (سـفيروت) كان يتم التعبير عنها من خلال رموز وصـور مجازيـة جنسـية، وتُعـدُّ الشخيناه (السفيروت العاشر) التعبير الأنثوي عن الإله.

وفي صدد ما جاء عن الجنس في التراث القبَّالي يذكر باكـان أن هــذا الــتراث يتضــمن عشــرة أســفار هي الفيض القدســي والسلطات الخفية للإله، وكل جزء منهـا مرتبـط بجـانب من الإلـه. وتاسع هذه الأسـفار اسـمه (يسـود) أي الأسـاس، ومكـان اليسـود الأعضاء الجنسية لآدم قدمون أو الإنسان الأول وهو المـايكروكوزم (العالم الأصغر) الذي يقابل الماكروكوزم (العالم الأكبر).

وقد وصف بعض الحاخامات القبَّالاه بأنها قامت بتجنيس الإلـه وتأليه الجنس، وهذا وصف دقيـق أيضـاً للمنظومـة الفرويديـة على الأقل في جانبها الاختزالي الشائع.

ومن نقــاط الالتقــاء بين الفكــر القبَّالي والفكــر الفرويــدي المعرفــة أو (داث)، فــداث في الــتراث القبَّالي تَنتُج من اتحــاد

2) ذكر المسيري أنه اعتمد في هذا على كتاب صبري جـرجس، وعلى دراسـة باكـان فرويد والتقاليد الصوفية اليهودية.

(حوخماه) أو الحكمة و(بيناه) أو الفهم. والحوخماه مفهوم ذَكَري والبيناه مفهوم أنثوي، وبذا تكون داث النسل المقدَّس لاتحادهما الخفي.

غير أن المعرفة (داث) تُستخدَم أيضاً في التوراة بمعنى الاتصال الجنسي، وأول استخدام لها ورد في (تكوين 4:ـ 1) بهذا المعنى، (وعرف آدم امرأته حواء فحبلت..)، وقد تكرر استخدام الكلمة بالمعنى نفسه في مناسبات متعددة بعد ذلك.

ويذكر باكان أن الزوهار يتحدث عن الاتصال الجنسي بوصفه (الكشف عن العرى)، ولما كانت كلمة بيناه التي تعني (الفهم) تعني في الوقت نفسه (الأم)، فإن الرجل الذي يخطئ جنسياً يكون في الوقت نفسه كأنه قد (كشف عن عرى الأم)

وفرويد يخال أنه وصل إلى الفهم (بيناه) بالكشف عن اللاشعور، أي الكشف عن عرى العقل في الإنسان. ويتضمن مفهوم الموقف الأوديبي خيال الأم العارية. والمعرفة (داث) في التراث القبَّالي تَنتُج من اتحاد الحكمة والفهم، والمعرفة (الاستبصار) عند أصحاب التحليل النفسي الفرويدي ثمرة اتحاد الشعور واللاشعور. وهذا الاتحاد في ذاته كما يقولون خبرة شهوية عميقة من حيث أنه يتناول الكشف عن الموقف الأوديبي، أي اكتشاف المرء عقدة أوديب داخل نفسه والكشف عنها ثم الكشف عما تنطوي عليه من خيال الأب والأم في العلاقة الجنسية، ومن حلول الطفل، خيالاً أيضاً، محل الأب في هذه العلاقة.

والعلاقة بين المعرفة والجنسية لها شواهد أخرى عند فرويد أيضاً، فقد ذكر في مجموعة مقالاته أن الطفل في سن الثالثة إلى الخامسة، حين تصل حياته الجنسية إلى قمتها الأولى، يبدأ يبدي من النشاط ما يمكن أن يُعزَى إلى رغبته في التقصي والمعرفة، كما أن الرغبة في المعرفة لدى الأطفال، فيما يرى فرويد، تتجه

على نحو عنيف وفي فترة مبكرة إلى المشكلات الجنسية. بــل إن التحليل الفرويدي ليمضي في هذا الاتجاه إلى مدى أبعد فيزعم أننا نكون أكثر دقة إذا قلنا إن هذه المشكلات (الجنسية) قد تكون أول ما ينبه رغبته في المعرفة عموماً.

ومن نقاط الالتقاء تلك المرتبطة بما جاء بالزوهـار من نسـبة الجنسية الثنائية للإنسان، فالإله ينطوي داخل نفسه على الشخيناه وهي مرادفه الأنثوي. وآدم الذي خُلق على مثال الإله كـان ينطـوي على مـرادف أنثـوي هـو الضـلع الـذي خُلقت منـه حـواء، والفكـر القبَّالي ينطوي على أن الذكر والأنثى قطبان لكيان واحـد، كمـا أن الزوهار يتضمـن أن (الإلــه لا يبـارك مكاناً إلا حيــث يجتمـــع فيـــه رجــل وامــرأة، وأن الرجـل لا يُسـمَّى رجلاً إلا إذا اتصـــل بــامرأة، والرجل غير المتزوج ناقص وتعوزه نعمة الإله)

ويذهب فرويد إلى أن الإنسان يُولَد بتركيب جنسي ثنائي، وأن هذه الثنائية تنفصل فيما بعـد، ولكن التحقيـق في حيـاة الإنسـان لا يصل إلى غايته إلا بعودة هذه الثنائية إلى الاتصـال مـرة أخـرى في العلاقة الجنسية السوية.

وفي سفر براخوت في التلمـود وردت آراء عن الأحلام تشـبه كثيراً من آراء فرويد، فقـد ورد في هـذا السـفر (إن المـرء لا يـرى في الحلم إلا ما توحي به أفكـاره)، فـالأحلام تعبـير عن رغبـة لـدى الحالم وبالإمكان تفسيرها عن طريق اللـــعب بالألفـــاظ وهي ذات مدلول جنسـي،وهي في أساسـها تعبـير رمـزي،كمـا أنهـا تعبِّر عن الصراع بين دوافع (الخير) ودوافع (الشر) وهـذه جميعـاً تطـابق مـا قال فرويد عن الأحلام.

ومن المعالم البارزة في سفر براخوت أنه يستخدم الخيـالات الجنسية ليرمز إلى المعرفة فيقول (إذا حلم إنسان بأنه يتصل بأمه جنسـياً فلــه أن يتوقــع الوصــول إلى الفهم، وإذا حلم بأنــه يتصــل جنسياً بعذراء مخطوبة، فله أن يتوقع الوصول إلى معرفة التــوراة،

وإذا حلم شخص بأنه يتصل جنسياً بامرأة متزوجة فلـه أن يثـق في أنه على موعد مع القدر بالنسبة لمستقبل العالم، بشرط ألا يكـون على معرفة بها، وألا يكون قد فكَّر فيها أثناء المساء)

الحضارة الغربية:

قلت: حدثتني عن بحثك في موقف المسـيحية واليهوديـة من قيم العفاف والحرص على العرض والشرف.. ولكن المجتمعـات ـ وخاصـة المجتمعـات الحديثـة ــ لا يحكمهـا الـدين وحـده.. فهنـاك فلسفات ومذاهب وشيع.

قال: أجل.. لقد أمضيت في الاهتمام بهذا الجانب جزءا مهمـا من حياتي، وكان من أهم ما بحثت فيه البـذور الـتي أنبتت أشـجار الرذيلة في المجتمعات الغربيـة الـتي تتـوهم أنهـا تعيش قمـة قمم الحضارة مع أنها في حقيقتهـا لا تعـدو نوعـا من التطـوير المخـزي لحضارة سدوم وعمورية.

قلت: فماذا وجدت؟

قال: لقد أدت الثورة على الكنيسة التي لم تعرف كيف تمثل الدين تمثيلا صحيحا إلى ظهـور فلسـفات كثـيرة لا هم لهـا إلا خلـع اللباس الإنساني عن الإنسان، وإلباسه لباس البهيميـة الغارقـة في مستنقعات الشهوات.

لن أطيل الحديث عليك.. ولكني سأذكر لك ثلاثـة من أعمـدة الرذيلة التي قامت عليها مواخير الفسـاد الـتي تعج بهـا مجتمعاتنـا: مـاركس.. فرويـد.. ودركـايم[1].. فهـؤلاء الثلاثـة وغـيرهم كثـير هم الذين تأسست عليهم الحضارة الغربية والقيم الغربية والانحرافـات الغربية.

أما ماركس ـ صاحب التفسير المادى للتاريخ ـ فيبرز موقفـه

1) انظر فصل (اليهود الثلاثة) في كتـاب (التطـور والثبـات فى حيـاة البشـر) لمحمـد قطب.

من العفاف في قوله: (إن (العفة) من فضائل المجتمع الإقطـاعى البائد كقيمة موقوتة لابـد أن توجـد فى هـذا الطـور الاقتصـادى.. لا كقيمة ذاتية ينبغى أن تتبع بصرف النظر عن الظـروف الاقتصـادية، لأنها مرتبطة بكيان (الإنسان) ذاته المتميز عن الحيوان)

أما فرويد، فقد عرفنا موقفه من قبل.. إنـه لا يكتفى بتصـوير الإنسان حيواناً، وإنما يصوره حيواناً ممسوخاً مشوهاً، ينبـع كلـه من طاقة واحدة من طاقاته.. هى الطاقة الجنسية.

أما دوركايم، فيقول: (إن الأخلاقيين يتخـذون واجبـات المـرء نحو نفسه أساساً للأخلاق، وكذا الأمر فما يتعلق بالدين، فإن الناس يرون أنه وليد الخواطر التى تثيرها القوى الطبيعية الكبرى أو بعض الشخصـيات الفـذة لـدى الإنسـان (يقصـد الرسـل والأنبيـاء والقديسـين)، ولكن ليس من الممكن تطـبيق هـذه الطريقـة على الظواهر الاجتماعية اللهم إلا إذا أردنا تشويه طبيعتها)(1)

أمـا الـدين الـذي كـان يمكن أن يغـرس وازع الفضـيلة في النفس، فقد وقف هؤلاء الثلاثة، كما وقف غيرهم ممن هو تبع لهم، أو ممن كان مثلهم يحتقرونه ويزدرون به:

أما دركايم، فيقول إن الدين ليس فطرة!

وأما ماركس، فيقول: إن الـدين أفيـون الشـعب، ويقـول إنـه مجموعة من الأساطير ابتدعها الإقطاعيون والرأسـماليون لتخـدير الجمـاهير الكادحـة، وتلهيتهـا بنعيم الآخـرة عن حيـاة الحرمـان فى الأرض.

وأما فرويـد، فيقـول: إن الـدين ناشـئ من الكبت، من عقـدة أوديب..

وراح هؤلاء الثلاثة الذين رضـعنا فلسـفاتهم مـع حليب أمهاتنـا

---

1) قواعد المنهج فى علم الاجتماع ص165.

يرمون بمعاولهم على الأخلاق:

أما دركايم، فراح يبشر بأن الجريمة ظـاهرة سـوية، والـزواج ليس من الفطـرة، والأخلاق شـىء لا يمكن الحـديث عنـه ككيـان ثابت، وإنما كل ذلك من صنع (العقـل الجمعى) الـذى لا يثبت على حال، وينتقل من النقيض إلى النقيض.

وأما ماركس، فراح يبشر بأن الأخلاق مجرد انعكـاس للوضـع الاقتصادى المتطور على الدوام، وليس قيمة ثابتة.

وأما فرويد، فراح يبشر بأن الأخلاق تتسم بطابع القسوة حتى فى صورتها الطبيعية العادية، وهى كبت ضار بكيان الإنسان.

لقد كانت هذه الأفكار الخطيرة هي البذور التي تلقفهـا جميـع سدنة الرذيلة ليحولوا الحضارة الغربيـة إلى نـاد من نـوادي سـدوم وعمورية.

قلت: أراك لا ترى من فلسفات هؤلاء إلا جانبها المظلم.

قـال: لأنـه لم يكن فيهـا أي نـور.. لقـد حملت جميـع مصـابيح الحقيقة لأبحث عن ذرة من النور في فلسفاتهم، فلم أجدها.

قلت: ولكن الحضارة الغربية بفضل فلسفاتهم وصلت إلى ما وصلت إليه من رقي مادي.

ابتسم بسخرية، وقال: نعم.. نسيت.. لقد وصـلنا إلى صـناعة السينما والتلفزيون والكمبيوتر والإنترنت..

قلت: أجل.. وغيرها كثير.

قال: ولكنا لم نستخدمها إلا في تمكين الرذائل والانحرافات.. لنجعل في كل بيت ماخورا من مواخير الرذيلة..

كان يمكننا بهذه الأجهزة ـ لو أنا التزمنـا الهـدي العظيم الـذي

جاء به محمد، وجاء به قبله الأنبياء ــ أن نحـول البشـر إلى زهـور.. ونحول الأرض إلى حديقة.. ولكنا أبينا إلا أن نحولها إلى ما تراها.

لقد قال الدكتور (بلومر): (إن الأفلام التجارية التي تنتشر في العــالم تثــير الرغبــة الجنســية في معظم موضــوعاتها، كمــا أن المراهقات من الفتيات يتعلمن الآداب الجنسية الضارة من الأفلام، وقـد ثبت للبـاحثين أن فنـون التقبيـل والحب، والمغازلـة، والإثـارة الجنسية، والتدخين يتعلمها الشباب من خلال السينما، والتلفزيون) (1)

وقد أجرى بعضهم دراســة على (500) فيلم طويـل تـبين أن موضوع الحب والجريمة والجنس يشكل 72 بالمائة منها(2).

أما الإنترنت الـتي اسـتطاعت أن تصـل العـالم جميعـا بعضـه ببعض، لتحوله مجتمعا واحدا، بل أسرة واحـدة، فقـد مارســت هي الأخرى الوظائف المنحطة التي مارسها قبلها التلفزيون والسينما.. بل إن ممارستها لها تفوق جميع الممارسات السابقة.

نظر إلى الأزهار بألم.. وقـال: وهكـذا قـام المجرمـون بخنـق أزهار الفضيلة.. ليغرسوا بدلها شجرة الرذيلة..

لقد تعاون العلم مع التكنولوجيا مع الفلســفة ليملأوا النفــوس العطشـة بكـل مـا تبتغي من شـهوات.. فانحـط الأفـراد، وانحطت الأسر، وانحط المجتمع.

قيم الإسلام

قلت: حـدثتني عن ضـياع القيم في ظـل الأديـان والمـذاهب والفلسفات.. فأين نجدها إذن؟

---

1) بصمات على ولدي، طيبة اليحى.

2) هو د. حمود البدر، انظر: الحاجة إلى تنسيق وتكامل تربوي ص 14.

قال: في الإسلام.. لقد ذكرت لك أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي احتفظ بالقيم الإنسانية النبيلة، وأنه الوحيد الذي يستطيع أن يحول البشر إلى حقل كبير من الأزهار التي تفوح بأجمل ألوان العطر..

قلت: فحدثني عن قيم الإسلام.

قال: لقد ذكرت لك أن القيم النبيلة تجتمع في سبع.

قلت: أجل.. وقد ذكرت لي أن تلك السبع هي سر جمال الأزهار.

العفاف:

قال: وقد ذكرت لك أن أول سر من أسرار الأزهار (العفاف)؟

قلت: أجل.. فعليه تبني سائر القيم.

قال: نعم.. فهو يعني البراءة والطهر والصفاء.. ولا يمكن أن تكون الأزهار أزهارا من غير براءة ولا طهر ولا صفاء.

إن جمال محيا العفيف لا يختلف كثيرا عن جمال محيا أجمل زهرة من أزهار العالم..

ألا تعلم سر جمال يوسف؟.. لقد اعتبره القرآن رمزا للعفاف.. كما اعتبره المصريون والناس رمزا للجمال.. وفي ربط القرآن بينهما دليل على أن قمة الجمال لا تكون إلا مع قمة العفاف.

قلت: ولكن هذه الناحية لم تتحقق إلا في المسيحية.. فهي الدين الوحيد الذي يعتبر العفاف أصل أصوله..

قال: لعلك تقصد قول المسيح: (وسمعتم أنه قيل: لا تزن! أما أنا فأقول لكم: كل من ينظر إلى امرأة بقصد أن يشتهيها، فقد

زنى بها في قلبه! فإن كانت عينك اليمنى فخا لك، فاقلعها وارمها عنك، فخير لك أن تفقد عضوا من أعضائك ولا يطرح جسدك كله في جهنم)(متى:5/ 27-29)

قلت: أجل..ألا ترى في هذا قمة العفاف؟

قال: بلى.. وهو يتفق تماما مع ما جاء في القرآن من الأمر بغض البصر والتشديد فيه، ففي القرآن: قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (30) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (31)(النور)

ففي هاتين الآيتين منظومة كاملة للعفاف.. فهي لا تأمر فقط بغض البصر، والذي قد يطيقه فرد من الناس، وتعجز عنه أمة منهم، ولكنه يوفر الجو المناسب للعفاف والبراءة والطهر.

نظر مليا إلى الزهرة الجميلة التي كانت سبب التقائنا، ثم قال: لا يمكن للبراءة والطهر أن تتم من خلال زهد يمارسه بعض الناس فقط..

الطهارة والبراءة والعفاف تقتضي منظومة كاملة.. وللأسف لم أجد في أي دين من الأديان ولا فلسفة من الفلسفات هذه المنظومة فيما عدا الإسلام.

قلت: إن من قومنا من يعتبرون موقف الإسلام من هذا.. ودعوته الملحة للعفاف نوعا من الكبت الذي لا ينسجم مع الفطرة

السوية.. ففي الإنسان غرائز.. والمواقـف السـليم من الغرائـز أن تطلق لا أن تحد[1].

قـال: أنت تـذكرني بمواقـف كثـير من علمـاء النفس عنـدنا.. وموقفهم من الدين.. فقد ذكروا أن الـدين يكبت النشـاط الحيـوي للإنسان، ويظل ينكّد عليه حياته نتيجة الشعور بالإثم، ذلك الشــعور الذي يستولي على المتدينين خاصة، فيخيل لهم أن كل ما يصنعونه خطايا لا يطهرها إلا الامتناع عن ملذات الحياة.

ولهـذا ظلت أوربـا غارقـة في الظلام طيلـة تمسـكها بالـدين، فلما نبذت قيود الدين تحررت مشاعرها من الداخل، وانطلقت في عالم العمل والإنتاج.

قلت: أجل.. إنك تردد مـا يقولونـه بدقـة.. أفلا تـرى في هـذا القول حجة كافية للرد على الإسلام في موقفه من العفاف؟

قــال: إن الــرد على هــذا يحوجنــا إلى التعــرف على معــنى (الكبت)، فإن هذه اللفظة كثيراً مـا يسـاء فهمهـا واسـتخدامها في كلام المثقفين، فضلاً عن العوام والمقلدين.

قلت: الكبت على حسب ما أعرف.. على حسب ما يقولون.. هو الامتناع عن إتيان العمل الغريزي.

قال: لا.. ليس هو الكبت هو الامتناع.. وإلا لكان كـل الإنسـان حدثته نفسه بفاحشة من الفواحش، فلم يقع فيها مصابا بالكبت.

قلت: فما هو الكبت إذن؟

قـال: الكبت في الحقيقـة هـو اسـتقذار الـدافع الغريـزي في ذاته، وعدم اعتراف الإنسان بينه وبين نفسه أن هـذا الـدافع يجـوز أن يخطر في باله أو يشغل تفكيره.

---

1) انظر: شبهات حول الإسلام، محمد قطب.

والكبت بهذا المعنى مسألة لا شعورية، والعمل الغريزي قد لا يكفي وحده لعلاجها.. فالـذي يـأتي هـذا العمـل، وفي شـعوره أنـه يرتكب قذارة لا تليق به، شخص يعاني الكبت حـتى ولـو فعـل هـذا عشرين مرة كل يوم.. لأن الصراع سـيقوم في داخـل نفسـه كـل مرة بين ما عمله وما كان يجب أن يعمله.

وهـذا الشـد والجـذب في الشـعور وفي اللاشـعور هـو الـذي ينشئ العقد والاضطرابات النفسية.

قلت: هذا تفسيرك للكبت؟

قال: لا.. بل هذا تفسير علماء النفس أنفسهم.. بل هو تفسير فرويد نفسه الذي أنفق حياته العلمية كلها في هذه المباحث، وفي التنديد بالدين الذي يكبت نشـاط البشـرية. فهـو يقـول: (ويجب أن نفرق تفريقاً حاسماً بين هذا (الكبت الشعوري)، وبين عـدم الإتيـان بالعمل الغريزي، فهذا مجرد (تعليق للعمل)

قلت: فهل تـرى هـذا التفسـير كافيـا لـدفع هـذه الشـبهة عن الإسلام؟

قال: هذه الشبهة لا تقع إلا من دين ينفر من الغرائــز، ويــدعو إلى كبتهـا.. والإسـلام لم يفعـل هـذا.. بـل ليس في أديـان العـالم ونظمه ما هو أصرح من الإسلام في الاعتراف بالـدوافع الفطريــة، وتنظيف مكانها في الفكر والشعور.. فـالقرآن يقـول: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـاطِيرِ الْمُقَنْطَـرَةِ مِنَ الـذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَـرْثِ ذَلِـكَ مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ (آل عمران:14)

ففي هذه الآية يجمع القرآن شهوات الأرض، ويقـرر أنهـا أمـر واقع مزين للنـاس، لا اعـتراض عليـه في ذاتـه، ولا إنكـار على من يحس بهذه الشهوات.

قلت: فالإسلام إذن دين إباحي؟

قال: أنت تتصور أن أمر الغرائز إما أن يكون كبتا، وإما أن يكون إباحية؟

قلت: أنا أذكر ما يقولون.. فهل ترى أن هناك منطقة وسط بينهما؟

قال: أجل.. وقد وضع لها الإسلام منظومة من الشرائع والتوجيهات لا يكفي هذا المحل لسردها جميعا.

فالإسلام لا يبيح للبشر أن يهبطوا لعالم الحيوان بحجة مقاومة الكبت.. لأن هناك فرقاً هائلاً بين هذا وبين الكبت اللاشعوري، أي أن هناك فرقا بين استقذار هذه الشهوات في ذاتها، ومحاولة الامتناع عن الإحساس بها رغبة في التطهر والارتفاع.

وطريقة الإسلام في معاملة النفس الإنسانية هي الاعتراف بالدوافع الفطرية كلها من حيث المبدأ، وعدم كبتها في اللاشعور، ثم إباحة التنفيذ العملي لها في الحدود التي تعطي قسطاً معقولاً من المتاع، وتمنع وقوع الضرر سواء على فرد بعينه، أو على المجموع كله.

والضرر الذي يحدث للفرد من استغراقه في الشهوات، هو إفناء طاقته الحيوية قبل موعدها الطبيعي، واستعباد الشهوات له بحيث تصبح شغله الشاغل، وهمه المقيم، فتصبح بعد فترة عذاباً دائماً لا يهدأ، وجوعة دائمة لا تشبع ولا تستقر.

أما الضرر الذي يحدث للمجتمع، فهو استنفاد الطاقة الحيوية التي خلقها الله لأهداف شتى، في هدف واحد قريب، وإهمال الأهداف الأخرى الجديرة بالتحقيق، فضلاً عن تحطيم كيان الأسرة، وفك روابط المجتمع، وتحويله إلى جماعات متفرقة لا يجمعها

رابط ولا هدف مشترك.

وفي هذه الحدود التي تمنع الضرر يبيح الإسلام الاستمتاع بطيبات الحياة، بل يدعو إليها دعوة صريحة فيقول مستنكراً على من حرمها: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (لأعراف:32).. ويقول: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ (القصص:77).. ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (البقرة:172).. ويقول: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (لأعراف:31)

بل إن محمدا يذكر في حديث له أن الرجل يثاب على أداء ما تتطلبه هذه الغريزة زوجته، فيقول المسلمون متعجبين: (يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟)، فيرد عليهم: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)(1)

ولهذا.. فإنه يستحيل أن يحصل أي كبت في ظل الإسلام.. ذلك أن الإسلام يطلب من الشباب شيئا واحدا، وهو أن يضبط هذه الشهوات فقط دون أن يكبتها.. يضبطها في وعيه وبإرادته، وليس في لاشعوره، أي يعلق تنفيذها إلى الوقت المناسب، وليس تعليق التنفيذ كبتاً باعتراف فرويد، وليس فيه من إرهاق الأعصاب ما في الكبت، وليس يؤدي مثله إلى العقد والاضطرابات النفسية.

قلت: ولكن أولئك يعتبرون هذا نوعان من الحرمان، ولو كان حرمانا مؤقتا؟

قال: ليست في الدعوة إلى ضبط الشهوات أي تحكم.. لأنه

1) رواه مسلم.

لا يمكن أن تقـوم أمـة من الأمم، وهي لا تتحكم في شـهواتها.. ولا تنظمهـا.. إنهـا تتحـول بـذلك إلى غابـة لا يـأمن فيهـا الإنسـان على نفسه، ولا على عرضه..

التفت إلي، وقال: للأسف لم تعطنا حضـارتنا أي كـابح يجعـل طاقات الأمة تتوجه نحو القيم الرفيعة لتوجه طاقتها فيها كما فعـل الإسلام.. وهو دليل خطير على هزيمـة الحضـارة في هـذا الجـانب المهم من الحياة.

قلت: أيقنت هـذا ووعيتـه.. فـأخبرني عن التشـريعات الـتي وضعها الإسلام ليحفظ بهـا الفـرد والمجتمـع من هـذه الانحرافـات الخطيرة التي وقعت فيها مجتمعاتنا.

قال: لا يمكن إحصاء ذلك في هذه الجلسة.. ولكـني سـأذكر لك أصول ما شرعه الإسلام في هـذا الجـانب الخطـير.. والـذي لم أجد مثيلا له في أي دين من الأديان، أومذهب من مذاهب الأخلاق.

أولا.. لقد بدأ الإسلام، فملأ النفس نفورا من الفواحش وهربـا منها حتى صارت بالنسـبة لهـا هي القـذارة بعينهـا، ففي الحـديث: (إذا زنى الرجل أخرج منه الإيمان وكان عليه كالظلة فإذا أقلع رجع إليه الإيمان)(1)

وفي حديث آخر: (لا تزال أمتي بخـير مـا لم يفش فيهم الزنـا فإذا فشا فيهم الزنا فأوشك أن يعمهم الله بعذاب)(2)

وفي حديث آخر: (إذا ظهر الزنا ظهر الفقر والمسكنة)(3)

ولهذا وصف القرآن المؤمنين بـأنهم لا يقعـون في مثـل هـذه الفواحش: وَالَّذِينَ لا يَـدْعُونَ مَـعَ اللَّهِ إِلَهـاً آخَـرَ وَلا يَقْتُلُـونَ النَّفْسَ

1)رواه أبو داود واللفظ له والترمذي والبيهقي.

2) رواه أحمد بسند حسن.

3) رواه البزار.

الَّتِي حَـرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِـالْحَقِّ وَلا يَزْنُـونَ وَمَنْ يَفْعَـلْ ذَلِـكَ يَلْـقَ أَثَامـاً ﴾ (الفرقان:68)

ولم يكتف الإسلام بتحريم الزنا، بل حرم كل ما يقرب منه، أو يؤدي إليه، ففي القرآن:﴿ وَلا تَقْرَبُوا الْفَـوَاحِشَ مَـا ظَهَـرَ مِنْهَـا وَمَـا بَطَنَ ﴾ (الأنعام:151).. وفيه:﴿ وَلا تَقْرَبُـوا الـزِّنَى إِنَّهُ كَـانَ فَاحِشَـةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (الاسراء:32)

أنت ترى كيف أن القرآن يحذر من مجرد مقاربـة الزنـا، وهي مبالغة في التحرز، لأن الزنا تدفع إليـه شـهوة عنيفـة، فـالتحرز من المقاربة أضمن، فعند المقاربة من أسبابه لا يكون هناك ضمان.

ومن ثم يأخـذ الإسـلام الطريـق على أسـبابه الدافعـة، توقيـاً للوقوع فيه.. فيكـره الاختلاط في غـير ضـرورة.. ويحـرم الخلـوة.. وينهى عن التــبرج بالزينـــة.. ويحض على الـــزواج لمن اســتطاع.. ويوصي بالصوم لمن لا يسـتطيع.. ويكـره الحـواجز الـتي تمنـع من الزواج كالمغـالاة في المهـور.. وينفي الخـوف من العيلـة والإملاق بسبب الأولاد.. ويحض على مساعدة من يبتغـون الـزواج ليحصـنوا أنفســهم.. إلى آخـــر وســـائل الوقايـــة والعلاج، ليحفــظ الجماعـــة الإسلامية من التردي والانحلال(1).

ولم يكتف الإسلام بهذا.. بل وضع معه الكثير من التشــريعات الرادعة التي تملأ النفس نفورا من هذا النوع من المعاصي..

ومن هـذه العقوبـات مـا نص عليـه القـرآن بقولـه:﴿ الزَّانِيَـةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَـةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْـهَدْ عَـذَابَهُمَا طَائِفَـةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور:2)

قلت: إن قومي يؤلبون الخصومات على محمد بسبب هذا.

1) في ظلال القرآن، سيد قطب.

قـال: أولئـك جهلـة أو منحرفـون.. وهم لا يفهمـون الإسـلام.. ويتعجبون من مثل هذه التشريعات..

الإسلام يهتم بالإنسان، ويعتبره محور التشريعات والتنظيمات والحضارة.. فلذلك يتعامل مع النفس الإنسانية بجميع مـا في هـذه النفس من الرغبة والرهبة.

فيخاطب الرغبة بالحث على العفاف وبالإخبار بمـا في الجنـة لمن صـبر من الحـور العين.. ويخـاطب الرهبـة بالعـذاب الأليم.. وبأنواع الحدود التي شرعها.

نعم.. نحن في واقعنا اليوم نضحك على الحدود التي شـرعها الإسلام في هذا الجانب.. ولكنا ننسى ما أدى إليه التساهل فيه من انتشـار الأمـراض، وانحلال الأسـر، وتحطم المجتمعـات.. وهـو مـا يفوق ذلك العقاب البسيط المحدود الذي وضـعه الإسـلام رادعـا لا منتقما(1).

الكرم:

قلت: عرفت السر الأول.. فحدثني عن السر الثاني.

قال: السر الثاني هو الكرم.. ألا ترى إلى هذه الأزهار الكريمة التي تجود بتلك الروائح الطيبة، ولا تبخل بها على أحد من الناس!؟

قلت: بلى.. فلم نر من الأزهار منذ اختلطنا بها إلا خيرا.

قـال: وهكـذا الإسـلام.. وهكـذا من يسـتنير بأشـعة شـمس محمد.. فإنك لن تجد عنده إلا الكرم..

الكرم أصل أصيل من أصول الإسـلام.. وهـو مـا نفتقـده نحن معشـر البخلاء الـذين لم نكتـف بالشـح بمـا لـدينا، بـل رحنـا ننهب ثروات الشعوب وخيراتها نتلاعب بها كما نشـاء.. وقـد نجـود عليهم

---

1) انظر التفاصيل المرتبطة بالحدود الشرعية والشـبهات المثـارة حولهـا في رسـالة (عدالة للعالمين).

ببعض فتاتها، ثم نزعم أننا نتصدق عليهم بذلك.

قلت: تلك حضارة الاستعمار.. والمسيحية لم تفعل هذا.

قال: المسيحية فعلت أخطر من هذا.. فقد راحت تبيع ما لا تملك..

قلت: ما تقصد؟

قال: ألم تكن الكنيسة تبيع صكوك الغفران!؟

طأطأت رأسي، فقال: أصدقك القول.. إن كل رجال الدين من كل الأديان التي عرفتها انقلبوا لصوصا.. وحولوا معابدهم إلى دور للعصابات.. لقد ذكر القرآن هذا.. ففيه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة:34)

قلت: والإسلام!؟

قال: لقد بحثت في آداب العالم وقيمه.. فلم أجد دينا يحث على الكرم، ويربي أتباعه عليه، كما وجدت في الإسلام..

لقد وردت النصوص المقدسة الكثيرة التي تحث على الكرم، وتعتبره من الكمال، بل تعتبره من مقاييس الكمال، فقد اعتبر محمد: (السخاء خلق الله الأعظم)(1)، وذكر أن (السخي قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، بعيد من النار، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، بعيد من الجنة قريب من النار، والجاهل السخي أحب إلى الله من عابد بخيل)(2).. وقال: (إن الله يدخل بلقمة الخبز، وقبضة التمر ومثله، مما ينفع المسكين ثلاثة الجنة: صاحب البيت الآمر به، والزوجة المصلحة،

1) ابن النجار عن ابن عباس.

2) الترمذي والبيهقي.

والخـادم الـذي يناولـه المسـكين)(1).. وقـال: (إن المكـثرين هم الأقلـون يـوم القيامـة، إلا من أعطـاه اللـه خـيرا فنفخ فيـه بيمينـه وشماله وبين يديه وورائه)(2).. وقال: (ما من مسلم ينفق من كـل مـال لـه زوجين في سـبيل اللـه، إلا اسـتقبلته حجبـة الجنـة، كلهم يـدعوه إلى مـا عنـده)(3).. وقـال: (كم من حـوراء عينـاء، مـا كـان مهرها، إلا قبضة من حنطة، أو مثلها من تمر)(4).. وقال: (اليد العيا خير من اليد السفلى، واليد العليا هي المنفقة، واليـد السـفلى هي السائلة)(5).. وقـال: (لا حسـد إلا في إثنـتين: رجـل آتـاه اللـه مـالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضـي بها ويعلمها)(6)

وأخبر أن الله يتقبل الصدقة، ويربيها لصاحبها، فقال: (إن الله يقبل الصدقة، ويأخـذها بيمينـه فيربيهـا لأحـدكم كمـا يـربي أحـدكم مهره، حتى إن اللقمة لتصـير مثـل أحـد)(7)، وفي روايـة: (إن اللـه ليربي لأحدكم التمـرة واللقمـة، كمـا يـربي ولـده، أو فصـيله حـتى يكون مثل أحد)(8).. وقال: (إن العبد ليتصدق بالكسـرة، تربـو عنـد الله حتى تكون مثل أحد)(9)

وأخبر أن أحب الأعمال إلى الله الكرم، فقال: (أحب الأعمال إلى الله تعالى، من أطعم مسكينا من جوع، أو دفع عنه مغرمـا، أو

1) الحاكم.

2) الشيخان.

3) أحمد، والنسائي، وابن حبان في صحيحه، والحاكم.

4) العقيلي في الضعفاء.

5) أحمد، والشيخان، وأبو داود، والترمذي.

6) أحمد، والشيخان، وابن ماجة.

7) الترمذي.

8) أحمد، وابن حبان في صحيحه.

9) الطبراني.

كشف عنه كربا)(1).. وقال: (أحب الأعمال إلى الله بعد الفــرائض، إدخال السرور على المسلم)(2)

وأخبر عن حب الله للمكرمين، فقال: (إن أحب عباد الله إلى الله، من حبب إليه المعـروف، وحبب إليـه أفعالـه)(3).. وقـال: (إن الله تعالى استخلص هذا الدين لنفسه، ولا يصلح لدينكم إلا السخاء وحسن الخلق، ألا فزينـوا دينكم بهمـا)(4).. وقـال: (إن اللـه تعـالى جـواد يحب الجـود، ويحب معـالي الأخلاق، ويكـره سفسـافها)(5)، وقـال: (مـا عظمت نعمـة اللـه على عبـد إلا اشـتدت عليـه مؤنـة الناس، فمن لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عـرض تلـك النعمـة للزوال)(6)

وقال: (خلقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله، فأما اللـذان يحبهما الله فالسخاء والسماحة، وأما اللذان يبغضـهما اللـه تعـالى، فسوء الخلق والبخل، وإذا أراد الله بعبد خيرا، استعمله على قضاء حوائج الناس)(7)

وأخبر أن الصدقة تقي صاحبها من النار، فقال: (ليتق أحــدكم وجهه من النار ولو بشق تمرة)(8).. وقال: (اتقـوا النـار ولـو بشـق تمرة، فـإن لم تجـد فبكلمـة طيبـة)(9)، وفي روايـة: (اجعلـوا بينكم

1) الطبراني.

2) الطبراني.

3) ابن أبي الدنيا، وأبو الشيخ.

4) الطبراني.

5) البيهقي، وأبو نعيم في الحلية.

6) ابن أبي الدنيا والبيهقي.

7) البيهقي.

8) أحمد.

9) الشيخان.

وبين النار حجابا ولـو بشـق تمـرة)(1)، وفي أخـرى: (تصـدقوا ولـو بتمرة، فإنها تسد من الجائع، وتطفىء الخطيئة كمـا يطفىء المـاء النار)(2)، وفي حديث آخر قال: (تصدقوا فإن الصدقة فكـاككم من النار)(3)، وقال: (إن الصدقة لتطفىء عن أهلهـا حـر القبـور، وإنمـا يسـتظل المـؤمن يـوم القيامـة في ظـل صـدقته)(4)، وقـال: (من أطعم أخاه من الخبز حتى يشبعه، وسـقاه من المـاء حـتى يرويـه، بعده الله من النار سبع خنادق، كل خندق مسيرة سبعمائة عام)(5)

وفي حديث آخر يرسم الصورة الـتي تمثـل ذلـك بقولـه: (مـا منكم من أحـد إلا سـيكلمه اللـه يـوم القيامـة، ليس بينـه وبينـه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا ير إلا ما قـدم، وينظـر أشـأم منـه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة)(6)

وأخبر عن تـأثير الكـرم في الوقايـة من نـيران الـدنيا، فقـال: (صنائع المعـروف تقي مصـارع السـوء والآفـات والهلكـات، وأهـل المعـروف في الـدنيا، هم أهـل المعـروف في الآخـرة، وإن أهـل المنكر في الدنيا، هم أهل المنكر في الآخرة)(7)

بل ذكر ما هو أعظم من ذلك، فقال: (تسـد الصـدقة سـبعين بابا من السوء)(8)، وقـال: (الصـدقة تمنـع سـبعين نوعـا من أنـواع

1) الطبراني.
2) الطبراني.
3) الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية.
4) الطبراني.
5) النسائي، والحاكم.
6) أحمد، والشيخان، والنسائي، وابن ماجة.
7) الحاكم.
8) الطبراني.

البلاء، أهونهـا الجـذام والـبرص)[1]، وقـال: (الصـدقة تمنـع ميتـة السوء)[2]، وقال: (مناولة المسـكين تقي ميتـة السـوء)[3]، وقـال: (تداركوا الهموم والغموم بالصدقات، يكشـف اللـه تعـالى ضـركم، وينصركم على عدوكم)[4]، وقال: (الصدقة على وجهها، واصــطناع المعروف، وبر الوالدين، وصلة الرحم، تحول الشقاء سعادة، وتزيد في العمر، وتقي مصارع السوء)[5]

وأخبر عن عظم الغبن الذي يحيق بالبخلاء، فقال: (إعلموا أنه ليس منكم أحد، إلا ماله أحب إليه من مال وارثه، مالك ما قـدمت، ومال وارثك ما أخرت)[6]، وفي رواية: (أيكم مال وارثـه أحب إليـه من ماله، فإن ماله ما تقدم، ومال وارثه، ما تأخر)[7]

وأخبر عن الجزاء المعد للكرماء في الدنيا قبل الآخرة، فقال: (إذا أراد الله بقوم نماء، رزقهم السـماحة والعفـاف، وإذا أراد اللـه بقـوم اقتطاعـا فتح عليهم بـاب خيانـة)[8]، وقـال: (اسـتعينوا على الرزق بالصدقة)[9]، وقال: (استنزلوا الرزق بالصدقة)[10]

وأخبر (أن ملكين يـنزلان فيقـول أحـدهما: اللهم أعـط منفقـا

1) الخطيب.
2) القضاعي.
3) الطبراني والبيهقي.
4) الديلمي.
5) أبو نعيم في الحلية.
6) النسائي.
7) أحمد، والترمذي.
8) ابن عساكر، والطبراني.
9) الديلمي.
10) البيهقي.

خلفا، ويقول الآخـر اللهم أعـط ممسـكا تلفـا)[1]، وقـال: (إن اللـه تعالى يقول يا ابن آدم أودع من كنزك عندي، ولا حـرق، ولا سـرق، ولا غرق، أوفيكه أحوج ماتكون إليه)[2]

وغيرهـا من النصـوص الكثـيرة الـتي جعلت الكـرم من القيم النبيلة التي يتنافس فيها الأغنياء والفقراء على حد سواء.

ولم يكتف الإسلام بهذا.. بل شـرع التشـريعات الكثـيرة الـتي تجعل من الكرم خلقا مفروضا.. لا مجرد تكرم يرتبط بقوة الإيمـان وضعفه.

ولهذا، فإن الزكاة ــ الـتي تمثـل شـريعة من شـرائع الكـرم ـ ركن من أركان الإسلام.. والإسلام لم يكتف بهـا.. بـل ربـط الكثـير من العبادات والكفارات بالصدقات.

المروءة:

قلت: فحدثني عن السر الثالث من أسرار زهرية الأزهار.

قال: المروءة.. المروءة هي السر الثالث من أسرار الأزهار.

قلت: لم أفهم علاقة المروءة بالأزهار.

قــال: المــروءة هي الــترفع عن السفاســف.. والبحث عن المعالي.

قلت: عرفتها في البشر.. ولم أعرفها في الأزهار.

قـال: ألا تـرى الأزهـار كيـف تتنـافس في ألوانهـا وأشـكالها وعطورها.. بحيث تحاول كل زهرة أن تفوق غيرها!؟

قلت: ما تقوله صحيح..

---

1) الشيخان وغيرهما.

2) البيهقي.

قـال: فـإذا وصـل البشـر إلى هـذه المرتبـة من التعـالي عن السفاسف، والبحث عن الرتبة النفيسة كانوا كالأزهار..

وقد بحثت في الأديان والمذاهب عن هذا النـوع الشـريف من أنواع التنافس، فلم أجده في الإسلام.

لقد ظهر في المجتمعات الإسلامية جماعات ليس لها من هم إلا التنافس في المروءة.. وقـد أطلـق على هـؤلاء لقب (الفتيـان)، وأطلق على سلوكهم (الفتوة)،

استنباطا لذلك مما ورد في القرآن من مدح الفتوة.. فقد ورد في وصـف أهـل الكهـف: إِنَّهُمْ فِتْيَـةٌ آمَنُـوا بِـرَبِّهِمْ وَزِدْنَـاهُمْ هُدىً((الكهف:13)، وفيه عن قوم إبراهيم أنهم قالوا: سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ((الانبياء:60)

وقـد عـرف ابن القيم (الفتـوة) باعتبارهـا مـنزلا من منـازل السائرين، فقال: (حقيقتها هي منزلة الإحسـان إلى النـاس، وكـف الأذى عنهم، واحتمـال أذاهم، فهي اسـتعمال حسـن الخلـق معهم، فهي في الحقيقة نتيجة حسن الخلق واستعماله)(1)

وعرفهـا السـبكي، فقـال: (والفتـوة من أعظم خصـال الخـير جامعة كمال المروءة وحسن الخلق والإيثـار على النفس واحتمـال الأذى وبذل الندى وطلاقـة الوجـه والقـوة على ذلـك، حـتى تكـون فتوته على ذلك فتوة الفتيان والصفح عن العـثرات ويكـون خصـما لربه على نفسه وينصف من نفسه ولا ينتصف ولا ينـازع فقـيرا ولا غنيا ويستوي عنـده المـدح والـذم والـدعاء والطـرد ولا يحتجب ولا يدخر ولا يعتذر ويظهر النعمة ويحقق المحبة سرا وعلنا فـإذا قـوي على ذلك فهو الفتى وإذا اجتمع قوم على ذلك وتعاهدوا عليه فنعم ما هو)(2)

---

1) مدارج السالكين:2/340.

2) فتاوى السبكي: 2/548.

وقد ذكر ابن القيم أن أقدم من تكلم في الفتوة الإمام جعفر الصادق، فذكر عنه أنه سئل عن الفتوة فقال للسائل: (ما تقول أنت؟) فقال: (إن أعطيت شكرت وإن منعت صبرت)، فقال: (الكلاب عندنا كذلك)، فقال السائل: (يا ابن رسول الله ﷺ فما الفتوة عندكم؟)، فقال: (إن أعطينا آثرنا، وإن منعنا شكرنا)

وقال الفضيل بن عياض: (الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان)، وقال أحمد، وقد سئل عن الفتوة: (ترك ما تهوى لما تخشى)، وسئل الجنيد عن الفتوة فقال: (لا تنافر فقيرا ولا تعارض غنيا)، وقال الحارث المحاسبي: (الفتوة أن تنصف ولا تنتصف)، وقال عمر بن عثمان المكي: (الفتوة حسن الخلق)

ويعبر الدقاق عن كمال الفتوة، فيقول: (هذا الخلق لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ، فإن كل أحد يقول يوم القيامة نفسي نفسي، وهو يقول أمتي أمتي)[1]

والحكايات والقصص الواردة عن هؤلاء الفتيان تبرز ناحية مهمة، وهي التنافس على الأخلاق العالية النبيلة، ووجود التنافس على الخير في المجتمع يرفع المجتمع إلى آفاق عالية من التحضر، ولهذا مر المجتمع الإسلامي بفترات يكاد يعدم فيها الفقر لكثرة من يتنافس على الرحمة بالفقراء وخدمتهم.

ومن تلك الحكايات، وهي متعلقة بجانب من الفتوة، وهو التغافل عن عيوب الغير وأخطائهم، أن رجلا من الفتيان تزوج امرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدري، فقال: اشتكيت عيني، ثم قال: عميت، فبعد عشرين سنة ماتت، ولم تعلم أنه بصير، فقيل له في ذلك، فقال: (كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها)، فقيل له: (سبقت الفتيان)

ومثل ذلك أن امرأة سألت حاتما عن مسألة، فاتفق أنه خرج

1) مدارج السالكين:2/342.

منها صوت في تلك الحالة، فخجلت، فقال حاتم: (ارفعي صـوتك)، فأوهمها أنه أصم، فسـرت المـرأة بـذلك، وقـالت: (إنـه لم يسـمع الصوت) فلقب بحاتم الأصم)

واستضاف رجل جماعة من الفتيان، فلما فرغـوا من الطعـام خرجت جارية تصب الماء على أيديهم، فانقبض واحد منهم، وقـال: (ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال) فقال آخر منهم: (أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار، ولم أعلم أن امـرأة تصب الماء على أيدينا أو رجلا)

وقدم جماعة فتيان لزيارة فتى، فقال الرجـل: (يـا غلام قـدم السفرة)، فلم يقدم، فقالها ثانياوثالثا فلم يقدم، فنظر بعضـهم إلى بعض، وقالوا: (ليس من الفتـوة أن يسـتخدم الرجـل من يتعاصـى عليـه في تقـديم السـفرة كـل هـذا)، فقـال الرجـل: (لم أبطـأت بالسفرة)، فقال الغلام: (كان عليها نمل، فلم يكن من الأدب تقديم السفرة إلى الفتيان مـع النمـل، ولم يكن من الفتـوة إلقـاء النمـل وطردهم عن الزاد، فلبثت حتى دب النمل)، فقالوا: (يا غلام مثلـك يخدم الفتيان)

قال ابن القيم: (ومن الفتوة الـتي لا تلحـق مـا يـذكر أن رجلا نام من الحاج في المدينة، ففقد هميانا فيه ألف دينار، فقـام فزعـا فوجد جعفر بن محمد فعلق به وقال: (أخذت همياني)، فقـال: (أي شيء كان فيه؟)، قال: (ألف دينـار)، فأدخلـه داره، ووزن لـه ألـف دينار، ثم إن الرجل وجد هميانه، فجـاء إلى جعفـر معتـذرا بالمـال، فأبى أن يقبله منه، وقال: (شيء أخرجته من يدي لا أسترده أبـدا)، فقال الرجل للناس: (من هذا؟)، فقالوا: (هذا جعفر بن محمد)[1]

التضحية:

قلت: فحدثني عن السر الرابع من أسرار زهرية الأزهار.

1) مدارج السالكين:2/343.

قال: لن تكـون الأزهـار أزهـارا حـتى تمتلئ بمعـاني التضـحية والبذل والإيثار.

قلت: لم أفهم علاقة الأزهار بذلك..

قال: ألا ترى الزهرة تظل تمنحنا أريجها العطر إلى أن تذبل؟

قلت: بلى..

قـال: فهي تبـذل لنـا ــ مـع أنفـاس عطرهـا ــ روحهـا.. هي كالشمعة تحرق لتضيء لنا.

قلت: فأين وجدت مثل هذا النبل؟

قال: لم أجده إلا في الإسلام.. وفي القيم الـتي ربى الإسـلام عليها المسلمين.. إن التضحية بالنفس والمال والـوقت في سـبيل الله من أسمى أخلاق الإسلام، ومن أرفع واجباته.

قلت: في سبيل الله.. لا في سبيل الخلق.

قال: سبيل الله في الإسلام يراد به سبل الخلق.. وإنما اعتـبر سبيلا لله حتى لا يطلب صاحبه عليه أجرا إلا الأجر الذي أعطاه الله له.

لقــد قــال القــرآن في الأمــر بالتضــحية في ســبيل نصــرة المستضعفين: ﴿ وَمَـا لَكُمْ لا تُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا أَخْرِجْنَـا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَـا مِنْ لَـدُنْكَ وَلِيّـاً وَاجْعَـلْ لَنَـا مِنْ لَـدُنْكَ نَصِيراً ﴾ (النساء:75)

ويصــف القــرآن معــنى آخــر من معــاني التضــحية، فيقــول: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الـدَّارَ وَالْأِيمَـانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَـاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَـانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر:9

)

ففي هذه الآية إخبار عن الإيثار الذي تحلى به الأنصار لما قدم المهاجرون إليهم، بعد أن تركـوا في بلادهم كـل مـا يلـزم لنفقتهم، فوجـدوا لهم إخوانـا لهم اقتسـموا معهم زادهم، بـل آثـروهم على أنفسهم.

وقد سبق ذكر الآية السابقة قوله: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَـاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّـادِقُونَ (الحشـر:8)، فـأخبر بفضـل المهاجرين الذي آثرهم الأنصار على أنفسهم ليـبين أن ذلـك الإيثـار وتلك النفقات لم تذهب عبثا، بـل وقعت في موقعهـا الصـحيح، لأن الإنسان قد ينفق، ويؤثر ولكنه لا يسد خللا، لا يحقـق مقصـدا، لأنـه رمى بنفقته في غير مواضعها، فعبثت بها الرياح.

وقـد حفظت لنـا كتب الحـديث بعض مـا فعلـه الأنصـار مـع المهاجرين، ففي الحديث: قال المهاجرون: (يا رسول اللّه ما رأينـا مثل قوم قدمنا عليهم، أحسن مواسـاة في قليـل ولا أحسـن بـذلاً في كثير، لقد كفونا المؤنة وأشركونا في المهنأ، حـتى لقـد خشـينا أن يذهبوا بالأجر كله)، فقال ﷺ: (لا، ما أثـنيتم عليهم ودعـوتم اللّـه لهم)(1)

وظلوا هكذا حتى بعد أن فتح اللـه على المؤمـنين، وقـد روي أن محمدا دعـا الأنصـار أن يقطـع لهم البحـرين، فقـالوا: (لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها)، قـال: (إمـا لا، فاصـبروا حـتى تلقوني فإنه سيصيبكم أثرة)(2)

بل روي أكثر من ذلك، ففي الحديث: قالت الأنصـار: (اقسـم بيننـا وبين إخواننـا النخيـل)، فقـال: (لا)، فقـالوا: (أتكفونـا المؤنـة

---

1) أحمد.

2) البخاري.

ونشرككم في الثمرة؟) قالوا: (سمعنا وأطعنا)[1]

بل روي أكثر من ذلـك، فقـد كـان الأنصـار من حرصـهم على الحفاوة بإخوانهم المهاجرين أنه ما نزل مهـاجري على أنصـاري إلا بقرعة.

وقـد عـبر القـرآن الكـريم عن هـذا التكافـل بصـورة جميلـة، فقـال: وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْـكِيناً وَيَتِيمـاً وَأَسِـيراً إِنَّمَـا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً (الانسان:8 ـ 9)

ففي هـاتين الكريمـتين إخبـار عن إيثـار هـؤلاء المحـاويج من المؤمـنين غـيرهم بالطعـام مـع حبهم لـه وحـاجتهم إليـه، ثم هم لا يطلبون على ذلك جزاء ولا شكورا.

وهو موقف يشبه كثـيرا موقـف النـبي موسـى عنـدما سـقى للفتاتين، ثم أوى إلى الظل من غير أن يشعر نفسه أو يشعر غيره أنه فعل شيئا، قال: فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَـالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ((القصص:24)

وهذه المواقف ـ في حقيقتها، وفي حقيقة الإسـلام ــ ليسـت شيئا ثانويا مستحبا، وإنما هي واجب من واجبات الـدين، فقد ورد في الحديث: (ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به)[2]، وقال: (أيما أهل عرصة بات فيهم امرؤ جائع فقد برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله)[3]

بل نص القرآن على هذا في مواضـع مختلفـة بصـيغ مشـددة تدل على أن الأمر ليس موكولا لرغبات الناس، وإنما هو واجب من واجبات الدين، فلا يصح أن يمـوت النـاس جوعـا في نفس الـوقت الذي تمتلئ يه خزائن الكثيرين، ولو دفعوا الزكاة.

---

1) البخاري.

2) البزار، والطبراني في الكبير عن أنس.

3) مسلم عن ابن عمر.

القوة:

قلت: فحدثني عن السر الخامس من أسرار زهرية الأزهار.

قال: السر الخامس هو (القوة)

قلت: ولكـني أرى الأزهـار ضـعيفة تطؤهـا الأقـدام، وتطحنهـا الأصابع.

قـال: القـوة في عيـون الحقـائق أرفـع من أن تختصـر في عضلات مفتولة، أو قامة متطاولة.

قلت: فما هي القوة؟

قال: لقد عبر محمد عن بعض مظانها، فقـال: (ليس الشـديد بالصرعة، إنما الشـديد الـذي يملـك نفسـه عنـد الغضـب)(1)، وفي رواية أخرى: (أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة؟ إنما الشــدة في أن يمتلئ أحدكم غيظا ثم يغلبه)(2)

قلت: فهل للأزهار مثل هذه القوة؟

قـال: أجــل.. ألا تــرى المجــرمين يدوســونها بأقــدامهم، أو يذبحونها بأيديهم، أو يطحنونها بأصابعهم.. ولكنهـا لا تبخـل بعطرهـا عليهم!؟

قلت: أجل.. أرى ذلك.

قال: فهذا مظهر من مظاهر القوة.

قلت: تقصد ما نسميه (قوة الشخصية)

قال: لقد جاء الإسلام بكل أنواع القوة.. وحث على كل أنــواع القـوة.. وأمــر بـأن تسـخر كـل ألوانهـا في صـالح الخـير والحـق

1) أحمد والبيهقي.

2) ابن أبي الدنيا في ذم الغضب.

والجمال.

لقد قال القـرآن آمـرا بالأخـذ بـالقوة لحمايـة المستضـعفين: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُـونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَـا تُنْفِقُـوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ (الأنفال:60)

وأهم أنـواع القـوة الـتي حث الإسـلام عليهـا، وأمـر بهـا قـوة النفس وترفعها وتعاليها بالحق الذي تملكه.

قلت: تقصد العزة؟

قـال: العـزة مظهـر من مظـاهر القـوة، بـل هي من أجلى مظاهرها، وقد وصف القرآن بهـا المؤمـنين، فقـال:﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِـعٌ عَلِيمٌ) (المائدة:54)

وأخبر أنها خلق من أخلاق المؤمنين التي يجب أن يتحلـوا بهـا ويحرصـوا عليهـا فقـال:﴿ وَلِلَّهِ الْعِـزَّةُ وَلِرَسُـولِهِ وَلِلْمُـؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُـونَ)(المنـافقون:8)، وقـال:﴿ وَلا تَهِنُـوا وَلا تَحْزَنُـوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران:139)

فهذه الآية تعلم المؤمـنين إبـاء الضـيم، والثـورة على المذلـةِ والهوان.

ولهذا وصف الله المؤمنين في الأجيال السابقة للإسـلام بهـذا الخلق، فقال:﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَـا وَهَنُـوا لِمَـا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّـابِرِينَ (146) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَـا وَإِسْـرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (147) فَآتَـاهُمْ اللَّهُ

ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (148) (آل عمران)

بل إن القرآن يسمي الله بـ (الْعَزِيزُ) ما يقرب من تسعين مرة، ليملأ أسماع المؤمنين بحديث العزة والقوة، فإذا ما سيطر عليهم اليقين بعزة ربهم تأبوا على الهوان حين يأتيهم من أي مخلوقٍ.

وقد علم القرآن المؤمنين الإقدام والاحتمال والثبات في مواطن اليأس موقنين أن الله معهم في تلك المواقف الشديدة.. وَلا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (النساء:104).. فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (محمد:35)

قلت: أليس في هذا تناقضا مع دعوة الإسلام إلى السلام.. ففي الآية التي قرأتها نهي عن الدعوة إلى السَّلْمِ!؟

قال: فرق كبير بين السلم والسلام.. فالسلم هو الاستسلام لشروط الأعداء وكبرهم والتذلل لهم والتضعضع أمامهم.. أما السلام فهو تحقيق الأمن للنفوس والمجتمعات في ظلال العدل والحرية والإخاء والمساواة.

فإذا لم يحقق السلام هذه المطالب.. فليس هو بسلام.. والشدة في ذلك الحين قد تكون هي البلسم الذي يعيد للحياة صفاءها وسلامها.

ولهذا أخبر القرآن أن الفتنة أشد من القتل، فقال: وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ (البقرة:191)

الأمانة:

قلت: فحدثني عن السر السادس من أسرار الأزهار.

قال: السر السادس هو (الأمانة)

قلت: تقصد رد الودائع..

قال: رد الودائع مظهـر من مظـاهر الأمانـة.. أمـا الأمانـة في ذاتها فإن لها من المظاهر عدد زبد البحر.

قلت: فما حدها الجامع؟

قال: لقد أناط الله بكل مخلـوق في كـل محـل من المحـال، وفي كل زمن من الأزمـان وظيفـة ألزمـه بأدائهـا، فـإذا أداها كمـا ينبغي من غير غش ولا خداع ولا خيانة ولا احتيال كان أمينا.

ألا ترى كيف أن ابنة الشيخ الصـالح سـمت موسـى أمينـا من غير أن تودعه أي وديعة، فقالت لأبيها: يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (القصص:26)؟

قلت: فكيف عرفت أمانته؟

قال: لقـد كـان الموقـف الـذي وقفـه موسـى يقتضـي إعانـة الفتاتين الضعيفتين، ولو قصر في ذلك كان خائنا..

نظرت إلى الأزهار، وقلت: فهل تحققت الأزهار بهذا؟

قال: أجل.. لقد أنيط بها أن تكون متعـة للعين وراحـة للنفس ولذة للشم.. وهي تؤدي كل ذلك بكل تفان من غير أي تقصير.

قلت: فما أمانة البشر؟

قـال: لقـد ذكـر القـرآن أن اللـه حمـل البشـر أمانـة عظيمـة عجزت السـموات والأرض عن حملهـا، فقـال: إِنَّا عَرَضْـنَا الْأَمَانَـةَ عَلَى السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَـالِ فَـأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَـا وَأَشْـفَقْنَ مِنْهَـا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (الأحزاب:72)

قلت: فما هذه الأمانة؟

قال: أمانة الخلافة.. لقد ذكر القرآن أن الله خلق الإنسان لأجل الخلافة.

قلت: فما الخلافة؟

قال: لها جهتان: جهة إلى الله تستدعي التسليم له ومحبته وطاعته المطلقة، وجهة إلى الخق تستدعي التعامل معهم وفق ما يقتضيه العدل والرحمة.

وقد ذكر القرآن الجهة الثانية، فقال عن داود: يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (صّ:26)

قلت: لقد كان داود حاكما، وليس كل الناس كذلك.

قال: كل إنسان له حكم يرتبط به.. لقد ذكر محمد ذلك فقال: (كلكم مسئول عن رعيته، فالامام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع في مال أبيه وهو مسؤول عن رعيته، وكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته)[1]

قلت: فكيف تزعم أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تحقق له هذا السر العظيم؟

قال: لأني لم أجد دينا يحرص على الأمانات مع كل الخلق من الأصدقاء والأعداء مثل الإسلام..

لقد قرأت الكتب المقدسة، فلم أجد نصا يقول لأتباعه: يَا

---

1) البخاري ومسلم.

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (المائدة:8)

ويقول لأتباعه، في أحوال شدتهم: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (لأنفال:58)

أتعلم ما تعني هذه الآية؟

قلت: ما تعني؟

قال: أي إذا خشيت من قوم نقض عهدهم، وأردت أن تلغي عهدك معهم، فلا تغدر بهم، بل أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم على السواء، أي: تستوي أنت وهم في ذلك[1].

إن الإسلام لا يجيز نقض العهد حتى في حالات الشدة انتهازا للفرصة.

قارن هذا بالعهود الكثيرة التي يقطعها قومنا على أنفسهم، ثم سرعان ما ينكثون بها، بل يغدرون في نكثهم.

الصدق:

قلت: فحدثني عن السر السابع.

قال: السر السابع هو (الصدق)

قلت: فما الصدق؟

قال: الصفاء والخلاص الذي لم يكدر بأي شائبة.. ألا ترى إلى هذه الأزهار التي تمتلئ صفاء ورقة وشفافية!؟

1) ابن كثير.

قلت: الصدق ممدوح في الشرائع جميعا.

قال: ولكني لم أجد دينا يحرص على الصدق ويملأ القلب بــه، بل يضعه في ذروة المقامـات الرفيعـة مثـل الإسـلام.. فهـو الـدين الوحيد الذي رفع الصـدق إلى أعلى الـدرجات، ونـزل بالكـذب إلى أخفض الدركات.

لقد قال محمد في الآثار التي يحدثها الصدق والكـذب: (: (إن الصـدق يهـدي إلى الـبر وإن الـبر يهـدي إلى الجنـة، وإن الرجـل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا، وإن الكذب يهـدي إلى الفجـور وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا)[1]

بل اعتبر الكذب وما يرتبط به من النفاق الذي توعـد القـرآن أهله بالدرك الأسـفل من النـار، ففي الحـديث: (أربـع من كن فيـه كان منافقا خالصا، ومن كان فيه خصلة منهن كانت فيه خصـلة من النفاق حتى يدعها، إذا ائتمن خان، وإذا حدّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر)[2]

***

ما وصل (آرثر جون آربري) من حديثه إلى هذا الموضع حــتى امتلأت عيناه بدموع لم يملك حبسها.

قلت: ما الذي يبكيك؟

قال: يبكيني أمران:

أما أولهمـا، فنقض الكثـير من المسـلمين للعهـود الـتي عهـد إليهم بها نبيهم، وتركهم للقيم الرفيعـة الـتي جـاءهم بهـا طلبـا لمـا عندنا، وهم يعلمون أنا لسنا على شيء.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري.

وأما الثاني، فتكبرنا على محمد وعلى أمة محمـد وعلى القيم التي جاء بها محمد.. وهو ما أحالنا إلى شريعة الغاب التي نحياها.

ثم ابتسم، وقال: أنا لست يائسـا.. يوشـك أن تعـود البشـرية إلى هذا الهدي العظيم.. ولكن بعد أن تصلى بنيران الأشـواك الـتي نسجتها بأهوائها.

قلت: متى ذلك؟

قـال: إذا تخلت عن كبريائهـا، وفخرهـا، وتطاولهـا.. حينـذاك ستجد محمدا وهدي محمد أقرب إليها من نفسها.

قلت: أنا أعجب لك حضرة الأستاذ الفاضل كيـف تحـزن على البشرية، ولا تحزن على نفسك.

قال: لن أقول لك إلا ما قاله (اللورد هدلي)

قلت: تقصـد قوله: (إنـني أعتقـد أن هنـاك آلافـاً من الرجـال والنسـاء أيضـاً، مسـلمون قلبـاً، ولكن خـوف الانتقـاد والرغبـة في الابتعــاد عن التعب الناشــئ عن التغيــير، تــآمروا على منعهم من إظهار معتقداتهم)

قال: لقد صدق الرجل.. لقد صدق الرجل..

أردت أن أسـأل، فتركـني، ومضـى، وقـد امتلأ قلـبي بـأنوار جديدة اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

رابعا ـ إنسانية

في اليوم الرابع من تلك الأيام العشرة التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة الإنسانية من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5)(التين)

وسر قوله تعالى: وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (الاسراء:70)

وسر قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْأِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً (الأحزاب:72)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن التكريم العظيم الذي ناله الإنسان في الإسلام، وتخبر في نفس الوقت عن المسؤولية العظيمة المناطة به.

ولا يمكن أن يعرف الإنسان إلا بهما.. بمعرفة حقيقته الشريفة، ووظائفة العظيمة.

***

سمعت بمارسيل بوازار، وهو مفكر، وقانونى فرنسى، كان له اهتمام كبير بالعلاقات الدولية وحقوق الانسان، وقد كتب عدداً من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهما.

وكان يضم إلى هذا الاهتمام اهتمامه بالإسلام، وقد كتب كتابه (إنسانية الإسلام)، الذى انبثق عن اهتمامه الشديد بالإنسان، وبالإسلام في نفس الوقت..

ولهذا الكتاب أهمية كبرى في الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التى

لا يأسرها التحيز والهـوى، زيـادة على رجوعـه للمصـادر الإسـلامية نفسها.

وبسبب هذا الكتاب.. وبسبب موضوعية الرجل.. كـان اسـمه من الأسماء التي وضعت في الدفتر الذي سلمني إياه المرشد، مع كونه لم يكن ينتسب لجامعة السربون.

وقـد كنت أتحين الفـرص للقائـه والاسـتماع إليـه، ولكـني لم أظفر بذلك إلا في ذلك اليوم الجميل...

في ذلـك اليـوم كنت أسـير في شـارع مـزدحم من شـوارع باريس.. كانت أصوات السيارات فيه تكاد تصيبني بالصـمم.. وكـان الهـواء مكـدرا.. والـروائح الـتي تنبعث من المحلات المختلفـة تملأ الأنف بالتقزز..

ربما هناك من يحب هذه الأجـواء المزدحمـة.. ولكـني لم أكن من هذا النوع.. فأنا أحب الحياة الهادئة الوديعة المسالمة الساكنة..

في ذلـك الجـو الكـئيب ــ بالنسـبة لي على الأقـل ــ التقيت ضـالتي الـتي كنت أبحث عنهـا (مارسـيل بـوازار).. وقـد عجبت إذ رأيته ينشغل في ذلك الزحام بشجرة من الأشجار، يطـأطئ رأسـه إليها، ويحرك بيديه تربتها، ويزيل عنها ما علق بها من آثار الازدحام، ثم يخرج من حقيبته قارورة ماء، يسقيها بها، ويمسح على أغصـانها وأوراقها كما يمسح أحدنا على رأس اليتيم والمسكين.

تعجبت من سلوكه الطيب هذا.. واقتربت منـه، وحييتـه، فـرد علي التحية، ثم عاد إلى الشجرة يمسح عنها ما علق بها.

قلت له: ألست (مارسيل بوازار)؟

قال: أجل.. هل تعرفني؟

قلت: أجل.. لقـد قـرأت كتابـك عن (إنسـانية الإسـلام).. وأنـا أتعجب كيف كتبت ذلك الكتاب، ولماذا كتبته؟

قال: كتبته لأجل هـذه الشـجرة الـتي تراهـا تئن، ولا يسـمعها أحــد.. وتبكي ولا تجــد من يمســح دموعهــا.. وتمتلئ الأرض الــتي

تستقر عليها بالقاذورات، ثم لا تجد من ينظفها.

قلت: لم أرك في كتابك تذكر شجرة من الأشجار..

قال: بل لم أذكر غير الأشجار..

قلت: إلى ما يرمز قولك هذا.

قال: الإنسان لا يختلف عن الشجرة.. فطرة الإنسان التي لم تتدنس بالأفكار الشيطانية لا تختلف عن فطرة الأشجار.. ولذلك جعلت الشجرة رمزي الذي أصل به إلى حقيقة الإنسان.. وحقوق الإنسان.

قلت: فأنت لا تختلف عن دارون إذن.. لقد اعتبر دارون الحيوانات.. أو الخلية الحيوانية هي أصل الإنسان.. وأنت تجعلها الخلية النباتية.

قال: أنت تسيء إلي بهذه المقارنة.

قلت: كيف؟

قال: أنا أبحث عن حقوق الإنسان.. والتي تنطلق من كرامة الإنسان.. أما ذلك الرجل ــ قصد أو لم يقصد ــ فقد كان فكره معاديا للإنسان.. وحقيقة الإنسان.. وحقوق الإنسان.

قلت: فأنت لا تؤمن بتفسير دارون للحياة.

قال: إن كل عاقل لا يجد في نظرية دارون إلا الانحطاط..

أنا لا يهمني استغلال دارون لبعض المعلومات التي توصل إليها في رحلاته.. والتي حاول من خلالها أن يرسم للإنسان صورة حيوانية.. بل صورة لا يرضاها الحيوان لنفسه(1).. ولكن يهمني استغلال المعادين للإنسان نظريته ليحطموا بها حقيقة الإنسان، ثم يفرضوا ـ بعد ذلك ـ ما توهموه من حقوق الإنسان.

قلت: فهل حصل هذا؟.. هل خرجت نظريته من علم الحياة

---

1) انظر الرد العلمي على نظرية دارون في رسالة (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

إلى علم القانون والاجتماع..

قال: بل خرجت نظريته إلى كل ميادين الحياة.. ألسـت تـرى نظريتـه تـدرس فى معظم مـدارس الأرض، لا على أنهـا فرضـية علميـة، كمـا اعتبرهـا دارون نفسـه.. ولا على أسـاس أنهـا نظريـة علمية لم تثبت ثبوتا قاطعا يرشحها لأن تكـون حقيقـة علميـة.. بـل هي تدرس على أنها حقائق نهائية فى علم الحياة.

قلت: فما يضرك من تدريسها؟.. أم أنـك تقـف مـع الكنيسـة التي كفرت دارون ابتداء، ووصفته بأنه زنـديق مهرطـق مـارق من الدين، لأنه ينفى الخلق المباشر من الله للإنسان على صورته؟

قال: ربما يكون هذا أحد الأسباب.. ولكن السبب الأخطـر لـه علاقة بهذه الشجرة.

قلت: أراك تعود إلى الشجرة من جديد؟

قال: أجل.. هذه الشجرة تمثـل الإنسـان.. لقـد رأيت أخواتهـا في الغابات الطليقـة، ورأيت لهـا من الجمـال مـا لا يمكن وصـفه، وذقت من ثمارها مـا لا يسـتطيع لسـاني أن ينسـاه، وشـممت من روائحها الطيبة ما ملأني بالروحانية العذبة..

أما هذه الشجرة المسكينة التي عزلت عن أخواتها، وأكـرهت على أن تعيش في واقع غير واقعها.. وأن تعيش حياة غير حياتهـا.. فأنت تراها ذابلة ميتة.. نعم لها أوراق وسيقان تجعلهـا تعيش حيـاة بدائية.. ولكن بلا ثمار طيبة.. ولا روائح زكية.. ولا حياة مطمئنة.

قلت: ما علاقة ذلك ببغضك لنظرية دارون؟

قال: دارون نقل شجرة الإنسان من الغابة التي غرست فيهـا إلى غابة اختلط فيها الكل.. فلم تعـد للإنسـان رائحـة الإنسـان، ولا طعم الإنسان، ولا جمال الإنسان.

قلت: لم أفهم مرادك.

قال: لقد كان الإنسان منذ وجدت الدنيا ينظر إلى نفسه على أنه مخلوق مميز مكـرم مـزين بالعقـل والمشـاعر.. وبمـا لا يمكن حصره من القيم والمثل النبيلة.

ولكنـه بمجـيئ دارون.. وبتغلغـل أفكـاره في المجتمـع.. تغـير الموقف تماما.

فنظريـــة دارون تقـــرر حيوانيـــة الإنســـان وماديتـــه.. أي أن الظروف الماديـة المحيطـة بالإنسـان هى الـتى أثـرت فى تطـوره وإعطائه صورته.. وهي بذلك تنفى القصد والغاية من خلقه، وتنفى التكريم الربانى له بإفراده بين الكائنـات الأخـرى بالعقـل والقـدرة على الاختيـار والقـدرة على التميـيز فضـلا عن المزايـا الإنسـانية الأخرى.

إن نظريـة كهـذه يمكن أن تعطى إيحـاءات خطـيرة فى كـل اتجاه (1)..

فحين يكـــون الإنســـان حيوانـــا أو امتـــدادا لسلســـلة التطـــور الحيوانى، فأين مكان العقيدة فى تركيبه، وأين مكان الأخلاق، وأين مكان التقاليد الفكرية والروحية والأخلاقية والاجتماعية!؟

وحين يكون حيوانا، أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى، فمـا مقياس الخطأ والصواب فى أعماله؟.. وكيـف يقـال عن عمـل من أعماله إنه حسن أو قبيح، جائز أو غير جائز.. أو بعبارة أخرى: كيف يمكن إعطاء قيمة أخلاية لأعماله؟

وحين يكون حيوانا، أو امتدادا لسلسلة التطور الحيوانى، فمـا معـنى الضـوابط المفروضـة على سـلوكه؟.. ومـا معـنى وجـود

---

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

الضوابط على الإطلاق(2)؟

التفت إلي، وقال: أتدري ما سر انتشار هذه النظرية، وما نتج عنها من خلل؟

قلت: ما سره؟

قال: الكنيسة..

قلت: ما علاقة الكنيسة بهـذا؟.. لقـد كـانت الكنيسـة من أهم المعارضين لدارون.

قال: ولكن الخلل الفكـرى الـذي حـدث فى حيـاة أوروبـا فى ظل سيطرة الكنيسة الفكرية هو الذى رشـح للهـزة الـتى أصـابت هذا الفكر يوم أطلقت عليه فكرة التطور، فقد كـان كـل شـئ فى حس أوروبا المسيحية الكنسية ثابتـا منـذ الأزل، وسـيظل ثابتـا إلى الأبد.. ليست فكرة الألوهيـة فقـط هى الـتى ينطبـق عليهـا تصـور الثبات، ولا القيم الدينية والأخلاقيـة وحـدها، ولكن الجبـال والشـجر والحيوان والطير، والأوضـاع السياسـية والاجتماعيـة والاقتصـادية.. وكل شئ فى الحياة.

البابا هو البابا ذو القداسة، يذهب واحـد ويجئ آخـر، والبابويـة ذاتها وقداستها أمر ثابت لا يتغير..

الملـوك والأبـاطرة هم الملـوك والأبـاطرة.. يـذهب منهم من يذهب ويجئ من يجئ.. ولكن الملكية ذاتها أمر ثابت لا يتغير..

الإقطــاع هــو الإقطــاع.. يــذهب أمــير ويجئ أمــير.. بنفس الصورة، ونفس المعاملة، نفس السـيادة من جهـة، والعبوديـة من الجهة الأخرى.. وكلها أمور ثابتة لا تتغير.

من ثم غلب على الفكـر الأوروبى المسـيحى الكنسـى تصـور

2) قــالت الداروينيــة الحديثــة – فيمــا بعــد – إن الضــوابط موجــودة فى الكيــان " البيولوجى " للإنسان، فى تركيب مخه وجهازه العصبى، وإنه متفرد بهذا عن الحيوان.

الثبات فى كل شئ.

فلمــا وقعت الثــورة الفرنســية وأزالت الإقطــاع والملكيــة، وزلزلت نفوذ الكنيسة كـان ذلـك حـدثا حـادا فى تـاريخ أوروبـا أثـر تأثيرا عميقا فى كل اتجاه، ولكنه كان قمنا ـ بعد فترة من الــزمن ـ أن يفقد حدته، ويستقر على صورة فيها لون من الثبات.

ولكن دارون جـاء، فـأطلق قذيفتـه على أمـر لم تهـزه حـتى الثورة الفرنسية ذاتها، التى زلزلت كثـيرا من الأوضـاع فى أوروبـا، فقال: إن الخلق ذاته غير ثـابت، وإن الإنسـان لم يكن إنسـانا حين وجد أول مرة بل كان شبيها بالحيوان.

وفي ذلك الوقت سارع المفسدون في الأرض إلى تولي هذه النظرية، بل وإخراجهـا من إطارهـا الضـيق الـذي وردت فيـه، إلى إطار أوسع وأضخم..

لقـد سـارع هـؤلاء المفسـدون يرمـون فكـرة (الثبـات) ذاتهـا وقالوا ـ مستغلين فكرة التطور ــ إنــه لا شـئ ثـابت على الإطلاق، وإن طلب الثبات فى أى شـئ.. في الـدين أو الأخلاق أو التقاليـد.. هو فى حد ذاته فكرة خاطئة.. فكـرة غـير علميـة.. فكـرة مخالفـة لطبيعة الأشياء.

ثم ظلوا يرددون هـذه الأقاويـل، وينشـرونها ويؤكـدون عليهـا، حتى صارت هى الصبغة المسيطرة على الفكر البشري، لا يقبلون فيها جدلا ولا مناقشة.. ومن ناقش فهو الـرجعى المـتزمت الجامـد المتأخر الذى يريد أن يرجع عقارب الساعة إلى الـوراء.. وعقـارب الساعة لا ترجع أبدا إلى الوراء.. وستسحقه عجلة التطور الـتى لا تبقى ولا تذر(1).

التفت إلي، وقـال: هـل تـرى هـذه الحيـاة الـتي نعيشـها في وسط هذا الزحمة؟

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

قلت: نعم.. وأصـدقك القـول بـأن نفسـي تضـيق في هـذه المحال.

قال: نفسك تضيق، لأنه لا زال فيك بعض الفطرة.. أمـا أكـثر من تراهم، فقد انتكست فطرتهم.. فلذلك لا يحبـون إلا مثـل هـذه الأجواء المدنسة.

قلت: ولكن التطور اقتضى هذا؟

قال: أرأيت.. أنت نفسـك تقـع في وهم التطـور.. إن التطـور هو القنبلة التي ستلقينا في أودية الهلاك.

قلت: ألذلك أيضا علاقة بهذه الشجرة؟

قال: أجل.. هذه الشجرة التي قلعها دارون من غابة الإنسانية ليغرسها كما شاء له هواه في غابة الحيوانيـة صـارت عرضـة لكـل تبديل وتغيير..

جـاء مـاركس.. فقلـع من هـذه الشـجرة جـذور الروحانيـة والإيمان والتوجه للملأ الأعلى..

وجاء فرويد.. وقلع عن هذه الشجرة ثيابها، ليحيلهـا عاريـة، لا يسترها حياء، ولا تحفظها قيم..

وجـاء دركـايم، فأنشـأ نظريـة اجتماعيـة لتفسـير الظـواهر الاجتماعية بناها على حيوانية الإنسان، وغلبة نزعة القطيع الحيوانية عليه من جهة، وعلى انعدام الثبات فى القيم الاجتماعيـة من جهـة أخرى.. فقلع عن هذ الشجرة جميع أصولها التي تربطها بالإنسان.

وهكـذا ظـل المفكـرون الـذين يسـتوحون أفكـارهم من الشياطين، وظلت معهم الحكومـات الجبريـة، تضـع تعـديلاتها على شجرة الإنسان إلى أن حولتها إلى مسخ لا علاقة له بالإنسان.

قلت: فأنت يائس إذن من حياة شجرة الإنسان.

قال: لا.. لست يائسا.. ولو كنت يائسا، لما رأيتني أسقي هذه الشجرة، وأمسح آهاتها.

قلت: وما الذي دفعك إلى عدم اليـأس.. أتـراك ظفـرت بمن يعيد شجرة الإنسان إلى غابة الإنسان.

قال: أجل.. لقد وجدتـه.. لقـد نجح في الحفـاظ على شـجرة الإنسان طوال قرون عديدة، وترك لنا من التعاليم السامية ما يعيد الإنسان إلى فطرته وطبيعته التي جبل عليها.

قلت: من تقصد؟

قال: محمد..

قلت: نبي الإسلام!؟

قال: بل نبي الإنسان.. محمد هو النبي الوحيـد الـذي لا تـزال تعاليمـه هي العلاج الوحيـد للإنسـانية.. وهي الأمـل الوحيـد لعـودة الفطرة الإنسانية.

قلت: ما سر ذلك؟

قال: إن محمدا يتلقى معارفه عن الإنسـان، لا من عقلـه، ولا من تجاربه، ولا من بحوثه، بل يتلقاها من مصدر لعلـه هـو المصـدر الذي خلق الإنسـان.. ومن خلـق الإنسـان عـرف حقيقتـه، وعـرف حقوقه.

قلت: نحن الآن في عصر العلوم.. أترى مخابرنا التي وسـعت كل شيء ضاقت بمعرفة الإنسان.

قـال: أجـل.. لأن الإنسـان ليس مـادة جامـدة.. وليس شـيئا واحدا.. إنه في كل لحظة كيان جديد، بل هو في كل لحظة كيانـات كثيرة..

والأمر ليس قاصـرا على الفـرد.. بـل على المجمـوع.. فلكـل إنسان إنسانيته الخاصة التي تميزه عن غيره.

فهل يمكن لمخابرنا مهما دقت مقاييسها أن تضع كـل البشـر وفي كل لحظة من لحظات حياتهم في محك مخابرها؟

قلت: ذلك غير ممكن.

قال: فلذلك كانت معرفة حقيقة الإنسان انطلاقا من المخـابر غير ممكنة..

حقيقة الإنسان

قلت: فهل عرف محمد حقيقة الإنسان؟

قال: أجل.. لقـد تضـمن الكلام المقـدس الـذي تـنزل عليـه.. وتضمنت الكلمات العظيمة التي نطق بهـا حقيقـة الإنسـان.. وهي الحقيقة التي بنيت على أساسها حقوق الإنسان في الإسلام..

قلت: أراك تدمج كلامك عن الحقيقة بالحقوق.

قال: لأن الخطأ الذي وقع فيه قومنا هو فصـلهم بين الحقيقـة والحقوق.. أو هو انطلاقهم في سن الحقوق من معلومات خاطئة.

نظـر إلى الشـجرة، وقـال: هـذه الشـجرة.. إذا لم نعـرف حقيقتها ونوعها وجنسها وأصناف حاجاتها، فإننا لا يمكن أن نتعامـل معها معاملة صحيحة.. بل قد نسقيها سما، ونحن نتصوره دواء.

قلت: فحدثني عن تصور الإسلام لحقيقـة الإنسـان الـتي بـنى عليها تصوره لحقوقه.

قال: لقـد طفت المـذاهب.. وسـألت أربـاب الأفكـار.. وجلت على الحضـارات والأديـان أسـألها عن الإنسـان، فلم أجـده إلا عنـد محمد.

قلت: فماذا قال لك محمد؟

قال: لقد أخبرني القرآن المقدس الذي تنزل على محمد عن حقيقة الإنسان في مواضع كثيرة تجتمع جميعها في قصة خلق الإنسان.. ففي القرآن: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39)(البقرة)

إن هذه الآيات تجمع جميع الحقائق التي تفصل النظرة الإسلامية الإنسان عن جميع النظرات المدنسة بلوثات الأهواء:

العبودية:

لقد بدأت الآية الأولى بذكر الله رب الإنسان.. وذكر الخالقية.. وأن الإنسان مخلوق لله..

وهذه نقطة خلاف جوهرية بين الإسلام وجميع المذاهب المادية التي تسيطر على عقول بناة الحضارة الغربية وكل

الحضارات الجاهلية..

ذلك أن الإنسان يدرس في جميع العلوم الإنسانية بمعزل عن خالقه، كأنما هو قد خلق نفسه، أو كأنما وجد بغير موجد.. وقد ترتب على هذا ألا تكون للإنسان مرجعية خارج حدود ذاته، إنما يكون هو مرجع نفسه، فما يراه هو يكون هو الأصل وهو الصواب.. إنه بعبارة أفصح هو الإله.

لقد نشأ هذا الانحراف الخطير في مدارسنا ومعارفنا وعلومنا من التصورات الخاطئة التي كانت تحملها الكنيسة، وتفرضها على الناس..

لقد كان رد فعلنا تجاه طغيان الكنيسة منذ عصر النهضة هو التمرد على سلطان الكنيسة، والتمر على الله ذاته، وإقامة الإنسان نفسَه مرجعا بدلا من الله، وكانت هذه بداية العلوم الإنسانية.. أي العلوم التي يؤخذ العلم فيها من الإنسان، لا من خالق الإنسان.

لست الوحيد الذي يقرر هذا.. ولست الوحيد الذي اكتشف هذا.. لعلك قرأت كتاب (مبادئ الفلسفة) لـ (رايو برث)، لقد قال يتحدث عن عصر النهضة: (وامتاز هذا العصر بشعور الإنسان بشخصيته المطلقة، وبمعارضته للسلطة وذويها، وذهابه شوطا بعيدا في اعتبار العالم كله وطنا له.. وقد أعلت النهضة شأن الطبيعة الإنسانية والحياة الدنيوية، مخالفة في ذلك طريقة التفكير في القرون الوسطى، ولذلك يسمى العلماء الذين خصصوا أنفسهم لدراسة آداب اليونان والرومان والعلوم عند القدماء الإنسانيين.. وكان من خير ما أحدثه هؤلاء الإنسانيون نمو الفردية، أعني الرأي القائل بأن الإنسان ينبغي أن يفكر بنفسه لنفسه، وهو رأي كان قد أهمل في عصر عبودية العقل)[1]

1) رايو برث، مبادئ الفلسفة، ترجمة محمد أمين، طبع دار الكتاب العربي ببيروت، ص 119 – 120.

سأضرب لك نموذجا يوضح لك هذا.. يقول (جوليان هكسلي) في كتابه (الإنسان في العالم الحديث): (إن الإنسان قد خضع لله في الماضي بسبب عجزه وجهله، والآن ــ وقد تعلم وسيطر على البيئة ـ فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر العجز والجهل على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله)

ويقول في نفس الكتاب: (إن أسطورة بروميثيوس[1] ما تزال كامنة في كيان الأوربي الحديث توجهه على غير وعي منه، فالأوربي المعاصر هو بروميثيوس الحديث الذي يريد أن يضع نفسه في مكان الإله، وكلما تعلم، وزادت سيطرته على البيئة، ارتفع في حس نفسه درجة، وهبط الإله مقابل ذلك في حسه بنفس القدر، حتى إذا استطاع يوما أن يخلق الحياة انتهى الإله من حسه تماما، وأصبح هو الله)

التفت إلي، وقال: أرأيت مبلغ الخطر الذي وصلت إليه العلوم الإنسانية في عزلها الله عن خلق الإنسان..

قلت: هذا رجل مجنون لا ينبغي أن نقيس عليه، ولا أن نأخذ بقوله.

قال: كلهم مجانين.. كل من أخرج هذه الشجرة من غابتها

---

1) (بروميثيوس) كائن أسطورى كان الإله (زيوس) يستخدمة فى خلق الناس من الماء والطين، وقد أحس بالعطف نحو البشر، فسرق لهم النار المقدسة من السماء وأعطاها لهم. فعاقبه (زيوس) على ذلك بأن قيده بالسلاسل فى جبال القوقاز حيث وكل به نسر يرعى كبده طول النهار وتتجدد الكبد فى أثناء الليل، ليتجدد عذابه فى النهار.

ولكى ينتقم (زيوس) من وجود النار المقدسة بين أيدى البشر أرسل إليهم (باندورا) – أول كائن أنثى على وجه الأرض – ومعها صندوق يشتمل على كافة أنواع الشرور ليدمر الجنس البشرى.. فلما تزوجها (إيبيميثيوس) – أخو (بروميثيوس) – وتقبل منها هدية (الإله!) فتح الصندوق فانتشرت الشرور وملأت وجه الأرض.

وهذه الأسطورة ـ في الفكر الغربي ـ ترمز إلى طبيعة العلاقة بين البشر والله، فالنار المقدسة، نار (المعرفة) قد استولى عليها البشر سرقة واغتصاباً من الآلهة، ليعرفوا أسرار الكون والحياة، ويصبحوا آلهة! والآلهة تنتقم منهم فى وحشية وعنف، لتنفرد وحدها بالقوة، وتتفرد دونهم بالسلطان.. (انظر: منهج الفن الإسلامى، محمد قطب)

ليضعها في هذا المستنقع مجنون..

لم يكن هكسلي وحده هو الذي قال ذلك.. الكـل قـال ذلـك.. صرح أو كتم، يقول برنتون: (فالمذهب العقلي يتجه إلى إزالة اللـه ومـا فـوق الطبيعـة من الكـون، ومن الوجهـة التاريخيـة فـإن نمـو المعرفة العلمية، وازدياد الاستخدام البارع للأساليب العلمية يرتبط بشدة مع نمو الوضع العقلي نحو الكون)(1)

ويقول: (إن السببية تهدم كل مـا بنتـه الخرافـات والإلهامـات والمعتقدات الخاطئة في هذا العـالم (يقصـد المعتقـدات الدينيـة).. فالإلـه في عـرف نيـوتن أشـبه بصـانع السـاعة، ولكن صـانع هـذه الساعة الكونية ـ ونعني بها الكون ـ لم يلبث أن شـد على رباطهـا إلى الأبد، فبإمكانه أن يجعلها تعمـل حـتى الأبـد، أمـا الرجـال على هذه الأرض فقد صـممهم الإلـه كـأجزاء من آلتـه الضـخمة ليجـروا عليها، وإنه ليبدو أنـه ليس ثمـة ذاعٍ أو فائـدة من الصـلاة إلى الإلـه صانع هذه الساعة الكونية، الذي لاً يستطيع ـ إذا مـا أراد ـ التـدخل في شئون عمله)(2)

أرأيت هذا المجنون الثاني.. إنه يقر بإله.. ولكنـه يعزلـه.. ومـا جدوى إله معزول.

أتدري ما الذي أفضى إليه هذا القول؟

قلت: أنبئني.

قال: إن كـل اختلال حصـل في هـذه الحضـارة لم يحصـل إلا بسبب هذا الموقف من الإله.. إن عزلها الإنسان عن الله هو الـذي جعلها تسقط في أحضان الشيطان.. وهي سائرة خلـف خطـاه لن ينقذها إلا هدي محمد.

---

1) جرين برنتون، منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبد الرحمن مراد ص 27.

2) جرين برنتون، منشأ الفكر الحديث، ترجمة عبد الرحمن مراد ص 151.

قلت: لم؟

قال: لأنه يستمد من المنبع الذي نبع منه الإنسان.

قلت: إن كان ذلك بسبب إخباره بأن الإنسـان مخلـوق خلقـه الله.. فهو مما تتفق عليـه جميـع الأديـان.. بـل إن قـوم محمـد من المشركين كانوا يقولون ذلك، فقـد ذكـرهم القـرآن، فقـال: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)(الزخرف)

قـال: ليس ذلـك فقـط مـا أقصـده.. إن هـؤلاء المشـركين، ومثلهم كل الأديان التي تحمل تصورات خاطئة عن رب الإنسـان لا تساهم إلا في زيادة خطأ معرفة الإنسان بنفسـه، وبالتـالي الخطـأ في كل ما يرتبط به.

التفت إلي، وقـال: فلنفـرض أنـه أتيحت لـك طاقـة كهربائيـة تستطيع أن تستخدمها في مجالات شتى، فهل يكون سلوكا علميا سليما أن تقول: لا يهمني مصدر هذه الطاقـة، ولن أشـغل نفسـي بمحاولة التعـرف على هـذا المصـدر، إنمـا الـذي يعنيـني هـو هـذه الطاقـة ذاتهـا، وطريقـة اسـتخدامها، والمجـالات الـتي يمكن أن تستخدم فيها!؟

قلت: ربما أقول هذا.. وربما يقول هذا أكثر الناس.

قال: إن هذا قد يستقيم لو أن هذه الطاقة كانت تجـري على منوال واحد، وبحسب ما تشتهي.. لكنها إذا فاجأتك كل مرة بـأمور لا تستطيع تفسيرها، ومن ثم لا تستطيع أن تستخدمها على الوجـه الأمثل، فمرة تجدها متدفقة ومرة تراها منحسرة بغير سبب ظاهر لك.. مرة تنير، ومرة تحرق.. مرة تزيد من حيويتك، ومرة تعرضـك للهلاك..

ألا ترى أن التعرف على المصدر، وطبيعته، وطريقـة تصـريفه لهذه الطاقة، سيعينك على فهم تلك الظـواهر الـتي لا تفسـير لهـا

عنـدك، ويعينـك ذلـك على اسـتخدام تلـك الطاقـة في أحسـن أوضاعها!؟

قلت: أجل.. ذلك صحيح.. بل إني في تلـك الحالـة لا أسـتغني عن معرفة مصدرها.

قـال: أرأيت لـو بحثت.. ولكنـك سـقطت على معلم جاهـل، فدلك على معلومات خاطئة تتعلق بمصدر الطاقة؟

قلت: حينها لا يختلف الأمر.. بل قد أقع في دواهي لا تقل عن الدواهي التي كنت أمر بها قبل أن أتعرف عليه.

قال: فقد عـرفت إذن أهميـة المصـدر الصـحيح في السـلوك الصحيح.

قلت: فهـل جـاء محمـد بالمعلومـات الصـحيحة عن مصـدر الإنسان؟

قال: أجل.. فالله ـ في التصور الإسلامي ــ لا ينحصـر في أنـه هو مصدر الوجود البشري وخالقه، وإنما هو إلى جانب ذلك المنعم المتفضل.. الـرزاق ذو القـوة المـتين.. المـدبر لأمـر الوجـود كلـه.. الفعال لما يريد.. يقول القـرآن في صـفة اللـه: ﴿ هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُـوَ بِكُـلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الحديـد:3) وهـو الـذي ﴿ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ﴾ (البقـرة:28).. و﴿ هُـوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُـوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (24)﴾(الحشر).. و﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (4)﴾(الإخلاص)

ولله في التصور الإسلامي سنن في التعامـل مـع خلقـه.. هي

بمثابة القوانين التي تنظم حياتهم كما تنظم حياة جميع الوجود.

فالبذخ المـادي.. والـترف المعيشـي الـذي نتصـوره حضـارة، ونقيس الأمم على أساسه لا يعني شـيئا بالنسـبة للسـنن الإلهيـة.. ذلك أنه قد يكون نوعا من التخمة القاتلة، أو من السمن الكاذب:

ففي القرآن: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَـا عَلَيْهِمْ أَبْـوَابَ كُـلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَـةً فَـإِذَا هُمْ مُبْلِسُـونَ (44)(الأنعام)

وتوزيع الأرزاق بين الناس ومثلهـا المـواهب فضـل من فضـل الله يدعو إلى التواضع والعبوديـة.. لا الكـبر والبطـر، ففي القـرآن: نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَـا بَعْضَـهُمْ فَـوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً (الزخرف:32)

وهذا التفضيل المؤقت.. أو المرتبـط ببعض الجـوانب لا يعـني التفضـيل المطلـق.. فـالقرآن ينكـر تلـك التصـورات الـتي تجعـل الإنسان يقيس غيره بمقدار ما عنـده من ثـروة: فَأَمَّا الإِنسَـانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَـانَنِ (16) كَلاَّ بَـل لا تُكْرِمُـونَ الْيَتِيمَ (17)(الفجر)

ولهـذا.. فـإن النظـرة الإسـلامية للإنسـان في غايـة السـمو والرفعة.. لأنها تستمد قوانينهـا وسـننها من المنبـع الـذي جـاء منـه الإنسان.. لا من العقول التي أوحت لها الشياطين بزخـرف القـول لتشغل الإنسان عن الإنسان.

فتلك العقول التي تـدرس الإنسـان بمعـزل عن خالقـه، وعن السنن الربانية التي تحكم حياته، تتيـه في المعيـار الـذي تقيس بـه تصرفاته، وتتيه في المعيار الذي تقيس به إنجازاته..

وتتيـه بحسـب ذلـك فيمن تعتـبره مرتفعـا راقيـا، ومن الـذي

نعتبره منتكسا هابطا.. أم الكل سواء.

وتتيه في التصرفات.. أيها تعتبره خيرا.. وأيها تعتبره شرا.. أم لا خير ولا شر..

وتتيه في الإنجازات.. أيها تعتبره صالحا.. وأيها نعتبره فاسـدا.. أم يستوي الأمران في الميزان.

من هنا تتخبط النظريات، وتتخبـط التفاسـير الـتي تحـاول أن تفسر السلوك البشري والحياة البشرية، ما بين مبدأ اللــذة والألم، ومبدأ النفعية، ومبدأ نسبية القيم؛ وما بين التفسير المادي للتـاريخ، والتفسير اللبرالي ؛ وما بين الغاية التي تـبرر الوسـيلة، واللاغائيـة، والعدمية، والفوضوية، والوجودية.. وكلها مـذاهب، وكلهـا تفاسـير.. وكلها لا تزيد الإنسان إلا بعدا عن الإنسان.

الازدواج:

قلت: وعيت هذا.. وأدركت أهميته.. فـأنبئني عمـا فهمتـه من ذلك النص القرآني من موقف الإسلام من الإنسان.

قال: في ذلك النص يبين القرآن أركان الإنسان.. فهـو قبضـة من طين الأرض، ونفخة من روح الله.. وهما مترابطان متماسـكان متفاعلان، يتكون منهما معا كيان موحد[1].

هذا الكيان ليس قبضـة طين خالصـة، كمـا كـان قبـل النفخـة العلوية فيه.. وليس روحا خالصة طليقة من قبضة الطين.. إنما هو الأمران معا فى وحدة مترابطة تختلف فى خصائصها اختلافا جذريا عن قبضة الطين الخالصة، ونفخة الروح الخالصة، وإن كانت تحمل بين الحين والحين بعض أوجــه الشــبه من هــذه وتلــك، حين تجنح جنوحا شديدا نحو عالم الجسد أو عالم الروح، ولكنها حتى فى تلك الحالات لا تكون مماثلة أبدا لأي من العنصرين منفصلين.

---

1) الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب، بتصرف.

فالإنسان فى لحظة الشهوة الجامحـة غـير المنضـبطة يكـون أقرب إلى قبضة الطين، لأنه يتعامل بجسده أكثر من أى جانب من جوانبه، ومع ذلك لا يكون أبـدا جسـدا خالصـا كـالحيوان، لأن فيـه ـ على الأقل ـ قدرا من الوعي والإرادة والاختيار حتى فى هذا العمل اللاصق بـالطين، بينمـا الحيـوان لا يعمـل بـوعى ولا إرادة حـرة ولا اختيار.

وفى لحظة التوجه الـروحي الـراقي يكـون أقـرب إلى نفخـة الروح، لأنه ينطلق بروحه من إطـار الحس المحـدود، ومـع ذلـك لا يكون أبـدا روحـا خالصـة كالملائكـة، لأن لـه جسـدا لا يسـتطيع أن يتخلص من وجوده، وعقلا لا يكف تماما عن التفكير.

هذا هو الإنسان كما يفسره الإسـلام بعنصـريه المكـونين لـه: قبضة الطين، ونفخة الروح.

والخطأ الذي وقعت فيه كـل الحضـارات والمـذاهب والأديـان هو محاولتها تفسير الإنسان بعنصر واحد من عنصريه دون الآخــر.. وهذا هو الخطأ الأكبر الذي تسللت منه سائر الأخطاء..

فالحضارة المادية التي تأسست على المـذاهب الماديـة تـبرز جانب الجسد، وجانب الحس، وجانب المادة، فإذا أخـذت شـيئا من النفخة العلوية أخذت جانب العقـل وأبت جـانب الـروح، وسـخرت العقــل ــ من ثم ــ فى شـهوات الجسـد ومطـالب الحس وعـالم المـادة، ففقـد علويتـه ورفعتـه، وأسـف مـع قبضـة الطين، وأنشـأ عمارة مادية للأرض خالية من إشراقة الروح.

والمذاهب الروحية تبرز جانب الروح، وتهمـل الجسـد وتكبتـه وتقهره وتحتقره وتقوم بتعذيبه من أجـل رفعـة الـروح، كمـا تفعـل الهندوكية والرهبانية، كما أنها تهمل عالم الحس وعـالم المـادة، فلا يقوم الإنسان بعمارة الأرض، ولا يقاتل الشر والطغيـان، ولا يجاهـد لإقامة الحق والعدل، اكتفاء بلذة الفناء فى عالم الروح، الـتى يتم

من خلالها الوجود(1).

الآدمية:

قلت: وعيت هذا.. وعـرفت أهميتـه.. فمـا فهمت من القـرآن من تميز التصور الإسلامي للإنسان.

قال: الآدمية.. لقد ورد في الآيـات الـتي تلوتهـا عليـك أن أول البشر هو آدم.. وآدم لم يكن من عائلة الشمبانزي.. بل هو مخلوق بالأصالة.. لقد أراد الله القادر على كـل شـيء أن يخلـق الإنسـان، فخلق الإنسان، وكان أول إنسان هو آدم.

ولهذا نرى القـرآن يـذكر البشـر بـأبيهم الـذي ينتسـبون إليـه، ففيه: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُـلِّ مَسْـجِدٍ وَكُلُـوا وَاشْـرَبُوا وَلا تُسْـرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْـرِفِينَ (31)﴾(الأعـراف).. وفيـه:﴿ يَـا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّـيْطَانُ كَمَـا أَخْـرَجَ أَبَـوَيْكُمْ مِنْ الْجَنَّةِ يَـنزِعُ عَنْهُمَـا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُـهُ مِنْ حَيْثُ لا تَـرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ (27)﴾(الأعراف)

قلت: أراك تشتد ككثير من المسلمين في إنكار هذا.. مع أني لا أرى فيه من المبالغة ما ترى.. اللهم إلا ما أدى إليه استغلال هذه النظرية، وتحميلها ما لا تحتمل.

قـال: لا.. هـذا من أصـول الأخطـاء، وليس من فروعهـا.. فالداروينية التي تقول بأن الإنسان لم يخلق إنسانا من أول لحظة، إنما هو تطور عن كائن آخر هو القرد الشـبيه بالإنسـان، والمتطـور بدوره عن أحد القردة العليا الأربع: الشمبانزي والغـوريللا والأورانج أوتانج والجيبون، وأنه مر في تطـوره بمراحـل عـدة، كـان يقـترب فيها في كل مرة من وضعه الحالي.. فكان في مبدأ أمـره يمشـي على أربع، وينتصب قائمـا أحيانـا كمـا تفعـل القـردة العليـا، ثم زاد انتصاب قامته حين أخذ يأكل من ثمار الأشجار، فأصـبح رأسـه من

1) انظر: الإسلام ومشكلات الحضارة، سيد قطب.

ثم يرتكز على الجذع أكثر مما يكون معلقا في الفضاء، فأتيح لمخه أن يكبر، فتكلم وتعلم، ورويدا رويدا على مـدى من الـزمن لا يكـاد يحصى أصبح هو الإنسان..

هذه النظرية لا تهتم بالإنسان.. كمـا ذكـره القـرآن.. باعتبـاره أصلا قائما بذاته، وإنما تهتم بالخيوط التي يشترك فيها الإنسان مـع الحيـوان.. لتقـول للإنسـان: أنت بسـبب هـذه الخيـوط حيـوان لا إنسان.

ففي هذه النظرية جرى التركيز على الخصائص الجديدة التي يكتسبها الكائن المتطور، لا على السمات الـتي يشـترك فيهـا مـع الكائنات السابقة عليه، التي لم تسر على خط التطور مثله.

فهناك مثلا ـ بحسب النظرية ـ كائن ليس لـه جهـاز سـمعي، تلاه في التطـور كـائن يشـبهه في كثـير من الخصـائص، ولكنـه اكتسب جهازا سمعيا لم يكن موجودا في الكائنـات المشـابهة لـه، السابقة عليه، والتي تطـور عنهـا.. فعنـد الحـديث عن هـذا الكـائن يكون التركيز على هذه الحاسة الجديـدة الـتي اكتسـبها والأطـوار التي مرت بها حتى اكتملت في وضـعها النهـائي.. وكـذلك لـو كـان الكـائن قـد اكتسـب جهـازا بصـريا أو جهـازا للطـيران، أو جهـازا لتنظيم الدورة الدموية.. مما لم يكن لأقرانه الذين تطور عنهم.

وكان مقتضى ذلك بالنسبة للإنسان أن يكون التركيز على مـا تفرد به الإنسان عن أشباهه من الكائنات السابقة عليه، التي تطور عنها، لا على أوجه الشبه بينه وبين تلك الكائنات.. وذلـك كلـه على فـرض صـحة الفرضـية من أساسـها.. ولكن الـذي جـرى على يـد داروين كـان هـو التركـيز على أوجـه الشـبه بين الإنسـان والقـردة العليا (مع افتراض وجود حلقـة مفقـودة بينهمـا) أكـثر من التركـيز على ما تفرد به الإنسان.. أي ـ بعبارة أخرى ـ التركيز على حيوانيـة الإنسان، وليس على إنسانيته.

لقد حاولت الداروينية الحديثة سدّ هذا الخلل في تطبيق النظرية بالنسبة للإنسان، فكتب جوليان هكسلي، وهو من عمد الداروينية الحديثة كتابا سماه (الإنسان في العالم الحديث) بدأه بفصل طويل بعنوان تفرد الإنسان، ذكر فيه أن المعلومات التي بنى عليها داروين نظريته كانت ناقصة، وأن العلم الحديث كشف عن جوانب كثيرة من تفرد الإنسان لم تكن معلومة لداروين، وجاء في هذا الفصل قوله: (وبعد نظرية داروين لم يعد الإنسان مستطيعا تجنب اعتبار نفسه حيوانا، لكنه بدأ يرى نفسه حيوانا غريبا جدا، وفي حالات كثيرة لا مثيل له. ولا يزال تحايل تفرد الإنسان من الناحية البيولوجية غير تام)

وجاء فيه: (وهكذا وضع علم الحياة الإنسان في مركز مماثل لما أنعم به عليه كسيد المخلوقات كما تقول الأديان).. وفيه: (وأخيرا، فإن الإنسان لا مثيل له بين الحيوانات الراقية في طريقة تطوره)(1)

ولكن على الرغم من هذه المحاولة من جانب الداروينية الحديثة ما زال الإنسان ـ في أذهان الناس جميعا ـ حيوانا.. وما زال التركيز على الجانب البيولوجي من كيانه، ولا ذكر على الإطلاق للجانب الروحي من الإنسان.

إن السخرية بالإنسان تصل بالداروينية حدها حين تقصر تطور في الإنسان في عقله وإبهامه.

عقله تطور حين تعود الإنسان ـ أو الكائن الشبيه بالإنسان ـ على الوقوف منتصبا لفترات طويلة ليأكل من ثمار الشجر، فارتكز رأسه على الجذع، فأتيح للمخ أن يكبر، فتعلم وتكلم.

وإبهامه تطور (ولا أدري لماذا!) فصار يحسن الإمساك بالأشياء، فاستخدم الأدوات، ثم سعى إلى تحسينها، فصارت له

1) جوليان هكسلي، الإنسان في العالم الحديث، مقتطفات من ص 3 – ص 9.

حضارة.. وصار له تاريخ.

وفيما عدا هذين.. بقي الإنسان حيوانا..كان وما يزال.

قلت: ألم ير هؤلاء الأغبياء الإنجازات الحضارية العظيمة الـتي قـام بهـا الإنسـان دون سـائر الحيوانـات؟.. ألم يكن في هـذا مـا يكفيهم ليصدهم عن وساوسهم تجاه حقيقتهم؟

ابتسم، وقال: لم يصعب عليهم أن يجدوا حلا لذلك..

لقد ذكروا أن الإنسان حيوان.. كان وما يزال.. تطـور منـه مـا تطور، ولكنه لم يخرج من حيوانيته.

وما دامت أهداف ومشاغل الحيوان تنحصر في صراع البقـاء، والاستمتاع، المتمثـل في الطعـام والشـراب والجنس.. فـإن هـذه نفس مشاغل الإنسان وأهدافه.

والفـرق بينهمـا.. بين الإنسـان المتطـور، والحيـوان.. هـو أن الحيوان يقوم بهذين الأمـرين بـدافع الغريـزة، بغـير وعي منـه لمـا يفعل، ولا وعي منه بأنه يقوم بما يقـوم بـه من أعمـال وتصـرفات لتحقيق هذين الهدفين الرئيسيين في حياته.

أما الحيوان المتطور الذي هو الإنسان، فقـد اكتسـب الـوعي حين كبر مخه نتيجة انتصاب قامته، فلم تعد كل أعماله غريزية، بل حتى الغريزي منها صار يمارسه بوعي، يبدأ بـإدراك الرغبـة وينتهي إلى تحقيقهـا مـرورا بـالبحث عن الوسـائل الماديـة إلى إشـباعها.. ولكن الأهداف تبقى هي الأهداف.. وهي صراع البقاء والاستمتاع.

أما الحيـوان، فهـو يسـتخدم قوتـه العضـلية ليأخـذ مكانـه في صراع البقـاء، وليحصـل على ضـروراته، وأحيانـا يسـتخدم الحيلـة، ولكن بوحي الغريزة، وفي نطاقها.

وأما الحيوان المتطور فهـو ــ إلى جـانب عضـلاته ــ يسـتخدم

الأداة المستجدة التي اكتسبها في تطوره، وهي العقل، وكلما ارتقى صار استخدامه للعقل أوسع مدى وأكثر فاعلية، وذلك فضلا عما يتيحه له التطور الآخر ـ تطور إبهامه ــ من استخدام أدوات لا حصر لها لتحقيق أهدافه.

وأما الاستمتاع فقد ارتقى كذلك مع الحيوان المتطور، باستخدام التطورين الرئيسيين في كيانه، فدخل فيه العقل على نطاق واسع، يستجد فيه كل حين لونا جديدا من ألوان الاستمتاع، ويستخدم في سبيل ذلك مزيدا من الأدوات يخترعها العقل، وتستخدمها اليد ذات الإبهام المتطور.

ونشأ من ذلك التطور الحضارة..

فالحضارة بهذا هي حصيلة سعى الإنسان لإثبات ذاته في صراع البقاء، وسعيه إلى الاستمتاع من جانب آخر..

فسعيه إلى إثبات ذاته في صراع البقاء يتمثل في القوة الحربية، والقوة السياسية، والقوة العلمية، والقوة الاقتصادية.

وسعيه إلى الاستمتاع يتمثل في الفن بمحتلف أنواعه إلى جانب المتاع الحسي المباشر بما يلبي نداء الشهوات..

وهذه ـ بشقيها ـ هي معايير إنجازاته.

فالأمم تقاس بالقوة الحربية والقوة السياسية والقوة العلمية والقوة الاقتصادية التي تمكنها من البقاء في حومة الصراع، وتكفل لها ـ كلما تمكنت ــ سحق القوى الأخرى أو التغلب عليها ــ كما تقاس كذلك بتعدد الفنون التي تستخدمها من أجل الاستمتاع.

ويكون هذا هو المعيار التاريخي، والاجتماعي، الذي تقاس به عظمة الأمم خلال التاريخ.

أما القيم النبيلة ـ من نشر العدل وإزالة الظلم ونشر الخير،

وإشـراك النـاس في الخـير بـدافع الإنسـانية بصـرف النظـر عن المنفعة، والتعاون على البر والتقوى ـ فلا وجـود لهـا في ظـل هـذا التصور.. إنها مجرد كلام جميل يتحدث عـه المتحـدثون، وشـعارات يرفعونها، ولكنها عند الجد لا تؤخذ مأخذ الجد، لأنه لا مكان لها عنـد الحيوان الأصلي، ولا مكان لها كذلك عند الحيوان المتطور.

الخلافة:

قلت: وعيت هذا.. فهل هذا وحده تصـور الإسـلام عن حقيقـة الإنسان؟

قال: لا.. كل ما ذكرته لك مقدمات عن حقيقة الإنسان.

إن الإنسان ككل شـيء في هـذا الوجـود خلـق لغايـة يؤديهـا، وحكمة هي التي تحدد وظيفتـه، ثم تحـدد بعـد ذلـك الحقـوق الـتي يستدعيها توفير الجو لأدائه لوظيفته.

قلت: تقصد واجبات الإنسان.

قال: أجل.. فمن الخطـأ أن نتحـدث عن حقـوق الإنسـان، ولا نتحدث عن واجبات الإنسان.

قلت: الحضارة الحديثة.. بـل كـل حضـارة.. طـوقت الإنسـان بكثير من الواجبات.. في مقابل ما تعطيه من حقوق.

قال: نظـرة الإسـلام للحقـوق والواجبـات تختلـف كثـيرة عن نظرة هذه الحضارة.. وعن نظـرة كـل حضـارة.. وكـل دين.. وكـل فكر.

قلت: فما هي هذه النظرة؟

قال: الإسلام يعتبر الإنسان خليفة.. والآيـات الـتي قرأتهـا لـك تحدد هذه الوظيفة الكبرى التي تفسر سر وجود الإنسان على هذه الأرض، وتفسر سر الطاقات التي منحت له.

لقد قدم القرآن لقصة خلق آدم هذه المقدمة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾(البقرة:30)

وبما أن الخلافة تتضمن الهيمنة والسيطرة والقدرة على الإنشاء والتعمير والقدرة على التمييز والاختيار.. فقد أمد الله الإنسان بالأدوات الصالحة للخلافة..

وفي القرآن ذكر لهذه الأدوات.. والتي هي أول الحقوق التي تستدعيها وظيفة الخلافة: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا.. ﴾(البقرة:31).. ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾(العلق).. ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (78)﴾ (النحل).. ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (8) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد).. ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾(الشمس).. ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(هود:61).. ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾(الجاثية:13).. ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾(الملك:15)

هذه أول الحقوق التي نالها الإنسان بفضل الله.. لا بفضل التطور.. ولا بفضل الصراع كما تدعي جميع النظريات البشريات.. إنما هي مواهب إلهية زود بها الإنسان ليستطيع أن يؤدي الوظيفة الخطيرة التي وكلت إليه.

قلت: لا أزال حائرا في معنى الخلافة.. وفي علاقة حقيقة الإنسان بها.. وفي علاقة حقوق الإنسان بها.

قال: الإنسان في التصور الإسلامي مخلوق كريم لغاية رفيعة.. هو لم يخلق كما تتوهم الفلسفات ليأكل ويشرب ويسيطر.. ويمارس من أنواع المتع ما يغذي الفراغ الذي تعاني

منه روحه، وإنما خلق ليكون خليفة.. يتـولى إدارة الأرض وعمارتهـا وتطويرها.. وبما أنه خليفة فإن ذلك يقتضي أمـورا.. على أساسـها تنبني حقيقة الإنسان وحقوقه(1):

أولها.. انتماء الجماعة البشرية إلى محور واحد هو اللـه، بـدلاً من كل الانتماءات الأخرى، والايمان بسيد واحد للكـون.. وهـذا هـو التوحيد الخالص الذي قام عليه الإسلام.

والثـاني.. إقامـة العلاقـة الاجتماعيـة على أسـاس العبوديـة المخلصة لله، وتحرير الإنسـان من عبوديـات الأسـماء الـتي تمثـل ألوان الاستغلال والجهل والطاغوت.

والثـالث.. تجسـيد روح الأخـوة العامـة في كـل العلاقـات الاجتماعية بعد محو ألوان الاستغلال والتسلط، فما دام الله تعـالى واحداً ولا سيادة إلاّ له، والنـاس جميعـاً عبـاده ومتسـاوون بالنسـبة إليه، فمن الطبيعي أن يكونوا اخوة متكافئين في الكرامة الإنسانيّة والحقوق.

والرابـع.. الخلافـة اسـتئمان، والأمانـة تفـترض المسـؤولية والاحساس بالواجب، اذ بدون ادراك الكـائن انّـه مسـؤول لا يمكن أن ينهض بأعباء الامانة أو يختار لممارسة دور الخلافة.

والإنسان بهذا المفهوم الذي جـاء بـه الإسـلام للخلافـة خـارج عن أي نوع من أنواع التبعية لأي قوّة اجتماعيـة أيـاً كـانت، بـل هـو خاضع لله وحده.. فلا قمية لنسب ولا لون ولا وطن ولا قومية.. ولا أي شيء من هذه الأشياء التي قام عليها التناحر بها بين البشر.

والخلافـة بهـذا الشـكل حركـة دائبـة نحـو قيم الخـير والعـدل والقوّة.. حركة لا توقف فيها لأنها متجهة نحـو المطلـق، وأي هـدف آخر للحركة سوى المطلق سـوف يكـون هـدفاً محـدوداً، وبالتـالي سوف يجمد الحركة ويوقف عملية النمو.

---

1) انظر: خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء، الشهيد آية الله الصدر، ص 11 ـ 12.

قلت: فما الفرق بين هذا الفهم الذي جـاء بـه الإسـلام.. وبين سائر المذاهب والأفكار؟

قال: الفروق عظيمة لا يمكن حصـرها.. سأضـرب لـك أمثلـة عنها لتدرك سمو التصور الإسلامي، وانحطاط سائر التصورات.

الإسلام يعتبر الإنسان.. كـل إنسـان.. خليفـة للـه.. أي انتمـاء الإنسان الأول لله، فهو الذي خلقه.. ومنه يسـتمد وجـوده، ورزقـه، وإليه يتوجه بالعبادة والدعاء.

وهـذا الانتمـاء يجعلـه يمحـو من خـاطره وسـلوكه كـل تلـك الانتمـاءات الضـيقة الـتي تمليهـا عليهـا حـدود المكـان والزمـان والمصالح.

ولهذا.. فهو يشعر بأخوة تنتظم جميع الكون.. ولا تنحصــر في البقع الضيقة التي ولد فيها، أو انتسب إليها.

قارن هـذا المفهـوم الـذي ينطلـق من قولـه تعـالى: يَـا أَيُّهَـا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13) (الحجرات) بجميع المفاهيم العنصرية التي تفوح من الأديان والمذاهب والحضارات..

إن القوميات والشعوب والقبائل والآباء والأنساب التي ابتعـد بها الإنسان عن الانتماء لله.. كما يعنيه مفهوم الخلاقـة.. هـو الـذي صدر مع صداه الضارب في أحقاب التاريخ أكـثر الحـروب، وأبشـع العصبيات، وأرذل الجرائم الإنسانية.

فعنـدما انطلــق الرومــان من أرضــهم الخصــبة، ومعيشــتهم الميسرة، وفلسفتهم وأساطيرهم لم يكونوا يحملون مـع جيوشـهم الجرارة من فضل حضارة وإنسانية، ليساهموا في رفعـة الإنسـان، بل كان زادهم الوحيد، وهاجسهم الوحيـد، ودافعهم الوحيـد هـو أن يعرفوا العالم الذي نعتوه بالبربرية من هـو الإنسـان الرومـاني وأي

دماء تسري في عروقه.

وعندما أباد خلفهم من الأوروبـيين سـكان أمريكـا وأسـتراليا، واسـتعبدوا سـكان إفريقيـا واسـتعمروا سـكان آسـيا لم يكونـوا يشـعرون بـأي ألم، وهم يسـتغلون الأرض، ويستسـخرون البشـر، ويمصون دماءهم، لأنهم كـانوا يعتقـدون، بـل قـد يصـرحون، بـأنهم الجنس السـامي، والإنسـان الممتـاز، الإنسـان الـذي يجـوز لـه أن يستغل من دونه كما يستغل سائر البشر النبات والحيوان.

ومرت حقبة على البشرية تصوروا أنهم تخلصوا من العبوديـة والاسـتعمار، وأن الإنسـان تـرقى ليمحـو آثـار الشـعوبية والقبليـة والعرقية، وأن العـالم يتجـه نحـو الإنسـان المفصـول عن أعراقـه، ولكن الأخبار التي تبث كل يوم، بل كل ساعة تكذب كل هذا.

فـالآلاف يموتـون في أنحـاء العـالم بجريمـة من جـرائم ذلـك الإنسان الأشقر، فلا يلتفت العالم لهم، ولا يترحم عليهم، ولا يعـزي ذويهم في مصـابهم، لأن المـوت هـو المصـير الحقيقي لهم، وهـو الخاتمة السعيدة لمأساة وجودهم، فإذا ما جرح فرد من أفراد ذلك الجنس المتميز انتهض البشر جميعا لمداواة جراحـه، وإذا مـا فقـد انتهضـوا جميعـا للبحث عنـه، فـإذا مـات تحولـوا جميعـا معـزين ومواسين، والويل لمن لم يفعل كل ذلك، أو بعض ذلك.

هذه الشعوبية والقبلية والعرقية هي التي وقفت قـديما حـائلا بين الشعوب واتباع أنبيائها، وهي التي تقـف حاليـا بين هـذا العـالم الذي يدعي معرفة كل شيء، ويتصور أنـه حقـق كـل شـيء، وبين الالتفـات للبحث عن التفسـير الصـحيح للكـون، والبحث الجـاد عن حقيقة الإنسان.

التفت إلي، وقـال: هـذا مثـال واحـد عن أثـر الـوعي بحقيقـة الخلافـة في تقـويم سـلوك الإنسـان والجماعـات.. وهـو مثـال لم يكتمل نضجه إلى على أيدي محمد.

الخلود:

قلت: وعيت هذا.. فهل هذا وحده تصـور الإسـلام عن حقيقـة الإنسان؟

قال: لا.. إن هناك شيئا عظيما.. بل هو أكسـير لم يـأت بـه إلا محمد.. وهو الذي يضع للحيـاة طعمهـا الجميـل.. وهـو الـذي ينفي الصراع الذي يتوهمه الغافلون.

قلت: ما هو؟

قال: الخلود.

قلت: ما الخلود؟

قال: ألا ترى البشرية تتنازع وتتصارع من أجل البقاء؟

قلت: بلى.. وقد ولد ذلك الاستعمار والحروب الكثيرة الـتي لا نزال نرى آثارها.

قال: إن سر ذلك كله يكمن في عدم الإيمان بخلود الإنسان.. فلذلك تجده يلهث ليملأ ذلك الفراغ العظيم الذي تمتلئ به نفسه.

قلت: وهل أوجد الإسلام ما يملأ به ذلك الفراغ؟

قال: أجل.. لقد ذكر الإسلام للإنسان أنـه خالـد.. وأن المـوت مجرد مرحلة يمر بهـا كمـا يمـر بمرحلـة الجـنين.. وأنـه بعـد موتـه سيعيش الحياة الحقيقية التي هي نتيجة لحياته الدنيا..

إن هذا التصور الذي ذكره القرآن.. وجاء به الإسلام.. بصـورة لا نظير لها في جميع الأديان والمـذاهب.. هـو الحـل الوحيـد الـذي يقضي على ذلك الفراغ العظيم الذي يجعل هم الإنسـان محصـورا في الصراع والاستمتاع.

ولكن أولئـك الـدجالين الـذين وقفـوا يملأون عقـول البشـر

بـأهوائهم اجتهـدوا جهـدهم لينفـوا هـذا.. فلهـذا لا تـرى في جميـع الدراسات الغربية التي اهتمت بالإنسان رعاية هذا البعد.

فجميع الدراسات تدرس الإنسان باعتباره يعيش حياتـه الـدنيا وحدها، ولا معاد له في الآخرة، وبذلك اختلت الموازين تماما.

فاعتبار الحياة الدنيا هي المبدأ والنهايـة يـؤثر تـأثيرا بالغـا في رؤيـة الإنسـان للأشـياء، ليس فقـط من الناحيـة الاعتقاديـة، ولكن كذلك من الناحية السلوكية والعملية والعلمية.

فحين يكـون أمامـك منظـر متكامـل تعـرف مبـدأه ومنتهـاه، وتستطيع أن تعـرف مكـان كـل جزئيـة فيـه، ودلالتهـا في المنظـر المتكامل، ثم تقتطع جزءا من المنظر، وتقول: يكفيني هذا الجــزء، ولست بحاجة إلى باقيه! هل يكون سلوكك عقلانيا؟.. وهل يكــون واقعيا؟.. وهل تحصل على نتائج علمية صحيحة؟!

إن إدراك الدلالــة الخاصــة لكــل جزئيــة في الصــورة يرتبــط ارتباطا وثيقا بالرؤية الشاملة للكل المتكامل المتمثل في الصورة، أما في القطاع الذي تقتطعه ـ أيا كان حجمه ـ فكيف تأخذ الجزئيـة دلالتها؟ وكيف تتكامل النظرة؟ فإذا كان الجزء الـذي اقتطعتـه هـو الأصغر، والمتروك هو الأكبر، فأي خلل يمكن أن ينشـأ في الرؤيـة، وإلى أي مدى تفقد الجزئيات دلالتها؟!

والعلوم الاجتماعيـة الـتي نشـأت وترعـرعت في الغـرب في ظل الصراع الحاد مع الكنيسة ودين الكنيسة ألغت اليوم الآخر من حســابها تمامــا، على أنــه غيبيــات لا تخضــع للبحث العلمي، وميتافيزيقيـا ضـارة ومعوّقـة عن التقـدم العلمي والعمـراني، فلا ينبغي الاهتمام يها والالتفات إليها، ونشأ من ذلـك اختلال هائـل في رؤية القيم والأهداف.

فحين يعيش الإنسان للدنيا وحدها، ويعتقد أن مـا يجنيـه فيهـا من خير أو شر هو الحصية النهائيـة لجهـده، وألا بعث ولا نشـور ولا

حساب ولا جزاء في الآخرة، فكيف تكون قيمه، وكيف تكون أهدافه؟

إنه بذلك، سيركز على الهدفين الرئيسيين للحيوان: الغلبة في صراع البقاء، والاستمتاع، وإن كانت أدواته لتحقيق كل من الهدفين هي أدوات الحيوان المتطور، أي باستخدام العقل، واستخدام العدد والآلات.

ولأجل هذا يبرز مثل هذا الشعار (القوة هي الحق) ويكون قانون التعامل بين التجمعات البشرية بعضها وبعض هو قانون الغاب: القوي يأكل الضعيف أو ينحيه من الطريق، بصرف النظر عما هو حق وما هو عدوان.

وإن كان الكلام الحلو الذي تعلمه الحيوان المتطور حين أتيح لمخه أن يكبر، يفيض رقة وعذوبة وهو يتكلم عن التعاون الدولي، وعن الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الآخرين ولا ينفي هذا أن تكون هناك أخلاقيات في السياسة والاجتماع، وعلاقات الناس بعضهم وبعض في داخل كل تجمع على حدة، قائم على رابطة الدم أو العصبية القومية، ولكنها ـ باعترافهم ـ أخلاقيات نفعية، يتواضعون عليها لتقليل الاحتكاك في التجمع الواحد إلى أقصى حد ممكن، وتوجيه العدوان إلى الآخرين، ثم لينال كل إنسان حظه من الاستمتاع الحيواني بأقل قدر من المنغصات.. وحتى هذه الأخلاقيات ـ كما يقول دركايم ـ دائمة التقلب لا تثبت على حال.

حقوق الإنسان

قلت: وعيت حقيقة الإنسان كما يصورها القرآن.. وكما تصورها مذاهب البشر وأفكارهم، فما الحقوق التي تتطلبها هذه الحقيقة؟

قال: فما هي الحقوق التي تتصورها أنت؟

قلت: ثلاث: الحرية.. والإخاء.. والمساواة.. وهي الحقوق التي جاءت بها الثورة الفرنسية..

قال: وما الثورة الفرنسية؟

قلت: تلك التي أعلنت حقوق الإنسان.

قال: وأعلنت معها عقوق الإنسان..

قلت: ما تقول؟

قال: سأحكي لك القصة من أولها لتعلم أنه بقدر الحقوق التي تصور الإنسان أنه نالها في هذه الثورة بقدر الضرائب الضخمة التي دفعها.

نظر إلى الشجرة الجاثية أمامنا بحزن، ثم قال: لقد قام أولئك الثوار المساكين بقلع شجرة الإنسان قلعا شديدا ممتلئا بالفوضى، فقطعوا عروقها، وسملوا أعين أوراقها، ثم ملأوها بالصور التي شاءت لهم أهواؤهم أن تحجب أشعة الشمس عنها، ثم أحضروا مياه المستنقعات، فسقوها بها، فامتلأت بالأدواء.

قلت: كيف حصل كل ذلك؟

قال: في ذلك اليوم الذي اختلط فيه البغض بالحب.. والحقوق بالعقوق.. قام الثوار الذين انفجر بهم الظلم الاجتماعي، وقام معهم المفسدون في الأرض(1)، إلى الثورة..

---

1) يدعى اليهود في تبجح وغرور أنهم صناع الثورة الفرنسية ومدبروها، تقول البروتوكولات المنسوبة لهم:(تذكروا الثورة الفرنسية التي نسميها الكبرى.. إن أسرار تنظيمها التمهيدي معروفة لنا جيداً لأنها من صنع أيدينا)

وتقول:(كذلك كنا قديماً أول من صاح في الناس (الحرية والمساواة والإخاء) كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين ببغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر) (البروتوكولات:103،111)

وقد أيدهم في دعواهم هذه بعض الكتاب من أمثال وليم كار في (أحجار على رقعة الشطرنج) وسبيريدوفيتش في (حكومة العالم الخفية) (انظر أحجار على رقعة الشطرنج:فصل الثورة الفرنسية.وحكومة العالم الخفية:79)

لقد كان النظام الاجتماعي الذي هيمن على الحياة الأوروبية طيلة القرون الوسطى هو نظام (الإقطاع) [1].. وربما كان هذا النظام أبشع النظم الاجتماعية في التاريخ [2].

وقد كان من رحمة الله بأمة محمد أنه لم يكن فيها هذا النوع من النظم.. ذلك أن سياسة المال التي اتسم بها الإسلام، كانت تمنع ظهور الإقطاع.

والأخطر من ذلك.. ولعله هو الذي جر الثورة الفرنسية إلى ذلك الانحلال أو ذلك الاستغلال السيء لمبادئها هو أن الكنيسة كانت أكبر الملاك الإقطاعيين، فلذلك وقفت ضد الثورة، بدل أن تتولاها وتحميها وترشدها.

إن الكنيسة ـ التي حكمت أوروبا طيلة عصورها المظلمة ـ لم تكتف بصد الناس عن نور الإسلام، بل ناقضت تعاليم الإنجيل الداعية إلى المحبة والتسامح ونافست الأمراء الإقطاعيين في إذلال الشعوب وقهرها.

لقد برر القديس توما الاكويني نظام الاسترقاق الإقطاعي

ويدل لهذا أن اليهود تغلغلوا في منظمات الثورة المختلفة كالجمعية التأسيسية ونادي اليعاقبة وبلدية باريس، ولهذا استطاعوا أن ينفثوا تلك الشعارات التي رددتها الجماهير ببلاهة لا سيما شعار الثورة البارز (الحرية والإخاء والمساواة)، فهذا الشعار الذي قامت عليه الثورة وحققته كان له عند اليهود تفسير آخر:

فهم يقصدون بالحرية تحطيم القيود الأخلاقية والتقاليد الموروثة التي تحول بينهم وبين إفساد الأمم وتدميرها.

ويقصدون بالإخاء والمساواة كسر الحواجز النفسية والاجتماعية التي تحول بينهم وبين الانسلال إلى أجهزة الدولة وتنظيماتها، وإذابة الفوارق الدينية بينهم وبين غيرهم كى تزول عنهم وصمة الاحتقار والمهانة.

وهكذا نجحوا في تحويل الثورة من ثورة على مظالم رجال الدين نفسه وجعلوا لفظة الدين عند الشعوب الأوربية مرادفة للظلم والرجعية والتخلف والاستبداد.

1) سنتحدث عن هذا النوع من النظم في فصل (نظام) من هذه الرسالة.

2) انظر: العلمانية، لسفر الحوالى، وغيره من المراجع السابق ذكرها.

بقوله: (إنه نتيجة لخطيئة آدم)[1] وكأن رجال الكنيسة والبارونات ليسوا من بني آدم.. ولهذا لم تكن تلك الثورة في حقيقة أمرها تمرداً على الكنيسة، لأنها كنيسة، وإنما كان ذلك لأنها مالك إقطاعي.

يقول ويلز: (كانت ثورة الشعب على الكنيسة دينية ...فلم يكن اعتراضهم على قوة الكنيسة، بل على مساوئها ونواحي الضعف فيها، وكانت حركات تمردهم على الكنيسة حركات لا يقصد بها الفكاك من الرقابة، بل طلب رقابة دينية أتم وأوفي ... وقد اعترضوا على البابا لا لأنه الرأس الديني للعالم المسيحي، بل لأنه لم يكن كذلك، أي لأنه كان أميراً ثرياً دنيوياً، بينما كان يجب أن يكون قائدهم الروحي)[2]

بسبب هذا.. ولدت لأول مرة في تاريخ أوروبا المسيحية دولة جمهورية لا دينية تقوم فلسفتها على الحكم باسم الشعب، وعلى حرية التدين بدلاً من الكثلكة، وعلى الحرية الشخصية بدلاً من التقيد بالأخلاق الدينية، وعلى دستور وضعي بدلا من قرارات الكنيسة.

ونتج عن هذا أن حلت الجمعيات الدينية، وسرح الرهبان والراهبات، وصودرت أموال الكنيسة، وألغيت كل امتيازاتها.

وكان ذلك كله يمكن أن يتم باعتدال.. لولا أن الثورة الغوغائية لا يمكن أن تحصد الاعتدال..

والأخطر من ذلك كله أن القائمين على الثورة والناشرين لها أو الذين تربوا في أحضانها ومهدها انطلقوا من الثورة.. ولم ينطلقوا من العلم.. فوقعوا في أخطاء لا تقل عن الأخطاء التي ثاروا عليها.

---

1) قصة الحضارة:14/406.

2) معالم تاريخ الإنسانية:3/989.

لقد كان من أخطر ما ولدت الثورة.. وأخطـر من ولـدها تلـك الأفكـار الـتي سـميت أفكـارا تنويريـة مـع أنهـا كـانت تحـوي من الظلمات ما لا يقل عن الظلمات التي أرادت رفعها.

فمن المدارس الـتي ظهـرت.. والـتي طبعت الحيـاة العقديـة والسـلوكية والاجتماعيـة.. وحـاولت أن تفسـر حقيقـة الإنسـان، وتستنتج منهـا حقوقـه مدرسـة الكتـاب الموسـوعيين الـذين كتبـوا دائرة المعارف بزعامة (ديدرو)، وكانوا كما يقـول ويلـز: (يناصـبون الأديان عداوة عمياء)

ومنها مدرسـة (روسـو)، وهي مدرسـة ذات طـابع اجتمـاعي وسياسي، وروسو هو صاحب كتاب (العقد الاجتماعي) الذي أطلق عليـه (إنجيـل الثـورة الفرنسـية).. ومن أعمـدة هـذه المدرسـة (مونتسيكو) صاحب (روح القوانين)

ومن كتابات هؤلاء استلهم زعماء الثورة مبادئهم واقتباساتهم.

والغرض من فكرة العقد الاجتماعي واضح للعيان فهي تهدف إلى اسـتبدال (لمصـلحة الاجتماعيـة) أو الرابطـة النفعيـة للأفـراد بالأخلاق والنظم الدينية، لتحل عبادة المجتمـع ممثلاً في الـوطن أو القوم محل عبادة الله، وذلك ما نادت به الثورة حرفياً.

وروسو لم يكن ــ في الحقيقـة ــ صـاحب هـذه الفكـرة.. بـل سبقه إليها الفلاسفة المثاليون في المدن الفاضلة ففي (جمهوريـة أفلاطون) و(اليوتوبيا) لتوماس مور، و(مدينـة الشـمس) لكامبـانيلا، وكلها نماذج واضحة للحيـاة اللادينيـة الـتي تقـوم على أسـاس من التفاهم والوفاق المجرد بين الأفراد، وهو ما عبر عنه روسو بالعقـد الاجتماعي، إلا أنه أضاف إلى هذا النموذج مـا اقتبسـه من (هـوبز) و(ميكافيلي) اللـذين غلبـا جـانب الشـر لـدى الإنسـان على الخـير، لذلك كان روسو هداماً أكثر منه فيلسوفاً.

ومن تلك المـدارس مدرسـة الـدين الطـبيعي، وهي مدرسـة

ذات طابع فلسفي هدام، وقد سـبق الفلاسـفة العقلانيـون غـيرهم في بحث علاقة الفرد بالدولة والمناداة بمجتمع ينفصل فيـه الـدين عن الدولة، وكانت فكرتهم اللادينية أوسع ممـا تصـوره ميكـافيلي، لأن الدين نفسه عندهم يجب أن يلغى ليحل محله (الدين الطـبيعي أو القانون الطبيعي)

وربمـا كـان الفيلسـوف (سـبينوزا) رائـد الفكـرة العلمانيـة باعتبارها منهجاً للحياة، فهو يقـول في كتابـه (رسـالة في اللاهـوت والسياسة): (ومن الخطورة على الدين وعلى الدولة على السـواء إعطاء من يقومون بشؤون الدين الحـق في إصـدار القـرارات أيـا كانت أو التدخل في شؤون الدولة، وعلى العكس يكون الاسـتقرار أعظم إذا اقتصـــروا على الإجابـــة على الأســـئلة المقدمـــة إليهم والتزموا في أثناء ذلك بالتراث القديم الأكثر يقيناً والأوسع قبولاً بين الناس)(1)

وهكذا بتـأثير هـذا الفكـر اللاديـني جسـمت الثـورة الفرنسـية الفكـرة الفلسـفية القديمـة بإقامـة مجتمـع يـرفض القيم والأخلاق الدينية، ويجعـل العلاقـات النفعيـة المحضـة هي الربـاط المقـدس الوحيد.

قلت: فهــل تتصــور تلــك الجمــاهير البســيطة من الفلاحين والعمال الذين قهوهم الإقطاع قد قـرأوا أفكـار روسـو، وانتقـادات فولتير، ليقوموا بالثورة؟

قال: ربما لم يقرأوا.. ولكنهم قد قرأوا الواقع.. قـرأو مخـازي الكرادلة والقساوسة وفضائحهم وثراءهم البازخ.. ورأو بـأعينهم مـا عبر عنه توماس جفرسن بقوله: (إن القسـيس في كـل بلـد، وفي كل عصر من أعداء الحرية، وهو دائماً حليف الحاكم المستبد يعينـه على سيئاته في نظير حمايته لسيئاته هو الآخر)(2)

---

1) رسالة في اللاهوت والسياسة، ص:426.

2) أفكار ورجال:502.

وكان كل ذلك مدعاة لأن تصب الجماهير جام غضبها على الكنيسة، وتصرخ خلف (ميرابو): (اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس)

قلت: أرانا انشغلنا بالحديث عن الثورة الفرنسية عن حقوق الإنسان.

قال: لا.. لم ننشغل.. لابد أن نفهم كل هذا حتى نعي معنى حقوق الإنسان التي نادت بها الثورة الفرنسية، والتي اعتبرت بعد ذلك دستورا لحقوق الإنسان.. فلا يمكن مقارنة ما جاء به الإسلام إلا بعد أن نعرف ما جاءت به هذه الثورة التي زعم لها أنها أول من نادى بحقوق الإنسان.

قلت: أنا إلى الآن لم أعرف كيف دخلت فكرة حقوق الإنسان إلى الثورة الفرنسية..

قال: لا يزال ذلك لغزا.. أو قريبا من اللغز.. ذلك أن تلك الجماهير كان يمكن ككل الثورات أن تكتفي بالإنجازات البسيطة.. ولكنها لم تكتف بذلك.

لم تكتف الثورة بمصادرة أملاك الكنيسة.. أو القضاء على نفوذها.. لتظل بعد ذلك مؤمنة بدينها، وفيه لتاريخها، متمسكة بتقاليدها العريقة، لولا أنه وجد عامل آخر قلب أهداف الثورة وحول خط سيرها.

فعندما اندفعت الجموع الغوغائية لهدم الباستيل، وهو رمز العبودية والاستبداد لم تكن ترفع سوى شعار واحد هو (الخبز)، والخبز وحده.

لكنها ما إن بدأت في قطف أولى نتائج ثورتها حتى وجدت نفسها تهتف بشعار (الحرية المساواة الإخاء)، وهو شعار لقنته تلقيناً.. كما لقنت شعار (لتسقط الرجعية)، وهي كلمة ملتوية

تعني الدين.

وعندما بدأت المقصلة في تطبيق تلك الشعارات كان الضحايا يقدمون على مذبحها بحجة واحدة هي أنهم من أعداء الشعب، مع أنه كان بينهم من يعرف الشعب براءته، ودهش الشعب حين كان يرى من يقرأ بيان القتل اليوم باسم الشعب، يقدم هو نفسه غدا إلى المقصلة باسم الشعب أيضاً.

قلت: كيف هذا.. هل ترى الثورة فشلت في تحقيق أهدافها؟

قال: بل انحرفت عن أهدافها..

لقد تولى مفسدون كثيرون رعاية الثورة وتوجيهها.. فلذلك انحرفت ذلك الانحراف الخطير.. وانحرفت معها حقوق الإنسان انحرافا لا نزال نعاني منه.

قلت: ما هو هذا الانحراف؟

قال: عزل الدين عن الحياة.. وعزل حقيقة الإنسان عن حقوقه.

قلت: فهل تحدثني عن آثار ذلك؟

قال: سأحدثك عن بعض آثار ذلك، لتكتشف الزور الذي تحتوي عليه أكذوبة حقوق الإنسان التي جاءت بها الثورة الفرنسية، وأعلنتها القوانين العالمية.

الحرية:

قلت: فلنبدأ حديثنا بالحرية..

نظر إلى الشجرة بعمق، ثم قال: هل ترى هذه الشجرة المسكينة التي تتنفس السموم، وترضع من المستنقعات.

قلت: ما بها؟

قال: هذه هي نهاية الحرية الـتي نـادى بهـا أولئـك الشـياطين الذين اعتلوا عرش البشرية.

قلت: إن ما تقوله خطير جدا.

قال: وصادق جدا.. الحرية التي يريدها أولئـك الشـياطين هي أن تتمرد هذه الشجرة على جميع الغابة الـتي ولـدت في أحضـانها لتشرب غير الماء الـذي تشـربه، وتأكـل من غـير الكلأ الـذي تأكـل منه.

إن أول ما فعلتـه تلـك الثـورة الـتي أعلنت الحريـة أن بـترت الإنسان عن الإنسان، لأنها تصورته قيدا يكبت حرية الإنسان.

وقد بدأت ذلك بتحريره من الله.. أو بعزل الله عن حياته.

ثم كان الانقلاب الصناعى(1) الذى أتى على بقية مـا كـان من بنيان.. لقد أحدث هذا الانقلاب تغيراً كاملاً فى صورة المجتمع.. فى كل شىء فيه..

وكــان عــاملاً من أهم العوامــل فى التركــيز على (فرديــة) الإنسان..

لقــد جــاء العمــال من الريــف فــرادى.. غــير متعــارفين ولا مترابطين، وسـكنوا فى المدينـة كـذلك فـرادى.. لا يلتقـون إلا فى زمالة العمل وحده، ولكن لا تقوم بينهم الروابط الـتى كـانت تقـوم بين الفلاح وأخيـه فى الريـف، حيث النـاس متعـارفون، متعـاونون، تـربطهم القرابـة والمصـاهرة والجـوار ودوام الاتصـال.. والتقاليـد المشـتركة الـتى توحـد كيـانهم من الـداخل فيلتقـون متعـارفين بالمشاعر والأفكار.

بل إنهم جاءوا كذلك فرادى بلا أسر.. فقـد كـان الجيـل الأول من العمال النازحين من الريف يتحسسـون الطريـق فى المدينـة،

1) انظر كتب سيد قطب ومحمد قطب، خصوصا (مذاهب فكرية معاصرة).

فلا يحضـرون معهم أسـرهم حـتى يطمئنـوا أولاً إلى الجـو الـذى يعيشون فيه، وكان معظمهم من الشبان العزاب الذين لم يرتبطوا بعد برباط الزواج..

وهكذا أحس كل إنسـان فى المدينـة بفرديتـه المتمـيزة أكـثر مما أحس بالرباط الجمعى..

ثم عملت المرأة.. وأحست كذلك بفرديتها وحريتها..

لقد كـانت من قبـل هملاً لا وجـود لـه ولا كيـان ولا اسـتقلال، مجرد تابع للرجل، تعيش عن طريقـه اقتصـادياً واجتماعيـاً ونفسـياً وفكرياً.. وكل شىء.. فلما اشتغلت حدث فى نفسها انقلاب، وصار فى يـدها مـال تملكـه ملكـاً حقيقيـاً، مباشـراً، كـاملاً، تسـتطيع أن تتصرف فيه كما تشاء.

وتعـاملت ــ بشخصـها مباشـرة ــ مـع المجتمـع، فى المصـنع والمتجر والطريق..

وتعاملت مع الرجل ـ أو بدأت ــ إن لم يكن على أنهـا نـد لـه، فعلى الأقل على أنها لم تعـد ذلـك التـابع الـذى لا كيـان لـه، وإنمـا صــارت كائنــاً يحــاول أن يصــل إلى مســتوى الرجــل وينازعــه السلطان..

وفى كل ذلك برزت فرديتها التى لم يكن لها وجود من قبل..

واشتغل الأطفال كذلك.. وبرزت ـ رويداً رويداً ـ لهؤلاء الصغار فردية متميزة، يكتسبونها من عرك العمل لهم منذ طفولتهم، ومن العملة القليلة التى تتحصل فى أيديهم..

وهكذا صار الجميع أفراداً متميزى الفردية.. تحرر بعضـهم من بعض..

قلت: ومـا الخطـر في ذلـك.. إن الحيـاة لا تسـتقيم إلا بهـذه

الفردية..

قال: ولكن الفردية التي ولدت في ذلك الوقت كانت انحرافـا خطيرا.. ذلك أنها ولدت في ظل الجاهلية المنحرفة..

لقد ذاق هؤلاء جميعاً فرديتهم المستقلة (المتحـررة) من غـير طريقها السوى، الـذى كـان يضـمن لهم ــ مـع الإحسـاس بالذاتيـة المتمـيزة ــ توازنـاً فى الإحسـاس بـالحقوق والتبعـات، والحريـة والالتزام.

فسكان المدينة الجدد كانوا ـ رويداً رويداً ـ قومـاً يتحللـون من الـدين والأخلاق والتقاليـد، بتـأثير الانتقـال من الكبت العـنيف فى الريف إلى (حريـة) المدينـة وبحبحتهـا، وبتـأثير الانسـلاخ التـدريجى الـدائم من الـدين، وبتـأثير التفسـير الحيـوانى للإنسـان الـذى بثتـه الداروينية فى النفوس؛ وبتأثير التفسير الجنسى للسلوك الذى بثـه فرويد؛ وبتـأثير وجـود الشـباب الفـاره القـوة بلا أسـر تعصـمه من الخطيئة، فيلجأ إلى الحل الرخيص الذى تقدمه المدينـة فى صـورة بغاء..

والمرأة ـ وهى تحس رويداً رويداً بفرديتها ـ كانت تستقى هذه الفردية على انحراف، فهى خارجـة من حالـة انعـدام الكيـان.. فى كل شىء.

فلما أحست بذاتيتها أخذت تناضل لتحطيم كل قيـد.. لازمـاً أو غــير لازم.. وأخــذت بالــذات تســعى إلى تحطيم الــدين والأخلاق والتقاليد لأنها استخدمت ضـدها فى معركـة (التحـرر).. اسـتخدمها الرجل ليصدها عن منافسته، بينما كان هـو فى واقـع حياتـه متحللاً من الدين والأخلاق والتقاليد.

وحدث عند هذا انحلال مدمر شنيع..

لقد تحطمت روابط المجتمع، وروابـط الأسـرة، وفسـد كيـان

الرجل والمرأة كليهما.. فلم يعودا رجلاً وامرأة كما خلقهما الله.

أما الرجل ـ وقد فقد روابطه الاجتماعية وضـعفت فى نفسـه روابط الأسرة وروابط الرجولة ذاتها ـ فقد أصـبح شـيئاً أقـرب إلى الآلة منه إلى الإنسان.. آلة منتجة، ولكنهـا لا تكـاد تفكـر أو تحس.. وإنما تعيش الحياة لحظة لحظة، بلا هدف شامل ولا وعى بإنسانية الإنسـان.. ثم إذا فـرغ من الإنتـاج المـادى الـذى يكبت كيانـه الحى ويطمس إشعاعه الروح فيه ـ بسبب الأسلوب الآلى الذى يؤدى بـه العمل ـ انطلق فى حيوانية هابطة يشبع دوافـع الحيـوان.. وتتحـول فى نظـره إلى هـذين الهـدفين القريـبين: إنتـاج كالآلـة.. وانطلاق كالحيوان.

قلت: وعيت هـذا.. بـل إني أرى هـذا بعيـني، وأتـألم لـه كمـا تتألم.. بل إنه في كل يوم يظهر شذوذ جديد من هذا العالم الحـر.. ويطالب الجميع بقبوله، لأنه مظهر من مظاهر الحريـة.. ومن ينكـر ذلك يعتبر من محـور الشـر الـذي ينبغي أن يحـارب ويبـاد لتحفـظ الحرية في العالم.

قال: أما الإسلام.. دين الحريـة الحقيقيـة.. فقـد بـنى مفهـوم الحرية على أسس صحيحة تخدم الفـرد، وتخـدم المجتمـع.. وتقيم عمـارة الأرض الـتي لا تسـتقيم إلا بالحريـة المنضـبطة بضـوابط المسؤولية.

قلت: لقـد ذكـرت لي أن حقـوق في الإسـلام تنطلـق من تصوره لحقيقته.

قـال: أجـل.. ولـذلك فـإن الحريـة في الإسـلام تنطلـق من الخصائص التي عرف بها الإسلام الإنسان.. وأولها العبودية لله..

قلت: إن قومنا من دعاة الحرية يعتبرون هذا من القيود الـتي تمنع انطلاقة الحرية..

قال: لا.. إن العبودية لله، والتي تعني الانقيـاد التـام والطاعـة الكاملة لله هي التي تحرر الإنسان من كافة العبوديات والانقيـادات والتبعات لأية جهة أخرى.

وهـذا مـا يكشـف عن التحـرر الحقيقي للانسـان من كافـة الأغلال والقيود التي طالمـا كبلت إرادتـه وفكـره وجسـمه وروحـه وحتى عواطفه خلال مسيرته الحافلة بالعناء.

فالعبودية للـه تعـني أسـمى أنـواع الحريـة الـتي لم يحلم بهـا الإنسـان، ولم يتصـورها أبـداً، وهـو يصـارع ألـوان العبوديـات الـتي سلبت منه نعمة الحرية والحياة الآمنة والعيش الهانىء.

إن العبودية للـه تحـرر الإنسـان من كـل القيـود.. لا من قيـود الظلم والامتهـان والاسـتعباد والآلهـة المـزورة فحسـب، وانمـا من قيود النفس وأهوائها الجامحة ونزعاتها الجنونية.

وذلك ما يتيح للانسان شق طريقه بشـكل أفضـل وأداء دوره بالصورة المطلوبة.

ولئن كـانت الحريـة في الحضـارات الغربيـة تبـدأ من التحـرر لتنتهي إلى ألوان من العبوديـة والأغلال، فـإن الحريـة الرحيبـة في الإسلام على العكس.. لأنها تبدأ من العبوديـة المخلصـة للـه تعـالى لتنتهي إلى التحرر من كل اشكال العبودية المهينة(1).

قلت: ولكن الـذين ثـاروا في الثـورة الفرنسـية ثـاروا على الكنيسة التي ترمز للعبودية لله.

قال: لا.. لم تكن الكنيسة في يـوم من الأيـام ترمـز للعبوديـة لله.. لقد قال القرآن في الانحراف الخطير الذي آلت إليه: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَـرْيَمَ وَمَـا أُمِـرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:31)

1) الاضواء، العدد 2، مقالة للشهيد آية الله الصدر.

أنت تعلم ما فعلـه رجـال ديننـا متـذرعين بمـا أعطي لهم من سلطة المنح والمنع، والغفران والحرمان، والإدخال في رحمة الله، والطرد منها، لأن المسـيح قـال لبعض تلاميـذه: سـأعطيك مفـاتيح ملكوت السموات، فكل ما ربطته على الأرض يكـون مربوطـا في السموات، وكل ما حللته على الأرض يكون محلولا في السموات.

أما الإسلام فليس فيه هذا النوع من العبودية..

الإسـلام يـأمر بالعبوديـة الـتي تتوجـه للـه وحـده من دون أي وسائط.. ولذلك فإن هذه العبوديـة هي عين الحريـة.. فهي تحـرره من أي قيد فكـري أو سياسـي أواجتمـاعي أونفسـي.. وغيرهـا من القيود التي تحاول فرضها عليه الافكار والعقائـد والتقاليـد والقـوى التي لاتمت إلى الله بصلة ﴿ قُـلْ يَـا أَهْـلَ الْكِتَـابِ تَعَـالَوْا إِلَى كَلِمَـةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْـرِكَ بِـهِ شَـيْئاً وَلا يَتَّخِـذَ بَعْضُـنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:64)

وانطلاقا من هذه العبودية الجميلة التي يعيشها الفرد المؤمن كما تعيشـها الجماعـة المؤمنـة يتحـرك المـؤمن في الحيـاة طبقـاً لمرضاة من توجه إليه بالعبودية..

فالمسـلم مطـالب بتحقيـق مرضـاة اللـه، والبحث عنهـا في التكاليف التي كلف بها..

قلت: أليس هذا قيدا للحرية؟

قـال: أرأيت لـو أن طبيبـا نهـاك عمـا يضـرك، أو أمـرك بمـا ينفعك، ثم فعلت ما طلبـه منـك عن رضـا تـام.. وطواعيـة محبـة.. أكان ذلك قيدا؟

قلت: لا.. فالطواعية تتنافى مع القيد.

قال: فهكذا العبودية التي أمـر بهـا الإسـلام، والـتي يقـوم بهـا

المؤمن، ففيها وصفان يزيلان عنها ما نتوهمه من قيود:

أما أولهما، فكونها لا يمكن أن تتحقق إلا بالرضى التام والطواعية التامة.. ولهذا يربط الإسلام بين العبادة والمحبة.. فالعبادة التزام من قلب ممتلئ بحب الله.. قلب يشعر أنه ليس في الوجود من هو أجدر من الله بأن يحب، والإسلام بمصادره المقدسة يعمق في المؤمنين هذه المحبة.. فهو يصف الله بأنه صاحب الفضل والإحسان، الذي خلق الإنسان ولم يكن شيئا مذكورا، وخلق له ما في الأرض جميعا، وأسبع عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وخلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، وكرمه وفضله على كثير من خلقه، ورزقه من الطيبات، وعلمه البيان، واستخلفه في الأرض، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته.

فإذا امتلأ المؤمن بهذه المحبة مارس العبودية ـ بجميع أنواعها ـ برضا وتلذذ وطواعية..

وأما الثاني.. فهو أن هذه العبودية التي يمارسها المؤمن عن طواعية تامة لم يقصد منها إلا مصالحه.. والمصالح بالمفهوم الإسلامي تشمل مصالح الدنيا، ومصالح الآخرة.

ولهذا.. فإن النصوص المقدسة تربط بين طاعة الله والمصالح..

قلت: إن قومنا يقصدون بالحرية حرية الرأي.. وهو ما أتاحته الديمقراطية الحديثة؟

قال: تقصد ديمقراطية المشاغبين؟

قلت: ما تقول؟

قال: أرأيت لو كنت معلما.. وكان لك تلاميذ.. وكان أكثرهم مشاغبين لا علاقة لهم بالعلم، ولا اهتمام لهم به.. وراحوا يطالبونك بانتخابات تحدد لهم الدروس التي يقرؤونها، والمنهج الذي تدرسهم

به.. أترى هذا الأسلوب نافعا لهم؟

قلت: لا أراه مجديا معهم.. فهم سيرمون جميع الـدروس في سلة المهملات.. وسيجعلون من المدرسة ملعبا لأهوائهم وشغبهم.

قـال: فهكـذا هـذه الديمقراطيـة المزيفـة.. إنهـا تـتيح للص والمجرم والقاتل والمنحرف من الأصوات ما تتيحه للمفكر والعالم والعبقري.

وهي مع ذلك لا تتيح لهم إلا حرية محـدودة في أطـر رسـمتها (1).. فالمتتبع لواقع حرية الرأي في الفكر الغربي يجدها قد قيـدت بقيدين: أولهما سيطرة الاحتكارات الرأسمالية الكبرى على وسائل الإعلام، وقـدرتها على توجيـه الإعلام، والتحكم في مصـادر الأخبـار والمعلومات.. وثانيهما تلـك القيـود المثـيرة الـتي تفرضـها الدولـة، بحجة عدم الاعتداء على حريـات الآخـرين، والمحافظـة على الأمن الداخلي، والتي غالباً ما تسـتخدم كذريعـة للحـد من قـدرة الأفـراد على التعبير عن آرائهم.

قلت: والإسلام.. لقد سمعت أنه يكبت حرية الرأي!؟

قال: هو يكبت حرية الرأي الذي يريد أن يخـرب المجتمـع، أو يفتت وحدته، أو يحول وجهته عن الله الذي خلقه..

أما الـرأي الـذي يكـون نصـحا أو نقـدا بنـاء.. فـإن الإسـلام لا يكتفي باعتباره حقا.. بل يعتبره واجبـا على الكـل.. وهـو لا يسـميه رأيا.. بل يسميه نصيحة، ويشرع له من الأخلاق ما يضـعه في قمـة قمم الأدب.

قلت: وعيت هذا.. ولكن الإسلام يقمع حرية المعتقد.

قال: الإسلام ينهى عن الإكراه في الـدين.. ولا يجـيز لأحـد أن

(1) انظر: د. محمد مفتي/ د. سـامي الوكيـل، الحريـة السياسـية الغربيـة وحـق إبـداء الرأي في التصور الإسلامي.

يكره أحد على أي اعتقاد.

قلت: لا أقصد هذا.. ولكني أقصد أمـره بقتـل المرتـد.. أليس ذلك إكراها[1]؟

قـال: لا.. النصـوص المقدسـة للمسـلمين لم تـذكر قتـل المرتدين.. لقد قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أجد فيـه آيـة واحدة تأمر بقتل المرتد.. لم أجد فيـه إلا التحـذير من مصـيره في الآخرة.

اسمع مثلا إلى هـذه الآيـة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّـالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَـرُوا وَمَـاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِـهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (91)﴾ [آل عمران: 90-91]

إنهـا واضـحة في كونهـا لا تفـرض أي عقوبـة على المرتـد إلا العقوبة الأخروي.

وقد مارس بعض اليهود هذا في عهد النبوة، كما ذكر القـرآن: ﴿ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آَمِنُـوا بِالَّذِي أُنْـزِلَ عَلَى الَّذِينَ آَمَنُـوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آَخِـرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُـونَ (72)﴾(آل عمـران)، ومـع ذلك لم يتقل محمد واحدا منهم بسبب ذلك.

سكت قليلا، ثم قال: الإسلام لا يتوجـه بالعقوبـة إلا للمحـارب المفسـد الـذي لا هـدف لـه إلا تخـريب المجتمـع، وتفـتيت وحـدة المسـلمين، وخـرق صـفوفهم.. أمـا المرتـد الـذي يحتفـظ بردتـه لنفسه، ويحتفظ بكفره لنفسه، فلا يتدخل الإسلام في اختياره.. بل إن محمدا كان يرى المنافقين ويعلم أسـماءهم.. ولم يقتـل واحـدا منهم.

ثم التفت إلي، وقال: أنا أتعجب من المسيحيين الذين يقولون هـذا.. ألم يقـرأو مـا كتبـه القـديس (أوغسـتان) إلى الكـونت

1) رددنا على هذه الشبهة في (عدالة للعالمين) من هذه السلسلة.

(بونيفـاس) يشـير عليـه باسـتعمال القـوة لـردع أهـل البـدع من المسـيحيين، وردهم إلى النصـرانية، وقـد مثلهم في كتابـه ببغـال تعض وترفس من يعالجها من مرضها، والذي يعالجهـا مضـطر إلى إيلامها؛ ليستطيع أن يضمد جراحها، ومثّلهم بالطفل الصغير الذي لا تتيسر تربيته بغير الحوط والعقاب، وقال: إن القسـوة العادلـة هي التي تأتيها كنيسة المسيح ضد الكافرين، لكن القسوة الظالمة هي التي يستعملها الكافرون ضد كنيسة المسيح.

الإخاء:

قلت: لقد حدثتني عن الحرية.. فحدثني عن الإخاء.

قال: أأحدثك عن الإخاء الذي علمته الثـورة الفرنسـية للثـوار الذين قاموا بها، أم عن الإخاء الذي جاء به الإسلام؟

قلت: حدثتني عن كليهما.

قال: أول مظهر من مظاهر الإخاء الـذي علمتنـا إياهـا الثـورة الفرنســية هــو الاســتعمار والنهب والســيطرة على حقــوق المستضعفين، ثم قتلهم بعد ذلك.

لاشك أنك تعرف نابليون.. وتعرف رحلته إلى مصر.

قلت: أجل.. في تلك الرحلة أعلنت مصر بداية التحضر.

قال: وفي تلك الرحلة أعلنت الثورة الفرنسية ومعهـا الغـرب جميعا بداية الانحطاط.

سأذكر لك حادثة واحدة تبين لـك معـنى الأخـوة كمـا تفهمهـا شعوبنا، وكما يفهمها قادتنا.

لقد واجه الإحتلال الفرنسي عـدة ثـورات وانتفاضـات شـعبية خلال الســنوات الثلاث الــتي هيمن فيهــا على مصــر.. وفي 21 تشــرين الأول 1798، أي بعــد ثلاثــة أشــهر فقــط من دخــول

الفرنسيين، نشـبت ثـورة بـدأها شـيخ أزهـري خـرج إلى الأسـواق ينادي: أن كل مـؤمن موحـد باللـه عليـه بجـامع الأزهـر، لأن اليـوم ينبغي لنا أن نغازي الكفار.

وصارت الأصوات ترتفع من فـوق المـآذن والسـطوح العاليـة تــدعو المســلمين للجهــاد، فتجمعت الجمــاهير حاملــة البنــادق والأسلحة، وبدأ الناس بمهاجمة الجنـود الفرنسـيين، كمـا هـوجمت دار العلوم والمستشفى العسكري.

في ذلـك الحين، أمـر نـابليون بتوجيـه المـدافع المصـوبة في القلعة صوب الجامع الأزهر وما حوله من الدور والأسـواق، وبـدأت بدك المباني بالقنابل، فأثارت الرعب فهرب الناس من المكان.

وفي المساء أحاط الجنود الفرنسيون يصحبهم ثلاثمائة خيــال بالجامع، ثم دخلوا فيه، وأخـذوا يأسـرون من كـان فيـه من الثـوار، ويعبثون به وبمحتوياته عبثاً شديداً.

وذهب شيوخ الأزهر لمقابلة نابليون يرجونه الكف عن انتهـاك الجـامع وقتـل النـاس، فأخـذ يلـومهم ثم أعلن العفـو عنهم.. لكن إعلانه للعفو كان ظاهرياً، إذ أنه أصدر أوامره خفيـة بقتـل كـل من قاد الثورة أو شارك فيها.

وكان من أوامره لأحد قواده: تفضل أيها المواطن القائـد بـأن تـأمر قومنـدان القـاهرة بقطـع رؤوس جميـع المسـجونين الـذين أمسكوا وبيـدهم سـلاح، فليؤخـذوا إلى شـاطئ النيـل، بعـد هبـوط الظلام، ولتلق جثثهم المقطوعة الرؤوس في النهر.

ثم أمر نابليون بإعدام ثمانين رجلاً من الذين كانوا أعضـاء في (ديوان الدفاع) وهو الديوان الذي كان بمثابة مركز القيادة للثورة.

هكذا تصرف القائد المتنور بمبادئ الثورة الفرنسية، إذ حمــل معه المقصـلة (الجيلـوتين) الـتي أصـبحت من أبـرز معـالم الثـورة

الفرنسية.. وأعدم عشرات من شيوخ الأزهر وطلابه دون محاكمـة أو تحقيق.

وبعـد أن تمت عمليـات الإعـدام والتصـفيات الجسـدية، أذاع نابليون منشوراً أشار فيه إلى عفوه، إذ بـدأه بالتهديـد والوعيـد، ثم ذكر أنه فعل ما فعـل بتقـدير اللـه وإرادتـه، وأنـه لا ينجـو أحـد من عقابه، وأن لديه قدرة عجيبة على أن يعـرف مـا في داخـل المـرء بمجرد أن يراه..

اسمع مـا يقـول هـذا التلميـذ النجيب الـذي تتلمـذ على الثـوة الفرنسية: (أيها العلماء والأشراف، أعلموا أمتكم ومعاشـر رعيتكم بأن الذي يعاديني ويخاصمني إنما خصامه من ضلال عقلـه وفسـاد فكره، فلا يجد ملجأً ولا مخلصاً ينجيه مني في هذا العالم، ولا ينجـو من بين يدي الله لمعارضته لمقادير الله سبحانه وتعالى.. والعاقـل يعرف أن ما فعلناه بتقـدير اللـه وإرادتـه وقضـائه، ومن يشـك في ذلك فهو أحمق وأعمى البصيرة. وأعلمـوا أمتكم أن اللـه قـدر في الأزل هلاك أعداء الإسـلام وتكسـير الصـلبان على يـدي، وقُـدِّرَ في الأزل أني أجيء من المغرب إلى أرض مصـر لهلاك الـذين ظلمـوا فيها وإجراء الأمر الـذي أُمِـرْتُ بـه. ولا يشـك العاقـل أن هـذا كلـه بتقدير الله وإرادته وقضائه. وأعلموا أيضاً أمتكم أن القرآن العظيم صرح في آيات كثيرة بوقوع الذي حصـل، وأشـار في آيـات أخـرى إلى أمور تقع في المستقبل، وكلام الله في كتابه صـدق وحـق. إذا تقرر هذا وثبتت هـذه المقـالات في آذانكم، فلـترجع أمتكم جميعـاً إلى صـفاء النيـة وإخلاص الطويـة، فـإن منهم من يمتنـع عن الغي وإظهار عداوتي خوفاً من سلاحي وشدة سـطوتي، ولم يعلمـوا أن الله مطلـع على السـرائر، يعلم خائنـة الأعين ومـا تخفي الصـدور. والذي يفعل ذلك يكون معارضاً لأحكام الله ومنافقـاً، وعليـه اللعنـة والنقمة من الله علام الغيوب. واعلموا أيضاً أني أقـدر على إظهـار مـا في نفس كـل أحـد منكم، لأنـني أعـرف أحـوال الشـخص ومـا انطـوى عليـه بمجـرد مـا أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطـق بالـذي

عنده. ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة، أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يُرَد، وإن اجتهاد الإنسـان غايـة جهـده ما يمنعه عن قضـاء اللـه الـذي قـدره وأجـراه على يـدي. فطـوبى للـذين يسـارعون في اتحـادهم وهمتهم مـع صـفاء النيـة وإخلاص السريرة، والسلام)(1)

أرأيت الأسلوب الذي يتعامل به قومنا مع أولئـك المتحضـرين أصحاب القلوب الطيبة والإيمان العظيم..

هذا ما علمتهم أفكار التنوير التي حملتها الثورة الفرنسية.

أما ما علمتهم المسـيحية.. فلا أحتـاج إلى ذكـره لـك.. فـأنت تعرف الحروب الصليبية.. لقد قادها رجال دين.. لينفخوا فيها الحقد المسيحي..

لم يكتف تلاميذ الثورة الفرنسية النجباء بإعلان أخوتهم للعالم بهذا الأسلوب..

لقد ساروا إلى الأرض يقسمونها كما يحلو لهم.. وكأنهـا تركـة

---

1) اتبع نابليون سياسـة براغماتيـة تميـل إلى كثـير من النفـاق، فحـاول التقـرب من المسلمين والتحبب إليهم، فقد أعلن أنـه مسـلم في قلبـه وأنـه سـيعتنق الإسـلام، ولبس العمامة والقفطان في أحـد الأيـام، وصـلى مـع المصـلين. وذهب إلى أكـثر من ذلـك في نفاقه، إذ قال لأحد مشايخ الدين أنه ينوي إقامة حكومة موحدة تقوم على مبادئ القـرآن التي هي وحدها المبادئ الحقة القادرة على إسعاد الناس.

ونسي نابليون الفكر الأوربي ومبادئ الثورة الفرنسية، وأخذ يتصرف تصـرف المشـايخ الصوفية فأشاع أنه شاهد النبي ﷺفي منامه وأنه قال له: اجهر بإيمانك، بأركان ديني لأنه دين الله. إن العرب في انتظار هذه العلامة، وسأخضع آسيا كلها لسلطانك. وأخذ يسـاهم في المواليد النبوية وينفق عليها.

وكان المسلمون يشكون في ادعاءاته وتصرفاته فهو (نصراني ابن نصراني) ـ على حد تعبيرهم ـ وقد حاول إقناع الناس بسلوكه، وذكـر يومـاً لشـيخ الأزهـر أنـه يـرغب باعتنـاق الإسلام، ولكن الذي يمنعه من ذلك عقبتان، الختان وتحريم الخمر.

وبينما كان نابليون سادراً في ألاعيبه وأكاذيبه، كان هناك قائد فرنسي قد أعلن إسلامه فأصبح اسمه عبد الله مينو. فكان يتلو القرآن ويؤدي الصلاة. فأرسـل إليـه نـابليون يهنئـه على (تضحيته) في سبيل القضية (الوطنية) (انظر: القانون الـدولي والقـانون الإسـلامي، رسالة ماجستير قدمت إلى قسم الدراسات الإسلامية في جامعة ليدن بهولندا)

لأبيهم الذي مات، فهم يرثونها عنه.. أما أهـل الأرض من البسـطاء والمستضـعفين، فلهم مصـيران لا ثـالث لهمـا: إمـا المـوت.. وإمـا السخرة.

أما السخرة.. فلن أحـدثك عنهـا، فهم يسـمونها أسـام كثـيرة يحرفون بها الحقائق.

وأما الموت.. فإن جرائم الإبادة التي نالت البشـر في الفـترة التي أعلنت فيها حقوق الإنسان، والأخوة الإنسانية لا تعدلها جـرائم البشر في جميع فترات تاريخهم.

لقد بلغ عدد الذين أبادتهم بريطانيا العظمى من أجـل إخضـاع الصين لتاجها أكثر من عشرين مليون إنسان.

وكانت فرنسا تستعمر الجزائر رغم إرادة شعبها الذين قاوموا الاستعمار بعنـف، ولم تسـتجب فرنسـا لنـداء الحريـة المـدوي في صـفوف الشـعب الجزائـري، إلا بعـد أن قتلت من ذلـك الشـعب المضطهد ما يقارب المليونين نسمة وبصورة بشعة قاسية.

وفي أثناء حرب الجزائر طلب حكام فرنسـا من القائـد العـام للجيش أن يحـول أجمـل مسـجد في الجزائـر إلى كنيسـة، فوقـع اختياره على مسجد الحي الأورلي في القشارة فتقدمت مجموعـة من آلية الهندسـة للسـلاح الفرنسـي إلى المسـجد، وكـان الـوقت وقت صلاة المغـرب، وكـان المسـجد غاصـاً بالمصـلين الـذي قـدر عددهم بـ(1400) مصلٍّ، فـدخلوا عليهم وقتلـوا فيهم إلى منتصـف الليل، حيث أبادوهم جميعاً.

وقد أحصي عدد القنابل الـتي ألقاهـا الطـيران الأمـيركي من سنة 1961 إلى سنة 1972م زهاء ستة ملايين وسبعمائة وسـبعة وعشرين ألف طن من القنابل على منطقة الهند الصينية وحدها.

وألقت الطائرات الأميركيـة واحـد وسـبعين مليـون لـتراً، من

المواد الكيمياوية السامة على منطقة في جنوب فيتنام توازي مساحة إيرلندا الشمالية.

والمثال الواضح الذي يتفق عليه الجميع.. ليظهروه على أنه المجرم الوحيد.. هتلر.. تعرف طريقة تعامله الأخوي مع الشعوب.

قلت: أجل.. لقد فعل ما فعل باليهود.. لقد كاد يبيدهم..

قال: وهذا من الجرائم التي يتفنن إخواننا التلاعب بها، ليتاجروا بها في إبادة أولئك المسلمين البسطاء المستضعفين.

قلت: أتنكر إبادة هتلر لليهود(1)؟

قال: بل أنكر نزعة التفرقة بين اليهود وغيرهم في هذا.. أليس البشر جميعا إخوة؟

قلت: بلى..

قال: فلم يفرق بين اليهود والغجر؟

قلت: وما علاقة اليهود بالغجر؟

قال: لقد نال الغجر المستضعفين من الإبادة ما نالهم.. ولكن لا أحد يتحدث عنهم.. سأذكر لك بعض ما وصفت به إحدى منشورات اليونسكو ما حصل للغجر المساكين(2):

لقد بدأ الاهتمام بالبحث في الخصائص العِرقية للغجر، فأعلن الدكتور هانز جلوبكه ـ أحد المساهمين في صياغة قوانين نورمبرج

---

1) ارتبطت الإبادة النازية بـ (اليهود) بحيث استقر في الأذهان أن النازيين لم يبيدوا سوى اليهود، وقد ساعد الإعلام الغربي والصهيوني على ترسيخ هذه الفكرة حتى أصبح دور الضحية حكراً على اليهود.. بل تطور الأمر إلى حد أنه إذا ما أراد باحث أن يبيِّن أن الإبادة النازية لم تكن مقصورة على اليهود، وإنما هي ظاهرة شاملة ممتدة تشمل الغجر والسلاف والبولنديين وغيرهم، فإنه يصبح هدفاً لهجوم شرس (انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري).

2) نقلا عن الموسوعة اليهودية للمسيري.

ـ عام 1936 ـ أن الدم الذي يجري في عروق الغجـر (دم أجنـبي). ثم صنَّفهم الأستاذ هانز ف. حينـثر في فئـة مسـتقلة تمثـل مزيجـاً عرْقيــاً غــير محـــدَّد (إذ لم يســتطع نفي أصـــلهم الآري). وبلغت الخصائص العرْقية لدى الغجر من الأهمية درجـة أهلتهـا لأن تصـلح موضـوعاً لرسـالة دكتـوراه، وممـا قالتـه إيفـا جوسـتين مسـاعدة الـدكتور ريتّـر في قسـم الأبحـاث العِرقيـة بـوزارة الصـحة (عنـد مناقشة رسالتها) إن الدم الغجري (يُشكِّل خطراً بالغـاً على صـفاء الجنس الألماني)

ووجَّه طبيب يُدعَى الدكتور بورتشي مـذكرة إلى هتلـر يقـترح فيها فرض الأشغال الشاقة على الغجر وتعقيمــهم بالجملـة نظـراً لأنهم (يُشكِّلون خطراً على نقاء دم الفلاحين الألمان)

وفي 14 ديسـمبر عـام 1936، صـدر قـرار أدى إلى تفـاقم أوضاع الغجر، إذ وصمهم بأنهم (مجرمون معتادون على الإجرام)

وفي نهايــة عــام 1937 وخلال عــام 1938 شُــنت حملات اعتقال جماعية عديدة ضد الغجر، وخُصِّـص لهم جنـاح في معتقـل بوخنولد.

وفي عام 1938، أصدر هملر بنفسه أمراً بنقل مقــر المركـز الوطـني لشـئون الغجـر إلى بـرلين.. وفي السـنة نفسـها اعتُقـل ثلاثمائة غجري كان قد استقر بهم المقام في قرية مانفويرت حيث كانوا يملكون الحقول والكروم.

وقـد أمـر هملـر بتصـنيف الغجـر في الفئـات التاليـة: غجـري صرف (Z)، وخلاسي يغلب عليه العرْق الغجري (ZM+)، وخلاســي يغلب عليـه العـرْق الآري (ZM-)، وخلاسـي يتسـاوى فيـه العرْقـان الغجري والآري (ZM).

ويميِّز المـؤرخ ح. بلِّنج في كتابـه (ألمانيـا وإبـادة الجنس) بين أساليب مختلفة لإبادة الجنس تتمثـل في الإبـادة عن طريـق إزالـة

القدرة على الإنجـاب واخـتطاف الأطفال، والإبادة عن طريق الزج في المعتقـلات، والإبادة عن طريق الإفناء.

قلت: لقد اقشعر جلدي مما ذكرت..

قال: أنا لم أذكر لـك إلا مثـالا واحـدا عن بعض جـرائم الإبـادة التي تهدف إلى تنقية العرق.. أمـا جـرائم الإبـادة الـتي تهـدف إلى نشر ديمقراطية الدماء.. فـاذهب وسـل عنهـا أفغانسـتان والعـراق وفلسطين.. بل سل عنها جميع عوالم المستضعفين ليخـبروك بمـا يفعل بهم عالم المستكبرين.

قلت: يكفيني ما حـدثتني بـه.. لقـد جعلتـني أنظـر إلى تـاريخ قومي بخجل.

قـال: ليس إنسـانا من لم يخجـل من جرائمـه، أو من جـرائم قومه.

قلت: فحـدثتني عن الأخـوة الـتي دعـا إليهـا الإسـلام.. والـتي عاشها المسلمون.

قال: ليس هناك في الأديان أخـوة إلا الأخـوة الـتي دعـا إليهـا الإسـلام.. وليس هنـاك في التـاريخ أخــوة إلا الأخــوة الـتي مثلهـا المسلمون.

أما الإسلام.. فقد اعتـبر البشـر جميعـا إخـوة.. مهمـا اختلفت أعراقهم وألوانهم وأديانهم.

ولهذا تجد القرآن ينادي البشر بهذا الوصـف:﴿ يَـا بَنِي آدَمَ قَـدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشـاً وَلِبَـاسُ التَّقْـوَى ذَلِـكَ خَيْـرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (لأعـراف:26)..﴿ يَـا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْـرَجَ أَبَـوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْـزِعُ عَنْهُمَـا لِبَاسَـهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَـوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَـرَاكُمْ هُـوَ وَقَبِيلُـهُ مِنْ حَيْثُ لا تَـرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَـا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَـاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُـونَ﴾ (لأعـراف:27)..:﴿ وَلَقَـدْ كَرَّمْنَـا

بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (الاسراء:70)

بل إنه اعتبر الأنبياء الكرام إخوة لأعدائهم الذين كانوا يسومونهم الخسف فقد اعتبر قوم نوح إخوانا لنوح: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء:106).. واعتبر قوم هود إخوانا لهود:)إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء:124).. واعتبر ثمود إخوانا لصالح: إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ (الشعراء: 142)

وقد روي أن محمدا كان يقول دبر كل صلاة: (اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه أنا شهيد أنك الله وحدك لا شريك لك.. اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه، أنا شهيد أن محمداً عبدك ورسولك.. اللهم ربنا ورب كل شئ ومليكه أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة)(1)

ألا ترى كيف اعتبر محمد إقرار مبدأ (الأخوة) بعد الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد بالعبودية والرسالة!؟

قلت: ولكن القرآن يتحدث عن أخوة الدين.. ففيه: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (التوبة:11).. وفيه: ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ (الأحزاب:5)

بل إن القرآن حصر علاقة المؤمنين في الأخوة، ففيه: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (الحجرات:10)

قال: هذه مرتبة من مراتب الأخوة..

فالإسلام يعتبر المسلمين جميعا ــ مهما تعددت أوطانهم وأعراقهم وألوانهم ـ أسرة واحدة لها أب روحي واحد هو محمد..

1) رواه أحمد.

ولها دين واحد هو الإسلام.

وهذه الأخوة هي العلاقة الوحيدة التي تحكم بين المسلمين جميعا.. فليس في المسلمين أي عنصرية كتلك العنصرية التي تمتلئ بها شعوب الأرض.

وقد زخر التراث الإسلامي بجميل الأخلاق وعظيم الآداب التي طبعت علاقات المسلمين بعضهم ببعض.. والتي استوحت معانيها من نصوص القرآن ومن حديث محمد، فقد قال معبرا عن أصل أصول ذلك: (: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(1)

قلت: ولكن هذه العلاقات محصورة بين المسلمين فيما بينهم..

قال: هذه مرتبة من مراتب العلاقات.. وهي مرتبة ضرورية.. ألا ترى أن الناس جميعا يمارسون في علاقاتهم هذا الأسلوب.. فيفرقون بين إخوانهم وأصدقائهم وأقاربهم وأهل بلدهم وسائر الناس!؟

قلت: بلى.. ذلك صحيح.

قال: فقد اعتبر الإسلام هذا النوع من الأخوة مرتبة من المراتب.. وهي لا تلغي غيرها من المراتب، كما لا تلغي الصداقة ولا القرابة غيرها من العلاقات.

قلت: عرفت القسمين اللذين تعامل معهما الإسلام معاملة الأخوة.. لكن هناك من تعامل معهم معاملة العداوة.. وأمر المسلمين بمعاداتهم واعتبر ولاءهم من نواقض الإخلاص للإسلام.

قال: أولئك هم المحاربون الظالمون المعتدون..

---

1)) البخاري:1/10.

قلت: فكيف تخلفت أخوة الإسلام عن هؤلاء؟

قال: هي لم تتخلف.. ولكنهم هم الذين تخلفوا عنها..

الإسلام يتعامل بمنطق الرحمـة مـع الجميـع.. حـتى أن أخص خصائص محمد التي وصفه بها القرآن هي كونه رحمة للعالمين.

ولذلك فإن الإسلام مع المحـاربين يتلمس كـل السـبل لعـدم وقوع الحرب بينه وبينهم.. ولكن الحرب إذا فرضـت نفسـها.. ولم يكن هناك مندوحة عنها أجازها الإسلام أو فرضها بحسب الظـروف والأحوال مع آداب كثيرة وأخلاق عظيمة لم أر لها مثيلا في أي دين من الأديان..

المساواة

قلت: فحدثني عن المساواة.

قال: لقد درست عن كثب مجتمعات كثيرة متنوعة.. فلم أجد مجتمعا يمتلئ بالتواضع كالمجتمع الإسلامي.

قلت: ما علاقة التواضع بالمساواة؟

قال: لا يمكن أن تنشأ المسـاواة إلا في ظلال دين أو فلسـفة تعتبر التواضع قيمة من قميها الكبرى.. وخلقا من أخلاقها الرفيعة..

ذلك أن الطبقية لا تنشأ إلا في ظلال المتكبرين.. فالمتكبرون ـ بالقوانين الـتي يسـنونها لأنفسـهم، أو يسـنها لهم مجتمعهم ـ هم الذين يحولون المجتمعات إلى طبقات يعتلون هم أعلى درجاتها.

لقـد بحثت في تـاريخ أوربـا في العصـور الوسـطى [1] ـ في الوقت الذي كان فيه المسلمون يدا واحدة وقلبا واحـدا ـ فوجـدت طبقات النبلاء أو الأشراف، ورجال الدين والشعب، طبقات متميزة محدَّدة المعالم يختلـف بعضـها عن بعض، بحيث لا يخطئ الإنسـان

1) انظر: شبهات حول الإسلام، محمد قطب.

معرفتها بمجرد النظر.

فرجال الدين لهم ثيابهم الخاصة التي تميزهم، وكـان لهم في تلـك العصـور سـطوة كـبرى، فكـان البابـا سـلطة مناوئـة للملـوك والأبـاطرة، يريـد أن يـزعم أنـه هـو الـذي يمنحهم السـلطان على الشعوب، ويريدون هم أن ينسلخوا من سلطته ويستقلوا بأنفسهم. وكـانت لهم كـذلك أمـوال طائلـة من الأوقـاف الـتي وقفهـا عليهم المتدينون، ومن الإتاوات التي يفرضونها هم على الناس، بل كـانت للكنيسة جيوش كاملة في بعض الأحيان.

أما الأشراف فكانوا طبقة تتوارث الشـرف بعضـها عن بعض، بحيث يولد الطفل فإذا هو شريف منذ مولده، ويظـل شـريفاً حـتى يـموت، بصرف النظر عن الأعمال التي يقوم بهـا في حياتـه، وقـر بها أو بعدها من هذا الشرف المزعوم.

أما امتيازاتهم فكانت في عهـد الإقطـاع سـلطاناً مطلقـاً على الشـعب الموجـود في الإقطاعيـة.. كـانوا هم السـلطة التشـريعية والقضائية والتنفيذية، وكانت أهواؤهم ونـزواتهم هي القـانون الـذي ينفـذ على الشـعب، وكـانت تتكـون منهم المجـالس النيابيـة الـتي تشرع للبلاد، فكانت تشريعاتهم لا تهدف إلا حمايتهم والاحتفاظ لهم بامتيازاتهم وإضفاء صفة القداسة عليها.

أما الشعب فهو ذلك الهمـل الـذي لاحقـوق لـه ولا امتيـازات، وإنما عليـه الواجبـات كـل الواجبـات، وكـان يتـوارث الـذل والفقـر والعبودية جيلاً بعد جيل.

ثم حدثت تطورات اقتصـادية هامـة في أوربـا أنشـأت طبقـة جديدة تنازع الأشراف امتيازاتهم ومكانتهم، هي الطبقة البرجوازية. وبقيادة هذه الطبقة وعلى أكتاف الشعب، قامت الثورة الفرنسـية التي ألغت - في الظاهر - نظام الطبقات، وأعلنت - نظرياً - مبادئ الحرية والإخاء والمساواة.

وفي العصر الحـديث قـامت هـذه الطبقـة الرأسـمالية مقـام طبقة الأشراف القديمة، ولكن من وراء ستار، ومع بعض التعديلات الـتي اقتضـاها التطـور الاقتصـادي، ولكن الجـوهر لم يتغـير، فهي طبقة تملك المال والسلطان والقـوة الـتي تسـير بهـا دفـة الحكم، وعلى الــرغم من مظــاهر الحريــة الــتي تتمثــل في الانتخابــات الديمقراطيـة، فـإن الرأسـمالية تعـرف طريقهـا إلى البرلمانـات ودواوين الحكومات، وتنفذ بوسائلها الملتوية مـا تريـد تنفيـذه تحت مختلف العنوانات.

بل ما يـزال في إنجلـترا ــ أم الديمقراطيـة كمـا كـان يقـال ـ مجلس يسمى بصـفة رسـمية (مجلس اللـوردات)، ومـا زال فيهـا قانون إقطاعي يقضي بأن يحرم جميع الأبناء والبنات من المــيراث فيما عدا الابن الأكبر، منعاً لتفتيت الثروة، أي محافظة على ثروات (الأسر) لكي تبقى قائمة لا تزول، ويظل لها كيانهـا المـوروث كمـا كانت طبقة الإقطاعيين في العصور الوسطى.

هذا هو نظـام الطبقـات، يتلخص في حقيقـة أساسـية هي أن الطبقة التي تملك المال تملك السلطان، وتملـك وسـائل التشـريع بطريقة مباشرة أو غير مباشـرة، فتشـرع لحمايـة نفسـها، ولإبقـاء الشعب خاضـعاً لسـلطانها، محرومـاً من كثـير من حقوقـه إرضـاء لشهوات الطبقة الحاكمة.

قلت: هــذا في غــير الإســلام.. فحــدثني عن المســاواة في الإسلام.

قــال: ليس هنــاك دين ينظــر للبشــر جميعــا بمنظــار واحــد كالإسلام.. فهو يعتبرهم جميعا عبـادا للـه.. وأفضـلهم أقـربهم للـه، وأكثرهم نفعا لعباده(1).

---

1) في الحديث سئل النبي ﷺ:(أي الناس أحب إلى الله؟) قال:(أنفع الناس للناس) رواه الطبراني وغيره بألفاظ متقاربة، وهذا لفظ الطبراني، انظر: المقاصد الحسنة ص (200 – 201)

لقد نص القرآن على هذا في مواضـع كثـيرة.. فهـو يـرد على اليهود والمسيحيين الذين اعتبروا أنفسهم أبناء لله، فقال: وَقَـالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَـذِّبُكُمْ بِـذُنُوبِكُمْ بَـلْ أَنْتُمْ بَشَـرٌ مِمَّنْ خَلَـقَ يَغْفِـرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَـذِّبُ مَنْ يَشَـاءُ وَلِلَّهِ مُلْـكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (المائدة:18)

وبين عدالـة الجـزاء الإلهي الـذي يتعامـل مـع العبـاد بحسـب أعمالهم لا بحسب أمانيهم، فقـال: لَيْسَ بِأَمَـانِيِّكُمْ وَلا أَمَـانِيِّ أَهْـلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً (النساء:123)

وقد رسخ محمـد بسـلوكه وهديـه هـذه المعـاني.. حيث كـان يصحبه العـرب والعجم، والـبيض والسـود، والأحـرار والرقيـق، ولم يكن يميز أحدهم عن الآخر.

وقد ورد في الحديث: خطبنا رسول الله ﷺ في أوسـط أيـام التشريق خطبة الوداع فقـال: (يـا أيهـا النـاس إن ربكم واحـد وإن أبـاكم واحـد، ألا لا فضـل لعـربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بـالتقوى إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللَّهِ أَتْقَـاكُمْ (الحجـرات:13)، ألا هـل بلغت؟ قـالوا: بلى يا رسول الله، قال: فليبلغ الشاهد الغائب)(1)

وفي حديث آخر، قال: (إذا كان يوم القيامـة أمـر اللـه مناديـا ينـادي ألا إني جعلت نسـبا وجعلتم نسـبا فجعلت أكـرمكم أتقـاكم فـأبيتم إلا أن تقولـوا فلان ابن فلان خـير من فلان بن فلان فـاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم أين المتقون)(2)

وفي حديث آخر قـال: (إن اللـه عـز وجـل أذهب عنكم عبيـة الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس بنو آدم وآدم من تـراب مـؤمن تقي

1) المعجم الكبير للطبراني.

2) رواه الطبراني في الأوسط والصغير والبيهقي مرفوعـا وموقوفـا وقـال المحفـوظ الموقوف.

وفاجر شقي، لينتهين أقوام يفتخرون برجال إنما هم فحم من فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تدفع النتن بأنفها)(1)

وفي حديث آخر: (أنسابكم هذه ليست بمسبة على أحدكم، كلكم بنو آدم ليس لأحد على أحد فضل الا بالدين أو تقوى وكفى بالرجل أن يكون بذيا فاحشا بخيلا)(2)

قلت: فكيف عمق الإسلام قيمة المساواة في نفوس المسلمين؟

قال: بتربيتهم على التواضع لله ولخلق الله..

لقد اعتبر القرآن الكبر الحجاب الأكبر بين العباد ومعرفة ربهم والاتصال به، فقال:﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (لأعراف:146)

بل أخبر أن المتكبرين لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط، فقال:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴾ (لأعراف:40)..:﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (القصص:83)

وقد ربى محمد في أصحابه هذا الخلق العظيم.. فكان يحثهم عليه بكل الأساليب، ففي الحديث القدسي: (إن الله تعالى أوحى إلي أن توضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا ينبغي أحد على

---

1) أحمد.

2) أحمد.

أحد)(1)

وفي حديث آخر: (ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد إلا رفعه الله)(2)

وفي حديث آخر: (طوبى لمن تواضع في غير منقصة، وذل في نفسه من غير مسألة)(3)

وفي حديث آخر: (من مات وهو برئ من الكبر والعلو والدين دخل الجنة)(4)

وفي حديث آخر: (من تواضع لأخيه المسلم رفعه الله، ومن ارتفع عليه وضعه الله)(5)، وفي رواية: (من تواضع تعظيما يحفظه الله، ومن تواضع خشية يرفعه الله)

قلت: ولكن الإسلام ربى في نفوس أتباعه العزة.. وهي نوع من أنواع الكبر.

قال: لا.. العزة ليست كبرا.. ويستحيل أن تكون كبرا.

العزة هي امتلاء النفس تعظيما للحق الذي هداها الله إليه، فلا تتشوف لغيره، والمعتز بالحق هو الذي يسعى لإيصاله لغيره من غير أن يستعلي عليهم به.

لقد أخبر محمد (أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ فاني قد غفرت

---

1) رواه مسلم وأبو داود وابن ماجه.

2) رواه مسلم والترمذي.

3) رواه مسلم والترمذي.

4) رواه الترمذي والنسائي وغيرهما.

5) رواه الطبراني.

لفلان، وأحبطت عملك)(1)

وفي حـــديث آخـــر: (ألا أحـــدثكم حـــديث رجلين من بـــني إسرائيل؟ كان أحدهما يسرف على نفسـه، وكـان الآخـر يـراه بنـو إسرائيل أنه أفضلهم في الدين والعلم والخلق، فذكر عنده صاحبه، فقال: لن يغفر اللـه لـه، فقـال اللـه لملائكتـه: (ألم يعلم أني أرحم الراحمين؟ ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي؟ فـاني أوجبت لهـذا الرحمة، وأوجبت على هذا العذاب، فذا تتألوا على الله)(2)

وفي حديث آخر: (قال رجل لا يغفر اللـه لفلان، فـأوحى اللـه إلى نبي من الانبياء أنها خطيئة، فليستقبل العمل)(3)

وفي حديث آخـر ورد مـا هـو أعظم من ذلـك، فقـد قـال ﷺ: (كان رجل يصلي، فلما سجد أتاه رجل فـوطئ على رقبتـه، فقـال الذي تحته: والله لا يغفر لك اللـه أبـدا، فقـال اللـه عزوجـل: تـألى عبدي أن لا أغفر لعبدي، فاني قد غفرت له)(4)

وقد سمى محمد هؤلاء الذين زعموا لأنفسـهم امتلاك خـزائن الجنـان (المتـألين)(5)، فقـال: (ويـل للمتـألين من أمـتي، الـذين يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار)(6)

بل أخبر عن هلاك هذا النوع من النـاس، فقـال: (إذا سـمعت الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم)(7)، وقال: (إذا قال الرجــل:

---

1)مسلم في صحيحه كتاب البر والصلة عن جندب باب النهي عن تقنيـط الانسـان من رحمة الله وبرقم (2621).

2)أبو نعيم في الحلية وابن عساكر عن أبي قتادة.

3)الطبراني في الكبير عن جندب.

4)الطبراني في الكبير.

5) معنى يتألى: يحلف والالية اليمين.

6) البخاري في التاريخ.

7)مالك وأحمد ومسلم وأبو داود.

هلك الناس فهو أهلكهم)[1]

***

ما وصل (مارسيل بوازار) من حديثه إلى هـذا الموضـع حـتى اغرورقت عيناه بدموع لم يملك حبسها، فقلت: ما يبكيك؟

نظر إلى الشجرة، وقال: أبكي على هذه الشجرة المسكينة.. إنها تئن.. فلا يسمعها أحد..

قلت: ما تطلب؟

قال: تطلب تلك التعاليم العالية الرفيعة التي نادى بها محمـد، ولا زال ينادي بها..

تطلب أن يعود الإنسان لغابة الإنسان..

تطلب أن ترمى تلك الوساوس ـ التي نفختهـا الشـياطين في دعاة جهنم ـ إلى هاوية العدم ليعود للإنسـان اعتبـاره الـذي ألغي.. وتعود للإنسان حقيقته التي زيفت.

قلت: فما الذي يحول بين الإنسان وتعاليم محمد؟

قال: كلهم يرفعون أصواتهم ليملأوا الدنيا ضجيجا.. فلا يسـمع أحد صوت محمد.. إنهم يمارسـون مـا فعلـه مشـركو قـريش حين قالوا: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُـرْآنِ وَالْغَـوْا فِيـهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت:26)

قلت: إني أعجب لك.. كيف تقول هذا.. ومع ذلك لم أرك في يوم من الأيام ترقى منبرا من المنابر لتعلن إسلامك.

ابتسم، وقال: لله من المنابر ما لا تراه.. ولإعلان الإسـلام من الصيغ ما لا تسمعه.

---

1)أحمد ومسلم وأبو داود.

قلت: فأنت مسلم إذن!؟

قال: كم وددت لو كنت كذلك..

قلت: فما الذي يحول بينك وبينه!؟

قال: أنسيت أخاك التوأم!؟

قلت: ما باله.. لقد تركته في ألمانيا بألف خير وعافية.

قال: إن لي توأما مثله.. لا يختلف عنه في شيء.. يضع ألف حجاب بيني وبين محمد.. ولكني يوشك أن أتخلص من حجبه جميعا لتشملني أنوار تلك الشمس التي شملت العالمين.

قال ذلك، ثم انصرف ليتركني بجانب تلك الشجرة أمسح بعض آلامها.. وفي ذلك الحين تنزلت علي أشعة جديدة، اهتديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

خامسا ـ روحانية

في اليوم الخامس من تلك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشرقة الـتي قطفت على يـديها ثمـرة الروحانيـة من شـجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سـر قولـه تعـالى: لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (آل عمران:164)

وعرفت بها سـر قولـه تعـالى: وَلا تَطْـرُدِ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَـابِهِمْ مِنْ شَـيْءٍ وَمَـا مِنْ حِسَـابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَـيْءٍ فَتَطْـرُدَهُمْ فَتَكُـونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (الأنعام:52)، وقوله تعالى: وَاصْبِرْ نَفْسَـكَ مَـعَ الَّذِينَ يَـدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيـدُ زِينَـةَ الْحَيَـاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطـاً) (الكهف:28)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن وظيفة كـبرى من وظـائف النبوة هي وظيفة التزكية وملأ القلوب بمحبة الله والتوجه إليه..

***

كان من ضمن الأسماء الموجودة بالدفتر الـذي سـلمني إيـاه المرشـد المستشـرقة (آنـا مـاري شـميل)(1).. وقـد وضـع بجـانب

1) هي Annemarie Schimmel (ولـدت في 1922)، وهي من أشـهر المستشـرقين الألمان المعاصرين، بدأت دراسة اللغة العربية في سـن الخامسـة عشـرة، وتتقن العديـد من لغات المسلمين وهي التركية والفارسية والأوردو.

درّست في العديد من الجامعـات في ألمانيـا، وفي الولايـات المتحـدة الأمريكيـة وفي أنقـرة، وقـد اهتمت بدراسـة الإسـلام، وحـاولت تقـديم هـذه المعرفـة بأسـلوب علمي موضوعي حتى نالت أسمى جائزة ينالها كاتب في ألمانيا تسمى جائزة السلام.

لكن بعض الجهـات المعاديـة للإسـلام لم يرقهـا أن تنـال هـذه الباحثـة المدافعـة عن الإسلام في وجه الهجمات الغربية عليه، فحاولوا أن يمنعوا حصولها على الجائزة.

وقد أدرك مكانة هذه المستشرقة العلاّمة والداعيـة المسـلم في أوروبـا الـدكتور زكي علي منـذ أكـثر من أربعين سـنة حين كتب يقـول:(وعلى رأس المحـررين (لمجلـة فكـر

اسمها هذه الكلمة (المارقة)

وقد كان هذا اللقب الذي وضع أمـام اسـمها من أكـبر داوعي اهتمامي بلقائها، والحديث معها عن سبب هذا المروق الذي ينسب لها.

في ذلك اليوم المبارك الذي التقيتها فيه كنت أسير في حقـل لعباد الشمس.. وكنت أنظر إليه، وهو يحول وجهته للشمس حيثمـا تحولت، فتعجبت من ذلك المنظـر، ورحت أحـاول تفهم سـر ذلـك التحول.. أو رحت أبحث عن المغنـاطيس الـذي يجـذب وجـه عبـاد الشمس للشمس، أو رحت أبحث عن الدواليب الـتي تحـرك وجـه عباد الشمس نحو الشمس.

في تلك الأثناء سمعت صوتا حانيا يردد:

أحبك حبـين حب الهوى وحباً لأنك أهْلٌ لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

كان صوتا رقيقا عذبا روحانيـا.. فانجـذبت إليـه، كمـا انجـذبت زهرة عباد الشمس للشمس..

وفن) الأستاذة الألمعية الدكتورة آن مـاري شـميل المتخصصـة في دراسـة محمـد إقبـال حكيم وشاعر باكستان..وترجمت إلى الألمانية لـه ديـوان (جاويـد نامـة) وكتـاب (رسـالة المشـرق عن الفارسـية) وهي أسـتاذة بجامعـة بـون وغيرهـا ومن أكـابر علمـاء ألمانيا..وتنصف الإسلام والمسلمين كثيراً جزاها الله خيراً)

وقال عنها ـ أيضاً ـ أنهـا أصـدرت العديـد من الكتب منهـا كتـاب (محمـد رسـول اللـه) بسطت فيه مظاهر تعظيم وإجلال المسلمين لرسول الله ﷺ (عبد اللطيف الجوهري. من أعلام الـدعاة في أوروبـا: العلاّمـة الـدكتور زكي علي.(جـدة: عـالم المعرفـة 1418-1988)ص123 والمقالة التي كتبها الدكتور زكي علي نشرت في مجلة البريـد الإسـلامي في 25/6/1963)

وقـد امتـدحها رئيس المجلس الأعلى للمسـلمين في ألمانيـا بأنهـا مـا زالت تواصـل كتاباتها الموضوعية وترجماتها عن الإسلام (عكـاظ، عـدد 10961، ربيـع الآخـر 1417ـ (16أغسطس 1996م)

على عشب ذلك الحقل رأيتها.. رأيت (آنا ماري شـميل)، ولم أكن أعرفها، مع كونها من أهل بلدي القلائـل بجامعـة السـوربون.. اقتربت منها، وقلت: هل عادت رابعة العدوية إلى الحياة؟

قالت: أنا لست رابعة.. ولكني عاشـقة لرابعـة، كعشـق هـذه الأزهار للشمس.

قلت: وما الذي جذبك لها؟

قالت: الحب.. الحب هو أعظم جـاذب في هـذا الوجـود.. ولم أر أحدا يتحدث عنه بمثل تلك اللوعة التي تتحـدث عنـه بهـا رابعـة، وإخوانها من القديسين.

قلت: لا شك أنك لا تعرفين المسـيحية.. فالمسـيحية هي دين الحب.. وفي كتابها المقـدس تلـك الآيـة الـتي لا نظـير لهـا في أي كتاب من الكتب المقدسة التي تملأ الدنيا.

في الكتاب المقدس هذه العبارة المقدسة (الله محبة)

ابتسمت، وقـالت: اسـمح للمارقـة أن تجيبـك لتؤكـد لـك من مروقها ما كنت تجهله.

قلت: كيف تحولت رابعة إلى مارقة؟

قالت: يستطيع عـدوك أن يصـفك بمـا يشـاء، وبـاللقب الـذي يشاء ما دام يرى لنفسه سلطة وضع الألقاب.

قلت: أأنت (آنا مـاري شـميل).. تلـك المـرأة الألمانيـة الـتي تحدت الأعراف، فراحت تعلن حبها للإسلام؟

قالت: أجل.. ولذلك لقبوني بالمارقة.. ومـا أحلى هـذا الاسـم إذا كان من أعدائك.. لأنه يعلن انتصارك عليهم.

قلت: ولكن ما الذي جـذب قلبـك إلى حب الإسـلام والـدفاع

عنه مع كونك ـ حسبما أعلم ـ مسيحية نفسا وأبا وجدا.

قالت: ألا ترى إلى هذه الزهـرة الجميلـة، وهي تـولي وجهها إلى الشمس حيثما تولت؟

قلت: أجــل.. وقــد كنت قبــل ســاعة، أتأملهــا، وأبحث عن الدواليب التي تحركها جهة الشمس.

قــالت: فقــد بحثت عن تلــك الــدواليب.. ووجــدتها.. ورحت أبحث في الأديان والمذاهب والأفكـار والحضـارات.. فلم أجـد تلـك الدواليب إلا في الإسلام..

محمــد هــو الرجــل الوحيــد في العــالم الــذي يملــك أســرار الدواليب التي يتحـول بهـا البشـر إلى أزهـار عبـاد شـمس تتحـول وجوههـا لا إلى الشـمس.. وإنمـا إلى المصـدر الـذي جـاءت منـه الشمس وجاء منه كل شيء.

لقد جاء في القرآن: وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَـا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (البقرة:115)

محمد هو الرجل الوحيد في العالم الذي جاء بمنظومة كاملــة تفسر حقائق الوجود، وتملأ النفس والعقل والقلب والـروح والسـر وجميع اللطائف بها.

قلت: ولكنك نسيت ما ورد في رسالة يوحنا، فقد قـال: (أيهـا الاحباء لنحب بعضنا بعضاً، لأن المحبة من الله وكـل من يحب اللـه فقد ولد من الله)(يوحنا1/4:7)

وقد كتب يوحنا هذه العبارة التي لا يوجد مثلهـا في أي كتـاب من الكتب المقدسة: (لأنه هكذا أحب اللـه العـالم حـتى بـذل ابنـه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به) (يوحنا 3: 16)

ابتسمت، وقالت: لقد كنت مثلك تبهرني مثـل هـذه العبـارات

الجميلة.. لكني عندما حـاولت أن أعيش معانيهـا لم أجـد فيهـا من المعاني الروحانية اللذيذة ما يمكن أن أعيشه.

لاحظ بعين العقل والمنطق والروح تلك العبارة الأخيرة الــتي بهرتك كما بهرت الملايين من غير أن يعرفوا معناها.

ألا ترى أنها تحمل تصـويرا مشـوها عن اللـه يصـرف القلـوب عنه.. بل قد يملؤها ببغضه!؟

قلت: ما تقولين؟

قالت: أرأيت لو أنك.. وأنت صاحب الدار.. دعوت ضيوفا إلى بيتك لتطعمهم من طعامك، وتسقيهم من شرابك.. ثم بدر من أحد ضيوفك ما أساء إليك.. فنظرت إليهم نظرة غضب تريد أن تبطش بهم.. ثم ســرعان مــا تحــولت إلى حليم رحيم.. ولكنــك لم تعـف عنهم.. وإنما ذهبت إلى ولدك الوحيد لتضعه على الصـليب، وتقتلـه شر قتلة أمام أعين ضيوفك، فإذا سألوك عن سر مـا تفعلـه، قلت لهم: لأجل أن أكفر عن خطاياكم.

فإذا سألوك: لم؟.. ألا يمكن أن تكفـر عن خطايانـا بغـير هـذا الأسلوب؟

قلت لهم: لقد وضعت قانونا، بأني لا أكفر الخطايا إلا بالدم..

فإذا سألوك: ألا يمكن أن تتنازل عن قانونك هذه المرة؟

قلت: لا..

فإذا سألوك: لم؟

قلت: لأني عادل.

فإذا سألوك: فلم عاقبت من لم يستحق العقوبة إذن؟

قلت: لأني رحيم.

التفتت إلي، وقالت: ألا ترى هذا نوعا من الجنون!؟

هل الذي يحب العالم لا يحب ابنه الوحيد.. ثم كيف يحب اللـه العـالم، ولا يحب ابنـه.. ثم.. هـل الـذي يحب العـالم يقتـل ابنـه الوحيد!؟

ثم.. كيـف نثـق بإلـه لم يشـفق على ابنـه من أجـل غفـران خطيئة مذنب آخر؟ كما يقول بولس في (رومية 8:ـ 32)ـ (الـذي لم يشفق على ابنه بل بذله لاجلنا اجمعين)

لقد نسب بولس إلى الله عدم الشفقة.. أي القسوة.

ألا توجـد طريقـة أخـرى عنـد إلـه المحبـة بـدلاً من قتـل ابنـه المزعوم لإنقاذ غيره!؟

وهل اقتضت رحمته ألا يُعالج هذه الجريمـة إلا بجريمـة أبشـع منها؟

وهل صحيح ما يقوله بولس الذي حجر على الله المغفرة في رسالته إلى العبرانيين (9:ـ 22)، فقال: (وكل شـئ تقريبـا يتطهـر حسب الناموس بالدم وبدون سفك دم لا تحصل مغفرة)[1].. أهـذا إله يمكن أن يكون محبوبا.. الإلـه العاشـق للـدماء.. الـذي لا يكفـر

1) وهذا الذي قاله بولس، ويتعلق المسيحيون به.. بل يعتبرونه من أصـول عقائـدهم، وعليه تقوم حياتهم الروحية، يخالف ما ورد في الكتاب المقـدس، فقـد جـاء في (هوشـع: 6ـ 6-7):(إني أطلب رحمة لا ذبيحة، ومعرفتي أكثر من المحرقات. 7ولكنكم مثل آدم، نقضتم عهدي)

وفيه (هوشع 14:ـ 1-3):(ارجع تائبا يـا إسـرائيل إلى الـرب إلهـك، لأنـك قـد تعـثرت بخطيئتك. احملوا معكم كلام ابتهـال وارجعـوا إلى الـرب قـائلين لـه: انـزع إثمنـا، وتقبلنـا بفائق رحمتك، فنزجي إليك حمد شفاهنا كالقرابين. إن أشور لن تخلصنا، ولن نعتمد على خيول مصر لإنقاذنا، ولن نقـول للأوثـان صـنعة أيـدينا: (أنتم آلهتنـا) لأن فيـك وحـدك يجـد اليتيم رحمة)

وفي (ميخا 6:ـ 6-8):(يارب: بماذا أتقدم عندما أمثل أمام الرب وأسجد في حضـرة الله العلي؟ هل أتقدم منه بمحرقات وبعجول حولية؟ هل يسر الـرب بـألوف أنهـار زيت؟ هل أقرب بكري فداء إثمي وثمرة جسدي تكفيرا عن خطيئة نفسي؟ لقد أوضح لك الرب أيها الإنسان مـا هـو صـالح. ومـاذا يبتغي منـك سـوى أن تتـوخى العـدل، وتحب الرحمـة، وتسلك متواضعا مع إلهك)

الخطايا إلا بعد أن يسفك الدماء؟

ثم كيـف يتطهـر العبـاد الـذين لم يجاهـدوا أنفسـهم في ذات الله.. أبالانتحار.. حتى يقـدموا قـرابين للـه الـذي يحب الـدماء.. أم بالإيمان والذكر والعبادة والتوجه!؟

لم أجد ما أقول، فقالت: إن دينا يقوم على مثل هذه العقيـدة يستحيل أن تصدر منه أي روحانية شفافة صادقة مترفعة.. ذلك أن قوانين الروحانية لا تنسجم إلا مع قوانين العقلانية.. فلا تنـاقض بين العقل والروح.

قلت: لقـد ذكـرت لي أنـك اكتشـفت أسـرار الـدواليب الـتي تحرك عباد الشمس.

قالت: لقد اكتشفت أسرار الدواليب التي تحرك القلوب نحو الله.. وهي ما تحتاج أن تعرفه.

قلت: فما هي؟

قالت: ثلاث:الربانية.. والعقلانية.. والإنسانية.

قلت: فهل ستحدثيني عنها؟

قالت: سأحدثك بخلاصة خلاصة ما وجدتـه من مقارنـاتي بين الإسلام وغـيره من الأديـان والفلسـفات والمـذاهب.. لتعـرف سـر مروقي (1).

الربانية:

وفي (مزمور 40:ـ 6):(لم ترد أو تطلب ذبائح ومحرقات عن الخطيئة، لكنـك وهبتـني أذنين صاغيتين مطيعتين)

وبهذا يتبين أن ما ذكره بولس من أخطر البدع التي حرفت المسيحية.

(1) انظـر التفاصـيل المرتبطـة بالجـانب الـروحي في الإسـلام في رسـالة (سـلام للعالمين)

قلت: فلنبدأ حديثنا عن الربانية.

قالت: لقد بحثت في التوجهات الروحية المختلفة.. فوجدت كل طائفة من الطوائف تولي وجهها نحو شمس من الشموس الآفلة.. ثم بحثت في وجهة المسلمين، فوجدتها جميعا موجهة نحو الشمس التي لا تأفل.

لعلك تعرف قصة إبراهيم في القرآن.. والتي ورد فيها: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآَفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)﴾(الأنعام)؟

قلت: أجل.. فما فيها مما نحن فيه؟

قالت: فيها كل ما نحن فيه.. إن هذه الآيات تلخص السير الروحي للمسلمين.. فالسير الروحي للمسلمين لا يتوجه إلا لله.. كما قال القرآن: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:162)

وذلك هو معني الإسلام، كما جاء في القرآن بعد الآية السابقة:﴿ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: 163)

بينما سيرنا نحن المسيحيين لا يتوجه إلا نحو أنفسنا.. فنحن بتركيزنا على الخطايا والفداء والكفارة ونحوها قد وضعنا حجبا بيننا وبين الله.

بينما لا تشكل الخطايا في نظر الإسلام إلا إفرازات للطبيعة

الإنسانية.. ويمكن تجاوزها بالتوبة الصادقة.. وقد جاء في القرآن: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (الزمر:53)

بل نحن لم نكتف بذلك.. لقد جعلنا من ديانتنا ديانة كهنوتية تفتقر إلى الوسائط الكثيرة.. بينما المسلمون يرتبطون بالله من أول لحظة، فليست لديهم أي وسائط بينهم وبين الله، وقد قال القرآن: وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقرة:186)

قلت: واليهود.. هم أيضا أصحاب ديانة سماوية.

قالت: اليهود يعبدون أنفسهم.. لا الله.. ولذلك فإن شموسهم منحنية انحناءة بشعة مشوهة تصور ما تمتلئ به قلوبهم من أحقاد.

قلت: والمسلمون!؟

قالت: كل عارفي المسلمين وأوليائهم وقديسيهم لا تلهج ألسنهم إلا بذكر الله ومحبة الله وتعظيم الله..

سأل الشبلي جارية حبشية، فقال: من أين؟ قالت: من عند الحبيب، قال: وإلى أين؟ قالت: إلى الحبيب، قال: ما تريدين من الحبيب؟ قالت: الحبيب.

إن هذه الجارية عبرت خير تعبير عن وجهة أولياء أمة محمد.. فهم لا يعرفون إلا الله، ولا يبحثون إلا عن الله.

وقد قال مثلها ابن عطاء الله يحث المريدين على توحيد الوجهة: (كن أيها العبد إبراهيمياً، فقد قال أبوك إبراهيم ــ صلوات الله عليه وسلامه ـ: لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (الأنعام:76).. وكل ما سوى الله آفل إما وجوداً وإما إمكاناً، وقد قال سبحانه: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ (الحج:78).. فواجب على المؤمن أن يتبع ملة إبراهيم،

ومن ملـة إبـراهيم رفـع الهمـة عن الخلـق، فإنـه يـوم زج بـه في المنجنيق تعرض له جبريل عليه السلام فقال: ألـك حاجـة؟ فقـال: أما إليك فلا وأما إلى اللـه فبلى، قـال: فاسـئله، قـال: حسـبي من سؤالي علمه بحـالي.. فـانظر كيـف رفـع إبـراهيم ـ صـلوات اللـه وسلامه عليـه ـ همتـه عن الخلـق ووجهها إلى الملـك الحـق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتـال على السـؤال من اللـه، بـل رأى الحـق سـبحانه أقـرب إليـه من جبريـل، ومن سـؤله، فلـذلك سـلمه من نمروذ ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله، وخصه بوجود إقباله)

وقال في حكمـة من حكمـه الجليلـة يحـذر من الانقطـاع في الطريـــق عن اللـــه بـــأي شـــاغل من الشـــواغل، أو زخـــرف من الزخارف: (لا ترحل من كون إلى كون، فتكون كحمار الرحى يسير والذي ارتحل إليه هو الـذي ارتحـل منـه، ولكن ارحـل من الأكـوان إلى المكون: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (النجم:42)

والعارفون من المسلمين يعتـبرون سـكون الإنسـان للأشـياء وعدم عبوره منها وقوفـا بـل سـقوطا، فعن القاسـم بن عبـد اللـه البزار قال سمعت سري بن المغلس يقول: (لو أن رجلا دخـل إلى بستان فيه من جميع ما خلـق اللـه تعـالى من الأشـجار، عليهـا من جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار، فخاطبه كل طائر منها بلغتـه، وقال: السلام عليك يا ولي الله، فسكنت نفسه إلى ذلـك كـان في يدها أسيرا)

قلت: ألا ترين في هذا خطورة على إنسانية الإنسان وعلاقتـه بالأكوان؟

قالت: لا.. في هذه الوجهة تجتمع الإنسانية مـع العقلانيـة مـع الربانية..

فالعارف لا يحجب عن نفسه وعن الكـون احتقـارا لنفسـه أو احتقارا للكون.. وإنما هو يعيد في ذهنه نسبة الكـون إلى صـاحبه..

وبذلك تنتظم أموره جميعا..

العارف ينظر إلى الكون.. ويعيش الكون..

ولكن نظرته تختلف كثيرا عن نظرة الماديين الذين يصارعون الكون ويصارعون أنفسهم.. ولا يـرون في الكـون ولا في أنفسـهم من جوانب الجمال ما حجبهم عنه صراعهم.

العارفون ينظـرون إلى الكـون المسـبح قبـل أن ينظـروا إلى الكون المسخر، فيجتهدون في تفقه أسرار تسابيحه، قال الغزالي: (فإذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبــوأ منــه حيث يشــاء من غــير حاجــة إلى أن يتحــرّك إليهــا بجســمه وشخصــه، فهــو من مطالعــة جمــال الملكــوت في جنــة عرضــها السموات والأرض، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصــلاً، إلا أنهم يتفــاوتون في ســعة منتزهــاتهم بقــدر تفاوتهم في اتساع نظرهم وسعة معارفهم، وهم درجات عنـد اللـه ولا يدخل في الحِصر تفاوت درجاتهم)

إن هـذه هي دعـوة القـرآن إلى التعـرف على اللـه من خلال الآفاق والأنفس..

لقد وصف القرآن هؤلاء العـارفين وعلاقتهم بـالكون، فقـال: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَـارِ لَآَيَـاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَـابِ (190) الَّذِينَ يَـذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًــا وَقُعُــودًا وَعَلَى جُنُــوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْـقِ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَـا مَـا خَلَقْتَ هَـذَا بَـاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (191) رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَـهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (192) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًـا يُنَـادِي لِلْإِيمَـانِ أَنْ آَمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآَمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَـا مَـعَ الْأَبْرَارِ (193) رَبَّنَا وَآَتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَـا يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (194)) (آل عمران)

قلت: ولكـني أسـمع بـأن الروحـانيين من المسـلمين ينفـون

الأكوان؟

قال: هم ينفونها من حيث ذاتهـا، وثبتونهـا من حيث انتسـابها إلى الله، فالعارفون لا يتوجهون إلا إلى اللـه، ولا ينحجبـون بشـيء عن الله.. يرددون مع أبي مدين قوله:

الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكل دون الله أن حققته عدم على التفصيل والإجمال

واعلم بأنك والعوالم كلها لولاه في محو وفي اضمحلال

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال

والعارفون بربهم لم يشهدوا شيئاً سوى المتكبر المتعال

ورأوا سواه على الحقيقة هالكاً في الحال والماضي والاستقبال

وعبر الآخر عن انشغال العارف بالله عن الكون بقوله:

شغل المحب عن الهواء بسره في حب من خلق الهواء وسخره

والعارفون عقولهم معقولة عن كل كون ترتضيه مطهره

فهم لديه مكرمون وفي الورى أحوالهم مجهولة ومستره

وباعتبار هذا المعنى كان أصدق كلمة قالها الشاعر ـ كمـا ورد في الحديث كلمة لبيد (1): ألا كل شيء ما خلا الله باطل ـ

قلت: إن هذا عينه ما يردده أهل وحدة الوجـود.. بـل إن هـذا

(1) وقد ورد الحديث بصيغ مختلفة منهـا أشـعر كلمـة تكلمت بهـا العـرب، وفي روايـة أصدق كلمة قالها شاعر، وفي أخرى أصـدق بيت قالـه الشـاعر، وفي أخـرى أصـدق بيت قالته الشعراء، وفي أخرى أصدق كلمة قالتها العرب.

النوع من الوحـدة نجـده عنـد اليهـود أنفسـهم.. ففي القبـالاه نجـد كلمات كثيرة تشير إلى هذا المعنى.

قـال: نعم.. قـد تجـد بعض الكلمـات ممـا يوهمـك أن وحـدة الوجود الفلسفية أو اليهودية هي عينها وحدة الوجـود الـتي ينسـبها البعض إلى العارفين من المسلمين.. ويؤيـد هـذا بعض العـوام من المسـلمين ممن لم يكن لهم من القـدرة العقليـة مـا يحللـون بـه الكلام ليفهموا حقيقة المراد منه.

ولكن التأمل العقلي والتحليـل المنطقي يـدل على أن وحـدة الوجود المشار إليها عند الصوفية المسلمين مغايرة تمام المغـايرة لقـول الفلاسـفة ووحـدتهم الـتي لا تفـرق بين الخـالق والمخلـوق والصنعة والصانع.

فليس المراد بوحدة الوجود عنـد الصـوفية وجـودين قـديمين اتحدا، ولا قديم وحادث اتحدا، لأنهم يعتقدون ـ انطلاقا من المصادر المقدسة ـ أن الله لا يحل في شيء، ولا يمازج شـيئاً، ولا شـئ في ذاته في خلقه، ولا من خلقه في ذاتـه، وقربـه وبعـده ليس كقـرب الأجسام وبعـدها، ولا هـو محصـور ولا محـدود.. تـنزه عن أوصـاف خلقه.

لقد قـال محي الـدين بن عـربي وهـو من رجـالات التصـوف الـذي أسـيء فهم مقاصـدهم: (لـو صـح أن يـرقى الإنسـان عن إنسانيته، والملك عن ملكيتـه، ويتحـد بخالقـه تعـالى، لصـح انقلاب الحقائق وخرج الإله عن كونه إلهاً، وصار الحق خلقاً، والخلـق حقـاً، ومـا وثـق أحـد بعلم، وصـار المحـال واجبـاً، فلا سـبيل إلى قلب الحقائق أبداً)

انظر كيف ينفي الاتحاد والحلول بشدة، فما كان في كتبه مما يوهم ذلك فهو إما مدسوس عليه، وإما فهم على غير حقيقته[1].

1) انظر: اليواقيت والجواهر:1/80 –81) وقد قـال ابن عـربي في الفتوحـات (جـ4 ص372-379):(ما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد ومن قال بالحلول فهو معلول لا دواء لـه

وبمثل هذا نطق كل العارفين.. فقد قال الشيخ علوان الحموي (ت 936هـ) في تعليقه على كلام محمد بن واسع تلميذ الحسن البصري في فنائه عن الخلق بالحق: (ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله فيه) قال معلقاً على هذا: (مذهب أهل الحق أن مولانا عز وجل لا يحل في شيء، ولا يحل فيه شيء، وكلما ورد عليك ما يوهم ظاهره الحلول فأوله)

وقد بين الشيخ الهجويري (ت. 470هـ) في كتابه (كشف المحجوب) تعليقاً على هذه العبارة قوله: (إن المرأ عندما تغلبه المحبة للذات الإلهية يصل إلى مرحلة لا يرى فيها الصنع وإنما يرى الصانع)

وقال أحد العارفين: (أراد بهذه الرؤية الشهود لا رؤية البصر لأن الرؤية من خصائص البصر، والشهود من خصائص البصيرة)

سكتت قليلا، ثم قالت: لقد نطق القرآن بهذه المعاني.. بل إن تأمل القرآن هو الذي جعل هؤلاء العارفين يصلون إلى ما وصلوا إليه من حقائق..

اسمع لهذه الآية.. وحاول أن تعيشها.. ففيها من الحقائق ما يجعل القلب لا يعرف وجهه إلا الله نافيا ما سواه..: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الحديد:3)

فالتأمل في المعاني العميقة التي تحملها هذه الأسماء يلبس الأشياء جميعا ثوب العدم، ليبقى الحق وحده هو المتفرد بالوجودالحقيقي.

لقد قال سيد قطب ــ هو مثال العارف المسلم المملوء بالروحانية العميقة ــ مبينا عمق المعاني التي تدل عليها هذه الأسماء الحسنى: (وما يكاد يفيق من تصور هذه الحقيقة الضخمة التي تملأ الكيان البشري وتفيض، حتى تطالعه حقيقة أخرى، لعلها

(

أضخم وأقـوى، حقيقـة أن لا كينونـة لشـيء في هـذا الوجـود على الحقيقة، فالكينونة الواحدة الحقيقية هي لله وحـده سـبحانه ؛ ومن ثم فهي محيطة بكل شيء، عليمة بكـل شـيء ﴿ هُـوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِـرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾

ويقول عن المعـاني الـتي يستشـعرها، وهـو يعيش في ظلال هذه الأسماء: (الأول فليس قبله شيء. والآخر فليس بعده شــيء. والظاهر فليس فوقـه شـيء. والبـاطن فليس دونـه شـيء.. الأول والآخر مستغرقا كل حقيقة الزمـان، والظـاهر والبـاطن مسـتغرقا كل حقيقة المكان. وهما مطلقتان. ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة لشيء إلا للـه. وهـذه كـل مقومـات الكينونـة ثابتـة لـه دون سواه. حتى وجود هذا القلب ذاته لا يتحقـق إلا مسـتمدا من وجـود الله. فهذا الوجود الإلهي هو الوجود الحقيقي الذي يستمد منـه كـل شيء وجوده. وهذه الحقيقة هي الحقيقة الأولى التي يسـتمد منهـا كل شيء حقيقته. وليس وراءها حقيقة ذاتية ولا وجود ذاتي لشيء في هذا الوجود)

لقد عبر القرآن ـ كذلك ـ عن هذا المعنى باسـم اللـه (الأحـد) في قوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الاخلاص:1)، وهو اسم عظيم يحوي ـ مع التأمل ـ الكثير من الدلالات، ولهذا لما خشي محمد أن لا يقدر حق قدره ـ كما قد لا تقدر المعاني الواردة في السورة حق قـدرها ـ ذكر أن هذه السورة ـ التي تحوي هذه الحقيقـة الجليلـة ــ والـتي نتوهمها صغيرة تعدل ثلث القرآن.

ولهذا كان بلال في رمضاء مكة في بداية الإسـلام يصـيح بهـا في نشوة عظيمة، وقد فـني عن كـل العـذاب المحيـط بـه: (أحـد أحد)

ولا غرابة في كل هذا ـ كما يقول سيد قطب ـ (فـإن الأحديـة التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: قل هو الله أحـد. هـذه الأحديـة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة)

ولهذا ـ خلاف ما قد نتصور ـ فإن غايـة رسـالة محمـد لم تكن الدعوة والتربية على معنى التوحيد الذي ينفي الشريك فقط، وإنما الدعوة والتربية على معنى الأحدية الذي ينفي الوجود الـذاتي لغـير اللــه.. وعلى كليهمــا تقــوم حيــاة المــؤمن، ومن كليهمــا يســتمد العارف[1].

لقد شرح سيد قطب بتعبيره الجميـل المعـاني الـتي يعيشـها العـارف، وهـو في ظلال هـذا الاسـم الجليـل، فقـال: (إنهـا أحديـة الوجود.. فليس هناك حقيقة إلا حقيقته. وليس هناك وجـود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر فإنما يستمد وجـوده من ذلـك الوجـود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية)

وهذه الحقيقة هي التي تتأسـس عليهـا كـل حقـائق المعرفـة والسلوك، وهي النهاية التي ينتهي إليهـا سـلوك العـارف ليبـدأ بهـا اسـتمداده، فهـو مـا دام ينظـر إلى الوجـود نظـرة الشـريك الـذي يـزاحم ربـه في وجـوده، لا يسـتمد من هـذا الوجـود غـير الجهـل والتشتت، لكنه إن خلـع عنـه هـذا الوجـود المشـرك، وحلاه بحليـة الأحدية، فإن الوجود كله يصبح عيونا تفيض بالمعارف على قلبه.

ولهذالا يفهم العـارفون من قـول (لا إلـه إلا اللـه)، مـا يفهمـه الكثير من قصر معناها على (لا معبود بحـق إلا اللـه)، بـل يفهمـون ذلك، ومعه يفهمون أن (لا موجود بحق إلا الله)

قلت: ولكـني سـمعت بكثـير من المسـلمين يكفـرون سـيدا وغيره بهذا.

قالت: دعك منهم.. هم فئـة محـدودة معروفـة بـالتطرف في كل شيء.. لعله لم يصب الإسلام بأنواع البلاء إلا بسببها.

فهذه المجموعة هي التي تزعمت تطرف الإرهاب.. وتزعمت

1) انظر تفاصيل هذه المسألة والموقف القـرآني منهـا في رسـالة (أكـوان اللـه) من هذه السلسلة.

تطرف الشعوذة.. وتزعمت تطرف التفريق بين المسـلمين.. وهي تتزعم أنواعا كثيرة من التطرف أخطرها أنها الحجـاب الأعظم بين قومنا وبين الإسلام.

وأنبئك سرا.. أنـا الـتي أتهم بـالمروق.. كنت مثـل قـومي في نكرانهم للإسلام.. وكان أولئك من سبب ذلك النكران.. ولكـني مـا تخلصـت من عقـدتهم، ورحت أبحث عن الحقـائق من أهلهـا حـتى بان لي من حقائق الإسلام ما جعلني مارقة بين قومي.

قلت: ولكن أولئـك يـذكرون أقـوالا لعلمـاء لهم اعتبـارهم في الإسلام؟

قالت: هم لا يقرؤون شيئا.. فـإذا قـرأوا ينتقـون مـا يقـرؤون، ويقطعونه تقطيعا.

هم يزعمون أنهم يستمدون من ابن القيم.. مع أن ابن القيم يتحدث عن هذه المعاني من دون إنكار لها.. فهو يقول في مــدارج السالكين عند حديثه عن منزلة الفناء: (الفناء ضـد البقـاء، والبـاقي إما باق بنفسه من غير حاجة إلى من يبقيـه، بـل بقـاؤه من لـوازم نفسه وهو الله تعالى وحده، وما سواه فبقاؤه ببقـاء الـرب، وليس لـه من نفســه بقـاء، كمـا أنـه ليس لـه من نفســه وجـود، فإيجـاده وإبقاؤه من ربه وخالقه، وإلا فهو ليس له من نفسه إلا العدم، قبـل إيجاده والفناء بعد إيجاده)

ويرفع توهم أن المراد بأن نفسه وذاته اقتضت عدمه وفنــاءه بقوله: (إنما الفناء أنك إذا نظرت إلى ذاته بقطـع النظـر عن إيجـاد موجده له كان معدوما، وإذا نظرت إليه بعد وجوده مع قطع النظر عن إبقاء موجده له استحال بقاؤه، فإنه إنما يبقى بابقائـه كمـا أنـه إنما يوجد بإيجاده فهذا معنى قولنا إنه بنفسه معدوم وفان فافهمه)

قلت: وعيت مقاصــد العــارفين من المســلمين من هــذا.. ولكني لم أع الفرق بينهم وبين سائر الطوائف.

قالت: لقـد ذكـرت اليهـود.. وتصـورت أن في اليهوديـة مثـل هذا.

قلت: أجل..

قالت: لتفهم الفرق بين هذه المعاني عنـد المسـلمين وعنـد غـيرهم من الطوائـف وخاصـة اليهـود تحتـاج إلى تميـيز مهم بين نمطين من التصوف، فالتصوف هو الاسم الذي اشـتهرت بـه هـذه المعاني (1):

أما ألهما ـ وهو تصـوف المسـلمين ــ فهـو تصـوف يـدور في نطـاق إطـار توحيـدي، ويَصـدُر عن الإيمـان بإلـه يتجـاوز الإنسـان والطبيعـة والتـاريخ، ومن ثم يـؤمن بالثنائيـات الدينيـة الفضفاضـة (سماء/أرض ـ إنسان/طبيعة ـ إله/إنسان)

وتتبدَّى هذه الرؤية في تدريبات صـوفية يقـوم بهـا المتصـوف ليكبح جماح جسده تعبيراً عن حبه للإله وعن محاولته التقرب منـه، وهو يعرف مسبقاً استحالة الوصـول والتوحـد مـع الإلـه، فـالحلول الإلهي يتنافى مع الرؤية التوحيدية، ولذلك، فإن وحدة الوجـود عنـد الصوفية المسلمين ـ بمعناها الفلسفي ـ قمة الكفـر.. والمتصـوف الذي يدور في إطار توحيدي يعبِّر عن حبه الإلهي عن طريـق فعـل في التاريخ والدنيا يلتزم فيه بقيم الخـير ويُعلي بـه من شـأن القيم المطلقة المُرسَلة للإنسان من الإله ويصلح به حال الدنيا.

أما النمط الثاني من التصوف ـ وهـو تصـوف اليهـود.. ومثلـه كثير من صوفية الأديان والمـذاهب المختلفـة، ولعـل بعضـه سـرى لبعض طوائـف المسـلمين ــ فيـدور في إطـار حلـولي يصـدر عن الإيمان بالواحدية الكونية، حيث يحـل الإلـه في الطبيعـة والإنسـان والتاريخ، ويتوحد معها ويصبح لا وجود لـه خارجهـا، فيُخـتزَل الواقـع بأسره إلى مستوى واحد يخضع لقـانون واحـد.. ومن ثم، يسـتطيع

---

1) انظـر هـذه التفاصـيل.. ونظـرة اليهوديـة للتصـوف في (الموسـوعة اليهوديـة) للمسيري.

من يعرف هذا القانون (الغنوصي) أن يتحكم في العالم بأسره.

فالتحكم في العالم وفي الأشياء هو هدف المتصوف في هـذا الإطار... ولهذا تجده ـ بـدلاً من التـدريبات الصـوفية الـتي يكبح بهـا الإنسان جسده ويطوع لها ذاته ـ يأخذ شـكل التفسـيرات الباطنيـة وصنع التمائم والتعاويـذ والبحث عن الصـيغ الـتي يمكن من خلالهـا التأثير في الإرادة الإلهية، ومن ثم التحكم الإمبريالي في الكون.

وحتى لو أخذ هذا التصوف شكل الزهـد، فالهـدف من الزهـد ليس تطويع الذات، وإنما الوصول إلى الإله والالتصاق بـه والتوحـد معه والفناء فيه، ليصبح المتصوف عارفاً بالأسـرار الإلهيـة، ومن ثم يصبح هو نفسه إلهاً أو شبيهاً بالإله.

والمتصوف بهذا النمط لا يكترث إلا بذاته، ولذا فهو لا يتحــرك في الزمان والمكـان الإنسـانيين، ولا يـأتي بأفعـال في التـاريخ، ولا يهتم بإصلاح الدنيا، بل يضع نفسه فـوق الخـير والشـر، وفـوق كـل القيم المعرفية والأخلاقية.

ألا ترى الفرق بينهما عظيما؟

قلت: أجــل.. فالتجربــة الصــوفية التوحيديــة تطويــع للــذات وطاعــة للخــالق وإصـلاح للـدنيا، وأمـا الثانيـة فهي تحقيـق للـذات وتطويع للخالق وبحث عن التحكم في الدنيا.

ولكن كيف يستخدم كلاهما مصطلحا واحدا (تصوف) مع هذا؟

قـــال: العاقـــل لا ينحجب بالمصـــطلحات.. بـــل يبحث عن الحقائق..

الروحانية الإسلامي ـ التي استطاع التصوف المعتدل أن يعبر عنها أحسن تعبير ـ تمثل قمة التوجه إلى الله، وقمة الاستسلام له.

ولكن الروحانية المادية التي يمثلها التصوف الحلولي اليهودي

أو المسـيحي.. ليس سـوى توجـه للـذات، بـل هـو في أشـكاله المتطرفة، ليس سوى شكل من أشكال العلمنة.. فإذا كان الإله أو الخالق هو مخلوقاته، فـإن مخلوقاتـه هي هـو.. وإذا حـل الإلـه في المادة، فإن الطبيعة تصبح هي الإله، كمـا يـذكر إسـبينوزا، كمـا أن صـاحب العرفـان يصـبح قـادراً على التحكم في الإلـه والطبيعـة والكون.. وفي هذا نرى ملامح سوبرمان نيتشـه، الـذي لا يـؤمن إلا بإرادة القوة ويتجاوز أخلاق الضعفاء.

ولهـذا، فـإن المتصـوف اليهـودي لا يتجـه نحـو تطويـع الـذات الإنسانية الفردية لله، وإنما يحـاول الوصـول إلى فَهْم طبيعـة الإلـه من خلال التأمل والمعرفة الإشراقية الكونية (الغنوص أو العرفـان) بهـدف التأثير في الإله والتحكم الإمبريالي في الواقع.

ولهذا نرى ارتباط التصوف اليهودي أو القبَّالاه بالسحر، ولهـذا أيضاً كانت علاقة السحر بالعلم والغنوصية.

وقد وصف العالم جيرشوم شوليم الصوفية اليهودية بأنها (ثيو صوفية)، أي أنها معرفة الإله من خلال التأمل والمعرفة الإشـراقية الكونية (الغنوص) أو العرفـان، ومن ثم، فهي تبتعـد عن التمرينـات الصـوفية ومحاولـة الـذوبان أو إفنـاء الـذات الإنسـانية في الـذات الإلهية.

قلت: وعيت كل ما ذكرته.. ولكن ألا ترين أن هـذا النـوع من الروحانية فيه نوع من الارستقراطية!؟

قالت: ما تقصد؟

قلت: إن هـذه المعـاني الـتي ذكرتهـا لا يسـتطيع اسـتيعاب فلسـفتها إلا الأكـابر.. أمـا البسـطاء من النـاس، فهم لا يطيقـون فهمها.. وبالتالي، فإن المعاني الروحية للإسلام من اختصاص الثلـة لا العامة؟

قالت: في كلامك بعض الصحة.. وكثير من الأخطاء.

أما ناحية الصحة.. فهي أن المعاني الروحية الراقيـة بـدرجاتها العالية لم تكتمل إلا للأكـابر من الأوليـاء.. ولا حـرج في هـذا.. ففي كل أمة من الأمم العامة والقديسون.

وقـد أشـار القـرآن إلى هـذه الثلـة حاثـا على سـلوك سـبيها باعتبارها النموذج الأكمل للإنسان، فقـال: ثُمَّ أَوْرَثْنَـا الْكِتَـابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِـدٌ وَمِنْهُمْ سَـابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (فاطر:32)

والقرآن يسمي هؤلاء (مقربون)..: وَالسَّـابِقُونَ السَّـابِقُونَ (10) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (الواقعة: 11)

والقرآن يعتبر هذا النوع ثلة قليلـة في جميـع الملـل: ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (13) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ (الواقعة: 14)

ولكن هــذا لا ينفي انتشــار المعــاني الروحيــة العاليــة بين المؤمنين..

ففي القــرآن وفي كلام محمــد وهديــه منظومــة كاملــة من التوجيهات والتشريعات ليس لها من هـدف سـوى ربـط المؤمـنين بالله..

لا شك أنك تعرف الأذكار والأدعية وأنواع المناجاة التي وردت بها النصوص المقدسة للمسلمين؟

قلت: أجل..

قالت: لقد بحثت في تلك النصوص ودرستها دراســة متأنيــة، وقــارنت بينهــا وبين أنــواع الأدعيــة والأذكــار في جميــع الأديــان والمذاهب.. فلم أجد روحانية أرق من تلك الروحانية التي تضــمنتها أدعية المسلمين.

قلت: ولكني أرى بدعا كثيرة دخلت.. فهناك أنواع من المناجاة لم ترد في النصوص المقدسة.. ومع ذلك أرى المسلمين يلهجون بذكرها.

قالت: لقد بحثت في تلك الأنواع أيضا.. فرأيتها تصب فيما ورد في النصوص.. لقد صب الصالحون من المسلمين ممن أوتو قدرات بلاغية عالية المعاني الروحية الرقيقة في صورة أدعية وابتهالات ومناجاة لتكون معراجا يرقى بالمريدين إلى الله.

ولا أرى فيها أي بدعة.. فقد كان محمد يقر ما يقوله أصحابه من أدعية ومن أنواع الأذكار ما لم يخالف ما ورد في العقيدة الإسلامية من حقائق.

سأذكر لك نموذجا من هذا النوع لترى فيه كيف تنتظم المعاني الروحية العالية في مناجاة رقيقة.

هذه المناجاة هي المناجاة المنسوبة للإمام الحسين، وينسبها بعضهم لابن عطاء الله..

اسمع ما يقول: (**إلهي أنا الفقير في غناي فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟!.. إلهي أنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟!**)

إن هذه المناجاة.. بل هذه الحكمة مما يميز الروحانية الإسلامية.. إنها روحانية افتقار إلى الله.. ولجوء إلى الله.. وانطراح بين يدي الله.. وهو تصديق لما ورد في القرآن: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (فاطر:15)

ولذلك.. فإن هذا الفقر يملأ صاحبه بالتواضع لله.. ولخلق الله.. وتجعله في قمة السلام بينه وبين نفسه، وبينه وبين الله.. وبينه وبين الخلق.

ثم يقول: (**إلهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول**

مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء واليأس منك في بلاء)

هذه ناحية أخرى مهمة تجعل العارفين من المؤمنين.. بل تجعل العوام منهم متوجهين دائما إلى الله..

فالله في الإسلام لم يتخل عن خلقه هو معهم يرعاهم في كل لحظة مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (الأنعام:59).. مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (المجادلة:7)..: يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (غافر:19)..: وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (يونس:61)

وهو يقلب المقادير على مقتضى حكمته ورحمته وعدله.. لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (الانبياء:23)

ثم يقول في أدب المؤمن العارف بنفسه: (**إلهي مني ما يليق بلؤمي، ومنك ما يليق بكرمك).. أي مني ما يليق بلؤمي الذي هو وصف العبيد من مبارزتك بالذنوب، ومنك ما يليق بكرمك الذي هو وصف الربوبية من التجاوز والعفو وستر العيوب)**

ثم يقول: (**إلهي وصفت نفسك باللطف والرأفة بي قبل وجود ضعفي، أفتمنعني منهما بعد وجود ضعفي**)، وهذا توسل من المؤمن إلى الله بأسمائه.. وهو ما يقرب المؤمن إلى الله قربا عظيما.

ثم يقول متبريا من الحول والقوة التي قد تحجبه عن الله:

(إلـهي إن ظهرت المحاسن مني فبفضلك، ولـك المنـة علي، وإن ظهرت المساوي مني فبعـدلك، ولـك الحجـة علي)

ثم يتوجـه إلى اللــه متوسـلا إليـه بكمالاتـه لطلب حاجاتـه: **(إلـهي كيف تكلني إلى نفسي وقد تـوكلت لي؟ وكيـف أضـام وأنت الناصـر لي؟ أم كيـف أخيب وأنت الحفي بي؟**

ها أنا أتوسل إليك بفقري إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشـكو إليـك حـالي وهو لا يخفى عليك؟ أم كيـف أتـرجم لـك بمقـالي وهـو منك برز إليـك؟ أم كيـف تخيب آمـالي وهي قـد وفـدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالي وبك قامت وإليك؟

إلـهي ما ألطفك بي مع عظيم جهلي، ومـا أرحمـك بي مع قبيح فعلي!)

كانت (آنا ماري شميل) تقرأ هذه المناجاة الطويلة عن ظهـر قلب بخشوع ورقة ملأتني بمشاعر لا أستطيع وصفها.

قلت لها: إن هذا الإمام يذكر معـاني جليلـة.. فهـل تـرين كـل هذه المعاني مستنبطة من النصوص المقدسة؟

قـالت: لـو كـان الـوقت كافيـا لاسـتدللت لكـل كلمـة قالهـا بنصوص كثيرة من القرآن والسـنة.. إن الروحانيـة الإسـلامية فيض من القرآن والسنة.. وهذه ميزة لم أجدها في أي دين من الأديان.. اذهب إلى كتابنا المقدس.. وحاول أن تجد ما يملأ روحك بمـا يلـبي أشـواقها إلى اللــه.. أنـا موقنـة أنـك لن تجـد إلا مـا يملأ نفسـك بالغثيان[1]..

---

1) انظر في هذا رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

سـكتت قليلا، ثم قـالت: بتلـك الكلمـات الرقيقـة الـتي تفـوح بعطر الربانية كان القديسون من المسلمين يسيرون ليملأوا أفـواه العوام والخواص بذكر الله والتوجـه للـه والامتلاء بحب اللـه، وحب أوليائه.

ولذلك.. فإن الروحانية الإسلامية روحانية عامة حتى في حال ضعف المسلمين..

لقـد رأيت بعض المسـلمين من المنحـرفين أو من السـكارى قد يقاتل من يسب ربه أو كتابه أو نبيه.. إنه يختزن في نفسه ـ مـع كونه منحرفا في نظر الإسلام ـ إيمانا عظيما ومحبة عظيمــة.. نعم غلبته شهواته.. ولكن الروحانيـة الإسـلامية لا زالت تجذبـه.. ولعلهـا في يوم من الأيام تستطيع أن تخلصه.

وهذا هو سر قوة الإسلام..

فقوة الإسلام في روحانيتة.. وقوة روحانيته في ربانيته.

سكتت قليلا، ثم قالت، وهي تعتصر ألمـا: إن المسـيح يسـب في بلادنا.. ويسخر منه، فيثور المسـلمون ويتـألمون.. أمـا نحن فلا ننبس ببنت كلمة..

أتدري لم؟

قلت: لم؟

قالت: لأن كتابنا المقدس لا يحمل أي احترام لله..

قارن ما سمعته من تلـك الأدعيـة والمناجـاة بمـا يذكـه كتابنـا المقدس من مناجاة الأنبياء.. لا الأولياء..

لقد جاء في سـفر الملـوك الأول (17:ـ 20) عن إيليـا النـبي وهو يخاطب الله: (وصرخ إلى الرب وقال: أيها الـرب إلهي، أأيضـاَ إلى الأرملة التي أنا نازل عندها أسأت باماتتك ابنها)

وفي سفر الخروج (5:ـ 22) عن موسى النبي وهـو يخـاطب الله: (فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى الرَّبِّ وَقَالَ: لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَى شَعْبِكَ يَـارَبُّ؟ لِمَاذَا أَرْسَلْتَنِي؟ فَمُنْذُ أَنْ جِئْتُ لأُخَاطِبَ فِرْعَـوْنَ بِاسْـمِكَ، أَسَـاءَ إِلَى الشَّعْبِ، وَأَنْتَ لَمْ تُخَلِّصْ شَعْبَكَ عَلَى الإِطْلاَقِ)

وفي سفر إشـعياء (63:ـ 17) أن إشـعيا النـبي خـاطب اللـه قـائلاً: (لمـاذا أضللتـنا يـا رب عن طرقـك؟ قسـيت قلوبنـا عن مخافتك)

وفي مزمور (10: 1) أن داود النبي خاطب الله قائلاً: (يارَبُّ لماذا تقف بعيداً؟ لماذا تختفي في أزمنة الضيق؟)

بهـذه الوقاحـة يخـاطب الأنبيـاء في الكتـاب المقـدس اللـه.. فكيف تريد من عوامنا أن يخاطبوا اللـه أو المسـيح أو أي نـبي من الأنبياء.

العقلانية:

قلت: حدثتني عن الضـابط الأول للروحانيـة الإسـلامية.. هـو ضـابط الربانيـة، فحـدثيني عن الضـابط الثـاني.. والـذي سـميته (العقلانية)

قالت: ميزة الإسلام الكبرى أنه دين ينسجم مع جميع لطائف الإنسان.. مـع عقلـه.. وقلبـه.. وروحـه.. وسـره.. بـل ينسـجم مـع جسده.. ومجتمعه.. والكون جميعاً[1].

ولذلك، فالعقلانية إطار من الأطر التي تحكم جميع السلوكات والعقائـد حـتى لا يقـع العقـل في الخرافـة.. ولا يقـع السـلوك في الشعوذة.

وهـذا بخلاف جميـع مـا عرفتـه من أديـان ومـذاهب وأفكـار.. فكلها يحوي مغالطات عجيبة لا تستقيم تحت موازين العقل.

1) انظر الأدلة المفصلة على هذا في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

سأضرب لك مثالا على الدجل الذي تمارسه الكنيسة لتكسب أتباعا جددا..

هي لا تقنعهم بالعقل.. ولا تحدثهم عن الله.. وإنما تسارع إلى ملأ جانب الشعوذة والخرافة التي يعشقها العوام.. وتنفر منها العقول.

لا شك أنك تعرف (الرمح المقدس)

قلت: لم أسمع بها.

قالت: إنها من قصة من قصص الحروب الصليبية التي استطاع رجال ديننا بواسطتها إقناع عقول المخلصين لإسالة أنهار دماء المسلمين(1).

لقد دفع الصليبيون من أجل عبور آسيا الصغرى ثمناً باهظاً، إذ فقدوا أفضل جنودهم وخيرة عساكرهم، بينما استولى اليأس والفزع على البقية الباقية..

وبدأ الخوف من تفكك الجيش وفرار الجنود يساور القادة، فعمدوا إلى بعض الحيل الدينية لصد هذا الخطر وربط الجنود برباط العقيدة.. ومن تلك الحيل التى روجوا لها ما رواه المؤرخون عن ظهور المسيح والعذراء أمام الجنود الهيابين ووعدهم بالصفح عن الخطايا والخلود فى الجنة إذا ما استماتوا فى معاركهم ضد المسلمين..

غير أن هذا الأسلوب النظرى لم يلهب حماس الجنود، ولم يحقق الغرض الذى ابتدعه الصليبيون من أجله، فكان لا بد من أسلوب آخر ينطوى على واقعة مادية يكون من شأنها إعادة الإيمان إلى القلوب التى استبد بها اليأس، وتقوية العزائم التى أوهنتها الحرب، وهنا أذيع بين الجنود قصة اكتشاف الرمح

1) هذه القصة نقلها الشيخ محمد الغزالي من كتاب (الشرق والغرب)

المقدس..

تلك الواقعة التى روى تفاصيلها المؤرخ (جيبون) فضلاً عن غيره من المؤرخين المعاصرين. قال: إن قساً يدعى بطرس بارتلمى من التابعين لأسقفية (مارسيليا) منحرف الخلق ذا عقلية شاذة، وتفكير ملتو معقد زعم لمجلس قيادة الحملة الصليبية، أن قديساً يدعى (أندريه) زاره أثناء نومه، وهدده بأشد العقوبات إن هو خالف أوامر السماء، ثم أفضى إليه بأن الرمح الذى اخترق قلب المسيح مدفون بجوار كنيسة القديس بطرس فى مدينة (انطاكيا)، فروى (بارتلمى) هذه الرؤيا لمجلس قيادة الجيش، وأخبرهم بأن هذا القديس الذى طاف به فى منامه قد طلب إليه أن يبادر إلى حفر أرض المحراب لمدة أيام ثلاثة، تظهر بعدها (أداة الخلود) التى تخلص المسيحيين جميعاً، وأن القديس قال له: ابحثوا تجدوا.. ثم ارفعوا الرمح وسط الجيش، وسوف يمرق الرمح ليصيب أرواح أعدائكم المسلمين..

وأعلن القس (بارتلمى) اسم أحد النبلاء ليكون حارساً للرمح، واستمرت طقوس العبادة من صوم وصلاة ثلاثة أيام دخل فى نهايتها اثنا عشر رجلاً ليقوموا بالحفر والتنقيب عن الرمح فى محراب الكنيسة.

لكن أعمال الحفر والتنقيب التى توغلت فى عمق الأرض اثنى عشر قدماً لم تسفر عن شىء. فلما جن الليل أخلد النبيل الذى اختير لحراسة الرمح إلى شىء من الراحة، وأخذته سنة من النوم، وبدأت الجماهير التى احتشدت بأبواب الكنيسة تتهامس..!..

فاستطاع القس (بارتلمى) فى جنح الظلام أن ينزل إلى الحفرة، مخفياً فى طيات ثيابه قطعة من نصل رمح أحد المقاتلين العرب، وبلغ أسماع القوم رنين من جوف الحجرة، فتعالت صيحاتهم من فرط الفرح، وظهر القس وبيده النصل الذى احتواه بعد ذلك قماش من الحرير الموشى بالذهب، ثم عرض على

الصليبيين ليلتمسوا منه البركة، وأذيعت هذه الحيلة بين الجنود وامتلأت قلوبهم بالثقة، وقد أمعن قادة الحملة فى تأييد هذه الواقعة بغض النظر عن مدى إيمانهم بها أو تكذيبهم لها.

وقد روى التاريخ الكثير من مثل هذه الخرافات.. وبمثلها تنتشر المسيحية للأسف.. فنحن لا ننشر ديننا إلا بطرد الشياطين.. هذا هو منهجنا العقلي الذي نرحل به إلى الله..

كنت أقرأ قبل أيام نشرة صغيرة، على أحد وجهيها صورة العذراء وهى تقطر وداعة ولطفاً، وعلى ذراعها الطفل الإله يسوع يمثل البراءة والرقة.. أما الوجه الآخر للصورة فقد تضمن هذا الخبر تحت عنوان (محبة الآخرين وخدمتهم)، وتحته هذه الجملة (حسبما تتاح لنا فرصة فلنعمل الخير للجميع) (غل 6: 10).. كانت السيدة زهرة ابنة محمد على باشا بها روح نجس، ولما علم أبوها أن (الأنبا حرابامون) أسقف المنوفية قد أعطاه الله موهبة إخراج الأرواح النجسة استدعاه. ولما صلى لأجلها شفيت فى الحال، فأعطاه محمد على باشا صرة بها أربعة آلاف جنيه، فرفضها قائلاً: إنه ليس فى حاجة إليها لأنه يعيش حياة الزهد، وهو قانع بها)[1]

بهذا ومثله تتعامل الروحانية المسيحية..

لقد كان القديسون يرقون إلى مرتبة القداسة.. لا بسبب سلوكهم الطيب وروحانيتهم الرفيعة، وإنما بسبب المعجزات التي تظهر على أيديهم[2].

لقد كان باستطاعة أي محتال أن يترقى في منصبه بالقيام بأي عمل تجهل العقول الساذجة علته الحقيقية مدعياً أن ذلك هبة من الروح القدس له، وإذا كان التاريخ يذكر فزع الإمبراطور (شارلمان) وحاشيته من الساعة التي أهداها إليه الرشيد ظانين

---

1) ذكر هذا الشيخ محمد الغزالي.

2) انظر: العلمانية، لسفر الحوالى.

أن بها قوى خفية من الجن والشياطين، فما بالك بعامة الشعب من الفلاحين والرعاة.

لن أذكر لك شواهد على هذا من القرون الوسطى.. فشواهدها في ذلك العصر المظلم لا تكاد تنتهي.. وإنما سأذكر لك بعض ملامح الخرافات التي لا تزال كنيستنا تمارس نشاطها على أتباعها في العامل الغربي ذاته.

يقول فريزر: (معظم الفلاحين في فرنسا لا يزالون يعتقدون أن القسيس يملك على العناصر قوة خفية لا تقاوم وأنه حين يتلو البعض الصلوات المعينة بالذات التي لا يعرفها سواه والتي لا يحق لغيره أن يرتلها فإنه يستطيع في حالة الخطر الداهم أن يبطل لفترة معينة فعل القوانين الأبدية للعامل الفيزيقي أو حتى يقلبها تماما)

وفي مناطق أخرى يعتقد الناس (أن القسيس يملك القدرة على تشتيت العواصف، وإن لم يكن لكل القساوسة مثل هذه الملكة، ولذا فانه حين يتغير راعى الكنيسة في بعض تلك القرى يبدى أتباع الأبرشية كثيراً من التلهف لمعرفة ما إذا كان الراعى الجديد يتمتع بهذه السلطة كما يسمونها، وعلى ذلك فبمجرد أن تظهر أدنى بادرة بهبوب إحدى العواصف الشديدة فإنهم يخضعونه للاختبار فيطلبون إليه القيام ببعض الشعائر والترتيل ضد الغيوم المتكاثفة فإذا جاءت النتائج محققة لآمالهم ضمن الراعي الجديد لنفسه عطف أتباع الكنيسة واحترامهم)

وهناك قداس خاص يستعمله القساوسة في الأعمال الانتقامية يتحدث عنه فريزر بقوله: (لا يقام هذا القداس إلا في كنيسة متهدمة أو مهجورة حيث تنعق البوم وتمرح الخفافيش وقت الغسق وتأوي إليها جماعات الغجر في الليل، وحيث تقبع الضفادع البرية تحت مذبحها المدنس، فهناك يأتي ذلك القسيس الشرير بالليل ومعه عشيقته الفاجرة الخليعة وحين ترسل الساعة

أولى دقاتها معلنة الحادية عشر يبدأ يهمهم في تلاوة القداس ابتداء من آخره إلى أوله بحيث يفرغ منه يحين تبدأ دقات الساعة تعلن منتصف الليل وتقوم عشيقته بمساعدته في ذلك، أما القربان الذي يباركه فلابد أن يكون أسود اللون كما أنه لا يتناول النبيذ، ولكنه يشرب بدلا منه بعض الماء من بئر سبق أن ألقيت فيها جثة طفل مات قبل تعميده، ثم يرسم علامة الصليب ولكن على الأرض وبقدمه اليسرى ويقوم بأداء كثير من الأعمال الأخرى التي لا يستطيع أي مسيحي أن يراها دون أن يصيبه العمى والصمم والبكم بقية حياته)

وفي سنة 1893م حدثت في جزيرة صقلية حادثة تصور الموضوع أبلغ تصوير فقد كانت الجزيرة تمر بمحنة رهيبة بسبب الجفاف، وكان الجدب قد استمر ستة أشهر متصلة تناقصت كميات الطعام بسرعة وأنتاب الناس ذعر شديد فجربوا كل الطرق المعترف بها للحصول على المطر، خرجت جموعهم من منازلهم وأحاطوا بالصور والتماثيل المقدسة يتوسلون إليها بترتيل الصلوات وإضاءة الشموع في الكنائس طيلة الليل والنهار وعلقوا على الأشجار سعف النخيل الذي سبق لهم أن باركوه في (أحد السعف)(1) ونثروا في الحقول (الكناسة المقدسة) وهى التراب الذي كنسوه من الكنائس في ذلك اليوم، فلم يجد ذلك شيئاً وحملوا الصلبان على أكتافهم وساروا حفاة الأقدام عراة الرؤوس وجلد بعضهم بعضاً بالسياط ولكن دون جدوى.

وأخيراً لجأوا إلى القديسين وتجمعوا حول القديس فرانسيس الذي اعتادوا حسب اعتقادهم أن ينالوا المطر ببركته فأقاموا له الصلوات والترانيم والزينات لكن جهودهم كلها ذهبت هباء فنبذوا معظم القديسين حتى أنهم ألقوا بالقديس يوسف في إحدى الحدائق ليجرب بنفسه الحال التي وصل إليها الناس واقسموا أن يتركوه هناك في الشمس حتى يأتيهم المطر، وأداروا وجوه بعض

1) يوم مقدس عندهم.

القديسين إلى الحائط كما يفعل المدرس بالتلاميذ الأشقياء، وجردوا بعضهم من ملابسهم الفاخرة وقذفوهم بأقذع السباب والشتائم أما القديس ميخائيل رئيس الملائكة ـ حسب عقيدتهم ـ فقد نزعوا أجنحته الذهبية ومزقوها ووضعوا مكانها أجنحة ورقية في بعض المناطق قيد الناس قس بلدته وتركوه عارياً وأخذوا يهتفون إليه بغضب (المطر أو حبل المشنقة)(1)

قلت: هذه عقلانيتنا.. فحدثيني عن عقلانية الروحانية الإسلامية.

قالت: إن القرآن الذي هو مصدر المسلمين الأول يقيم بناء روحيا عميقا على أسس العقل.. وعلى أسس العقل وحده..

ولهذا نجد أعلى صفات المؤمنين في القرآن هي صفة اليقين.. واليقين هو بلوغ المعرفة درجة من اليقين العقلي، بحيث تسري بعدها إلى الجوارح وسائر اللطائف.

فالفلاح الذي أخبر عنه القرآن الكريم عند ذكره للطائفة المؤمنة في سورة البقرة مرتبط باليقين: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:4)

وأئمة الهدى العارفين بالله الذين جعلهم الله نجوما لهداية الخلق هم الذين زاوجوا بين الصبر واليقين، أو المجاهدة والمعرفة ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآياتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة:24)

وآيات الله بأنواعها المختلفة لا يفهمها ولا يصدقها ولا يقدرها حق قدرها سوى الموقنين ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة:118)

---

1) انظر قذائف الحق للشيخ الغزالى: 48 فما بعدها.

ومن هذه الآيات آيات الله الكونية المتجلية في الأرض ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ (الذريات:20)، أو المتجلية في الإنسان والكائنات الحية ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:4)، فكل هذه الآيات لا يدركها سوى الموقنين.

وحقائق القرآن التي هي بصائر البصائر لا يراها ولا يعرفها ولا يهتدي بها ويرحم غير الموقنين ﴿ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:20)

والمعارف المرتبطة بالله لا يفهمها، أو يذعن لها، أو يستشعر سموها سوى الموقنين، ﴿ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الدخان:7)

وأحكام الله لا يدرك حكمها، ويستكنه أسرارها، ويعرف وجوه المنافع والمصالح فيها سوى الموقنين ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:50)، والآية تشير إلى أن إدراك الحسن المتغلغل في ثنايا الأحكام لا يقلب صفحاته سوى الموقنين، ولعله لأجل هذا لم يتصد للبحث في أسرار الشريعة ومقاصدها سوى من جمعوا بين العلم والتقوى، أو بين اليقين والإرادة.

ومن هذه المنطلقات القرآنية أجمع العارفون من المسلمين على أن اليقين هو البذرة التي تنبت منها جميع المحاسن التي ينضح بها العرفان.

وقد أجمعوا على اعتبارها المركب الذي يحمل السالكين إلى الله، وبقدر سلامة المركب يكون الوصول.

وقد قال أبو سعيد الخراز معبرا عن هذا الدور: (العلم ما استعملك واليقين ما حملك)، فلولا اليقين ما سار ركب إلى الله ولا ثبت لأحد قدم في السلوك إلا به.

ويشير الجنيد إلى أن اليقين لا يعني ما يتصوره البعض ـ ممن يشحنون حياة العارفين والأولياء بالكرامات مع ما قد يلابسها من خرافات وأساطير ـ فالموقن لا يحتاج لأن يمشي على الماء ليثبت صحة يقينه : (قد مشى رجال باليقين على الماء ومات بالعطش من هو أفضل منهم يقينا)

وهذه النصوص وغيرها تشير إلى أهمية اليقين وارتباطه بالروحانية.. وفي نفس الوقت ارتباطه بالعقلانية.

قلت: فهمت علاقة اليقين بالروحانية.. ولكني لم أفهم علاقته بالعقلانية.

قالت: أول مستقبل للحقائق هو العقل.. فإذا نضجت الحقائق في العقل.. وتقبلها سرت إلى الروح.. هذا هو منطلق الروحانية عند المسلمين..

أما منطلق الروحانية عندنا.. فهو أن تتيقن الروح بما لا يعقل العقل.. وبذلك يفرض على العقل التسليم بما لا يعلم وما لا يعقل.

قلت: ولكني قرأت عن كثير من أولياء المسلمين ذمهم للعقل، واعتقادهم لقصوره، فقد سئل النوري: (ما الدليل على الله؟ قال: (الله)، قال: فما العقل؟ قال: العقل عاجز، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله.

وعبر آخر عن ذلك بقوله: (العقل يجول حول الكون فإذا نظر إلى المكون ذاب)

وعبر أبو بكر القحطبي على استحالة التعرف على الله بالعقل بقوله: (من لحقته العقول فهو مقهور إلا من جهة الإثبات ولولا أنه تعرف إليها الألطاف لما أدركته من جهه الإثبات)

قالت: صدق كل هؤلاء.. فلم ينطقوا إلا الحقيقة..

قلت: فكيف يستقيم ما ذكرته عن انبناء الجانب الروحي من الإسلام على العقل، وهؤلاء ـ أعمدة الروح في الإسلام ـ يقولون ما يقولون؟

قالت: هؤلاء يشيرون إلى جانبين كلاهما خطر على الروحانية الصرفة:

أما أولاهما، وهي أخطرهما، فهي محاولة حصر الله بحدود العقل.. أو محاولة العقل التعرف على الله من خلال العقل المجرد.

وأما الثانية، فهي حصر العلاقة بالله في الجانب العقلي المجرد كما فعلت الفلسفة من غير تفاعل الوجدان.

قلت: سلمت بأن الثانية تنافي الروحانية.. ولكن الأولى لا أرى أنها تنافيها.

قالت: بل تنافيها.. لأن للعقل حدودا لا يستطيع أن يتجاوزها.. سأضرب لك مثالا يوضح لك ذلك:

أرأيت لو أن أحدهم دق عليك الباب، ولم تكن تعرفه، هل تستطيع ـ من خلال الاستدلال العقلي ـ أن تستدل على طوله ولونه واسمه ونسبه؟

قلت: لا.. فعقلي أقصر من أن يعرف ذلك.

قالت: ولكنك تستطيع أن تعرف أشياء من خلال هذا التصرف.

قلت: أجل..

قالت: فهذا هو دور العقل.. فهو يفتقر لمعرفة التفاصيل لأن يفتح له الباب حتى يتعرف على التفاصيل.

قلت: فقد فتح لنا الباب بالمسيح.

قالت: نعم.. فتح الباب بالمسيح.. ولكنا ـ معشر المسيحيين ـ أغلقنا باب المسيح، وفتحنا باب بولس.. وأبواب المجامع المقدسة.. فسقطنا في الخرافة.

قلت: فكيف نرجع إلى باب المسيح؟

قالت: بباب محمد.. فلا يمكن أن نفهم المسيح دون أن نمر على باب محمد.

الإنسانية:

قلت: حدثتني عن ضوابط الروحانية الإسلامية من الربانية والعقلانية.. فحدثيني عن الضابط الثالث.. الإنسانية.

قالت: لقد خلقنا الله بشرا.. وطلب منا أن نعبده، ونحن بشر.. وليس من اللائق، ولا من الأدب، ولا من الحكمة أن نخرج من البشرية عندما نريد أن نمارس الروحانية..

قلت: لم أفهم هذا.. فمع أننا بشر إلا أن الكمال في أن نرتقي عن بشريتنا.

قالت: من غير أن نخرج عنها.

قلت: بل لو استطعنا الخروج عنها لفعلنا.. فذلك هو الكمال الأكبر.

قالت: إن هذا الكلام يحمل احتقارا للبشرية.. لأن من يريد أن يخرج من شيء، ليدخل في غيره.. لا يريد أن يخرج منه إلا لاحتقاره له، واعتقاده لنقصه.

وهذه ميزة للإسلام تفصله عن كثير من الديانات والفلسفات التي تحتقر الإنسان.. فهو يكرم الإنسان، ويضعه في المحل الذي

خلقه الله له.

إننا ـ معشر المسيحيين ـ لما احتقرنا الإنسـان ربأنـا بالمسـيح أن يكون إنسانا.. فلذلك رفعناه إلى مقام الإلهية..

أما قرآن المسلمين فهو يصـرح في كـل لحظـة بـأن محمـدا وسائر الأنبياء والأولياء ليسوا إلا بشرا.. يقول القرآن: قُلْ إِنَّمَـا أَنَـا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُـوا لِقَـاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْـرِكْ بِعِبَـادَةِ رَبِّهِ أَحَـداً (الكهـف:110).. ويقول: قُلْ إِنَّمَـا أَنَـا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُـوحَى إِلَيَّ أَنَّمَـا إِلَهُكُمْ إِلَـهٌ وَاحِـدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (فصلت:6)

ويقول عن سائر الأنبياء: قَالَتْ لَهُمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (ابراهيم:11)

قلت: وعيت هذا.. ولكن ما علاقته بالروحانية؟

قـالت: لهـذا علاقـة وطيـدة بالروحانيـة الإسـلامية.. فـأهم خصائص الإسـلام أنـه دين الفطـرة.. والفطـرة هي الطبيعـة الـتي خلق عليها الإنسان.. أو النظـام الـذي يتحكم في الإنسـان.. وهـذه الفطرة لا ينبغي تدنيسـها ولا تحريفهـا.. بـل لا ينبغي للروحانيـة أن تحرف هذه الفطرة عن مسارها.

ففي الإسلام ـ كما ذكرت لك ــ تلتقي الروحيـة مـع الماديـة، ويجتمع الدين مع الدنيا، وتتشابك أشـواق الـروح مـع الغرائـز الـتي خلقت في الإنسان، ولم يكن له أن يخرج عنها.

وهذا بخلاف كل ما نعرفه من فلسفات وأديان ومذاهب..

ففي اليهودية تطغي المادية المحضة.. فلا تكاد تجد للروحانية أثرا، ولا تكاد ترى للآخرة مكانا، حتى الوعـد والوعيـد لا يتعلقـان إلا بأمور دنيوية.

أمــا المســيحية.. ففي الإنجيــل: (لا يــدخل غــني ملكــوت السموات، حتى يدخل الجمل في سم الخيـاط..).. وقـال المسـيح لشاب آمن به ودخل في دينـه: (إذا أردت أن تكـون كـاملا فـاذهب وبع ما تملك واعطه للفقراء، ثم تعـال واتبعـني).. وقـال لتلاميـذه: (وأنتم فلا تبحثوا عما تأكلون وما تشربون ولا تهتموا لذلك، لأن هذه الأشياء إنما يبحث عنها غير المؤمنين)

لقد ذكر الأستاذ (ليكي) في كتاب (تاريخ أخلاق أوروبا) صــورا لجمـوح الرهبانيـة وغلوهـا، تقشـعر منهـا الجلـود، وتفـزع القلـوب، وتدهش العقول، وهي قليل من كثير جدا.. لقد قـال هـذا المـؤرخ: (زاد عدد الرهبان زيادة عظيمة، وعظم شـأنهم واسـتفحل أمـرهم واسترعوا الأنظار وشغلوا الناس، ولا يمكن الآن إحصاؤهم بالدقــة، ولكن مما يلقي الضوء على كثرتهم وانتشار الحركـة الرهبانيـة، مـا روى المؤرخون أنه كان يجتمع أيام عيد الفصـح خمسـون ألفـا من الرهبان، وفي القـرن الرابـع المسـيحي كـان راهب واحـد يشـرف على خمسة آلاف راهب، وكان الـراهب (سـرابين) يـرأس عشـرة آلاف، وقد بلغ عددهم في نهاية القرن الرابع عدد أهل مصر)

قلت: ولكن مـع ذلـك.. فقـد كـان نظـام الرهبانيـة من أرقى الأنظمة الروحية في العالم.. بل إن بعض مفكرينا يـرى أن النظـام الروحي في الإسلام مستمد من نظام الرهبانية عندنا.

قالت: قد يكون من المسلمين من وقع فيما وقع فيه رهباننا.. ولكنه بذلك انحـرف عن الإسـلام انحرافـا شـديدا.. ذلـك أن نظـام الرهبانية يتنافى تماما مع تعاليم الإسلام.

فقد اعتبر الإسـلام الرهبانيـة بدعـة خطـيرة في الـدين، ففي القرآن عند ذكر التحريف الـذي حصـل للمسـيحية: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَـا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَـا بِعِيسَـى ابْنِ مَـرْيَمَ وَآتَيْنَـاهُ الْإِنْجِيـلَ وَجَعَلْنَـا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَـا رَعَوْهَـا حَـقَّ رِعَايَتِهَـا فَآتَيْنَـا الَّذِينَ آمَنُـوا مِنْهُمْ

أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (الحديد:27)

ولهذا، فـإن الروحانيـة الإسـلامية تنطلـق من مـزازين دقيقـة تجمـع بين الـروح والجسـد، وبين الفـرد والمجتمـع.. وبين الـدنيا والآخرة.. وهي بذلك تجمع للإنسان كـل متطلبـات إنسـانيته.. وهي بذلك تختلف تمام الاختلاف عن الرهبانية التي انحـرفت لهـا الكثـير من الأديان والمذاهب والفلسفات.

فالذي يقدم الروح على الجسد يحرم الإنسان من جزء أصيل منه وهو جسده.

والذي يقدم الفرد يبتر الإنسان من البيئة التي خلقها اللـه لـه، وخلقه لها، ويجعله سلبيا لا هم له إلا ذاته.

والذي يقدم الآخرة على الـدنيا يحـرم الإنسـان من فـترة من فترات الزمن خلقها الله له، وخلقه لها.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله.

قالت: لن أطيق أن أذكر لـك كـل تفاصـيله، ولكـني سـأكتفي بعـرض شـروط الرهبانيـة على النصـوص المقدسـة للمسـلمين لتعرف موقفها منها.

فقد اشترط القائمون على نظام الرهبانية شـروطاً لا بـد من تحقيقها في الراهب.. لا يكون راهبا إلا بها.

منها العزوبة.. وهذا أهم شروط الرهبانية، وقد ورد في إنجيل متى: (يوجد خصيان خصوا أنفسـهم لأجـل ملكـوت السـموات من استطاع أن يقبل فليقبل)(متى: 19: 13)

إضافة إلى أن التنفير من المـرأة وإن كـانت زوجـة، واحتقـار وترذيل الصلة الجنسية وإن كانت حلالاً، من أساسـيات المسـيحية، حتى بالنسـبة لغـير الرهبـان، يقـول (سـان بونـافنتور) أحـد رجـال

الكنيسة: (إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشرياً، بل ولا كائنا حياً وحشياً، وإنما الذى ترون هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو صفير الثعبان)(1)

وكان من المشاكل المستعصية على الكنيسة مشكلة زواج رجال الدين غير الرهبان أو تسريهم، و(كانت الكنيسة منذ زمن بعيد تعارض زواج رجال الدين بحجة أن القس المتزوج يضع ولاءه لزوجه وأبنائه في منزلة أعلى من إخلاصه للكنيسة).. (وأنه سيحاول أن ينقل كرسيه أو مرتبته لأحد أبنائه يضاف إلى هذا أن القس يجب أن يكرس حياته لله وبنى الإنسان، وأن مستواه الأخلاقي يجب أن يعلو على مستوى أخلاق الشعب وأن يضفي على مستواه هذه المكانة التي لا بد منها لاكتساب ثقة الناس وإجلالهم إياه)(2).. (بوجوب التبتل على رجال الدين وتطليق زوجات المتزوجين منهم وكان لهذا الأمر آثار امتدت إلى القرن السادس عشر وانتهت بانتصار الكنيسة)(3)

وإذا كان هذا هو الحال مع غير الرهبان، فلنتصور كيف تكون الحال معهم.

وهذا الشرط يتناقض تماما مع ما دعا إليه الإسلام من حث على الزواج وترغيب فيه، فقد وردت النصوص القرآنية الكثيرة التي تأمر بالزواج وتحث عليه.. ففي القرآن: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم:21) ففي هذه الآية توجيه للأنظار للنعم التي وضعها الله في الزواج، وكيف هيأ الزوجين لبعضهما لتنتج عن ذلك المودة والرحمة.

وفي القرآن: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا

1) أشعة خاصة بنور الإسلام: 29.

2) قصة الحضارة 14: 382.

3) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى: 2: 152.

وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (الرعد: 38).. ففي هذه الآية إخبار بأن الزواج من سنن المرسلين، وفيه رد بليغ على الممتنعين عنه بحجة التعبد والتبتل.

وفي القرآن: وَأَنكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (النور:32) وفي هذه الآية حث على تزويج من للمسلم ولاية عليهم، ونهي عن جعل الفقر حاجزا بين المؤمن والزواج.

وفي القرآن: وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (النساء:3) ففي هذه الآية إجازة للتعدد في إطاره الشرعي الصحيح، وتنبيه للعلة من إجازته.

وعلى ضوء هذا الهدي القرآني جاءت النصوص الحديثية الكثيرة ترغب في الزواج، بل تعتبره من الأعمال الصالحة، ومن سنن الصالحين، ففي الحديث: (ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وان أقسم عليها أبرته، وان غاب عنها حفظته في نفسها وماله)(1)،فقد اعتبر محمد في هذا الحديث الزوجة الصالحة للرجل أفضل ثروة يكتنزها من دنياه ـ بعد الإيمان بالله وتقواه ـ وعدها أحد أسباب السعادة.

وفي حديث آخر: (الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة)(2)

وفي حديث آخر: (من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح)(3)

---

1) أبو داود:2/126.

2) المسند المستخرج على صحيح مسلم: 4/141، مصنف عبد الرزاق: 10/221، المعجم الأوسط: 8/281.

وفي حديث آخر: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة، فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)(1)

وفي حديث آخر: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدا،وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر،وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)(2)

قلت: هذا الشرط الأول للرهبانية، وقد علمت شدة معارضة الإسلام له.. فما الشرط الثاني؟

قالت: التجرد الكامل عن الدنيا.. فعلى الراهب ـ حتى يصير راهبا ـ أن يعتزل عزلة نهائية عن المجتمع، ويقطع النظر عن كل أمل في الحياة.

قلت: لقد كتب المسلمون في العزلة كتبا.. بل مارس الكثير من علمائهم هذه العزلة.. بل لهم ـ إلى الآن ـ ما يسمى بالخلوات التي يختلون فيها للعبادة.

فإن قلت: إن كل ذلك حادث.. فقد شرع الإسلام الاعتكاف، وهو نوع من العزلة.

---

3) رواه احمد والبزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال أحمد رجال الصحيح، انظر: مجمع الزوائد: 4/272.

1) مسلم: 2/1018، البخاري: 2/673، ابن حبان: 9/335، الدارمي: 2/177، البيهقي: 4/296، أبو داود: 2/219، النسائي: 2/95.

2) البخاري: 5/1949.

قالت: فرق عظيم بين العزلة التي دعا إليها الإسلام، واعتبرها مدرسة تربوية تهذيبية، وبين عزلة الرهبان.

قلت: فما الفرق بينهما؟

قالت: العزلة التي مارسها الربانيون من المسلمين هي عزلة تربوية تشبه مكوث المريض في المستشفى مدة معينة يحددها طبيبه، ويحددها نوع العلاج الذي يريد ممارسته.

وهي لا تعني الانفراد في الجبال والكهوف عن الناس.. اللهم إلا في أحوال الفتن التي يفر فيها المؤمن بدينه.

قلت: فما الشرط الثالث من شروط الرهبانية؟

قالت: عدم الاهتمام بالمطالب الجسدية حتى الضروري منها كالملابس والنظافة..

يقول صاحب كتاب (المشكلة الأخلاقية والفلاسفة): (لنقرأ هذا السفر الطريف (محاكاة المسيح)، إنه أكبر أسفار التبتل المسيحي، ولنطلب بين صحائفه ومظاهر الحياة المسيحية بمعناها الصحيح، وأن ما نجده لمعبر عن الحال أبلغ عبارة: إحتقار أساسى لكل علم، حتى يشمل ذلك علم الإلهيات، واحتقار أصيل لكل ما نسميه خيرات هذا العالم: الثراء والشرف الاجتماعي، حتى المركز الوسط، وإنه لحتم علينا أن نستشعر دائما التواضع والندم وأن نمارس عملياً على الدوام التضحية وكل مظهر تمليه الرحمة وأن نجمع حواسنا في صمت وذهول تام وتأمل دينى ينسى المرء فيه كيانه، يجب أن نقتل فينا كل ميول دنيوي، يجب أن يموت عالم الرغبة، يجب أن نبدأ من هذا العالم الزائل ما سوف يكون لنا الوجود الأبدى)

ثم يعلق على هذه التعاليم قائلاً: (عظمة وعلاء، ولكنه قضاء قاس على الإنسانية، وإن التطبيق الكامل لمثل تلك المبادئ

ليمكن أن يملأ الأرض بأديرة فيها الرجال من جهة والنساء من جهة أخرى ينتظرون في طهارة وتأمل الزوال النهائى للنـوع الإنسـاني) (1)

قلت: فما موقف الإسلام من هذا؟

قالت: للجسـد في الإسـلام قيمـة لا تقـل عن قيمـة الـروح.. فلذلك يذكر في القـرآن باعتبـاره من نعم اللـه على عبـاده.. ففي القرآن: ﴿ قالَ لَهُ صاحِبهُ وَهوَ يُحاورهُ أكفرتَ بالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُـراب ثُمَّ مِنْ نُطفَـة ثُمَّ سَـوّاكَ رَجُلاً ﴾ (الكهـف: 37).. وفيـه: ﴿ هُـوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ ذلـولاً فامشُـوا فِي مناكِبِهـا وَكُلُـوا مِنْ رِزْقِـهِ وَإِلَيـهِ النُّشُورُ ﴾ (الملك: 15)..وفيـه: ﴿ كُلُـوا مِنْ طَيِّبـاتِ مـا رَزَقنـاكُمْ وَلا تَطْغَوا فِيهِ فَيُحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ (طه:81)

فهذه الآيات القرآنية تحمل بين طيّاتها معاني تشـريعية كثـيرة تبين قيمة الجسد وأهمية المحافظة عليه (2)..

فهي تبين أن الإنسان بتكوينـه الجسـماني، وبطبيعتـه البدنيـة، جزء من عـالم الطبيعـة، وأنّ الأرض هي مصـدر نشـوئه وتكوينـه.. فهــو ابن الأرض، ونتاجهــا الحي المــترقي في تكوينــه وأجهزتــه الجسمية المختلفة: ﴿ أكفرتَ بالَّذي خلقكَ مِن تُراب ﴾

وهي تـبين أن هـذا الجسـد الـذي نشـأ من الأرض لا يسـتغني بطبيعته عن إمداد الأرض لوجوده، من الطعام والشـراب واللبـاس والسكن.. ﴿ وَما جَعَلناهُمْ جَسداً لا يأكُلون الطَّعامَ ﴾ (الأنبياء: 8).

وهي تــبين أن التوافــق في التكــوين الطــبيعي بين الإنســان والطبيعة تام ومتناسق، فكلّ ما يحتاجه الإنسـان لاسـتمرار الحيـاة متوفر في عالم الطبيعـة ومتنـام فيهـا.. ﴿ وَبـاركَ فيهـا وقـدّرَ فيهـا

1) المشكلة الأخلاقية والفلاسفة:115.

2) انظر مقالا بعنوان: كيف تعامل الإسلام مع الجسد؟ من موقـع (البلاغ) الموسـوعة الإسلامية.

أقواتَها في أربعةِ أيّام سـواءً للسّـائلينَ (فصّـلت: 10)..ـ جَعَـلَ لَكُمُ الأَرضَ ذَلولاً (الملك: 15)

وهي تبين أن كلّ مـا في الأرض، من خـيرات وطيّبـات، حلال طيّب ومباح لكافة بني الإنسان، دون تفريق أو تمييز، فحكمة اللـه، وعدله تقضيان بأن تتوفر لكلّ إنسان حاجته وحقّـه المقـرر لـه في الحياة: يا أَيُّها النّـاس كُلُـوا مِمّـا فِي الأَرضِ حَلالاً طَيِّبـاً (البقـرة: 168)

انطلاقا من هذا.. فقد جاء الإسلام بشريعة تحرص على حفظ الحياة، وتتجاوب مع حاجات التكوين، فاستوعب بشريعته كـل تلـك الحاجات الإنسانية الطبيعيـة وقـام بتنظيمهـا في مجالهـا الطـبيعي المحدّد لها.

فقد أمر بمد الجسم بحاجاته المختلفة من الطعام والشراب، باعتبارهما من نعم الله على عباده: فَلْينظر الإنسـان إلى طَعَامِـهِ (عبس: 24)

وقد قاوم الإسلام لهذا محاربة الجسد، والحرمان من الطعـام والشراب واللذائذ المحلّلة، تلك المحاربة التي دعـا لهـا المـترهّبون وأمثـالهم ممّن يعتقـدون أنّ محاربـة الجسـد، وتعذيبـه بـالجوع، والعطش، والحرمـان يـؤدي إلى تقويـة الـروح، وتنميـة الملكـات النفسيّة والأخلاقيّة.

فقد استنكر القرآن على هؤلاء المنحـرفين مـوقفهم هـذا من المتع الجسديّة، والطيّبات الـتي أنعم اللـه بهـا على عبـاده، فقـال: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينةَ اللهِ الَّتي أخرَجَ لِعِبـادِهِ وَالطَّيِّبـاتِ مِنَ الـرِّزق (الأعراف: 32)

قلت: فما **الشرط الرابع**؟

قالت: تحمل تلك العقوبـات الشـديدة في حـال التفريـط في

الطقوس الكثيرة التي يتطلبها نظام الرهبانية..

سـأذكر لـك نموذجـا عن بعض ذلـك من تعـاليم القـديس (كولمبـان) الـذي أسـس الأديـرة في جبـال الفـوج بفرنسـا.. فمن تعاليمه: (يجب أن تصوم كل يوم وتصلى كل يوم وتعمـل كـل يـوم وتقرأ كل يوم، وعلى الراهب أن يعيش تحت حكم أب واحد)

(ويجب أن يأوي إلى الفراش وهو متعب يكاد يغلبه النوم وهو سائر في الطريق)

وكانت العقوبات صارمة أكثر ما تكون بالجلد: ستة سـياط إذا سعل وهو يبدأ ترنيمة أو نسى أن يدرم أظافره قبل تلاوة القداس، أو تبسم أثناء الصلاة، أو قرع القدح بأسنانه أثناء العشـاء الربـانى.. وكانت اثنا عشر سوطاً عقاب الراهب إذا نسى أن يدعو اللـه قبـل الطعام وخمسون عقاب المتأخر عن الصـلاة، ومائـة لمن يشـترك في نزاع ومئتان لمن يتحدث من غير احتشام مع امرأة.

وأقام (كولمبان) نظام الحمد الذى لا ينقطع، فكـانت الأوراد يتلوها بلا انقطاع ليلاً ونهاراً طائفة بعد طائفة من الرهبان يوجهونها إلى عيسى ومريم والقديسين(1).

ولم يقتصر الأمر على ما ذكره بل تجـاوز ذلـك إلى تصـرفات جنونية تشمئز لها الفطر السـليمة، ابتـدعها بعض الرهبـان ليعـبروا عن قوة إيمانهم وعمق إخلاصهم لمبدئهم.

وقد روى المؤرخـون من ذلـك عجـائب فحـدثوا عن الـراهب ماكاريوس أنه نام ستة أشهر في مستنقع ليقرض جسمه العـاري ذباب سام، وكان يحمل دائما نحو قنطـار من حديـد وكـان صـاحبه الراهب يوسيبيس يحمل نحو قنطارين من حديد.. وقـد أقـام ثلاثـة أعوام في بئر نزح ... وقد عبد الراهب يوحنا ثلاث سنين قائمـا على رجل واحدة ولم ينم ولم يقعد طـوال هـذه المـدة، فـإذا تعب جـداً

1) قصة الحضارة 14: 365.

أسند ظهره إلى صخرة.

وكـــان بعض الرهبـــان لا يكتســـون دائمـــا، وإنمـــا يتســـترون بشعرهم الطويل ويمشـون على أيـديهم وأرجلهم كالأنعـام.. وكـان أكثرهم يسكنون في مغارات السباع والآبار النازحة والمقابر ويأكل كثير منهم الكلأ والحشيش.

وكانوا يعدون طهارة الجسم منافية لنقاء الروح ويتـأثمون من غسل الأعضاء، وأزهد الناس عندهم وأنقاهم أبعـدهم عن الطهـارة وأوغلهم في النجاسات والدنس، يقول الراهب اتهينس أن الراهب أنتونى لم يقترف إثم غسل الرجلين طوال عمـره، وكـان الـراهب أبرا هام لم يمس وجهه ولا رجلـه المـاء خمسـين عامـاً، وقـد قـال الراهب الإسكندري بعد زمان متلهفـاً: و أسـفاه، لقـد كنـا في زمن نعد غسل الوجه حراماً، فإذا بنا الآن ندخل الحمامات(1).

وهناك راهب منعـزل اخـترع درجـة جديـدة من الـورع يربـط نفسه بسلسلة إلى صخرة في غار ضيق(2).

أما القديس كولمبـان فــ (كـانت السـناجب تجثم على كتفيـه فتدخل في قلنسوته وتخرج منها، وهو ساكن (3).

وفـــوق هـــذا كلـــه.. فقـــد كـــان الرهبـــان يتجولـــون في البلاد ويختطفـون الأطفـال ويهبـونهم إلى الصـحراء والأديـار، وينـتزعون الصبيان من حجور أمهاتهم ويربـونهم تربيـة رهبانيـة، والحكومـة لا تملك من الأمر شيئا، والجمهور والدهماء يؤيدونهم ويحبذون الـذين يهجرون آبـاءهم وأمهـاتهم ويختـارون الرهبانيـة ويهتفـون باسـمها، وعـرف كبـار الرهبـان ومشـاهير التـاريخ النصـراني بالمهـارة في التهريب، حتى روي أن الأمهات كن يسترن أولادهن في البيوت إذا

1) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: 168.

2) معالم تاريخ الإنسانية: 732.

3) قصة الحضارة: 14: 356.

رأين الراهب (أمبروز) وأصبح الآباء والأولياء لا يملكون من أولادهم شيئا، وانتقل نفوذهم وولايتهم إلى الرهبان والقسوس.

فكان الرهبان الذين تفيض قلوبهم حنانا ورحمة، وعيونهم من الدمع، تقسو قلوبهم وتجمد عيـونهم على الآبـاء والأمهـات والأولاد، فيخلفـون الأمهـات ثكـالى، والأزواج أيـامى، والأولاد يتـامى، عالـة يتكففون النـاس، ويتوجهـون قاصـدين الصـحراء، همهم الوحيـد أن ينقذوا أنفسهم في الآخرة، لا يبالون ماتوا أو عاشوا، وحكي (ليكي) من ذلك حكايات تدمع العين وتحزن القلب.

قلت: فكيف أطاقوا تحمل كل هذا العناء؟

قالت: ومن ذكر لك بأنهم أطاقوا.. لقد تمردوا على فطـرهم، فتمردت عليهم..

لقد قال رئيس دير كلونى: (إن بعض رجال الدين في الأديـرة وفي خارجهـا يسـتهترون بـابن العـذراء اسـتهتاراً يسـتبيحون معـه ارتكاب الفحشـاء في سـاحاته نفسـها، بـل في تلـك الـبيوت الـتى أنشأها المؤمنين الخاشعون لكى تكـون ملاذاً للعفـة والطهـارة في حرمها المسور، لقد فاضت هـذه الـبيوت بالـدعارة حـتى أصـبحت مريم العذراء لا تجد مكاناً تضع فيه الطفل عيسى)[1]

لقـد أدى الـتزمت والغلـو في الـدين ومغالبـة الطبـع السـوي والفطـرة السـليمة إلى نتيجـة عكسـية تمامـاً، وأصـبحت الأديـرة مباءات للفجور والفسق وتضرب بها الأمثلة في ذلـك، وقـد وصـل الحال بمسيحيي الشرق ـ وربما كانوا أكثر حياء وأشد تمسـكاً إلى حد أن المستهترين من الخلفـاء والشـعراء المجـان كـانوا يرتـدون الأديرة كما يرتاد رواد الدعارة اليوم بيـوت العهـر وألفـوا في ذلـك كتباً منها (الديارات) المعروف في الأدب العربي[2].

---

1) قصة الحضارة: 145: 372.

2) كتبه أبو الحسن السابشتى.

***

ما وصلت (آنا ماري شميل) من حديثها إلى هذا الموضع حتى امتلأت عينيها بمدامع لم تملك حبسها، فقلت: ما الذي يبكيك؟

قالت: لقـد ذكـرت صـديقة لي كتبت كتابـا سـمته (الحج الى مكة)، وقد طبع بالعربية تحت عنوان (البحث عن الله)..

قاطعتهـا قـائلا: تقصـدين اللادي ايفلين كوبولد، تلـك النبيلـة الإنكليزيـــة، الـــتي اعتنقت الإســـلام وزارت الحجـــاز، وحجت حج المسلمين، وكتبت مذكراتها عن رحلتها تلك في ذلك الكتاب.

قالت: أجل.. لقد استطاعت أن تحطم كل الجدران والحجب التي كانت تحول بينها وبين الإسلام..

لقـد كـانت تقـول: (سـألني كثـيرون كيـف ومـتى أسـلمت؟ وجوابي على ذلك أنه يصعب عليّ تعيين الوقت الذي سطعت فيـه حقيقة الإسلام أمـامي فارتضـيت الإسـلام دينًـا. ويغلب على ظـني أنني مسلمة منذ نشأتي الأولى. وليس هذا غريبًا إذا مـا راح المـرء يفكر بأن الإسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله المرء فيما لو ترك لنفسه ولم يفرض عليه أبواه الدين الذي يعتنقانه فرضًا. ألم يصف أحد مشاهير النقاد في أوروبا: (بأنه دين العقل والإنسانية)؟ (1)

وكانت تقول: (الإسلام كلمـة تعـني التسـليم للـه، وهي تعـني السلام أيضًا، ويعرف المسـلم بأنـه الرجـل الـذي يسـير في حياتـه وفاقًا لمشيئة خالقه وأوامره والذي يعيش بسلام مع اللـه وعبـاده. ولعل أجمل ما في الإسـلام مـا يضـطرب فيـه من وحدانيـة إلهيـة، وأخوة إنسانية، وخلوه عن التقاليد والبـدع والتصـاقه اللصـوق كلـه بما في الحياة من أمـور عمليـة.. والإيمـان في القـرآن إنمـا يقـوم

1) البحث عن الله، ص 9.

على العمل الصالح وليس هناك في الإسـلام إيمـان دون مـا عمـل صالح أبدًا)(1)

وكانت تقول: (إن روحانيـة الإسـلام قويـة شـديدة، فهي أبـدًا تدفع المسلمين بعضهم إلى بعض وتجعل منهم قـوة إنسـانية تـأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مما لا يوجد مثله في العالم الحاضـر) (2)

وكـانت تقـول: (الإسـلام دين حي، حي في قلـوب أتباعـه ومريديه، وهو دين كلما تقدمت به الأيام زادت حيويته وقـوي أمـره وتبسط سلطانه وفشت دعوته ولولا ذلك لما أمكنـه أن يعيش وأن يظل محتفظًا بقوته وتأثيره وحب أتباعه له)(3)

قلت: فما الذي يحول بينك وبين سلوك سبيلها؟

تنفست الصعداء، ثم قالت: حجب كثيرة.. لكني لن أستسـلم لها.. يوشك أن أقطعها حجابا حجابا حتى أصـل إلى تلـك الشـمس المضيئة التي شملت بأشعتها أركان العالم.

قالت ذلك، ثم قامت، وكأنها تهم بشيء..

أمـا أنـا، فقـد بقيت أتأمـل تلـك الأزهـار الجميلـة من عبـاد الشمس.. وقد عرفت سر الدواليب التي تحركها الشمس.

وفي ذلك المحل المبارك تنزلت علي أشـعة جديـدة اهتـديت بها بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

1) البحث عن الله، ص 13.

2) البحث عن الله، ص 13

3) البحث عن الله، ص13.

سادسا ـ سلام

في اليوم السادس من تلك الأيام العشرة المباركة التقيت المستشرق الذي قطفت على يده ثمرة السلام من شجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (البقرة:30)

وسر قوله تعالي: لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (المائدة:28)

وسر قوله تعالى: وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج:40).. وقوله تعالى: وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (فصلت:34)

وعرفت بها سر قوله ﷺ: (: (لا يزال العبد في فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما)(1)

وسر قوله ﷺ: (يأتي القاتل متعلقا رأسه بأحدى يديه متلببا قاتله بيده الاخرى تشخب أوداجه دما حتى يأتي به تحت العرش فيقول المقتول لله: رب هذا قتلني! فيقول الله للقاتل: تعست! ويذهب به إلى النار)(2)

فهذه النصوص المقدسة تخبر عن عظم قدسية الروح الإنسانية.. وعظم جرم القتل.. وأنه لا يباح إلا للضرورات الشديدة، وبالحدود التي تحفظ المصالح.

1) رواه البخاري.

2) رواه الطبراني في الكبير.

***

كان من ضمن الأسماء الموجودة بالدفتر الـذي سـلمني إيـاه المرشد اسم (مكسيم رودنسون)[1].. وقد تعجبت كثيرا من وضعه في القائمة مع كونه مفكرا ماركسـيا، وهـو في ذات الـوقت يرجـع إلى أصل يهودي.. وهو بذلك قد اجتمعت فيه جميع أسباب العـداوة للإسلام من ماركسية تعادي الأديان، ومن يهودية تعادي الإنسان.

لكـني عنـدما رأيتـه، وسـمعت حديثـه زال عجـبي من ذلـك، وعرفت أن ماركسيته نوع من الهروب من يهوديته..

في ذلك اليوم سـرت إلى الجبـل الـذي كـان يجثم بجلال في ضاحية باريس.. وكان بهذا الجبل غابة زيتون كأنها ولـدت مـع ميلاد الإنسان.

وقـد احـترت إذ رأيت جـزءا مهمـا من تلـك الغابـة قـد طـوق بأسوار من حديد مكهرب ليمنع أي داخل، ورأيت خارج تلـك الغابـة شابا يافعا ممتلئا شبابا جالسا ينظر إلى تلك الأشجار المقيدة بقيود الحديد والكهرباء..

اقتربت منه، وسـألته عن سـر حزنـه، وسـر أشـجار الزيتـون المطوقة بتلك الأغلال القاسية.

قال لي: هـذه الأشـجار لي.. ورثتهـا عن سلسـلة طويلـة من الجدود.. ولم يشـك أحـد في يـوم من الأيـام أنهـا لي.. ولم يخطـر

---

1) هو مكسيم رودنسون (1915ـ) Maxime Rodinson مفكر ماركسي ومستشـرق فرنسي من أصل يهودي، وُلد في بـاريس عـام 1915، وكـان أبـوه أحـد مؤسسـي اتحـاد نقابـات العمـال اليهـود في بـاريس، تلقَّى تعليمـه الابتـدائي في بـاريس ثم عمـل كصـبي تشهيلات قبل التحاقه بقسم اللغـات الشـرقية الحيـة في السـوربون حيث درس اللغـات السامية والإثنوجرافيا وعلم الاجتماع.

اخترناه هنا لأنه كان يرى أن الغربيين يتأثرون كثيراً بما يحدث في إسـرائيل أكـثر ممـا يحدث في الدول العربية حيث لا يأبهون بما يحـدث في هذه البـلاد كثيراً أو لا يأبـهون بهـا على الإطلاق، فلا تزال المشاعر العنصرية وآثارها السياسـية تطغى على حيـاة الغربـيين. ويضرب رودنسون مثالاً لذلك بتزايد نمو الأحزاب العنصرية والنازيـة في الغـرب الأوربي، ولذا فهو لا يعتقد في أطروحات غياب الإعلام العربي وتغيير الحالة الذهنية الغربية، لأنـه يرى أن المسألة أعقد كثيراً من ذلـك وترجـع إلى الطبيعـة العنصـرية الأساسـية في بنيـة الحضارة الغربية. (انظر: الموسوعة اليهودية، المسـيري، وانظـر فيهـا فصـلا مهمـا حـول [شخصيات ومنظمات يهودية معادية للصهيونية]

على بال أحد في يوم من الأيام أن تنتزع مني.

قلت: فمن الذي نزعها منك؟.. وما الذي جعله ينزعها منك؟

قـال: رجـل يهـودي قاسـي القلب محجـر الفـؤاد.. لـه مـال عريض.. وجاه مكين، اشترى به ذمم القضاة والمحـاكم والشـرطة والجيش.. ولم يترك أحدا إلا رشاه.. وزور لأجـل ذلـك كتبـا سـماها كتبا مقدسة تعده بأرضي وبزيتوني.

قلت: فمن الذي أغراه بأرضك دون الأراضي!؟

قال: قوم من الحاقدين.

قلت: عليك أم عليه!؟

قال: علي وعليه..

قلت: كيف يستقيم هذا؟

قال: لقد كره الحاقدون مقامه بينهم، فأرادوا نفيه عنهم، فلم يجدوا غير أرضي..

قلت: ولم اختاروك أنت؟

قال: لعلمهم بإبـائي ورسـوخي في أرضـي، وتضـحيتي بكـل شيء في سبيلها.

قلت: فهل ستقاومه؟

قال: جبان أنا إن لم أقاومه.. مقاومته واجب إنساني، وخلـق رفيع.

قلت: ولكنك تملك الزيتون الذي هو رمز السلام.

قـال: ولكـني لـو تـركت لـه زيتـوني فسـيحرقه ويـدمره.. ويؤسس في أرض الزيتون مصانع سلاح يدمر بها العالم.

قلت: ولكنك ـ إن قاومته ـ سيرمونك بالإرهاب.

قال: قـد فعلـوا ذلـك.. ويوشـك أن يرمـوني في سـجونهم.. ولكني مع ذلـك لم أيـأس، ولن أيـأس.. فسـيخلفني من يقـوم في وجوههم، ومن ينتزع منهم أرضي، ويحمي زيتوني.

في ذلك الموقف.. التقيت (مكسيم رودنسون)

جاء، ومعه محفظته التي يحمل فيها كتبه، ومعهـا قفـة يحمـل فيها طعاما إلى ذلك الشاب، وما إن رآه الشاب حتى راح يصـافحه بحرارة.

سألت الشاب أن يعرفني بهذا الرجل الطيب، فقال لي: هــذا (مكسيم رودنسون)..هو ابن عم لذلك المغتصـب الظـالم.. ولكنـه يبغضه أشد البغض، ويحاربه أعنف حرب.

ملأ السـرور قلـبي في تلـك اللحظـة، فقـد كنت محتـارا في الطريقة التي أدخل بها عالم هذا الرجل.

ابتدأته بقولي: أنت الأستاذ (مكسيم رودنسـون) المستشـرق والمفكر..

قاطعني، وقال: والباحث عن السلام.. البحث عن السلام هــو وظيفتي الكبرى التي لا تراها العيون.

قلت: ما تقصد؟

قال: إن حياتي كلها بحث عن السـلام.. لقـد ولـدت في بيئـة تمتلئ حربـا وبغضـا وأحقـادا.. ولـذلك تـراني أفـر من موضـع إلى موضع.. ومن بلد إلى بلد.. ومن مـذهب إلى مـذهب.. لا لشـيء إلا لأجل البحث عن السلام.

قلت: فلم تبحث عن السلام؟

قال: لأنه لا حياة بلا سلام.. السلام هو الوسط الصـحيح الـذي تنمو فيه شـجرة الإنسـانية.. فلا يمكن لشـجرة الإنسـانية أن تـؤتي ثمارا طيبة، وهي مختنقة بنيران الحرب.

انظـر إلى هـذا الزيتـون المسـكين المحاصـر.. ألا تـرى إلى دموعه، وهي تنحدر كما تنحدر السيول!؟

إن هـذا الزيتـون الـذي يمثـل السـلام يريـد الحاقـدون خنقـه ليؤسسـوا على أنقاضـه شـجرة الـدمار الـتي لا تثمـر غـير سـفك الدماء.

قلت: فهل وجدت السلام؟

قال: وجدته..

قلت: كيف وجدته؟

قال: وجدته محاصرا كما يحاصر هذا الزيتون.

قلت: أين وجدته؟.. ومن غرس شجرته؟

قال: وجدته في الإسلام.. وقد غرس شجرته محمد.

تعجبت كثيرا من قوله هذا، فقلت: لقـد علمت أنـك شـيوعي يهودي.. فكيف تقول هذا؟

قال: أقول الحقيقة التي يمتلئ بها قلبي، ولكن لساني يعجـز عن التعبير عنها.

قلت: ولكني أرى الناس جميعا مجمعون على أن الإسلام دين الإرهاب، وأن المسلمين هم ممثلو الإرهاب في العالم.

قال: ألم تر إلى هذا الشاب المسكين الممتلئ حزنا؟

قلت: بلى.. لقد كنت أتحدث معه الساعة.

قال: إنهم يسمونه (إرهابيا)

قلت: لقد أخبرني بذلك.

قـال: لـو أن هـذه الشـاب المسـكين لم يطـوق حقلـه، ولم يخرج من أرضه، أتراه يحمل السلاح على عدوه؟

قلت: لا أراه يفعل ذلك.. فبراءة السلام بين عينيه.

قال: وهكذا المسلمون المساكين.. احتلـوا أرضـهم.. وقتلـوا

أطفـالهم.. ونهبـوا خـيراتهم.. ومنعـوهم من كـل شـيء حـتى من الكلام.. فـإذا قـام أحـدهم ورمى حجـرا ليعـبر عن إبائـه سـموه إرهابيا..

قلت: لقد ذكرت لي أنك لم تجد السلام إلا في الإسلام، وعند محمد.

قـال: ذلـك بحث طويـل.. لقـد فتشـت الأديـان والمـذاهب والفلسفات والأفكار أبحث عن السلام الشامل.. فلم أجـده إلا في دين محمد.

قلت: فهل تحدثني بخلاصة أبحاثك؟

قـال: أجـل.. يسـرني ذلـك كـل السـرور.. فأنـا لا هم لي إلا التبشير بهذا.

سلام الجاهلية

قلت: بم نبدأ حديثنا عن السلام؟

قال: بالجاهلية.

قلت: بجاهلية العرب!؟

قال: بجاهلية العالم.. فلا يعـرف فضـل الجمـال إلا بمقارنتـه بالدمامة.. ولا يعرف فضل السلام إلا بمقارنته بالصراع.. ولا يعرف فضل الإسلام إلا بمقارنته بالجاهلية.. كما لا تعرف الثمرة الطيبة إلا بمقارنتها بالثمرة الخبيثة.

قلت: فبأي ثمرة خبيثة نبدأ؟

قال: **باليهودية**.

قلت: هي دينك الذي ينتمي إليه أبوك وجدك.

قال: من أراد أن يبحث عن الحقيقة فعليه أن يقطع جـذوره،

ويطلق أباه وجده.

قلت: إن اليهــود شــعب مضــطهد، وقــد عــانى في حياتــه الأمرين.. فكيف تعتبره عدوا للسلام؟

قـال: إن عداوتـه للسـلام تنطلـق من دينـه ومعتقداتـه.. فهـو يمارس الإرهاب عبادة لا عادة..

قلت: ما تقول؟

قال: ألا تعرف سفر حزقيال؟

قلت: هو سفر من أسفار كتابنا المقدس في عهده القديم.

قال: نعم.. وهو قاسم مشترك بينكم وبيننا.. ولذلك، فإن لكم شبها عظيما بنا.. أتدري بماذا يوصينا الرب في هذا السـفر الغـالي الذي اشتركنا في وراثته؟

قلت: بم؟

أخرج الكتاب المقدس من محفظته، وفتحها على هذا السفر، وقـال: الـرب ــ في هـذا السـفر المقـدس ــ يـأمر بقتـل النسـاء والاطفال والشـيوخ والبهـائم، فيقـول: (اعـبروا في المدينـة خلفـه واقتلوا. لا تترأف عيونكم ولا تعفوا. أهلكوا الشيخ والشاب والعذراء والطفـل والنسـاء. ولكن لا تقربـوا من أي إنسـان عليـه السـمة، وابتدئوا من قدسي). فابتدأوا يهلكون الرجال والشيوخ الموجـودين أمام الهيكل. وقال لهم: (نجسـوا الهيكـل واملأوا سـاحاته بـالقتلى، ثم اخرجوا). فاندفعوا إلى المدينة وشرعوا يقتلون) (حزقيال9: 5-7)

التفت إلي، وقـال: هـل سـمعت.. إن الكتـاب المقـدس هـو الكتاب الوحيد في الدنيا.. الذي يأمر بقتل الأطفال؟

ليس هذا فقط.. اسمع ما يقـول سـفر العـدد (31:ـ 1-18):

(وقال الرب لموسى: انتقم من المديانيين لبني إسرائيل، وبعدها تموت وتنضم إلى قومك. فقال موسى للشعب: (جهزوا منكم رجالا مجندين لمحاربة المديانيين والانتقام للرب منهم.... فحاربوا المديانيين كما أمر الرب وقتلوا كل ذكر؛ وقتلوا معهم ملوكهم الخمسة: أوي وراقم وصور وحور ورابع، كما قتلوا بلعام بن بعور بحد السيف. وأسر بنو إسرائيل نساء المديانيين وأطفالهم، وغنموا جميع بهائمهم ومواشيهم وسائر أملاكهم، وأحرقوا مدنهم كلها بمساكنها وحصونها، واستولوا على كل الغنائم والأسلاب من الناس والحيوان،.... فخرج موسى وألعازار وكل قادة إسرائيل لاستقبالهم إلى خارج المخيم، فأبدى موسى سخطه على قادة الجيش من رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من الحرب، وقال لهم: لماذا استحييتم النساء؟ إنهن باتباعهن نصيحة بلعام أغوين بني إسرائيل لعبادة فغور، وكن سبب خيانة للرب، فتفشى الوبأ في جماعة الرب. فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، واقتلوا أيضا كل امرأة ضاجعت رجلا، ولكن استحيوا لكم كل عذراء لم تضاجع رجلا)

ليس هذا فقط.. لقد جاء في سفر يشوع (6:ـ 16): (قال يشوع للشعب: اهتفوا، لأن الرب قد وهبكم المدينة. واجعلوا المدينة وكل ما فيها محرما للرب.. أما كل غنائم الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد، فتخصص للرب وتحفظ فى خزانته. فهتف الشعب، ونفخ الكهنة في الأبواق. وكان هتاف الشعب لدى سماعهم صوت نفخ الأبواق عظيما، فانهار السور في موضعه. فاندفع الشعب نحو المدينة كل إلى وجهته، واستولوا عليها. ودمروا المدينة وقضوا بحد السيف على كل من فيها من رجال ونساء وأطفال وشيوخ حتى البقر والغنم والحمير)

ليس هذا فقط.. لقد جاء في سفر هوشع (13:ـ 16) يقول الرب: (تجازى السامرة لأنها تمردت على إلهها. بالسيف يسقطون. تحطم أطفالهم، والحوامل تشق)

وفي سفر إشعيا (13:ـ 16) يقول الرب: (وتحطم أطفالهم أمام عيونهم وتنهب بيوتهم وتفضح نساؤهم)

التفت إلي، وقال: اسمع هذه التشريعات الإرهابية القاسية

التي يأمبر بها الكتاب المقدس.. لقد جاء في سفر التثنية (20: 10 -15) قول الرب: (حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها الى الصلح، فإن أجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشـعب الموجـود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لـك. وان لم تسـالمك بـل عملت معك حربـا فحاصـرها. واذا دفعهـا الـرب الهـك الى يـدك فاضـرب جميع ذكورها بحد السيف. واما النساء والاطفال والبهـائم وكـل مـا في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك وتأكل غنيمة اعدائك الـتي اعطاك الرب الهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الامم هنا)

ليس هذا فقط.. اسمع إلى تشريعات الإبادة التي يأمر بها إله الكتاب المقدس..

لقد جاء في سفر التثنية (20: 16): (أما مدن الشعوب التي يهبها الـرب إلهكم لكم ميراثـا فلا تسـتبقوا فيهـا نسـمة حيـة، بـل دمروهـا عن بكـرة أبيهـا، كمـدن الحثـيين والأمـوريين والكنعـانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمركم الرب إلهكم)

التفت إلي، وقال: لا أظن هتلر قام بفعلته الشنيعة ــ إن كـان فعلها ـ إلا بعد قراءة هذا النص.. لقد خشي على قومـه أن يضـموا إلى هذه الأجناس التي أمر اليهود بإبادتهم، فـراح يتغـذى بهم قبـل أن يتعشوا بقومه[1].

ليس هذا فقط.. فأوامر الرب بالقيام بالمـذابح والمجـازر في الكتاب المقدس لا تنتهي.. لقد جاء في سفر صـموئيل الأول (15: 3 -5): (وقال صموئيل لشاول: (أنا الذي أرسلني الـرب لأنصـبك ملكـا على إسـرائيل، فاسـمع الآن كلام الـرب. هـذا مـا يقولـه رب الجنـود: إني مزمـع أن أعـاقب عمـاليق جـزاء مـا ارتكبـه في حـق الإسرائيليين حين تصدى لهم في الطريق عند خروجهم من مصـر. فاذهب الآن وهاجم عماليق واقض على كل ماله. لا تعف عن أحـد منهم بل اقتلهم جميعا رجالا ونساء، وأطفـالا ورضـعا، بقـرا وغنمـا، جمالا وحميرا)

ولهذا.. فإن من أهم أوصاف الرب أنه إله النقمات.. لقد جـاء

1) هناك من يذهب إلى أن هتلر يهودي العرق..

في مزمور(94:ـ 1):ـ (يا إله النقمات.. يا رب.. يا إلـه النقمـات).. وفي (تثنية: 4:24):ـ (لأن الرب الهك هو نار آكلة اله غيـور).. وفي (أشعياء:66ـ 16): (لأن الرب بالنار يعاقب وبسيفه على كل بشر ويكثر قتلى الرب).. وفي (ارميا 48:10): (ملعون من يعمل عمل الرب برخاء وملعون من يمنع سيفه عن الدم).. لقد قال مثـل هـذا بولس في رسالته إلى العبرانيين (12: 29): (لأن إلهنا نارا آكلة)

قلت: إن كل ما ذكرته من نصوص أحفظه عن ظهر قلب..

قال: تصور معي عندما يلقن الطفل الصغير هذه النصـوص.. وغيرها من النصوص الكثيرة التي تمتلئ بها الأسفار المقدسة..

ثم يلقن بعدها عقدة التفوق العنصري الموهوم لما يســمى بـ (الشعب المختار).. ويلقن معها شدة الاستهانة بـدماء الآخـرين من (الأممـيين) أو (الأغيـار) أو (الجـوييم) أو (العامـة) أو (الكـوفريم) والتي تعني كلها الأصناف البشرية الأخرى غير اليهود.

فـإذا وجـد هـذا الطفـل تطلعـا للبطولـة حكيت لـه قصـة شمشون.. وبطولات شمشون(1).

فإذا بلغ هذا الطفل لم يجد أمامه إلا العصابات الإرهابية..

قلت: إن اليهود يشكون الإرهاب ويخافون منه.

قال: اللص لا يخاف إلا اللصوص.. ولو لم يكونوا لصوصا لمـا خافوا أحدا..

الإرهاب ليس حدثا عابرا عرضيا في أولئـك القسـاة إنمـا هـو أمـر كـامن في مشـروعهم الصـهيوني الاسـتيطاني الإحلالي، وفي الصيغة الصهيونية الأساسـية الشـاملة.

كمـا أن حــلقات وآليـات هـذا الإرهـاب مترابطـة متلاحقـة، فالهجمات الإرهابية التي شنت ضد بعـض القـرى العربيـة أدت إلى اسـتسلام بقية سكان الأراضي المحتلة، أي أن المذابح والاعتقالات

1) شـمشون، هو اسم لشخص يُشار إليه أحياناً بأنه آخر القضاة، فقد كان قاضـياً من قبيلة دان مدة عشـرين سـنة، وقـد اشـتهر بقوتـه الجسـدية الخارقـة، تـدور حياتـه حـول مجموعة من المغامرات مع ثلاث نساء.. انظر القصة وتحليلهـا في (الكلمـات المقدسـة) من هذه السلسلة.

والإبعادات إن هي إلا آلية من آليات الاستيطان الصهيوني الإحلالي، ولا يمكن تخيل إمكانية تحقق المشـروع الصهيـوني بدونها.

والإرهاب الصـهيوني هـو الآليـة الـتي تم بهـا تفريـغ جـزء من فلســطين من ســكانها وفــرض المســتوطنين الصــهاينة ودولتهم الصهيونية على شعب فلسطين وأرضها.

وقد تم هـذا من خلال الإرهـاب المباشـر، غـير المنظم وغـير المؤسسـي، الـذي تقـوم بـه المنظمـات الإرهابيـة غـير الرسـمية (المذابح ـ ميليشيات المستوطنين ـ التخريب ــ التميـيز العنصـري) والإرهـاب المباشـر، المنظم والمؤسسـي، الـذي تقـوم بـه الدولـة الصهيونية (التهجير ـ الهيكل القانوني للدولـة الصـهيونية ــ التفرقـة العنصرية من خــلال القـانون ــ الجــيش الإســرائيلي ــ الشـرطة الإسرائيلية ـ هدم القرى).

وكلا هذين النوعين من الإرهـاب (الإرهـاب المؤسسـي وغـير المؤسسي) مرتبطان تمام الارتبـاط، ويتم التنسـيق بينهمـا ويجمـع بينهمــا الهــدف النهــائي، وهــو إفــراغ فلســطين من ســكانها أو إخضاعهم وحصارهم [1].

لعلك سمعت بواقعة دير ياسين (قبل عام 1948)

قلت: أجــل.. ولكنهــا من فعــل بعض الرعــاع.. ولا يصــح أن ننسبها لشعب كامل.

قال: لقد راح ضحية تلـك المذبحـة زهـاء 260 فلسـطينياً من اهالي القريـة العـزل.. وكـانت هـذه المذبحـة، وغيرهـا من اعمـال الارهــاب والتنكيــل، احــدى الوســائل الــتي انتهجتهــا المنظمــات الصهيونية المسلحة من اجل السيطرة على الاوضاع في فلسطين تمهيداً لاقامة الدولة الصهيونية.

لقد أرسل مناحم بيجين برقية تهنئة الى رعنان قائد الارجــون المحلي قال فيها: (تهنئتي لكم لهذا الانتصار العظيم، وقل لجنــودك

---

1) انظــر: الصــهيونية والعنف...من بدايــة الاســتيطان الى انتفاضــة الاقصــى، د. عبــد الوهاب المسيري.

انهم صنعوا التاريخ في اسرائيل)

وفي كتابه المعنون الثورة كتب بيجين يقول: (إن مذبحة دير ياسين اسهمت مع غيرها من المجازر الاخرى في تفريغ البلاد من 650 الف عربي)، واضاف قائلاً: (لولا دير ياسين لما قامت اسرائيل)

قلت: ألا يمكن أن يكون ما حصل من اليهود من إرهاب مجرد رد فعل لما حصل لهم من إذلال؟

قال: رد الفعل يكون لمن فعل الفعل لا لغيره.. هكذا يقول المنطق.. وهكذا تقول القيم النبيلة..

وفي هذه الحالة ينبغي لقومنا أن يوجهوا رد فعلهم للمسيحيين.. لأنه ـ على مدار التاريخ ـ لم يذل اليهود أحد كما أذلهم المسيحيون..

لقد ظل اليهود في نظر العالم المسيحي بأسره (أمة ملعونة) لمدة ألف وخمسمائة عام، لأنهم ـ في اعتقاد المسيحيين ـ قتلة السيد المسيح.

وقد عانى اليهود صنوفا من الاضطهاد والازدارء بناء على هذا التصور الذي ترسخ في العقل المسيحي وصمد على مر القرون، مدعوما بنصوص كثيرة من الإنجيل، وظروف اجتماعية وسياسية خاصة(1).

1) لكن القرن الخامس عشر الميلادي أظهر تحولات عميقة في النفس المسيحية ـ الغربية على الأقل ـ مع بزوغ ما عرف بحركة الإصلاح، وما استتبعه ذلك من انشقاق سياسي وعقائدي داخل الديانة المسيحية بشكل عام، والكاثولوكية الغربية بشكل خاص كان من نتائج هذه التحولات أن أصبحت المسيحية الجديدة التي عرفت باسم البروتستانتية ربيبة لليهودية.

فقد أصبح للعهد القديم أهمية أكبر في نظر البروتستانت من العهد الجديد، وبدأت صورة الأمة اليهودية تتغير تبعا لذلك في أذهان المسيحيين الجدد وقد ظهر هذا التحول في النظرة المسيحية إلى اليهود في كتابات رائد الإصلاح البروتستانتي، القس الفيلسوف (مارتن لوثر). فقد كتب لوثر عام 1523 كتابا عنوانه (المسيح ولد يهوديا) قدم فيه رؤية تأصيلية للعلاقات اليهودية المسيحية من منظور مغاير تماما لما اعتاده

أمـا حيـاتهم مـع المسـلمين، فقـد كـانت لا تختلـف عن حيـاة المسلمين أنفسهم.. بل إن العصـر الـذهبي لليهـود لم يعيشـوه إلا في ظلال المسلمين..

فقــد كــان اليهــود ــ الــذين يعيشــون في بلاد المســلمين ـ يشـاركون في معظم مجـالات الحيـاة وفي كـل المهن والحـرف تقريباً، وكانت ملكية الأراضـي مفتوحـة أمـامهم، كمـا أنهم تملكـوا العقـارات في كـل أنحـاء البلاد وتناقلوهـا عن طريـق الوراثـة أو عمليـات الـبيع والشـراء فيمـا بينهم وبين المسـلمين دون أيـة مضايقات (1).

وكان لهم مطلق الحرية في العمل التجاري بلا حدود، وكـانت نقابات الحرفـيين والمهنـيين مفتوحـة للجميـع بغض النظـر عن أي دين أو مذهب أو أصل.

قلت: أنت تنسى ما قدم قومنا لليهود؟

قال: لقد قدموا لهم المذابح الكثيرة الـتي لا تنتهي.. وآخرهـا هي إرسـالهم إلى المسـلمين.. لعلمهم أن المسـلمين مـع كـونهم مسالمين إلا أنهم لا يسكتون عن ضيم ولا يخضعون عن ذلة.

قلت: عرفت ما فعل المجرمون من اليهود.. ولم أكن أحتـاج لمعرفة تفاصيل ذلك، فما تبرزه لنا الأخبار الموضـوعية كـل يـوم لا يزيدنا إلا يقينا بالأحقاد التي تمتلئ بها قلوبهم.. فحدثني عن قــومي من **المسيحيين**.

قال: قومك من المسـيحيين على امتـداد تـاريخهم لا يقلـون دموية عن هؤلاء.

المسيحيون من قبل، فكان مما قال في كتابه:(إن الـروح القـدس شـاءت أن تـنزل كـل أسـفار الكتـاب المقـدس عن طريـق اليهـود وحـدهم. إن اليهـود هم أبنـاء الـرب، ونحن الضيوف الغرباء، وعلينا أن نرضى بأن نكون كالكلاب التي تأكل من فتات مائدة أسـيادها)

1) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري.

قلت: احـذر من الحـديث عن المسـيحية بشـيء من أحـاديث العوام.. فالمسيحية لا يمثلها إلا رجال الدين.

قال: سأحدثك عما فعلـه أكـبر رجـال الـدين في المسـيحية.. سـأحدثك عن البـابوات المعصـومين.. ألسـتم تعتـبرون البـابوات معصومين؟

سكت، فقال: إن كـل الجـرائم الـتي حـدثت باسـم الحـروب الصليبية أول من يتحمل وزرها هم البابوات..

ففكرة الحروب ذات الطابع الـديني الخـالص ترجـع لكرسـي البابويـــة الـــتي أضـــفت على الصـــراع الخالـــد بين المســـلمين والمسيحيين صفة الصليبية المتعصبة.

وخلال هذا الصراع الطويـل بـرز العديـد من البابـاوات الـذين كـان لهم دور بـارز في تـأجيج المشـاعر العدائيـة ضـد الإسـلام والمسلمين تمثلت في حملات صليبية عالمية على الأمة الإسلامية.

فالبابا إسكندر الثاني (1061-1073) يعتبر أول من اسـتخدم فكـرة صـكوك الغفـران كورقـة لتحميس الأوروبـيين على حـرب المسـلمين، وذلـك عنـدما دعـاهم سـنة 1063م لنجـدة إخـوانهم الإسبان في الأندلس من نير المسـلمين، مـع العلم أن المسـلمين كانوا وقتها في أضـعف حـالاتهم تحت حكم ملـوك الطوائـف، وقـد أسفرت هذه الدعوة عن واحدة من أشد المجـازر البشـرية روعـة عندما شن نصارى أوروبا حربا صليبية بقيادة قائد فرسـان البابويـة على مدينة بربشتر في شرق الأندلس سـنة 1064م راح ضـحيتها أربعون ألف مسلم غير آلاف الأسارى من البنات والصبيان.

يليه البابا جريجوري السابع الذي يعتبر أكبر من تولى منصـب البابويـة في التـاريخ الكنسـي كلـه، وهـو مؤسـس فكـرة الحملات الصليبية الشهيرة على العالم الإسلامي بالشام ومصر، وقـد تـولى البابوية خلفا لإسكندر الثـاني سـنة 1073م، وهـو ألمـاني الأصـل، وكانت ولايته للبابوية نقطة تحول فاصلة في حياة البابوية، إذ أصبح البابا من عهده هـو سـيد العـالم النصـراني وسـيد أوروبـا المطلـق وصاحب السلطة الأكـبر والأهم على نصـارى العـالم القـديم، وقـد

أثبت ذلك في صراعه ضد الإمبراطور هنري الرابع الذي اضطر للتوجه إلي قلعة كانوسا حيث مقر إقامة البابا جريجوري السابع طلبًا لمغفرة البابا وصفحه بعد أن ثار عليه شعبه وقواده.. وإمعانًا في إظهار السيادة والقوة تركه جريجوري ثلاثة أيام حافيًا عاري الرأس على الجليد حتى يرضي عنه.

هذا البابا أول من أشعل الحملات الصليبية على الأمة الإسلامية، ولكن العمر لم يطل ليشهد انطلاق هذه الحملات حيث هلك سنة 1088م وترك ذلك لتلميذه النجيب أوربان الثاني الذي أخذ على عاتقه إدخال الحملات الصليبية موضع التنفيذ، وقد قام بجولة أوروبية واسعة لحشد الرأي العام واستثارة الهمم الصليبية من أجل ذلك، ثم دعا لمؤتمر مصيري في كليرمونت بفرنسا في 27 نوفمبر سنة 1095م، وفيه أطلق صيحته الشهيرة (إنها إرادة الرب)، وأمر كل مسيحي ومسيحية بالخروج لنجدة القبر المقدس من أيدي الكفرة (يعني المسلمين)، ثم أفاض في حديث مليء بالكذب والأباطيل عن الاضطهادات التي يتعرض لها المسيحيين والحجيج ببلاد المسلمين، فأدى ذلك لاشتعال روح حماسية عارمة بأوروبا نحو حرب المسلمين والخروج إلى بلادهم..

قاطعته قائلا: أعلم تلك المواقف وغيرها كثير.. لكنها جميعا لا تعدو مواقف رجال دين.. لا مواقف أهل دين.. فلا يمكن أن نحمل المسيحيين ذنب بابواتهم.

قال: صدقت.. ولكن العوام المساكين أصحاب القلوب الطيبة ملأهم رجال دينهم أحقادا.. لقد كان الجندى الإيطالى الذاهب لاحتلال ليبيا ينشد قائلا: (يا أماه صلاتك و لا تبكى بل اضحكى و تأملى ألا تعلمين أن إيطاليا تدعونى وأنا ذاهب إلى طرابلس فرحا مسرورا لأبذل دمى فى سبيل سحق الأمة الملعونة ولأحارب الأمة الإسلامية سأقاتل لمحو القرأن وإن لم أرجع فلا تبكى على ولدك وإن سألك أحد عن عدم حزنك على فأجيبيه إنه مات فى محاربة الإسلام)

لقد ذكر (فيدهام) أن الحروب قادها البابوات كانت مليئة

بالفظائع، لأن رجال اللاهوت (الطيبين) كانوا مستعدين دائمًا أن يضعوا الزيت على النار، وأن يحيوا وحشية الجنود عندما يساورهم أي تردد أو ضعف، فقد يكون الجنود قساة، ولكنهم كانوا يميلون في بعض الأحيان إلى الرحمة، أما رجال اللاهوت فاعتبروا الاعتدال والرحمة نوعًا من الخيانة[1].

قلت: ولكن لم لا ننظر إلى تلك الحروب على أنها حروب تحرير.

قال: نعم.. لقد كانت حروب تحرير.. ولكن بمعنى واحد لا غير.. هو تحرير الأرواح من الأجساد..

لقد روى ابن الاثير في تاريخه [2] عن دخول الصليبين القدس في الحروب الصليبية فقال: (ملك الفرنج القدس نهار يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان، وركب الناس السيف، ولبث الفرنج في البلدة أسبوعا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام، وقتل الفرنج بالمسجد الاقصى ما يزيد على سبعين ألفا، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارق الاوطان وجاور بذلك الموضع الشريف)

ووصف ستيفن رنسيمان في كتابه (تاريخ الحروب الصليبية) [3] ما حدث في القدس يوم دخلها الصليبيون فقال: (وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه وحينما توجه قائد القوة ريموند اجيل في الضحى لزيارة ساحة المعبد اخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه وتركت مذبحة بيت المقدس أثرا عميقا في جميع العالم، وليس معروفا بالضبط عدد ضحاياها غير

1) الأيديولوجية الانقلابية، ص716.

2) تاريخ ابن الأثير: 8/189-190.

3) تاريخ الحروب الصليبية: 1/404/406.

أنها أدت الى خلو المدينـة من سـكانها المسـلمين واليهـود، بـل إن كثير من المسيحيين اشتد جزعهم لما حدث)

وقد وصف كثير من المؤرخين احـداث المذبحـة الـتي حـدثت في القدس يوم دخـول الصـليبيين أليهـا وكيـف أنهم كـانوا يزهـون بانفسهم لأن ركب خيولهم كانت تخوض في دماء المسـلمين الـتي سالت في الشوارع.. وقد كان من وسائل الترفيه لـدى الصـليبيين أن يشووا أطفال المسلمين كما تشوى النعاج.

ويـذكر الكثـيرون مـا فعـل ريتشـارد قلب الاسـد في الحملـة الصليبية الثالثة عند احتلاله لعكا بأسرى المسلمين فقد ذبح 2700 أسير من أسرى المسلمين الذين كانوا في حامية عكـا، وقـد لقيت زوجات واطفال الاسرى مصرعهم الى جوارهم.

أهؤلاء المجرمون محررون..

سكت قليلا، ثم قال: إن هـذه الحملات الصـليبية الـتي قادهـا البابوات لم تتوجه ضد المسلمين فقط، بل اتجهت في أوروبا ضـد كـل من حدثتـه نفسـه بـالخروج أو بـالانحراف عن الكنيسـة، ففي الحملة ضد الألـبيجنس والوالـدنس والكثـاريين مثلاً ــ في القـرنين الثاني عشر والثالث عشر ـ كـانت الكنيسـة تحـاول إفنـاءهم إفنـاءً تامًا.. وهذا ما حققته فعلاً، فقتلت وحرقت وشنقت الرجال والنساء والأطفال بشكل جماعي.

لا شك أنك سمعت بـ (ملحمـة سـان بـارتلمى)، وهى مذبحـة أمر بهـا سـنة 572م شـارل التاسـع وكاترينـا دوميديسـيس حينمـا قتلت كاترينـا خمسـة آلاف من زعمـاء البروتسـتانت فى بـاريس وظنت أنهم يتآمرون بها و بالملك، ولم يكد ينتشر الخبر فى باريس حـتى شـاع أنـه شـرع فى قتـل البروتسـتانت فـانقض أشـراف الكاثوليك والحـرس الملكى والنبالـة والجمهـور على البروتسـتانت وقتلوا عشرة آلاف نسمة فى مختلف المدن بعد باريس.

وقد باركت الكنيسة الكاثوليكية هذه المجزرة وما بدا السرور على أحد كما بدا على البابا غريغوري الثالث عشر، وقد أكر بضرب أوسمة خاصة تخليدا لذكرى هذه المذبحة، ورسمت على هذه الأوسمة صورة غريغوري و بجانبه ملك يضرب بالسيف أعناق البروتستانت.

وقد كانت هذه الظاهرة سببا في جعل (وليم جيمس) يقرر أن العالم لم يعرف الاضطهاد الديني على نطاق واسع، قبل ظهور الأديان الموحدة، فقد كانت المسيحية في الواقع أول مذهب ديني في العالم وجد خاصته في التعصب والذي كان يقضي بإفناء خصومه.

وقصة مذابح الصرب ضد المسلميين فى البوسنة ليست عنا ببعيدةٍ، ففى أربعة أعوام ذبح المسيحيون 200،000 مسلم و مسلمة واغتصبوا النساء وشقو بطون الحوامل ودفنو الناس أحياء.. وقصة سربينيتشا تلك القرية الصغيرة التى أعلنتها الأمم المتحدة منطقة آمنة إلا أن الصرب الصليبيين تعاونوا مع إخوانهم الهولنديين وغدرو بالقرية الآمنة، وقتلوا عشرة آلاف مسلم فى ليلةٍ واحدة.

نعم إن قومنا يتشدقون ـ كعادتهم ـ ويقولون بأن الحرب كانت عرقية لا دينية، مع أنهم يعلمون أن عرقية المسلمين هي نفس عرقيتهم.

لقد كان العالم كله يعلم أن الحرب بين الصرب والكروات حرب بين المسيحيين والمسلميين.. وكان ذنب المسلميين الوحيد فيها هو أنهم مسلمون.

لم أملك نفسي، فسالت دموع حارة من عيني، فقال: هذه مجرد أمثلة عن الجرائم التي ارتكبها أولئك الذين يحملون الصليب، ويرتلون الكتاب المقدس، ويغنون للسلام.

التفت إلي، وقـال: لا تتعجب من ذلـك.. فهم لا ينفـذون إلا إرادة الرب.. لقد قال لهم يسوع: (لا تظنوا أني جئت لأرسي سلاما على الأرض. ما جئت لأرسي سلاما، بل سيفا. فإني جئت لأجعل الإنسان على خلاف مع أبيه، والبنت مع أمها، والكنة مع حماتها. وهكذا يصير أعداء الإنسان أهل بيته) (إنجيل متى:10:34-36)

فلذلك هم ينفذون هذه الأوامر بدقة متناهية..

أما تفاصيل تطيبقها فقد شرحها لهم العهد القديم بما لا مزيد عليه..

قلت: ولكن الكتاب المقدس يقول: (من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الايسر)

قال: أتدري المعنى الرمزي الذي تحمله (فأدر له خدك الأيسر)؟

قلت: ألهذه الكلمة معنى رمزي؟

قال: أجل.. يختص به فقهاء المسيحية..

قلت: فما هو؟

قال: إن إدارة خدك الأيسر له لا تعني أن تمكنه من ضربه، ولكن تعني أن تحاول اجتثاثه وقلعه وإبادته.. فالخد الأيسر في معناه الرمزي هو الإبادة بكل ما شرح الكتاب المقدس من طرق الإبادة.

قلت: لقد اقشعر قلبي مما ذكرت مما فعله أهل ديني.. فحدثني عن **أهل حضارتنا..** هذه الحضارة الممتلئة بالفلسفات والمذاهب والأفكار.

قال: لو ذهبت أحدثك عن جرائمها لما انتهينا.. ولذلك سأكتفي بتحديثك عن الجرائم التي أسست لتلك الدولة العظمى

التي لا تـزال تنشـر الخـراب في العـالم.. في نفس الـوقت الـذي تصم كل من يخالفها بالإرهاب.

قلت: تقصد أمريكا؟

قال: أجل.. فأمريكا ثمرة خبيثة من ثمار اليهودية والمسيحية والأفكار الرومانية التي لبست لباس الفلسفة الحديثة.

قلت: فما فعلت أمريكا؟.. تلك التي تحن لها القلوب.

قال: وترجف من ذكرها القلوب.

قلت: ما فعلت [1]؟

قال: في عام 1664م، صـدر كتـاب بعنـوان (العملاق) كتبـه (يوردجـاك) تضـمن نصـائح للقيـادات الأنجلوساكسـونية المتزعمـة للمهاجرين البروتستانت إلى القارة الأمريكيـة الجديـدة، جـاء فيـه: (إن إبادة الهنود الحمر والخلاص منهم أرخص بكثير من أي محاولة لتنصـيرهم أو تمـدينهم ؛ فهم همج، برابـرة، عـراة، وهـذا يجعـل تمدينهم صعباً، إن النصر عليهم سهل، أما محاولة تمدينهم فسوف تأخذ وقتاً طويلاً، وأمـا الإبـادة فإنهـا تختصـر هـذا الـوقت، ووسـائل تحقيق الانتصار عليهم كثيرة: بـالقوة، بالمفاجـأة، بـالتجويع، بحـرق المحاصيل، بتدمير القوارب والـبيوت، بتمزيـق شـباك الصـيد، وفي المرحلة الأخيرة: المطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة الـتي تخيفهم ؛ لأنها تنهش أجسادهم العارية)

وفي عام 1730 م، أصدرت الجمعيـة التشـريعية (البرلمـان) لمن يسمون أنفسهم (البروتستانت الأطهـار) تشـريعاً يقنن عمليـة الإبادة لمن تبقى من الهنود الحمر، فأصدرت قراراً بتقـديم مكافـأة مقـدارها 40 جنيهـاً مقابـل كـل فـروة مسـلوخة من رأس هنـدي أحمر، و40 جينهاً مقابل أسر كل واحـد منهم، وبعـد خمسـة عشـر عامـــاً ارتفعت المكافـــأة إلى 100 جنيـــه، ثم وضـــع البرلمـــان البروتسـتانتي (تسـعيرة) جديـدة بعـد عشـرين عامـاً من صـدور القرارات الأولى: فروة رأس ذكر عمره 12 عاماً فمـا فـوق: 100

1) انظر هذه التفاصيل وغيرها في: أمريكا واسرائيل وعقدة الدم، د. عبـد العزيـز بن مصطفى كامل.

جنيه، أسير من الرجال: 105 جنيهات، أسيرة من النساء أو طفل: 55 جنيهاً، فروة رأس امرأة أو فروة رأس طفل: 50 جنيهاً.

وفي عام 1763 م أمر القائد الأمريكي، البريطاني الأصل (جفري آهرست) برمي بطانيات كانت تستخدم في مصحات علاج الجدري في أماكن تجمعات الهنود الحمر، لنقل مرض الجدري إليهم بهدف نشر المرض بينهم ؛ مما أدى إلى انتشار الوباء الذي نتج عنه موت عشرات الألوف منهم.

وبعد عقود قليلة انتهى أمر السكان الأصليين في القارة الأمريكية إلى ما يشبه الفناء، بعد الإبادة المنظمة لهم على أيدي المبشرين بالمحبة، والسلام للبشرية جمعاء.

وبعد فراغ القارة الأمريكية من العبيد (الحمر) قرر الأمريكيون استيراد عدة ملايين من العبيد (السمر) لخدمة (الشعب المختار) فتحول رعاة البقر إلى بحارة يجوبون السواحل الإفريقية لاصطياد العبيد وحشرهم في سفن الشحن، في عمليات إجرام أخرى يعالجون بها آثار الجريمة الأولى في حق الهنود الحمر، حيث لم يبق لديهم ما يكفي من الأيدي العاملة لبناء صرح الحضارة الجديدة.

وقد جلب الأوربيون والأمريكيون في أول الأمر ما لا يقل عن 12 مليوناً من الأفارقة المسترقين، جاءوا بأفواجهم في الأصفاد، وكانت البرتغال أكثر الدول الأوروبية توسعاً في جلب هؤلاء إلى أراضي العالم الجديد في أمريكا، دون توفير أدنى الضمانات لتلك (المخلوقات) الإفريقية التي لم يَرْقَ التعامل معهم إلى مستوى التعامل مع فئران المعامل ؛ فقد صدر عن منظمة اليونسكو عام 7891م تقرير يحكي فظاعة ما حصل للأفارقة وهول الكارثة الإنسانية التي حلت بهم لهم من أجل تعمير أمريكا ؛ فقد جاء فيه أن إفريقيا فقدت من أبنائها في تجارة الرقيق نحو 210 مليون نسمة، وذكرت التقارير أن ما لا يقل عن خمسة وعشرين مليوناً من الأفارقة الذين تم شحنهم من أنحاء القارة في أفواج من (جزيرة جور) الواقعة في مواجهة العاصمة السنغالية (داكار) قد هلك أكثرهم قبل أن يصلوا إلى العالم الجديد مما لقوا في رحلات العذاب داخل سفن شحن المواشي.

ويذكر هنا أن أمريكا، وأمريكا بالـذات.. هي الـتي أحبطت في مـؤتمر (دوربـان) عـام 2000م مطـالب الأفارقـة بـالتعويض عمـا حدث لهم، بل رفضت أن يقدم لهم مجرد اعتذار، ومـع كـل هـذا لا يزال كثير من المغفلين أو المغرضين يرفعون عقيرتهم قـائلين: إن أمريكا محررة العبيد.

وقد بقي الأمريكيون مشغولين عن التدخل في شؤون العالم ثلاثة قرون، تاركين ذلك للجـزء الأصـلي من الشـعب الساكسـوني المختار (بريطانيا) ثم قرروا بعد نشوب الحرب العالميـة الثانيـة أن ينفتحوا على العالم، وكانت بداية ذلك الانفتاح دموية قاتلة.

ليست هذه فقط هي جرائم الأمريكان..

هناك جرائم أخرى كثيرة.. سأذكر لك واحدة منها:

بالرغم من أن الحرب العالميـة الثانيـة أفقـدت العـالم مـا لا يقــل عن خمســين مليونــاً من البشــر، فــإن خســارة الأمريكــيين لخمسة آلاف جندي، بعد الهجمات اليابانيـة بطـائرات (الكاميكـازا) على (مينـاء هـاربر) الأمـريكي عـام 1945م أفقـدت الأمريكـيين عقلهم؛ فلأول مرة يخسر الشـعب الأمـريكي (المختـار) هـذا الكم الهائل من الـدماء في معركـة واحـدة، فكـان لا بـد أن يكـون الـرد حقداً يصب على رؤوس اليابانيين المدنيين منهم قبل العســكريين، وهذا ما حدث.

فمقابل دماء الخمسة آلاف جندي أمريكي، أقبـل الأمريكيـون الأنجلو ساكسـون على الانتقـام المجنـون، فـأمر الجـنرال (جـورج مارشال) رئيس الأركان الأمريكي في ذلك الوقت، بتنفيذ عمليــات قصف تدميري واسع النطاق للمدن اليابانية الكثيفـة السـكان، فتم إطلاق 334 طـائرة أمريكيــة لإلقــاء القنابــل الحارقــة لتــدمر مــا مســاحته 16 ميلاً مربعــاً، ولتقتــل في ســاعات نحــو 100 ألــف شـخص، وتشـرد نحـو مليـون آخـرين، في عمليـات جحيم مسـتعر شمل طوكيو و64 مدينة يابانية أخرى.

ثم ختم ذلك المشهد الدموي بمشهد آخر أكثر دمويــة لم يكن للبشرية به عهد قبل مجيء العهد الأمريكي ؛ فقد أقدم الأمريكيون وهم القـوة المتظـاهرة اليـوم بالـدعوة إلى التعقـل في اسـتعمال

أسلحة الدمار الشـامل إلى اسـتعمال هـذا السـلاح، وكـانوا أسـبق البشر إلى استعماله عندما أسقطوا قنبلتين نوويـتين فـوق مـدينتي هيروشيما وناجازاكي، حصدت بسـببها عشـرات الآلاف من الأرواح بلا أدنى تفريق بين مدني وعسكري، أو رجل وامرأة وطفل.

وبعد انتهـاء الحـرب العالميـة الثانيـة وقعت أزمـة بين أمريكـا وكوريـا الشـمالية بسـبب خـوف الأمريكـيين من انتشـار النفـوذ السـوفييتي في جنـوب شـرق آسـيا، فتـدخلوا بسـبب ذلـك في الأراضي الكورية، وعـزل الأمريكيـون الحكومـة الشعبية، وأغرقـوا البلاد في حـروب طاحنـة أشـاعت نـاراً ودمـاراً، ولكنهـا بعثت في الوقت نفسه نوعاً من الارتياح النفسي في قلوب زعماء (الشـعب المختار)

يقول ناعوم تشومسكي، الكاتب الأمريكي المعروف، واصـفاً نتائج تلك الحرب: (أشعلنا حرباً ضروساً، سـقط خلالهـا 100 ألـف قتيـل.. وفي إقليم واحـد صـغير سـقط 30 ألفـاً إلى 40 ألفـاً من القتلى أثناء ثورة قام بها الفلاحون)

ويصف ذلك الكاتب كيف أن حكومة بلاده تدوس على (القيم) الديمقراطيـة إذا مـا تـبين أنهـا تحـول بين أمريكـا وبين مصـالحها الذاتية، فيقـول: (لم يُـثر انقلاب فاشـي في كولولمبيـا إلا قليلاً من احتجاج حكومة الولايات المتحدة، بينمـا لم تهتم بـانقلاب عسـكري في فنزويلا، ولا بعودة السـلطة للمعجب بالفاشـية في بنمـا، ولكن المرارة والعداوة التهبت في حكومتنا عندما صـعدت للسـلطة أول حكومة ديمقراطية في تاريخ جواتيمالا)

وبينمــا لم تأبــه أمريكــا بقيــام أنظمــة ديكتاتوريــة معاديــة للديمقراطيــة مــا دامت تخــدم الأغــراض الغربيــة، فقــد أطــاح الأمريكيـون ــ كمـا قـال تشومسـكي ــ بالعديـد من الحكومـات (الديمقراطية) عنـدما ظهـر لهم أن تلـك الأنظمـة الديمقراطيـة لا تخــدم مصــالحهم الإجراميــة.. يقــول: (أعــاقت حكومتنــا بعض الحكومات البرلمانية، وأسقطت بعضها، كما حدث في إيـران عـام 1953م، وجواتيمالا عام 1945م، وتشيلي عام 1972م، ولم تكن أساليب الإسقاط طبيعيـة جـداً، فلم يكن القتـل العـادي هـو عمـل القوات التي حركناها في نيكاراجوا، أو عمل وكلائنـا الإرهـابيين في

السلفادور أو جواتيمالا، ولكنه كان بصفة واضحة قتل القسوة والتعذيب السادي: تعليق النساء من أقدامهن، بعد قطع أثدائهن، وفض بكارتهن، وقطع الرؤوس وتعليقها على خوازيق، ورطم الأطفال بالجدران حتى يموتوا..)

سكت قليلا، ثم قال: هل تعرف القتل بالوكالة.. والعمالة؟

قلت: لا.. هذه أول مرة أتشرف بسماع هذا النوع من الجرائم.

قال: هذا ما مارسته أمريكا منذ ولدت أمريكا.. ولا زالت تمارسه ببشاعة لا نظير لها.

فبتواطؤ أمريكي شبه فعلي، قُتل مئات الآلاف من الأشخاص في مجازر عديدة في أندونيسيا ونيكاراجوا والسلفادور وهندرواس، وقتْل هؤلاء وإن كان بأيد غير أمريكية، إلا أنه كان بأسلحة أمريكية، ومشورة أمريكية وتدريب أمريكي مثلما يحدث الآن في فلسطين وأفغانستان والفلبين وغيرها.

وقد تكررت المجازر في أنجولا وموزمبيق وناميبيا وغيرها من دول القارة الإفريقية، وعرف العالم في السنوات الأخيرة عدداً من الطغاة الملفوظين من شعوبهم، والمدعومين من (الشعب المختار) من أمثال: (سوموزا) في نيكاراجوا، و(بينوشيه) في تشيلي، و(ماركوس) في الفلبين، و(باتيسيتا) في كوبا و(دييم) في فيتنام و(دوفاليه) في هايتي و(سوهارتو) في إندونيسيا، و(فرانكو) في إسبانيا.

وهناك زعماء آخرون رفضهم العالم واحتضنهم الأمريكيون، وهم زعماء المافيا الإسرائيليون من بن جوريون إلى شارون حيث لم يعدّ (أحرار) أمريكا واحداً من هؤلاء السفاحين إرهابياً، ولم يطالب شعبها باعتقال أي منهم لتقديمه للعدالة كي يحاكم عن جرائمه ضد الإنسانية، أو يحاسب على سجلاته الإرهابية.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف محور الشر؟

قلت: هم يقصدون بها بلاد المسلمين.. وهم في هذه الأيام

يطلقونه على إيران وحلفائها..

قال: عند ما كانت إيران إحدى العِزَب الأمريكية في آسيا في عهود الإمبراطورية البهلوية، كانت محورا للخيرا.. ولكنها بعد قيام الثورة الإسلامية التي خلصت المستضعفين من نير المستكبرين، وحطمت الطغاة بمعاول الحق، عام 1979م، اعتبر الأمريكان هذا التطور ضاراً بمصالحهم.

فخططوا له أن يضرب بسيوف إخوانه.. وهنا حدث ما يسمى حرب الخليج الأولى، حيث نشبت هذه الحرب بتواطؤ أمريكي أمدت أمريكا فيها العراق بكل ما تحتاجه من أسلحة التقتيل والتدمير، بل إنها أظهرت ميلاً سياسياً نحو مساندته لضمان مساعدته من الدول الصديقة لها.

ولكنها في الوقت ذاته، كانت تضمر الشر للعراق كما كانت تضمره لإيران، وكان جوهر الموقف الأمريكي من تلك الحرب هو ما كان يردده اليهودي الأمريكي المخضرم (هنري كيسنجر): (سياستنا تجاه تلك الحرب أن لا تهزم العراق، وألا تنتصر إيران)

قلت: إن كل ما ذكرته من جرائم من فعل أمريكا.. والحضارة الغربية لا تمثلها أمريكا وحدها..

قال: تريد أن أحدثك عن أوروبا..

قلت: تاريخ أوروبا أنظف من تاريخ أمريكا..

قال: كلاهما يصدر من قلب حقود واحد.. لقد تداعت دول أوروبا على البلدان الإفريقية، في شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ووسطها، وتقاسموها فيما بينهم ـ على شدة الاختلافات السائدة بينهم ـ وأنزلوا بسكانها من الدمار والهلاك، ما تتورع عنه الوحوش في غاباتها، قضوا في كل بلد على زعمائه وقادته وسفكوا دماء الآلاف من أبنائه، بدون تفرقة بين الرجال والنساء، والشيوخ والكهول والشباب والأطفال، وشردوا الآلاف المؤلفة، وحرموا من بقي في البلاد من أقل حقوق الإنسان التي يتشدقون بالدعوة

إليها، فأذلوا بذلك سكان البلدان الإفريقية كلهم واستعبدوهم ونهبوا خيراتهم، كل ذلك باسم الاستعمار والتحرير.

لقــد نقــل الأمــير شــكيب أرســلان عن بعض المراســلين الأوروبيين الذين رافقـوا الجيـوش الإيطاليـة عنـدما اغتصـبت ليبيـا شيئا، يسيرا ممـا ذكـره أولئـك المراسـلون وشـاهدوه من أعمـال غـزاة النصـارى الوحشـية، فقـال: (وليس المسـلمون وحـدهم هم الـذين شـاهدوا أعمـال الطليـان وضـجوا منهـا، بـل ثمـة كثـير من الإفرنج شاهدوها وأنكروها، ومن ذلك المسـتر (فرانسـس مـاكولا) الإنجليزي الذي كـان مرافقـا للجيش الإيطـالي في طـرابلس عنـد الاحتلال وشـاهد تلـك الفظـائع بعينـه، فقـد قـال: (أبيت البقـاء مـع جيش لا هم له إلا ارتكاب جرائم القتل، وإن ما رأيتـه من المـذابح، وتـرك النسـاء المريضـات العربيـات وأولادهن يعـالجون سـكرات الموت على قارعة الطريـق جعلـني أكتب للجـنرال (كانيفـا) كتابـا شديد اللهجة، قلت له: إني أرفض البقاء مع جيش لا أعـده جيشـا، بل عصابة من قطاع الطرق والقتلة)

ومن ذلك شهادة الكاتب الألماني (فون غوتـبرغ) الـذي قـال: (إنه لم يفعل جيش بعدوه من أنـواع الغـدر مـا فعلـه الطليـان في طرابلس، فقد كـان الجـنرال كانيفـا يسـتهين بكـل قـانون حـربي، ويأمر بقتل جميع الأسـرى، سـواء أقبض عليهم في الحـرب أو في بيوتهم، وفي سيراكوزه الآن كثير من الأسرى الذين لم يؤسر واحد منهم في الحرب، وأكثرهم من الجنود الذين تركـوا في مستشـفى طرابلس.

وقد قبض الطليان على ألوف من أهل طـرابلس في بيـوتهم ونفوهم، بدون أدنى مسوغ إلى جزر إيطاليا حيث مات أكثرهم من سوء المعاملة.

وأقر ما قاله (هرمان رنولوف) المراسـل النمسـاوي الحـربي فقد وجد في الباخرة التي نقلت جانبا من هـؤلاء الأسـرى فوصـف

تلك الحالة، فقال: (في الساعة السادسة من مساء كل يوم يكبــل هؤلاء المرضى بالحديد في اليد اليمنى والرجـل اليسـرى، حقـا إن موسيقى هذه السلاسل تتفق مع المدنيـة الـتي نقلتهـا إيطاليـا إلى إفريقيا، لا ريب أن الطليان قد أهانوا كثيرا، فلم يكف أنهم أسقطوا منزلـة أوروبـا العسـكرية في نظـر إفريقيـا، حـتى شـوهوا اسـم النصرانية أمام الإسلام)

ثم قال: (وقد قتل الطليان في غير ميدان الحرب كـل عـربي زاد عمره على أربع عشرة سنة، ومنهم من اكتفوا بنفيه)

وأحرق الطليان في 26 أكتوبر سنة 1911م حيا خلـف بنـك روما، بعد أن ذبحوا أكثر سـكانه بينهم النسـاء والشـيوخ والأطفـال قال: (ورجوت طبيبين عسكريين من أطباء المستشفى، أن ينقلـوا بعض المرضـى والمصـابين المطـروحين على الأرض تحت حـرارة الشـمس فلم يفعلا، فلجـأت إلى راهب من كبـار جمعيـة الصـليب الأحمر، هو الأب (يوسف بافيلاكو) وعرضت عليـه الأمـر، وأخـبرت شابا فرنسيا أيضـا، لكن الأب (بـافيلاكو) حـول نظـره عـني ونصـح الشاب بأن لا يزعج نفسه بشأن عربي في سكرات الموت، وقال: (دعه يموت)

ثم قال هذا المراسل النمساوي: (ورأيت على مسـافة قريبـة جنديا إيطاليا يرفس جثة عربي برجله، وصباح اليوم التـالي وجـدت الجرحى والمرضى الذين رجوت الراهب من أجلهم قد ماتوا..)

ثم قـال: (رأينـا طائفـة من الجنـود تطـوف الشـوارع مفرغـة رصاص مسدساتها في قلب كل عربي تجده في طريقها، قـد نـزع أكثرهم معاطفهم، ورفعوا أكمام قمصانهم كأنهم جزارون)

وقال المسي كسيرا مراسل جريدة (إكسليسيور) الباريسـية: (لا يخطر ببال أحد ما رأيناه بأعيننـا من مشـاهد القتـل العـام ومن أكوام جثث الشيوخ والنساء والأطفال، يتصاعد منهـا الـدخان تحت

ملابسهم الصوفية كالبخور يحرق أمام مذبح من مذابح النصر الباهر، ومررت بمائة جثة بجانب حائط قضي عليهم بأشكال مختلفة.

وما فررت من هذا المنظر حتى تمثلت أمام عيني عائلة عربية قتلت عن آخرها، وهي تستعد للطعام، ورأيت طفلة صغيرة أدخلت رأسها في صندوق حتى لا ترى ما يحل بها وبأهلها. إن الإيطاليين فقدوا عقولهم وإنسانيتهم من كل وجه)(1)

هذه نصوص مختزلة لبعض المراسلين الأوروبيين عن وحشية الإيطاليين وقساوة قلوبهم وخلوها من الرحمة، في بلد واحد وهو ليبيا ومن جيش بلد أوروبي واحد، هو الجيش الإيطالي برضا الدول الأخرى في أوروبا، وهو مثال ينطبق على كل البلدان التي اغتصبها الأوروبيون في إفريقيا وغيرها.

سلام الإسلام

وضعت يدي على فمه، وقلت: بالله عليك إلا كففت من حديثك هذا.. فقد ملأتني غيظا وحقدا ورعبا.

قال: لم أذكر لك شيئا.. إن الحقيقة لا يمكن تصويرها ولا تصورها.. لعل الملائكة الذين ذكرهم القرآن في قوله: ﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ (البقرة:30) كانوا يقصدون هذه الحضارة.. وهذا الإنسان المتربي في كنفها المتعطش للدماء.

قلت: حدثني عن سلام الإسلام.

قال: ذاك حديث وطويل وعذب لا يمكنه أن نوفيه حقه في هذه الجلسة(2).. ولكني سأحدثك عن السلام الذي اشتهر الحديث

1) انظر: حاضر العالم الإسلامي للأمير شكيب أرسلان.

2) انظر تفاصيل هذا في رسالة (سلام للعالمين) من هذه السلسلة.

عنه.. السلام المرتبط بالحرب.

قلت: لقد أمر الإسلام بالحرب.. فكيف يستقيم السلام مع الحرب.

نظر إلى الشاب الجالس أمامنا.. وقد علته الهموم، فقال: أرأيت لو أن هذا الشاب كان يملك قوة يحمي بها حقل زيتونه.. هل يجرؤ أحد على الاقتراب منه؟

قلت: لا.. لن يجرؤ أحد على الاقتراب منه.

قال: ولهذا أمر الإسلام بالقوة وبالإعداد الذي يرهب الأعداء الظالمين، فلا يطمعون في المستضعفين.. لقد جاء في القرآن: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال:60)

قلت: القرآن يستعمل مصطلح الإرهاب.

قال: الإرهاب لا يعني القتل.. بل يعني وضع الروادع للظالمين حتى لا يفكروا في القتل.. ولهذا، فإن نظام الحرب في الإسلام يعتمد هذا المنهج.. ولهذا كانت الحروب التي خاضها الإسلام من أنظف الحروب على الإطلاق..

قلت: فحدثني عن ذلك.

قال: لا يمكنك أن تفهم موقف الإسلام من الحرب، وتشريعاته المرتبطة بها حتى تعلم موقفه من السلام.

قلت: فحدثني عنه.

قال: لقد قرأت الكتب المقدسة للأديان جميعا.. وقرأت خلاصات الأفكار والمذاهب والفلسفات، فلم أجد دينا حوت نصوصه المقدسة ذلك الحض على السلام مثلما حمله الإسلام.

لقـد تنـاول القـرآن لفـظ (السـلم) و(السـلام) في عشـراتٍ الآيات؛ ليس ذلك فحسب، بل إنَّ السلام ـ عند المسـلمين ـ اسـمٌ من أسماء الله، وقد جعله تحيَّتـه إلى عبـاده، وأمـرهم بـأن يجعلـوا السلام تحيَّتهم.. يلقيها بعضـهم على بعض، باعتبارهـا شـعارهم في جميع مجالات الحياة.

وقد قامت الدولة الإسلاميَّة الأولى في ظلِّ قيادة محمـد على أساس توافر هذه المقوّمات التي لم ينقص من أهمِّيَّتها وأثرهـا في تكوين الوحدة الوطنيَّة أن يكون لأبنائه يومئذ أكثر من دينٍ واحد.

لقد قامت دولة الإسلام الأولى ودستورها المثالي ـ كما تقرِّره صـحيفة الموادعـة بين المسـلمين واليهـود ـ بسـط جنـاح الأمن والسلام والإخاء على أهل المدينة جميعها بدرجـةٍ واحـدة، مسـاواةً تامَّةً في الحقوق والواجبات، لا يلمح فيها ظلاً للتفريق بين المسـلم صاحب الأكثريَّة والرياسة، وبين اليهودي الذي يمثِّل الأقليَّة التابعـة، فضلاً عن المسيحي الذي تشدّه إلى المسلم روابط وثيقة، لا يمكن لإنسانٍ أن ينال منها فيظفر بفكاكها، فهي باقيةٌ خالـدةٌ على الأيـام والدهر، لا تزعزعها الحوادث، ولا تنال منها الأحداث.

وقـد كـان للإسـلام مـع إخوانـه من أتبـاع الشـرائع السـماويَّة الأخرى قصصًا يرويها التاريخ بإعجابٍ وإكبارٍ وتقدير؛ فلم يُسمَع عن محمد أنَّه قَتـل مسـيحيا لأنَّه لم يُسـلم؛ ولم يُسـمَع عن المسـلمين أنَّهم عذبوا كتابيًّا أو سجنوه أو منعوه من التعبُّد وإقامة شعائر دينـه؛ ولم يُنقـل عنهم أنَّهم هـدموا كنيسـةً أو قوَّضـوا بيعـةً.. وإنّمـا قـال التاريخ: إنَّ محمدا صالح نصارى نجران فكتب لهم عهـدًا جـاء فيـه: (ولنجران وحاميتها جوار الله وذمة محمـدٍ على أمـوالهم وأنفسـهم وملَّتهم وبيعهم وغائبهم وشاهدهم وكل ما تحت أيديهم من قليلٍ أو كثير، لا يُغيَّر أسقفٌ من أسقفيَّته، ولا راهبٌ من رهبانيَّته، ولا كـاهنٌ من كهانته، ولا يحشرون ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش)

التفت إلي، وقال: ميزة أخرى في سلام الإسـلام.. لم أجـدها

في كل ما بحثت فيه من أديان.

قلت: ما هي؟

قال: تشريع أخلاق السلام.

قلت: ما تقصد بذلك؟

قال: في الوقت الذي تصور فيه الرجولة والشجاعة ــ كما نرى في الأفلام التي تنتجها عقليتنا السادية ـ في القتل والتدمير.. في ذلك الوقت يرى الإسلام أن الشجاعة والقوة في امتلاك النفس، والسيطرة على الأعصاب، والتغلب على دواعي الانتقام.. لقد قال محمد يصور هذا، ويعمقه في نفوس أمته: (ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[1]، وفي رواية أخرى: (أتحسبون أن الشدة في حمل الحجارة؟ إنما الشدة في أن يمتلئ أحدكم غيظا ثم يغلبه)[2]، وفي رواية: (ألا أدلكم على أشدكم؟ أملككم لنفسه عند الغضب)[3]

فالحلم والعفو وسعة الصدر التي هي أركان السلام تعتبر في الإسلام فروضا تشريعية وخلقية.. لقد قال القرآن يجمع محاسن الأخلاق: خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ((لأعراف: 199)

وقد نص علماء المسلمين على أن هذه الآية من أجمع الآيات لمكارم الأخلاق، قال جعفر بن محمد: (أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية)

بل قد وردت أحاديث محمد الدالة على احتواء هذه الآية على أصول الأخلاق، مفسرة لها بما يقتضي انحصار الأخلاق فيها، فعن

1) أحمد والبيهقي عن أبي هريرة.

2) ابن أبي الدنيا في ذم الغضب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص.

3) الطبراني في الكبير عن أنس.

جابر قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(لأعراف:199) قال النبي ﷺ: (يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟ قال: حتى أسأل، فصعد ثم نزل فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصفح عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك. فقال النبي ﷺ: (ألا أدلكم على أشرف أخلاق الدنيا والآخرة؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك)(1)

ويدل على هذا ما ورد في نصوص أخرى من أن هذه الأخلاق المذكورة في الآية هي من أمهات الأخلاق وخيرها، كما روي ذلك في أحدايث مختلفة، فعن علي قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أدلك على خير أخلاق الأولين والآخرين؟ قال: قلت يا رسول الله، نعم. قال: تعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك)(2)

ولهذا كانت هذه الآية ـ بما تحمله من المعاني الجليلة ـ شعارا لأمة محمد، وضياء يهتدون به في تعاملهم مع الخلق مسلمهم وكافرهم عاقلهم وجاهلهم.

وانطلاقا من هذا.. فقد نبذ الإسلام العنف، واعتبره من سوء الخلق.. ورتب عليه العقوبات التشريعية الرادعة.

ففي القرآن:﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون:96).. وفيه ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت:34)

وفي أحاديث محمد وصايا كثيرة ترتبط بهذا.. فقد قال: (إنَّ الله رفيقٌ يحبُّ الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على

1) ابن مردويه.

2) البيهقي في شعب الإيمان.

العنف، وما لا يعطي على ما سواه)(1)

وقـال: (إنَّ الرفـق لا يكـون في شـيء إلا زانـه، ولا يُـنزع من شيءٍ إلا شانه)(2)

وقال: (إنَّ الله عزَّ وجلَّ يحبُّ الرفق في الأمر كله)(3)

وقال: (من يحرم الرفق يحرم الخير)(4)

وقد سار أتباعه على هذا الهدي.. فصـار الحلم وسـعة الصـدر عنـدهم هي المثـال على الكمـال الأخلاقي، فعن علي قـال: (ليس الخير أن يكثر مالـك وولـدك، ولكن الخـير أن يكـثر علمـك ويعظم حلمك، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله، وإذا أحسـنت حمـدت اللـه تعالى، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى)

وقـال: (إن أول مـا عـوض الحليم عن حلمـه جهلـه وصـبره وشهوته، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم)

وعن علي بن الحسـين بن علي أنـه سـبه رجـل فـرمى إليـه بخميصة كانت عليه وأمر له بـألف درهم، فقـال بعضـهم: جمـع لـه خمس خصال محمودة: الحلم وإسقاط الأذى وتخليص الرجل ممـا يبعد من الله عز وجل وحمله على الندم والتوبة ورجوعه إلى مـدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير.

وقال رجـل لجعفـر بن محمـد: إنـه قـد وقـع بيـني وبين قـوم منازعة في أمر وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لي: إن تركك له ذل، فقال جعفر: إنما الذليل الظالم.

---

1) رواه مسلم.

2) رواه مسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

4) رواه مسلم.

والإسلام لم يكتف بهذه التوجيهات.. بل وضع نظاما تشريعيا صارما يحمي فيه السلام النفسي والاجتماعي من أن يدمره المصارعون.

قلت: ربما تجد مثل هذه الأخلاق عند شعوب كثيرة.. ونحن لا نتحدث عن هذا، وإنما نتحدث عن أخلاق الحرب.. فقد زعم بعضهم أن الحرب لا تحتاج إلى أخلاق(1).

قال: وهذه ميزة أخرى من مزايا الإسلام.. فهو لا يفرق في الأخلاق بين حرب وسلم، وبين مسلم وكافر، وبين لون ولون..

سأحدثك عن مجامع أخلاق الإسلام في الحرب، وهي ثلاثة لا توجد إلا في الإسلام: الضرورة، والوفاء، والرحمة.

الضرورة:

قلت: فحدثني عن الضرورة.

قال: الإسلام يجعل مبدأ السلام هو المبدأ الذي يحكم العلاقات بين الأفراد والمجتمعات والشعوب، فالقرآن يقول:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13)

فالغرض من التنوع في الخلق ليس الصراع كما تفهم فلسفاتنا المادية المؤيدة بالأديان المنحرفة.. ولكنها ـ بحسب القرآن ـ هي التعارف والتكامل والسلام.

---

1) انظر في هذا: (نظام السلم والحرب فى الاسلام) وهي محاضرة- القاها الدكتور السباعى فى ندوة دار الايتام الاسلامية فى بيروت، بدعوة من اللجنة النسائية للهيئة العليا لدار الايتام، مساء الجمعة الواقع فى 3 من شعبان سنة 1372 الموافق 17 من نيسان 1953، وقد كان لها اثر بالغ فى جمهور المستعين، حتى ان فريقا كبيرا منهم وبعضهم اساتذة فى الجامعات العليا، رغبوا بطبعها وتوزيعها لما تضمنته من حقائق يجهلها كثير من المثقفين، عدا عما تضمنته من تصحيح لكثير من الأخطاء الشائعة فى البيئات العلمية والدينية البعيدة عن الاسلام.

ولهذا.. فإن (الحرب)، ومثله (القتال) في النصوص المقدسة عند المسلمين لا يلجأ إليها إلا كما يلجأ للعمليات الجراحية للضرورة، وبدون اعتداء.

فقد يلجأ إليها لردع العصاة والمتمردين وقطاع الطرق والعابثين بالأمن.. ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:33)

وقد يلجأ إليها لردع البغاة الذين يفرقون المجتمع، ويثيرون الفتنة فيه، ومع ذلك لا يلجأ لها إلا بعد محاولة الصلح.. ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الحجرات:9)

وقد يلجأ إليها لردع المرابين وأمثالهم من المستغلين لجهود الفقراء والعمال.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: 178-279)

وقد يلجأ إليها لردع المعتدين على حقوق الإنسان الأساسية كالنفس والمال والعرض.

وقد يلجأ إليها لردع الطامعين، وتأمين السلام الداخلي.. فمن الناس من لا تردعهم التربية ولا القانون عن العدوان والطغيان.. وفي الأمم من تغريها قوتها وضعف جيرانها بالعدوان والاستعمار، فلا جرم إن كان من الخير أن يشرع استعمال القوة حينئذ لحملة السلام من أعدائه في الداخل والخارج.. وهذا هو ما رمى إليه

الإسلام حين أقر استعمال القوة.

وقد يلجأ إليها لتأمين السلام العالمي..

قلت: هذه هي الحرب التي يسميها قومنا إرهابا.

قـال: لا.. المجرمـون دائمـا يقلبـون الحقـائق، فيتصـورون أصحاب الدكاكين الذين يتصدون لمنعهم من سرقة دكاكينهم بخلاء ومجرمين..

هذا هو منطق الإجرام.. ولا ينبغي للعاقـل أن يخضـع لمنطـق الإجرام.

قلت: فما منطق العقل في هذا؟

قال: إن الحرب التي يعلنها الإسـلام لتـأمين السـلام العـالمي هي التي يعبر عنها القـرآن بالجهـاد في سـبيل اللـه، وهـو لا يعـني بـذلك حربـاً دينيـة لإكـراه النـاس على الإسـلام.. وإنمـا يعـني بهـا المعارك التي يخوضها الإسلام لتحرير الأمة من العدوان الخـارجي، ولتأمين الحرية الدينية والعدالة الإجتماعية لجميع الشعوب..

وهاتان الغايتان هما اللتان عبَّرت عنهما الآية بصريح العبارة: وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَـإِنَّ اللَّهَ بِمَـا يَعْمَلُـونَ بَصِـيرٌ (لأنفـال:39).. فـدفع الفتنـة وهـو العـدوان، وخلاص الدين كله لله أي الحرية الدينية لجميـع النـاس همـا الغايـة التي ينتهي عندها القتال في الإسلام.

فـإذا كـف العـدو عن العـدوان وعن فتنـة الأمـة في دينهـا وعقيدتها لم يجز القتال فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِـيرٌ .. وفي الآيــة الأخــرى: فَــإِنِ انْتَهَــوْا فَلا عُــدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (البقرة:193)

اسمع هذه الآيات لترى المقاصد الشريفة الـتي أمـر الإسـلام

فيها بالجهاد: وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (75) (النساء)

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (40) (الحج)

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً (النساء:76)

هذه أربع آيات من القرآن تتحدث عن الجهاد في سبيل الله، فلننظر ما هو هذا الجهاد في هذه الآيات؟

أما في الآية الأولى فتحث على الجهاد لتحرير المضطهدين المظلومين الذين ضاقت حيلتهم في دفع الظلم والطغيان عن أنفسهم، فاستنجدوا بالله أن يخرجهم من الأرض التي طغى الظالمون فيها، وسألوه أن يجعل لهم أولياء ينصرونهم ويخرجونهم من هذه المحنة، فحرّض الله المؤمنين على تحرير هؤلاء المضطهدين بعد أن وصف حالهم بما يثير الحمية في النفوس الأبية الكريمة.

أما الآيتان الثانية والثالثة فتدلان على أن الجهاد في سبيل الله حرب دفاعية، ولذلك جاء تبريرها بأنهم قوتلوا وظلموا وأخرجوا من ديارهم وطوردوا في عقيدتهم، وعلى أن هذا الجهاد لتأمين الحرية الدينية وحماية أماكن العبادة لجميع الأديان المنزلة من عدوان الملحدين والمتعصبين عليها: لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ

وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا والصـوامع هي أديـرة الرهبان، والبيع أماكن العبادة للنصارى، والصـلوات أمـاكن العبـادة لليهود، والمساجد أماكن العبادة للمسلمين.

فـالغرض من الجهـاد في سـبيل اللـه - كمـا تـرى - صـيانة الكنيسة وأماكن العبـادة وفيهـا المسـاجد من عـدوان المتعصـبين، وليس الغـرض منـه مـا يقولـه قومنـا من أن يقـوم المسـجد على أنقاض الكنيسة، بل أن يقوم المسجد بجانب الكنيسة رمزاً لعبــادة الله في مختلف طرق العبـادة، ودليلاً على وحـدة الأهـداف العامـة بين ديانات السماء، ومصداراً للإشعاع الروحي والسمو الخلقي في الأمة.

أما الآية الرابعة.. فقد وضعت الحد الفاصل بين الحـرب الـتي يعلنها الإسلام وبين الحرب التي يعلنها أعداؤه عليه.. فالحرب التي يعلنها الإسلام حـرب في سـبيل الحـق والحريـة والعدالـة والسـمو الـروحي والخلقي.. أمـا الحـرب الـتي يعلنهـا أعـداؤه فهي حـرب طغيان وظلم واضطهاد، وما أبعـد دلالـة (الطـاغوت) على أهـداف الحرب العدوانية التي يقف الإسلام في وجهها.

قلت: فلم ارتبطت هذه الحروب بالله؟

قال: تنبيهـا للغايـة الشـريفة الـتي نهضـت لهـا.. فالجهـاد في سبيل الله جهاد في سبيل الغايات الكريمة الـتي قـامت من أجلهـا الشرائع، وتسعى إليها الإنسـانية الكريمـة في كـل عصـر.. هـو في سـبيل اللـه.. أي لا في سـبيل المـال ولا التهـديم ولا الاسـتعلاء ولا الغلبة ولا الأمجاد القومية أو الطائفية.. فمن سـعى إلى شـيء من هـذا لم يكن مجاهـداً في نظـر الإسـلام يسـتحق أجـر المجاهـدين وكرامة الشهداء.

سكت قليلا، ثم قال: اقرأ تاريخ محمد في حروبه لترى الأدلـة الواضحة القوية التي تثبت لك المعنى النبيل الذي خـاض من أجلـه

محمد حروبه ومعاركه، فما أعلن محمد الحرب إلا بعد أن اضطهد هو وجماعته في عقيدتهم، وأخرجوا من أوطانهم، فجاءت معركة بدر وما تلاها من معارك في سبيل الحرية الدينية وإقرار السلام والأمن في ربوع الجزيرة العربية، ذلك السلام الذي حاربه الوثنيون من العرب فأحالوا بطاح مكة ورمالها إلى ميادين لتذبيح المؤمنين وتعذيبهم ومطاردتهم في أرزاقهم وأوطانهم وأموالهم.

لقد ظل محمد ثلاثة عشر عاماً يصبر ويدعو إلى الله بالحكمة، حتى إذا لجت قريش في طغيانها، وصممت على وأد الدعوة الجديدة في مهدها بقتل محمد وصحابته، وهاجر المسلمون إلى المدينة مستقر الدعوة والدين الجديد، بدأ الصراع بين القوة الجديدة التي تمثل الحق والتسامح والفضيلة والكمال في أروع صوره، وبين القوة الوثنية الطاغية التي تمثل العتو والكبرياء والطغيان في أبشع صوره ومظاهره..

الوفاء:

قلت: عرفت الخلق الأول من أخلاق الحرب في الإسلام.. فما الخلق الثاني؟

قال: الوفاء.. الوفاء هو الخلق الذي أمر الإسلام به في السلم والحرب، واعتبره نقطة فاصلة بين المؤمنين والمنافقين.

فمن أول سمات المؤمن الوفاء..

قلت: ما علاقة الوفاء بالسلام؟

قال: لو تأملت أكثر حروب العالم تجد سببها نقض العهود والمواثيق وعدم احترام الكلمة..

قلت: فهل حافظ الإسلام على هذا الخلق؟

قال: سأذكر لك النظام الذي فرضه الإسلام للحرب.. لتعرف من خلاله المدى الذي تقيد فيه المسلمون بالوفاء.. وتعرف من

خلاله النظافة التي مارس بها المسلمون حروبهم.

فالحرب تبدأ حين تتأكد الأمة من نية العدوان والغدر لدى أمة من الأمم ضدها، وحينذاك يجب عليها أن تستعد بكل ما تملك من قوة لإرهاب هذا العدو الذي يتربص بها: وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ (لأنفال: 60) فهو استعداد للإرهاب لا للاعتداء، ولإرهاب أعداء الأمة لا أصدقاءها ومسالميها.

فإن كف العدو عن فكرة العدوان، وعدل عن الحرب وجب على الأمة أن تجنح للسلم وتدخل فيه: وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (لأنفال:61)

فإن أبى العدو إلا الحرب والعدوان، فـ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (40) وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (41) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (42) (الشورى).. فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة:194)

فإذا بدأت الحرب، فلتخفف ويلاتها بقدر ما يمكن، ولذلك جازت الخديعة في الحرب (الحرب خدعة)

قلت: كيف يجتمع الوفاء مع الخداع؟

قال: الخدعة المرادة هنا إحباط مناورات العدو وخططه وتثبيط عزيمته، فإن في ذلك إنهاء للحرب وإقرارا للسلام بأقل ما يمكن من الزمن، وأقل ما يقع من الضحايا.

فإذا لم تجد الخديعة والأساليب السياسية واضطر إلى الحرب.. فالإسلام يأمر المقاتلين بالثبات ليستمدوا عونهم من الله،

وليذكروا الله كثيراً: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (لأنفال:45)

ألا ترى كيف يأمر القرآن بذكر الله في حال القتال ليذكر المقاتلون أنهم لا يقاتلون رياء ولا حمية ولا ثأراً ولا استعلاءً وإنما يحاربون في سبيل الله..

وحين تشتعل نار الحرب يجب أن يذكر الجيش المحارب أنه يخوض حرباً دفاعية لتحرير الضعفاء والمضطهدين، فليضيق حدودها حتى لا يصطلي بنارها إلا من حمل السيف وبدأ العدوان، فلا تؤخذ أمة العدو كلها بجريرة جيشها أو فريق منها اعتدوا على أمتنا: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (البقرة:190)

وهنا يسمو الإسلام إلى منتهى ذروة الإنسانية حين يحرم قتل الشيخ الكبير والعاجز والمرأة والصبي ورجل الدين المنقطع للعبادة والفلاح والمسالم الذي لم يشترك في القتال.

فإذا رغب المحاربون في الصلح عند اشتداد المعركة أمر الإسلام المسلمين بأن يقبلوا الصلح منهم ولو أشرفوا على النصر، ثم الوفاء بما تم عليه العهد: وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (النحل:91)

فإذا بدا منهم بعد ذلك نية الغدر والخيانة فإن الإسلام ينهى عن مفاجأتهم بالقتال، بل لا بد من إخبارهم بانتهاء العهد بين المسلمين وبينهم وفسح المجال لهم ليستعدوا للحرب والقتال، وهذا هو النبذ الوارد في الآية: وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (لأنفال:58)

وإذا انتهت المعركة باستسلام العدو وانتصار الأمة، فلا عدوان على الأعراض، ولا تخريب للمدن، ولا استلاب للأموال ولا إذلال

للكرامـات، ولا انـدفاع وراء الثـأر والانتقـام، وإنمـا هـو الإصـلاح والتحرير والعدالة ونشر الخير ومكافحـة الشـر: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَـاةَ وَأَمَـرُوا بِـالْمَعْرُوفِ وَنَهَـوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (الحج:41)

فهذه الآية نص على مـا يجب أن تفعلـه الأمـة المنتصـرة بعـد انتهاء الحرب وهي أمور أربعـة: إقامـة الصـلاة، وهي رمـز لإشـاعة السـمو الـروحي في العـالم.. وإيتـاء الزكـاة، وهي رمـز لتحقيـق العدالـة الاجتماعيـة في الشـعوب.. والأمـر بـالمعروف، وهـو رمـز للتعاون على كل ما فيه خير الناس وأمنهم وسعادتهم.. والنهي عن المنكر، وهو رمـز للوقـوف في وجـه الشـر الـذي يعجـل بـالحرب ويفوت على الناس السلام والأمان.

التفت إلي، وقـال: هـل رأيت في الكتب المقدسـة تعـاليم سامية مثل هذه التعـاليم.. وهـل رأيت في الأمم أخلاقـا مثـل هـذه الأخلاق.

الرحمة:

قلت: عرفت الضرورة والوفاء.. فحدثني عن الرحمـة.. وهـل يمكن أن تجتمع الحرب والقتال مع الرحمة؟

قال: تتجلى الرحمة في الحروب التي شرعها الإسلام انطلاقا من الدوافع التي تدفع لهـا.. فالإسـلام لم يشـرع الحـرب من أجـل المـال ولا الجـاه ولا السـلطان.. بـل شـرعها من أجـل تحريـر المستضعفين من نير المستكبرين.. ولهذا يخاطب القـرآن وجـدان الرحمة في الإنسان، فيقـول: وَمَـا لَكُمْ لا تُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّـاً وَاجْعَـلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً (النساء:75)

ولا تقف الرحمـة الإسـلامية عنـد هـذا الحـد.. بـل تتعـداه إلى

المواقف المختلفة التي تتطلبها الحرب..

فعن الأسـرى يقـول القـرآن: وَيُطْعِمُـونَ الطَّعَـامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً (الانسان:8)

وفي الحديث يوصي محمد بالأسرى خيرا، فيقول: (استوصـوا بهم (أي الأسرى) خيراً)

وقد أمر محمد المسلمين الذين أسروا ثمامـة بن أثـال قـائلاً: (أحسنوا أساره، اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه)

وقد وضع القرآن قانونا للتعامل مع الأسرى جـاء فيـه: فَـإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَـاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِـكَ وَلَـوْ يَشَـاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُـوَ بَعْضَـكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (محمد:4)

إن هذه الآية تحـوي رحمـات عظيمـة لا يمكن حصـرها.. فهي تأمر بضرب الرقاب.. وهـو حث على القتـل المـريح.. بـدل إصـابة المقتول بجراحات تظل تعذبه.

وهي تخير ولي الأمـر في معاملـة الأسـرى بين المن (اطلاق السراح) أو أخذ العوض إما بالمال أو تبادل الأسرى وهو (الفداء)

ولا تقف الرحمة الإسلامية هنا.. بل إن الإسلام يحـرم تحريمـا شديدا قتـل الضـعفاء وغـير المقـاتلين ويحـرم التخـريب.. فمحمـد يقول للجيش: (لا تقتلوا شيخاً فانيـاً ولا طفلاً ولا امـرأة ولا تغلـو ولا تقتلوا أصحاب الصوامع)

وهو ينهى عن التمثيل بجثث القتلى أو تعذيب الجرحى.. ففي الحديث: (إياكم والمثلة)

وقـد أمـر محمـد بوضـع جثث قتلى المشـركين في بـدر في

القليب وهو بئر جاف، ونهى عن تعذيب الجرحى وقـال: (لا تعـذبوا عباد الله)

وهو بعد ذلك كله يتعامل بسماحة لا نظير لهـا مـع المغلـوب.. فبعد فتح مكة قال محمد لقريش: (أقول لكم ما قال أخي يوسـف لإخوته، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهـو أرحم الـراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء)

وهو ـ فوق هذا ـ يلتزم بكل حقوق الفقـراء والعـاجزين وذوي العاهات، من الأمم التي يسيطر عليها.

فنصوص القرآن التي تحتم إعالـة البائسـين والمحتـاجين هي عامة شـاملة لم تقيـد بالمسـلمين فحسـب: وَآتِ ذَا الْقُـرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْـذِيراً (الاسـراء:26).. ـ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (الذريات:19)

لقد ذكـر جوسـتاف لوبـون في كتابـه (حضـارة العـرب) تلـك الرحمة العظيمة الـتي امتلأت بهـا حـروب المسـلمين، فقـال: (إن العرب تركوا المغلوبين أحراراً في أديانهم فإذا كان بعض النصـارى قد أسلموا واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذي لم يكن للناس بمثلـه عهـد.. وقـد عاملوا أهل سورية ومصر وأسبانية وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم تـاركين لهم قـوانينهم ونظمهم ومعتقـداتهم غـير فارضـين سـوى جزيـة زهيـدة في مقابـل حمـايتهم لهم وحفـظ الأمن بهم.. والحق إن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب)

وقــال مــونتجمري في كتابــه (الحــرب عــبر التــاريخ): (إن المسلمين كانوا يستقبلون في كـل مكـان يصـلون اليـه كمحـررين للشعوب من العبودية، وذلك لما اتسـموا بـه من تسـامح وإنسـانية وحضارة فزاد إيمان الشعوب بهم)

قلت: هناك شبهة يثيرها الكثير في هذا المجال..

قال: اطرح ما تشاء من شبه.. فلن تعدو الشبه التي طالما رددتها.. ثم سرعان ما لاح لي الحق، فتراجعت عنها.

قلت: لقد قرأت لبعض الفقهاء من يذكر أنّ على الدولة المسلمة أن تخيّر الدول الأخرى بين الإسلام أو الجزية أو القتال.

قال: لقد بحثت في هذا.. وقد حاول هؤلاء أن يلووا أعناق بعض النصوص ليلزموها هذا الفهم الخاطئ..

لقد كتب محمد بعد أن استقرّ له الأمر في المدينة، رسائل إلى الملوك من حوله يدعوهم إلى الإسلام، وإلى الإيمان بالله وحده.. فكتب إلى قيصر ملك الروم، وإلى كسرى ملك الفرس، وإلى النجاشي ملك الحبشة، وإلى المقوقس عظيم القبط، وإلى الحارث ملك تخوم الشام.. وطلب من هؤلاء الملوك أن يبلّغوا دعوته إلى شعوبهم، وإلاّ فإنّهم يتحمّلون إثم هؤلاء الناس.. وذلك بسبب ما كان معروفاً أنّ الملوك يمنعون شعوبهم أن يدينوا بغير دينهم.

ولم يرد في أي رسالة من تلك الرسائل أي تهديد بالقتال.. أو أي طلب للجزية.

***

ما وصل مكسيم رودنسون من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعنا أصواتا لمدافع كثيرة تصم لها الآذان، ثم لم نلبث حتى رأينا جيشا عرمرما يحيط بنا من كل جانب.. وهو يشهر أسلحته نحونا.

أمرنا بنزع ثيابنا، فنزعناها.. ثم أمرنا بالانبطاح أرضا، فانبطحنا.. ثم جاء بعض قساة القلوب، فطوقوا أيدينا، حتى كاد الدم يجمد في عروقنا.. ثم أمرونا بالسير معهم.. فسرنا..

كان الشاب المسكين ينظر ببراءة حزينة إلى حقل الزيتون.. وكأنه يودعه بدموعه.

أما صاحبي مكسيم، فكان يقذف في وجوههم كل ما حفظـه في صغره من لعنات اليهود.

وأمـا أنـا.. فكنت ألتفت خلفي لأرى مـا سيحصـل لحقـل الزيتون..

ما إن وصلنا إلى الشاحنة التي حملنا فيها كما تحمـل البضـائع حتى دخل رجل ضخم، هـو أشـبه بضـفدعة عملاقـة لبسـت لبـاس الإنسان.. كان يحمل في فمه سيجارة هي أشبه بالقنبلة.. ما دخـل إلى حقـل الزيتـون حـتى رماهـا.. فـإذا بـالنيران تشـتعل من كـل جانب..

في ذلك الحين الذي اجتمعت فيه الأحقاد على حقل الزيتـون تـذكرت محمـدا.. وزيتـون محمـد.. فبكيت بكـاء حـارا على افتقـاد البشرية لتلك المعاني الجميلة التي عاشها محمد، وبشر بها..

ومع تلك الدموع الحارة تنزلت علي أشعة جديدة اهتديت بهـا بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

سابعا ـ نظام

في اليـوم السـابع من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشــرقة الــتي قطفت على يــدها ثمــرة النظــام من شــجرة النبوة..

وهي الثمــرة الــتي عــرفت بهــا ســر قولــه تعــالى: أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُـونَ (المائـدة: 50)

وســر قولــه تعــالى: وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَــا أَنْــزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِـعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْـكَ فَـإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيـدُ اللَّهُ أَنْ يُصِـيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُـوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِـيراً مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (المائدة:49)

وسر قوله تعالى: وَمَا كَـانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُــولُهُ أَمْــراً أَنْ يَكُــونَ لَهُمُ الْخِيَــرَةُ مِنْ أَمْــرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (الأحزاب:36)

فهذه النصوص المقدسة تبين ثمرة طيبة من ثمــرات النبــوة، هي تلك الأحكام العظيمة التي جاء بها لإســلام لتنظم حيـاة البشــر وفق قوانين العدل والرحمة.

***

كــان من جملــة الأســماء الــتي كتبت في دفــتر المرشــد المستشـــرقة (هيلين كـــارير دانكـــوس)(1) Helene Carrere d'

---

1) هي المستشـرقة (هيلين كـارير دانكـوس) Helene Carrere d' Encansse.. باحثـة فرنسية معاصرة، وهي واحدة من أبرز الخبراء في شـؤون (الماركسـية الآسـيوية)، وقـد صدر كتابها (القوميات والدولة السوفياتية) في باريس عـام 1987 فأثـار ضجة مـا تـزال مستمرة وترجم فورًا إلى عدد من اللغات الحية.

ولها شهادات كثيرة للإسلام تتعلق بنظامه الاجتماعي، وقدرته على الصمود، ومن ذلك قولها:(.. أن جميع المعلومات [السوفيتية الرسمية] تتضافر لتـوحي بـأن الإسـلام يحتضـر ببطء في الاتحاد السوفيتي، مع احتضار الجيل الذي لم ينشأ على الإيديولوجية السوفيتية. ولكن معلومات مضادة لا تلبث أن تناقض هذه الصورة، فالتحقيقات الاجتماعية المتزايدة في الاتحاد السوفيتي حـول هـذا الموضـوع، تـبين أن المجتمـع الإسـلامي لا يـزال متعلقًـا بمعتقداته، وأن ما يقارب نصف الأشخاص الـذين جـرى اسـتجوابهم في الوسـط الـريفي

Encansse، وقد كنت محتارا في كيفية الاتصال بها للتعرف على سر وضعها في ذلك الدفتر إلى أن علمت أن لها مزرعة في ضواحي باريس، وعلمت أنها تشرف بنفسها عليها أيام العطل.

فاخترت يوما من أيام العطلة الأسبوعية، وذهبت مع فريق من التجار قصدوا مزرعتها لشراء بعض الخضر منها.

كانت هي المشرفة على البيع..

وقد استغللت الفرصة لأتحدث معها بعد أن رأيتها تقسم الخضر قسمين: الخضر الجيدة، والخضر الرديئة.

قلت لها: أنا متعجب من وجود خضر رديئة في هذه المزرعة التي توفرت لها كل أسباب الحياة.. لقد كان الأصل أن لا تكون

صرحوا بتمسكهم بالإيمان. وعلى سبيل المثال نورد تحقيقًا أجري عام 1972 بجمهورية كاراكالبك الملحقة بأزبكستان، وقد دلّ هذا التحقيق على أن 23 بالمائة من الرجال و20 بالمائة من النساء يعلنون عن إلحادهم، فيكون 77 بالمائة من الذكور و80 بالمائة من الإناث مؤمنين.. وفي شمال القوقاس أعلن 20 بالمائة فقط من السكان عن كونهم ملحدين (عام 1974).. [هذا رغم] أن الباحثين في الأوساط الإسلامية يلحظون غالبًا تحفظاً من قبل السكان في الكشف عن حقيقة إيمانهم)

ومن أقوالها التي جعلتنا نختارها للحوار معها في هذه الفصل قولها:(هنالك خاصية ثانية للإسلام تزيد الوضع [في الاتحاد السوفيتي] تعقيدًا فهو، على نقيض المسيحية التي تفصل بين أمور الدين وأمور الدنيا، يجمع بين المجالين. فالعقيدة الإسلامية، وهي ثمرة القرآن والسنة، تفرض على المؤمنين وجود مؤسسات خاصة، مهمتها الإشراف على الحياة الاجتماعية. والدولة السوفيتية، في برنامجها التأحيدي [الذي يستهدف فرض إيدلوجية واحدة] لم يكن باستطاعتها أن توافق على وجود نظام خاص للطائفة الإسلامية، فألغت في أوائل سني استلامها السلطة، العناصر الأساسية فيه، أي النظام القانوني والمؤسسات الشرعية والأسس المالية المعتمدة. وبعد أن جعلت الديانة الإسلامية ديانة أفراد معينين لا ديانة طائفة، وبعد أن حرمت من مؤسساتها، ونزعت منها أمور الدنيا، هل بقي لها وجود منظم أم هي أضحت هيكلاً لا يلبث أن يتفتت مع غياب آخر فوج من المؤمنين؟ هنالك وقائع كثيرة وساطعة تشهد بأن التشاؤم فيما يتعلق بمستقبل الإسلام كان يمكن القبول به في الماضي القريب، ولكنه اليوم لم يعد له من أساس، بل على العكس، فهذه الوقائع توحي بأن الإسلام يبعث من جديد، وفي ظروف جديدة، وأن هذا البعث المرتكز إلى وجود واع وإرادي لا إلى وجود استمراري، تدعمه وتوجهه المراجع الإسلامية العليا)

ومن أقوالها:(نجد في صحف الجمهوريات الإسلامية عدة إشارات.. يفهم منها أن التضامن الإسلامي [في الاتحاد السوفيتي] بات في ازدياد، وأن المؤمنين أضحى لهم تأثير متصاعد على السكان غير الممارسين لدينهم) (انظر: كتابها (القوميات والدولة السوفييتية)، ص 143 فما بعدها،وانظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل)

هناك أي ثمرة رديئة.

التفتت إلي، وقالت: صدقت.. ذلك ما أقوله دائما للفلاحين الذين يزالون أعمالهم في هذه المزرعة..

قلت: فهل بحثت عن سر الرداءة والجودة؟

قالت: أجل.. لقد قمت ببحث معمق لذلك.. لا لأجل هذه المزرعة.. ولا لأجل ما أجنيه منها من مال.. ولكن لأجل أمر أخطر.

قلت: أمر أخطر.. ما هو؟

قالت: أنا أرى الفطرة النباتية هي الفطرة التي انطلقت منها فطرة الإنسان.. ولذلك فالانحراف الذي يحصل في عالم النبات قد يحصل مثله في عالم الإنسان، وأسباب الانحراف قد تكون نفسها.

قلت: هذا قياس جيد، وقد سمعت بعضهم يعتبره[1].. فكيف عبرت من النبات إلى الإنسان؟

قالت: ذلك سهل.. لقد وجدت أن جودة النبات تعتمد على ثلاثة أمور: جودة البذور، وجودة الوسط الذي تتغذى منه النبتة، ورعاية الفلاح.

قلت: هذا بالنسبة للنبات.. فكيف عبرت منه إلى الإنسان؟

قالت: البذور هي البشر.. فكل إنسان بذرة ستخرج في يوم من الأيام ثمراتها التي قد تكون طيبة، وقد تكون خبيثة.

والوسط الذي تتغذى منه النبتة وفيه تعيش هو وسطها الاجتماعي والاقتصادي والثقافي..

والفلاح الذي يقوم برعاية النبتة يمثل المسؤولين على

---

1) انظر: فصل (الإنسانية) من هذه الرسالة.

المجتمع من الساسة وغيرهم.

قلت: هـذا كلام طيب.. وهـو كلام فلاسـفة وعلمـاء، لا كلام فلاحين.

قالت: أعرفك بنفسـي.. أنـا هيلين كـارير دانكـوس.. مهتمـة بالنظم التي تحـول الأرض إلى مزرعـة طيبـة، وتحـول البشـر إلى ثمار طيبة.. وهذه المزرعة هي حقل تجاربي.

قلت: أهناك نظم حاولت أن تحول البشر إلى ثمار طيبة؟

قالت: أجل.. كل النظم حاولت أن تفعل هذا.

قلت: ليس المهم المحاولـــة.. ولكن المهم النتيجـــة.. هـــل أثمرت مزارع هذه النظم ثمارا طيبة؟

قالت: كل المزارع أثمرت غسلينا وحنظلا وزقوما..

قلت: أأنت متشائمة من مـزارع البشـر.. فلـذلك لجـأت إلى مزارع الخضر!؟

قالت: أنا متشائمة ومتفائلة في نفس الوقت.

قلت: كيف يستقيم ذلك؟

قـالت: لأن هنـاك من البشـر من زرع مزرعـة طيبـة لا تـزال بعض آثارها تملؤني بالتفاؤل.

قلت: فهل خربت تلك المزارع؟

قالت: لقد اجتمع الإنس والجن على تخريبها.. لكني أشعر أن لها مقاومة ذاتية.. وستنهض تلك المزرعة من جديدة.. فلذلك تجـد تفاؤلي يغلب تشاؤمي.

قلت: أي مزرعــة تلــك الــتي اســتطاعت أن تقضــي على

تشاؤمك؟

قالت: مزرعة محمد..

قلت: ذلك النبي البدوي الذي ظهر في جزيرة العرب!؟

قالت: بـل ذلـك النـبي الـذي أعطى الحلـول لكـل مشـكلات العالم.. ووضع له من النظم ما يملؤه بالسلام والسكينة والسعادة.

قلت: فكيف وصلت إلى هذه النتيجة؟

قالت: ذلك بحث طويل.. لقد طفت خلالـه النظم والمـدارس والفلسفات والأفكار أبحث عن نظام يتناسب مع فطـرة الإنسـان، ويغطي جميع احتياجاته، فلم أجده إلا عند محمد.. ولم أجده إلا في الإسلام(1).

قلت: فهل ستحدثيني عن نتيجة أبحاثك؟

قالت: يسرني ذلك.. ولكن قبل أن أحدثك عن مزرعة الثمـار الطيبة، سأحدثك عن بعض مزارع الثمار الخبيثة.

قلت: تقصدين مزارع الجاهلية.

قالت: أجل.. فلا يعـرف الإسـلام من لا يعـرف الجاهليـة.. ولا يعرف الثمرة الطيبة من لم يذق الثمرة الخبيثة.

نظم الجاهلية

قلت: بأي ثمرة خبيثة تودين أن نبدأ؟

نظـرت إلى مزرعتهـا بأسـى، وقـالت: بـالثمرة الطيبـة الـتي حولها المجرمون والدجالون والسحرة إلى ثمرة خبيثة.

---

1) انظـر التفاصـيل المرتبطـة بهـذا والشـبهات المثـارة حولـه في رسـالة (عدالـة للعالمين) من هذه السلسلة.

قلت: من تقصدين؟

استمرت في كلامها، وكأنها لم تسمعني.. وراحت تقرأ من الكتاب المقدس: (احترزوا من الأنبياء الكذبة يأتونكم بثياب الحملان الوديعة، ولكنهم من الداخل ذئاب خاطفة.. من ثمارهم تعرفونهم، هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية) (إنجيل متى:7:15-17)

نظرت إلي، وقالت: لقد كان المسيح يقصدهم.. بل لم يكن يقصد غيرهم.

قلت: من؟

قالت: أولئك الدجالون الذين حولوا المسيحية إلى مزرعة تنتج السموم.

قلت: نحن نقارن بين النظم لا بين الأديان.. وقد تبرأت المسيحية من السياسة من أيام المسيح.. لقد جاء في الإنجيل: (ذهب الفريسيون وتشاوروا لكى يصطادوه (أى السيد المسيح) بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين: يا معلم؟ إنك صادق وتعلم طريق اله بالحق ولا تبالى بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس فقل لنا ماذا تظن؟ أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربوننى يا مراءون؟ أرونى معاملة الجزية. فقدموا له ديناراً فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا له: لقيصر؟ فقال لهم: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر، وما لله لله؟ فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا)(انجيل متى: 23: 14 – 23)

المسيحية

قالت: ذلك على المستوى النظري.. أما على المستوى

الواقعي، فقد أتيح للمسيحية أن تكـون نظامـا من النظم الحاكمـة في المجتمع.. لقد أتيحت لها فترة كافيـة لتـبين كيـف يحكم أولئـك الرجال الذين يمثلون المسيح.

قلت: فكيف كان حكمهم؟

قالت: قبل أن تعرف كيف كان حكمهم اعـرف كيـف كـانوا.. فقد تقع البـذرة الطيبـة في يـد الفلاح الخـبيث، فيملؤهـا بـالعطش والجوع الذي يميتهـا، أو قـد يلقح أغصـانها ببعض السـموم لتتحـول ثمارها إلى سموم.

قلت: فكيف كان أولئك الذين خلفوا المسيح؟

قالت: أتعرف الألقاب التي لقب بها المسيح أحبار اليهود؟

قلت: أجل.. لقد كان يسميهم (بـائعي العهـد، أولاد الأفـاعي، عباد الدنيا)

قالت: لقد كانت هذه الأوصـاف تنطبـق تمـام الانطبـاق على أولئك الفلاحين من رجال الدين الذين كلفوا بتنمية بذور البشرية.

لقد عبد أولئك القسيسون والرهبان الـدنيا كمـا عبـدها أحبـار اليهود.. لقد سلكوا الطريق نفسها، وانصاعوا إلى الدنيا مسـتعبدين أتباعهم المؤمنين، وساعد وجودهم ضـمن الإمبراطوريـة الرومانيـة على تثبيت مراكزهم وتـدعيمها، ذلـك بـأنهم اقتبسـوا من الأنظمـة والهياكل السياسية للدولـة فكـرة إنشـاء أنظمـة وهياكـل كهنوتيـة، وكمـا كـانت هيئـة الدولـة تمثـل هرمـاً قمتـه الإمـبراطور وقاعدتـه الجنود، كانت الهيئة الكنسية تمثل هرماً مقابلاً قمته البابـا وقاعدتـه الرهبان.. ونتيجة لمبدأ فصل الدين عن الدولـة رعت الإمبراطوريـة الهرم الكنسي، ولم تر فيه ما يعارض وجودها فرسخ واستقر(1).

1) انظر: العلمانية، سفر الحوالى، ومذاهب فكريـة معاصـرة، محمـد قطب.. وغيرهـا من المراجع التي تؤرخ للعلمانية.

لقـد ذكـر المـؤرخ الإنجلـيزي (ويلـز) في معـرض حديثـه عن الفرق بين مسيحية المسيح ومسـيحية الكنيسـة أن تعـاليم يسـوع الناصري تعاليم نبوية من الطراز الجديد الذي ابتـدأ بظهـور الأنبيـاء العبرانيين، وهي لم تكن كهنوتية، ولم يكن لها معبد مقـدس حبسـاً عليها ولا هيكل، ولم يكن لديها شـعائر ولا طقـوس، وكـان قربانهـا (قلباً كسيراً خاشعاً)، وكانت الهيئة الوحيدة فيها هيئـة من الوعـاظ، وكان رأس ما لديها من عمل هو الموعظة.

بيد أن مسيحية القرن الرابع الكاملـة التكـوين، وإن احتفظت بتعاليم يسوع في الأناجيل كنواة لها، كانت في صلبها ديانة كهنوتيـة من طراز مألوف للناس من قبل منذ آلاف السنين، وكـان المـذبح مركز طقوسها المنمقة والعمل الجوهري في العبادة فيها القربـان الذي يقربه قسيس متكرس للقـداس، ولهـا هيئـة تتطـور بسـرعة مكونة من الشمامسة والقساوسة والأساقفة(1).

التفتت إلي، وقـالت: أتـدري السـر في ظهـور هـذا الهـرم الكنسي الذي سيطر على بذور البشرية ليحولها عبيـدا عنـد هـؤلاء الوسطاء؟

قلت: ما هو؟

قالت: (التوسط بين الله والخلق).. لقد اعتبر رجال الكنيسـة أنفسهم وسائط بين الله والخلق..

قلت: في الإسلام يوجد هذا أيضا.. فلا بد للمـؤمن أن يـذهب إلى رجل الدين ليعلمه شعائر الدين.

قالت: لا حرج في هذا النوع من الوساطات.. بل هو موجـود في كل مناحي الحياة، لا في الـدين وحـده.. ولكن الوسـاطة الـتي ادعاهـا رجـال الـدين المسـيحي متبعين فيهـا سـنن من قبلهم من الوثنيات هي أن يوسطوا رجل الدين بينهم وبين الله.

1) معالم تاريخ الإنسانية 3: 720.

لقـد ذكـر القـرآن هـذا.. ونبـه إلى خطورتـه، فقـال:﴿ اتَّخَـذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَـرْيَمَ وَمَـا أُمِـرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة:31)

وقد ورد في الحديث عن عدي بن حاتم: أنه لما بلغتـه دعـوة رسـول اللـه ﷺ فـرَّ إلى الشـام، وكـان قـد تنصـر في الجاهليـة، فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثمَّ منَّ رسول اللـه ﷺ على أختـه وأعطاها، فرجعت إلى أخيها، ورَغَّبته في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عَدِيّ المدينة، وكان رئيسـا في قومـه طـيئ، وأبـوه حـاتم الطـائي المشـهور بـالكرم، فتحـدَّث النـاس بقدومـه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عَدِيّ صليب من فضة، فقــرأ رسول الله ﷺ هذه الآية:﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـانَهُمْ أَرْبَابـاً مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قـال: فقلت: إنهم لم يعبـدوهم. فقـال: (بلى، إنهم حرمـوا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيـاهم) (1)

لقد وقع هذا الذي أخبر به محمد.. وأخبر به قبله القرآن..

لقد نصب رجال الدين أنفسهم أنداداً لله، وقد ترتب على هذا آثار سيئة للغاية أخطرها احتكار رجال الدين لحـق قـراءة وتفسـير الإنجيــل، ثم مهزلــة صــكوك الغفــران، ثم الانشــقاقات الدينيــة المتوالية التي دمرت الحياة بصفة عامـة، وأخـيراً كـان هـذا المبـدأ إحدى الحجج التي سلها ملاحدة القرن السابع عشـر فمـا بعـد،في وجه الأديان عامة والمسيحية خاصة.

يقـول العـالم الفرنسـي الـذي اعتنـق الإسـلام (ناصـر الـدين دينيه): (الوسيلة هي إحدى كبريات المسائل التي فاق بها الإســلام جميع الأديان، إذ ليس بين اللـه وعبـده وسـيط وليس في الإسـلام قساوسة ولا رهبان، إن هؤلاء الوسطاء هم شر البلايا على الأديــان

---

1) رواه الترمذي، وقال:(هذا حديث غريب، لا نعرفـه إلا من حـديث عبـد السـلام بن حرب وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث.

وإنهم لكذلك مهما كـانت عقيـدتهم ومهمـا كـان إخلاصـهم وحسـن نياتهم، وقد أدرك المسيح نفسه ذلـك، ألم يطـرد بـائعي (الهيكـل) غير أن أتباعه لم يفعلوا مثلمـا فعـل، واليـوم لـو عـاد عيسـى فكم يطرد من أمثال بائعي الهيكل؟

ويقول: (كذلك ما أكثر البلايا والمصائب، بل مـا أكـثر المـذابح والمجـازر الـتي يكـون سـببها هـؤلاء الوسـطاء، سـواء كـانت بين العـائلات وبعضـها أو بين الشـعوب والشـعوب، وهم في ذلـك كلـه يصيحون: باسم مجد الله)[1]

قلت: ولكن النصوص الدينية المقدسة تـدل على هـذا.. فقـد قال المسيح لبطرس كبـير الحـواريين: (أنت بطـرس، وعلى هـذه الصخرة ابن كنيسـتي، وأبـواب الجحيم لن تقـوى عليهـا، وأعطيـك مفـاتيح ملكـوت السـموات، فكـل مـا تربطـه على الأرض يكـون مربوطاً في السموات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات)(متى: 16: 19 – 20)

فهذا النص يدل على أن المسـيح قـد جعـل السـلطة الدينيـة المهيمنـة باسـمه في الموضـع الـذي يمـوت فيـه كبـير الحـواريين بطرس، ومن ذلك المركز تمـد أجنحـة نفوذهـا على العـالم أجمـع، وتحكمه باسم المسيح، وبما أن بطرس ـ كما تقول الكنيسة ـ مات في رومة فإن رومة هي قاعدة المسيح لحكم العـالم، وفيهـا مقـر الكنيسة التي يرأسها ممثل المسيح ورسوله (البابا) المعصـوم عن الخطـأ، وكـل مـا تقـرره الكنيسـة هـذه هـو عين الصـواب، إذ أن المسيح بواسطة الروح القـدس هـو الـذي يملى عليهـا تصـرفاتها، ومادام أنها تعمل باسم الله وتحل وتبرم حسب مشـيئته، فطاعتهـا واجبة وقراراتها إلزامية لكل المؤمنين بالمسيح وليس على الأتبـاع إلا الطاعة العمياء والانقياد الذي لا يعرف جدلاً أو نقاشاً..

كنت أقـول هـذا على حسـب مـا حفظتـه من غـير شـعور،

1) أشعة خاصة بنور الإسلام:23.

فقاطعتني، وقالت: والذنب الذي لا يغتفر هو أن تصادم أوامر اللـه، التي هي أوامر الكنيسة، بواسطة العقل البشرى أيـا كـان صـاحبه، والخارج على سـلطة الكنيسـة أو الناقـد لقـرارات مجامعهـا كـافر مهرطق تحـل عليـه اللعنـة والحرمـان من دخـول الملكـوت مهمـا بلغت وجاهـة رأيـه، بـل مهمـا كـانت سـوابقه وخدماتـه للمسـيحية وللكنيسة نفسها.

أما إذا كان المتمرد على الكنيسـة وسـلطتها حاكمـاً أو شـعباً، فإن الجيوش المقدسة ستسحقه بأقدامها، إرضاء للمسيح.

قلت: أجل.. هذا ما تقوله الكنيسة مستندة في ذلـك إلى مـا تفهمه من الكتاب المقدس.. وما تفهمه من قول المسيح.

قالت: وهـذا الفهم هـو الـذي تحـول إلى واقـع تـاريخي عـاد بأسوأ النتائج على أوروبا والعالم أجمع.. بل لا نزال نصلى ناره إلى الساعة.

وأنا لا أتصور أن المسيح ذلك الرجل العظيم الممتلئ تواضـعا وعبودية وأدبا يمكن أن يقول هذا.. لقد قال القرآن: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُـوا عِبَـاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُـونَ الْكِتَـابَ وَبِمَـا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِـالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:79-80)

لقـد سـخر الكـاتب الأمـريكي (جـرين بـرنتن) من اسـتدلال الكنيسة بتلك الفقرات وأرجع السبب في وقـوع الكنيسـة في هـذا الخطأ إلى التشابه الشكلي بين لفظي (بطرس) و(صخرة)(1)

بالإضافة إلى ذلك.. فإنا لو راجعنا إنجيل متى الـذي أورد هـذا الافتراء لوجدنا المسيح بعد ثلاث فقـرات من هـذا القـول يخـاطب

1) وذلك أن اسم بطرس هو "peter" ولفـظ "pert" يعـنى صـخرة.. في تـاريخ أوروبـا الوسطى: 1/107.

بطرس قائلاً: (اذهب عنى يا شيطان، لأنك لا تهتم بما الله لكن بما للناس) ... فكيف يتسق هذا الوصف وهذه التهمة مع الهبة السابقة والتكريم الذي لا حد له؟

قلت: فهمت هذا ووعيته.. ولكنا لا نستطيع أن نحكم على رجال الدين من غير نظر إلى سلوكهم..

قالت: إن الجرائم التي ارتكبها رجال الدين باسم بطرس والمسيح والكنيسة لا عداد لها.. ولذلك سأكتفي بأن أسردها لك سردا لتعلم التشويه الخطير الذي لحق بذور البشرية ومزرعة البشرية إبان حكم أولئك الفلاحين من رجال الكنيسة.

أولها مساندة الكنيسة للظلم السياسى والاقتصادى والاجتماعى المتمثل فى الإقطاع الذي عانت منه أوروبا معاناة عظيمة..

فقد أصبحت الكنيسة ــ بفضل الهبات والإتاوات والعشور والهدايا والغصب والنهب والتدليس وغير ذلك من الوسائل ــ من ذوات الإقطاع.. بل كانت أملاكها فى بعض الأوقات تفوق أملاك الأباطرة وأمراء الإقطاع.

ومن ثم فقد تحدد موقفها من القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فوقفت فى صف الظلم تسانده وتذود عنه وتحارب حركات الإصلاح.. وكانت فى ذلك منطقية مع وضعها باعتبارها من كبار الملاك.. فهل كان يمكن – عقلا – أن تحارب الإقطاع وهى جزء منه، بل من أكبر ممثليه!؟

نظرت إلى مزرعتها.. وابتسمت، وراحت تقرأ: (من أراد الملكوت فخبز الشعير والنوم فى المزابل مع الكلاب كثير عليه).. (مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله)(مرقص 10: 22 ومتى 19: 25.. (لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا

نحاساً في مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصاً) (متى 10: 10-11، ومثله لوقا 9: 4-10)

قلت: هذه هي الفضائل المسيحية.. فكيف تزعمين أن الكنيسة كانت بعيدة عنها؟

قالت: هذا هو الأفيون الذي كان يطعم به رجال الكنيسة بذور الرعية لتظل في نومها وسباتها لا تثمر ثمرا، ولا تنتج إنتاجا.. أما رجال الكنيسة أنفسهم فقد كانوا في عالم آخر..

يقول (كرسون) فى كتاب (المشكلة الأخلاقية): (كانت الفضائل المسيحية كالفقر والتواضع والقناعة والصوم والورع والرحمة، كل ذلك كان خيرا للمؤمنين وللقسيسين وللقديسين وللخطب والمواعظ. إما أساقفة البلاط والشخصيات الكهنوتية الكبيرة فقد كان لهم شئ آخر: البذخ والأحاديث المتأنقة مع النساء والشهرة فى المجالس الخاصة والعجلات والخدم والأرباح الجسيمة والموارد والمناصب)(1)

ويقول (ول ديورانت): (أصبحت الكنيسة أكبر ملاك الأراضى وأكبر السادة الإقطاعيين فى أوروبا، فقد كان دير (فلدا) مثلا يمتلك خمسة عشر ألف قصر صغير، وكان دير (سانت جول) يملك ألفين من رقيق الأرض، وكان (ألكوين فيتور) ـ وهو أحد رجال الدين ـ سدا لعشرين ألفا من أرقاء الأرض، وكان الملك هو الذى يعين رؤساء الأساقفة والأديرة، وكانوا يقسمون يمين الولاء كغيرهم من الملاك الإقطاعيين، ويلقبون بالدوق والكونت وغيرها من الألقاب الإقطاعية.. وهكذا أصبحت الكنيسة جزءا من النظام الإقطاعى..

وكانت أملاكها الزمنية، أى المادية، وحقوقها والتزاماتها الإقطاعية مما يجلل بالعار كل مسيحى متمسك بدينه، وسخرية

1) المشكلة الأخلاقية ص 167.

تلوكها ألسنة الخارجين على الـدين، ومصـدرا للجـدل والعنـف بين الأباطرة والبابوات)(1)

وكانت مصـادر تلـك الأملاك متعـددة، فمنهـا الأوقـاف، ومنهـا العشور، ومنها الهبات ومنها الضرائب، ومنها السخرة.

فأما الأوقاف فقد كانت الكنيسة تستولى على أراض زراعيـة واسعة وتوقفهـا على نفسـها لتنفـق منهـا على الأديـرة والكنـائس وتجهيز الجيوش للحروب الصليبية أو الحروب التأديبيـة الـتى تقـوم بهـا ضـد الملـوك والأبـاطرة الخـارجين على سـلطانها.. وفى ذلـك يقول ويكلف، وهـو من أوائـل الـذين ثـاروا على الفسـاد الكنسـى وطالبوا بالإصلاح الشامل: (إن الكنيسة تملك ثلث أراضى إنجلـترا، وتأخذ الضرائب الباهظة من الباقى)(2)

لم تكتف الكنيسة بذلك.. بل فرضت على اتباعهـا أن يـدفعوا إليها عشـر أمـوالهم ضـريبة سـنوية لا يملكـون التملص منهـا تحت وطأة التهديد بالحرمان وغضب الرب.

يقـول ويلـز: (كـانت الكنيسـة تجـبى الضـرائب، ولم يكن لهـا ممتلكات فسيحة ولا دخل عظيم من الرسوم فحسب، بل فرضت ضريبة العشور على رعاياها، وهى لم تـدع إلى هـذا الأمـر بوصـفه عملا من أعمال الإحسان والبر، بل طالبت به كحق)(3)

ولم تكتـف الكنيسـة بـذلك.. بـل راح البابـا يوحنـا الثـانى والعشرون يفرض ــ بالإضـافة إلى ذلـك ــ ضـريبة جديـدة سـميت (ضريبة السـنة الأولى)، وهى دخـل السـنة الأولى لأيـة وظيفـة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية يدفع إلى الكنيسة بطريق الإجبار.

أما الهبات، فهى هبات فى ظـاهر الأمـر فقـط، ولكنهـا ــ في

1) قصة الحضارة ج 14 ص 425.

2) فشر: تاريخ أوروبا ج 2، ص 362.

3) معالم تاريخ الإنسانية ج 3 ص 895.

الحقيقة ـ تؤخذ بالإحراج والتوريـط، والـترغيب والـترهيب، وخاصـة الهبات الـتى تمنح للكنيسـة فى الوصـايا الـتى يكتبهـا النـاس قبـل موتهم.. فقد فرضـت الكنيسـة على النـاس ألا يكتبـوا وصـاياهم إلا على يد القسيس.. وما دام القسـيس حاضـرا وقت كتابـة الوصـية فقـد أصـبح الـواجب ــ من بـاب المجاملـة على الأقـل _ أن يهب الوصى شيئا من ماله للكنيسة حتى لا يكون مجافيا للذوق، أو حتى يتحاشى ما هو أخطر من ذلك: غضب الأرباب المـؤدى إلى غضـب رب الأرباب.

أما السخرة فقد كانت الكنيسة تفرضها على رعاياهـا بالعمـل يوما واحـدا فى الأسـبوع بالمجـان فى أراضـى الكنيسـة الواسـعة، فيعمل التعساء سـتة أيـام فى الأسـبوع ليجـدوا خـبز الكفـاف لهم ولأسرهم، ثم يعملـون اليـوم السـابع ــ يـوم الراحـة ــ سـخرة فى أراضــى الكنيســة لكى تــوفر الأخــيرة أجــور العمــال الــتى كــان المفــروض أن تــدفعها لقــاء زراعــة إقطاعياتهــا الواسـعة وجـنى حاصلاتها وتزداد بذلك اكتنازا وضراوة فى طلب المزيد من المال.

لقد كان من السهل على الكنيسة أن تمـارس ذلـك الطغيـان المــالى وهى تملـــك ذلـــك النفـــوذ الطـــاغى على أرواح النـــاس وعقولهم، فما هى إلا أن تصدر الأمر، فيطيع العبيد صاغرين.

قلت: عرفت هذا النوع من الطغيان.. فهل هناك غيره؟

قالت: لقد جرهم هذا النوع من الطغيـان إلى أنـواع أخـرى لا تقل شأنا عن هذا النوع.

لقد اغترت الكنيسة بتلك القلوب الطيبة من العامة البســطاء الذين يسلمون لها بكل مـا تقولـه، ويسـلمون لهـا كـل مـا تطلبـه، فراحت تستعبدهم بطريقة أخرى.. لا شك أنك تعرفها.

قلت: ما الذي تقصدين؟

قالت: صكوك الغفران.. لا شك أنك سمعت بها.

قلت: أجل.. ولكنه لم يعد لها الوجود الآن..

قالت: تلك قصة أخرى.. ولنبدأ القصة من أولها.. ألسنا نريد أن نعرف نوع النظام الذي تبنته الكنيسة في حكمها.

قلت: أجل..

قالت: فلا مناص لنا إذن من التعرف على مفردات برنامجها الذي حكمت به لنقيمه وفق المنطق والعقل والواقع [1].

لقد صارت الكنيسة توزع الجنة، وتعرضها للبيع في مزاد علني، وتكتب وثائق للمشترين تتعهد فيها بأن تضمن للمشترى غفران ما تقدم من ذنبه وما تأخر وبراءته من كل جرم وخطيئة سابقة ولاحقة ونجاته من عذاب المطهر، فإذا ما تسلم المشترى صك غفرانه ودسه في محفظته فقد أبيح له كل محظور وحل له كل حرام.. فلا حرج عليه لو سرق أوقتل.. بل لو جدف وألحد وكفر ما دم الصك رهن يده.. أليس المسيح هو الذي منحه إياه، والمسيح هو الذي يدين ويحاسب؟

فإذ اطمأن المشترى إلى هذه النتيجة فقد بقى لديه ما ينغص الفرحة ويكدر الغبطة ذلك أن والديه وأقرباءه قد ماتوا وليس معهم صكوك.

لكن الكنيسة الأم (الرؤوم لكل المسيحيين) شملت الكل برحمتها، فأباحت له أن يشترى لمن أحب (صك غفران) وما عليه بعد دفع الثمن إلا كتابة اسم المغفور له في الخانة المخصصة، فيغادر المطهر فوراً ويستقر في ظلال النعيم مع المسيح والقديسين.

---

1) انظر في هذا المراجع السابقة.. وخصوصا العلمانية لسفر الحوالى، ومذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب.

أما الشقي النكد عديم الحظ فهو ذلك القن الذي لم يستطع أن يحصل من سيده الإقطاعي (المغفور له) على ما يشترى به صكاً من قداسة البابا أو المريض المقعد الذي لا يجد عملاً يخول له الحصول على المغفرة، أو الفقير المعدم الذي يعجز عن استدانة دينارين يشترى بها جنات النعيم، هؤلاء يظلون محرومين من هذه الموهبة مهما بلغت تقواهم وعظم حبهم للمسيح وتعلقهم بالعذراء.

نظرت إلي، وقالت: أتدري ما الأساس الذي بنيت عليه هذه المهزلة؟

قلت: أنا أعلم أن الأناجيل والرسائل خالية مما يدعمها أو يدل عليها..

قالت: إنه مبدأ التوسط بين الله والخلق.. فقد أصبحت وظيفة رجل الدين هي التوسط بين الله وخلقه.. فعن طريقة تؤدى الصلاة ويتناول العشاء الرباني وهو الذي يقوم بالتعميد وبمراسم وطقوس الزواج والموت ويتقبل الاعترافات من المذنبين.

وفي الوقت الذي كان رجل الدين فيه يتقبل الاعتراف لم يكن ليدعي حق المغفرة من نفسه لكن المسيح ـ بزعمه ـ يغفر لمن أقر بذنبه بين يدي أحد أتباع كنيسته التي أورثها سلطانه وفرض لها السيادة على العالمين.

وكان الفرد المسيحي يستطيع ضمان الملكوت مع المسيح باعتراف واحد في العمر هو اعتراف ساعة احتضاره، إذ يتم دهن جسده بالزيت المقدس، فيتطهر من كل الأرجاس والذنوب، وكان من العقوبات الصارمة التي تتخذها الكنيسة ضد مخالفيها من الشعوب أو الأفراد حرمانهم من الاعتراف الأخير والصلاة عليهم، فلا يشك مسيحي أنهم ذهبوا إلى الجحيم بسبب ذلك.

واستمر الحال على ذلك فترات طويلة حتى كان مطلع القرن الثالث عشر الميلادي حيث كانت الكنيسة تجتاز مرحلة حاسمة في تاريخها، وكانت بحاجة إلى مزيد من السلطة الدينية والنفوذ المالي لمواجهة أعدائها، فقررت عقد مجمع عام لبحث الوسائل الكفيلة بتحقيق ذلك فعقد المجمع الثاني عشر المعروف باسم مجمع لاتيران سنة 1215م ونجح هذا المجمع في إقرار مسألتين كان لهما أثر بالغ على المسيحية في القرون التالية.

لاشك أنك تعرفهما..

أما أولهما هو (العشاء الرباني).. وهو لا يزال حيا بيننا.

وأما الثاني.. فهو امتلاك الكنيسة حق الغفران للمذنبين.. وقد أصدروا لتقرير ذلك القرار التالي: (إن يسوع المسيح لما كان قد قلد الكنيسة سلطان منح الغفرانات، وقد استعملت الكنيسة هذا السلطان الذي نالته من العلا منذ الأيام الأولى قد أعلم المجمع المقدس وأمر بأن تحفظ للكنيسة في الكنيسة هذه العملية الخلاصية للشعب المسيحي والمثبتة بسلطان المجامع، ثم ضرب بسيف الحرمان من يزعمون أن الغفرانات غير مفيدة أو ينكرون على الكنيسة سلطان منحها غير أنه قد رغب في أن يستعمل هذا السلطان باعتدال واحتراز حسب العادة المحفوظة قديماً والمثبتة في الكنيسة لئلا يمس التهذيب الكنسي تراخ بإفراط التساهل)[1]

بهذا القرار فرض المجمع على كل المسيحيين أن يعترفوا أمام قسيس الأبرشية مرة كل عام لكي يستطيعوا الحصول على الغفران، وتنفيذاً لذلك أخذ الناس يتوافدون على الأبرشيات طلباً للمغفرة ويقدمون للقساوسة الهدايا والصدقات، فارتفع مركز الكنيسة معنويا ومادياً[2].

---

1) محاضرات في النصرانية: 194.

2) تاريخ العالم: 5/502.

وبعد فترة من الزمن أخـذ هـذا التوافـد في الفتـور وتقـاعس كثـيرون عن الاعـتراف، وفي الـوقت نفسـه ازداد إلحـاح الكنيسـة على تثبيت مركزها وتعبئـة خزائنهـا، فقـررت اتخـاذ وسـيلة ناجحـة لضـمان اسـتمرار ذلـك فهـداها تفكيرهـا إلى كتابـة الغفرانـات في صكوك تباع على الملأ وتنص على غفران أبدى بحيث تكون حـافزاً قويـاً على دفـع المبلـغ المـالي الـذي تقـرره الكنيسـة أو القيـام بالخدمات التي ترغب تنفيذها.

اسمع نص هذا الصك (ربنـا يسـوع يرحمـك يـا ...(يكتب اسـم الذي سيغفر له) ويشملك باستحقاقات آلامه الكلية القدسـية، وأنـا بالسلطان الرسـولي المعطى لي أسـتحلك من جميـع القصاصـات والأحكـام والطـائلات الكنسـية الـتي اسـتوجبتها، وأيضـاً من جميـع الافـراط والخطايـا والـذنوب الـتي ارتكبتهـا مهمـا كـانت عظيمـة وفظيعة ومن كل علـة وإن كـانت محفوظـة لأبينـا الأقـدس البـاب والكرسـي الرسـولى، وامحـوا جميـع أقـذار الـذنب وكـل علامـات الملامة الـتي ربمـا جلبتهـا على نفسـك في هـذه الفرصـة، وأرفـع القصاصات الـتي كنت تلـتزم بمكابـدتها في المطهـر وأدرك حـديثاً إلى الشركة في أسـرار الكنيسـة وأقرنـك في شـركة القديسـين، أردك ثانية إلى الطهارة والبر اللذين كانا لك عنـد معموديتـك حـتى أنه في ساعة الموت يغلق أمامك الباب الذي يـدخل منـه الخطـاة إلى محل العذاب والعقاب، ويفتح الباب الـذي يـؤدى إلى فـردوس الفرح، وإن لم تمت سنين مستطيلة فهذه النعمة تبقى غير متغيرة حتى تأتى ساعتك الأخيرة، باسم الأب والابن والروح القدس)(1)

التفتت إلي، وقالت: أتـدري الظـروف الـتي ألجـأت الكنيسـة لمثل هذه التصرفات؟

قلت: لا..

قالت: لقد كانت الكنيسة تواجه في هذه المرحلة ألد وأخطر

1) المسيحية: 214، وانظر: محاضرات في النصرانية.

أعدائها.. أولئك المسلمين الطيبين.. فقد كـانت الحـروب الصـليبية قد استعر إوراها، وبـدأت تلـوح علامـات الهزيمـة للصـليبيين، وبلـغ ضعف الحمـاس الـديني في نفـوس الأوربـيين مبلغـاً كبـيراً، وفقـد المقاتلون ثقتهم في الكنيسة نتيجـة لخيبـة أملهم في النصـر الـذي وعدتهم وعداً قاطعاً، ولم يروا للمسيح والملائكـة والقديسـيين أثـر في معاركهم، بل على العكس تخيلـوا أنهم يقفـون ضـدهم تمامـاً، وبذلك اهتز موقف الكنيسة وأيقنت أن وعودها المعسـولة بالنصـر، وقراراتها الشفوية بالمغفرة للمشتركين في الحرب لم تعـد تـؤدى مفعولاً مـؤثراً، فقـررت الكنيسـة تجسـيد هـذه الأمـاني في وثيقـة خطية محسوسـة يحملهـا المقاتـل، وينـدفع للاشـتراك في الحملـة الصليبية وهو على ثقة وعزم.

وتنفيذاً لذلك برز إلى الوجود مهزلة (صكوك الغفران) وكانت ـ كمـا يقـول ول ديـورانت ــ تـوزع على المشـتركين في الحـروب الصليبية ضد المسلمين(1).

وبهذا.. فإن هذه الصكوك لم يكن ينالها إلا احد رجلين:

صاحب مال.. يشترى الصـك من الكنيسـة حسـب التسـعيرة التي تحددها.

وصاحب سيف.. يبذل دمه في سبيل نصرة الكنيسة والــدفاع عنها وحراسة مبادئها.

أما ما عدا هذين.. فيظل محروما لا يملك ثمن الصك.. ولذلك يظل المسكين أسير صراع نفسي مرير وشعور بالحرمان قاتل.

وهكذا فالكل مضحون، والكل خاسرون، والكنيسة هي الرابح الوحيد من هذه الصكوك..

التفتت إلي، وقالت: أتدري ما نهاية هذه الصكوك التي تشكل

1) قصة الحضارة: 15/ 66.

مفردة مهمة من مفردات برنامج الكنيسة السياسي؟

قلت: ما نهايتها؟

قالت: لقد كانت هذه البدعة ـ أول أمرها ــ من أسباب قوة الكنيسة ودعائم شموخها:

فمن ناحية المكانة الدينية ارتفعت منزلة رجال الدين في نظر السذج والجهلة بعد أن منحهم المسيح هذه الموهبة العظيمة، وخيل إليهم أنه ما دام أعطاهم حق المغفرة للناس فبديهي أنه غفر لهم، بل قدسهم ووهبهم من روحه كما يدعون، وبذلك تجب طاعتهم والتزلف إليهم وتملقهم على من أراد التقرب إلى المسيح والحصول على رضاه، وإذ قد آمن الناس – ملوكاً وصعاليك – بحق الغفران، فقد سهل عليهم أن يؤمنوا بمقابلة (حق الحرمان)، ولم يزدادوا طمعاً في ذاك إلا وازدادوا رهبة لهذا.

ومن الوجهة المادية أثرت الكنيسة من عملية بيع الصكوك ثراء فاحشاً حتى أصبحت بحق أغنى طبقات المجتمع الأوروبي آنذاك بما تكدس في خزائنها من أموال وتدفق عليها من عطايا وهبات.

ومن الوجهة السياسية قويت الكنيسة وتدعمت سلطتها بالجحافل البربرية التي تطوعت للقتال في سبيلها من أجل الحصول على الغفران، وبالمقابل انخفضت سلطة الملوك الذين كانوا جنودا للكنيسة بأنفسهم في الحروب الصليبية، إلا من تردد منهم أو حاول التملص من قبضتها فعوقب بالحرمان كما حدث لفريدريك الثاني(1).

---

1) هو الإمبراطور (فريدريك الثاني)، وهو أعظم زعيم تحدى سلطات الكنيسة واستطاع مقاومتها مدة غير يسيرة، ويرجع ذلك إلى المؤثرات الإسلامية في ثقافته وشخصيته، فقد كان مجيدا للعربية مغرما بالحضارة الإسلامية، حتى أن الكنيسة اتهمته باعتناق الإسلام وسمته (الزنديق الأعظم)، أما المفكرون المعاصرون فيسميه بعضهم (أعجوبة العالم) وبعضهم (أول المحدثين)، انظر حول سيرته كتاب الزنديق الأعظم، وفصل أعجوبة العام، ج3، ويلز.

كل هذه الثمار جنتها الكنيسة من جراء هذه المهزلة..

ولكن الحصــاد الخــبيث الــذي حصــدته من جرائهــا لا يمكن وصفه..

لقد كانت تلك الصـكوك مسـماراً في نعش الكنيسـة، وبدايـة لنهايتها، وكانت خسارتها بها عظيمة عظم جنايتها:

فمن الوجهــة الاقتصــادية تلى الإقبــال الهائــل على شــراء الصكوك انكماش وفتور كالذي يصيب أي بدعـة أو ظـاهرة جديـدة بعد فترة من ظهورها، فنضبت الكثير من موارد الكنيســة في حين ازدادت طمعا وشراهة.. فاضـطرت إلى عـرض الصـكوك بطريقـة مبتذلة، فكان الآباء والقساوسة يتجولون في الإقطاعيات، ويبيعونها بأسعار مخفضة، ثم زهيدة، وكلما ازداد العـرض قـل الطلب وتولـد لدى الناس شعور داخلي بأن شراءها إضاعة للمـال فيمـا لا فائـدة فيه، أو على الأقل فيما ليس مضمون العاقبة.

وفي الوقت نفسه داهمت المسـرح المـالي فئـة جديـدة من الناس أخـذت تظهـر بوضـوح منافسـة للطبقـتين البـارزتين آنـذاك (النبلاء) و (رجـال الـدين) تلـك هي الطبقـة البورجوازيـة وحصـلت تحـولات أخـرى كـانت بمثابـة المؤشـر لنهايـة النظـام الإقطـاعي بجملته.

ومن ناحية المكانة الدينية لرجال الدين، فقد بدأت تلك الهالـة القدسية المحيطة بهم تتبخر شيئاً فشيئاً بعد زمان من ظهـور هـذه المهزلـة وابتـداء النـاس يعتقـدون أنهم كـانوا مخطـئين في ذلـك الانــدفاع الأعمى والتســليم الأبلــه، وعمــق ذلــك الاعتقــاد تنــافس القساوسة على بيع الصكوك مقرونـاً بسـيرتهم السـيئة وفجـورهم الفاضح، وعجب الناس إذ رأوا كثيراً من الأشرار والطغـاة يتبـوءون مقاعـدهم في الملكـوت ببركـة الصـكوك الـتي منحهـا لهم رجـال الدين، فكان ذلك إيذاناً بالشـك في قداسـة رجـال الـدين أنفسـهم

ومدى صلاحهم واستحقاقهم للملكوت في ذواتهم.

ومن ناحيـة المركـز السياسـي والنفـوذ الـدنيوي، فقـد كـان لصكوك الغفران وما أحاط بها من ظروف وملابسـات أثـره البـالغ في العلاقـة بين الكنيسـة من جهـة والملـوك والأمـراء والنبلاء من جهة أخرى، فقد رأوا أن قبضة الكنيسة تزداد اسـتحكاماً مـع الأيـام وأنهم وشـعوبهم ليسـوا إلا أدوات أو صـنائع رجـال الـدين يمنـون عليهم بالعفو إن رضوا ويعاقبونهم بالحرمـان إن سـخطوا، كمـا أن الثراء الذي حصلت عليه الكنيسة جعلها تبدو منافساً قوياً لأصـحاب الإقطاعيات وكبار الملاك، فكان يسيطر على الجميع شعور موحــد بالعداوة لها والحقد عليها.

لذلك لم تكد بوادر الاستنكار ضد تصرفاتها ـ لا سيما صـكوك الغفران ـ تبرز للعيان حتى انتهزها الملوك والأمراء فرصـة سـانحة لحمايــة الحركـات المعارضــة وتــأجيج سـعيرها، ولــولا أن بعض المصلحين الكنسيين ـ ولوثر خاصة ـ وجدوا الحمايـة والعطـف من الأمراء والنبلاء لما نجوا من قبضة الكنيسة ونتائج قرارات حرمانها.

الديمقراطية:

قلت: فقــد تمــردت البــذور في الأخــير إذن على مــزارعي الكنيسة؟

قالت: أجل.. ولكنها وقعت في أيدي مزارعين لا يقلون عنهـا خطرا.. راحوا يشوهون البذور لتنسجم مع أهوائهم.

قلت: من هؤلاء الدجالون؟

قـــالت: كثـــيرون.. وأولهم من ينعتـــون أنفســـهم (الديمقراطيون)..

انتفضت قائلا: أتقولين هذا عن الديمقراطية.. وهي التي تقوم علي حريـة الفـرد في أن يعمـل مـا يشـاء، ويملـك مـا يشـاء.. إن

شعارها الشهير هو الشعار الذي أطلقته الرأسمالية في نشأتها (دعه يعمل ما يشاء، دعه يمر من حيث يشاء) [1]

إنها الديمقراطية التي نشأ عنها الحرية السياسية وتعدد الأحزاب.. وحرية..

قاطعتني، وقالت: خفف عنك هذا.. فما هو إلا بهرج كاذب سرعان ما يبدو عواره.

قلت: العالم كله الآن يسبح بحمد الديمقراطية.. فكيف تذمينها؟

قالت: والعالم كله الآن موقد نيران.. لقد تحولت مزرعة البشرية لأول مرة في التاريخ إلى مزرعة لإنبات النيران بين الدول.. وبين الشعوب.. وبين الأفراد..

لقد حولت الديمقراطية العالم إلى عالم ثيران تتناطح.. ولا يغلب فيها إلا أعظمها قرونا.

قلت: ولكن الديمقراطية هي النظام الوحيد الذي يرجع للرأي العام..

ابتسمت، ونظرت إلى مزرعتها، وقالت: هل ترى لتلك الخضر التي تتربع في ذلك الحقل رأيا؟

قلت: هي خضر.. وأنا أتحدث عن البشر؟

قالت: لقد صنعت الديمقراطية كثيرا من القدور طبخت فيها خضر البشرية كما شاءت.. ثم أطلقت على ذلك الطبيخ اسم (رأي عام) لعلك كنت في يوم من الأيام ضحية إحدى تلك القدور.

قلت: ما تقولين؟

---

1) يطلق الشيوعيين علي الديمقراطية الغربية وصف (الليبرالية)، وهم يقصدون به الذم لا المدح ويعنون به الديمقراطية التي يتمتع فيها الرأسماليون بحرية استغلال الطبقة الكادحة.

قالت: اصبر علي.. وسأبرهن لك على ما أقول.

لقد اتخذت الديمقراطية.. أو اتخذ الذين لهم مصلحة في الديمقراطية.. لأنفسهم قدورا كثيرة.. منها الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون والخطبة والمحاضرة والكتاب.. وغيرها من وسائل الإعلام التي توجه الرأي العام حسبما تشتهي[1]..

سأضرب لك مثالا على قدر من تلك القدور الخطيرة.. وهي الصحافة التي كانت وما تزال من أشد وسائل التأثير.

قلت: إن الصحافة في بلادنا حرة..

قالت: ولكنها لا تستطيع أن تعيش بلا معونة خارجية، فهي تتكلف في أحيان كثيرة أضعاف الثمن الذي تباع به للجمهور.

قلت: فكيف تغطي الصحافة تكاليفها، ثم تربح فوق ذلك أرباحا طائلة؟

قالت: إنها تعتمد ـ أساسا ـ على الإعلانات ثم على الإعانات من أي طريق تجئ.. والإعلانات – بطبيعة الحال – في يد الشركات والمؤسسات الصناعية أي في يد الرأسمالية، ومن ثم فإنه يكفي لقتل أي صحيفة حرة تتجرأ علي المصالح الحقيقية للرأسمالية، أن تمنع عنها الإعلانات فتسقط في هاوية الإفلاس، ولا ضير في الوقت ذاته علي الرأسمالية من مناوشات سطحية في الصحف تنتقد كما تشاء دون أن تصيب الجذور.

فإذا كان الصحافة – التي تؤثر التأثير الأكبر علي الرأي العام واقعة في قبضة الرأسمالية إلي هذا الحد، فلنا أن نتوقع أن تكون الأفكار التي تصوغها وننشرها هي ما تريده الرأسمالية، أو في القليل هي ما لا يتعارض مع المصالح الحقيقة للرأسمالية.

---

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

قلت: ولكن هناك وسائل إعلام أخرى؟

قالت: هي مثل الصحافة، وبقية وسائل الإعلام.. فهي واقعة بصورة أو بأخرى في ذات القبضة الشريرة التي توجه الأفكار وتشكل المواقف للناس.

قلت: عرفت القدر.. ولكني لم أعرف ما يطبخ فيها.

قالت: في قدور (الرأي العام) يطبخ كل ما يريده (الرأي الخاص)

قلت: هل تفضلت بذكر مثل عن بعض أنواع الطبيخ؟

قالت: من أهم أنواع الطبيخ في هذه النظام الذي يحركه أرباب الأموال إشعال الحروب..

لنفرض أن السادة أرادوا إشعال حرب في مكان ما علي سطح الأرض، وهو أمر يهم الرأسمالية من جميع الوجوه المتخيلة.. وأولها بيع السلاح الذي يدر علي صانعية أرباحا خيالية.. فكيف يهيأ (الرأي العام) لتقبل الحرب أولا، ثم التحمس لها ثانيا، ثم المطالبة بها أخيرا.

تبدأ الصحف – وكذلك وسائل الإعلام – في نشر أخبار قصيرة مثيرة تثير عند الغافلين ـ والرأي العام دائما غافل ـ نوعا من التطلع والانتباه.. ثم يزاد في طول الخبر ويؤتي بمزيد من التفاصيل.. ثم يصبح الموضوع هو الحديث اليومي في الصحافة والإذاعة والتليفزيون.. ثم يزاد في نغمة الإثارة حتي تشحن النفوس بالوقود ... ثم تأخذ الصحافة في استطلاع الرأي العام الذي كانت قد وجهته سابقا.. فإذا رأت الرأي العام متحمسا تبدأ في مطالبة الحكومة بالتحرك.. ثم تبدأ الحكومة في الاعداد انطلاقا من مطالبات الرأي العام الذي طبخه أرباب الأموال.. ثم تنطلق شرارة الحرب، ويباع السلاح، ومعه المطامع الكثيرة..

وتتحقق الأهداف المطلوبة من وراء المشروع.

قلت: هذا تحليل رائع.. وهو يدل على عقـل ذكي.. ولكن هـل في الواقع ما يثبت هذا؟

قالت: كل الواقع يثبت هذا.. سأضرب لك مثالا.. مجرد مثال..

في الحرب العالمية الثانية التي امتدت فشملت معظم أرجاء الأرض، وقتل فيها أربعـون مليونـا من الشـباب في ميـادين القتـال غير الذين قتلوا من الرجـال والنسـاء والأطفـال بعيـدا عن ميـادين الحرب بالقنابل المدمرة، وغير الذين قتلوا بتأثير القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا في نجازاكي وهيروشيما.. بدأت صـحافة الحلفـاء.. أي الــديمقراطيات في غــرب أوربــا وفي امريكــا.. تتكلم عن هتلــر واسـتعداداته الحربيـة والأزمـات الـتي يثيرهـا (وخاصـة أزمـة ممـر دانـزج الـتي اعتـبرت الشـرارة الأولي للحـرب)، وبـدأت تكتب عن النازيـة وعن النظم الدكتاتوريـة وعـداوتها للحريـة والديمقراطيـة وحقـوق الانسـان.. وأن علي الـديمقراطيات الـتي تشـكل (العـالم الحـر) أن تـؤدب هـذا الطاغيـة الـذي ينـذر بشـر مسـتطير لجميـع البشرية.

قلت: فأنت نازية إذن.. يؤذيك ما قيل في هتلر!؟

قالت: لا.. لقد كان أكثر ماتقولـه صـحافة (العـالم الحـر) عن هتلر والنازية الدكتاتورية حقا، وكان هتلر بالفعل طاغية جبـارا يريـد إذلال العالم وإخضاعه لسلطانه، ويصدر عن جنون عنصري مرتكـز علي أفضلية الجنس الآري وجدارته بأن يحكم العالم كله..

ولكن الـذي يؤذيـني أن الـذي يقـول ذلـك لا يقـل عن هتلـر طغيانـا.. هم كـالمجرمين الـذين يؤلبـون على المجـرمين لـدواعي إجرامية..

لقد كان الحلفاء لا يختلفـون على هتلـر طغيانـا إن لم يكونـوا

يفوقونه.. فقد كانوا يحكمون العالم كله يومئذ، ويذلونه باسم حضارة (الرجل الأبيض) وجدارته أن يحكم كل شعوب الأرض.

لقد كان ما تقوله صحافة الحلفاء ووسائل إعلامهم حقا بالنسبة للنازية وهتلر، أما ما كانوا يدعونه لأنفسهم من أنهم هم حماة الحرية وحماة حقوق الإنسان، فقد تبين كذبه كله عقب الحرب مباشرة حين خرج الحلفاء منتصرين من الحرب فضربوا بكل وعودهم للشعوب عرض الحائط، بل قالوا لهم في تبجح: لقد حميناكم من النازية فادفعوا ثمن الحماية.. وثمنها أن يكونوا خاضعين لهم يدورون في فلكهم ويخدمون مصالحهم.

التفتت إلي، وقالت: هذا طبيخ راح ضحيته عشرات الملايين من البشر.. ولا زلنا نعاني آثاره إلى الآن..

هناك طبيخ آخر تلى هذا.. لا يزال المسلمون المساكين يصلون ناره.

قلت: ما هو؟

قالت: لقد تحدثت الصحافة ومعها جميع وسائل الإعلام عن طغيان هتلر، وعن وحشيته في إبادة اليهود وتعذيبهم.. وركزت وسائل الإعلام على اليهود مع أن حوادث الإبادة التي حصلت لغيرهم لم تقل شأنا (1).. لأن الهدف من ذلك أن يشحن الرأي العام ليعطف علي قضية اليهود بعد إذ كان كارها لهم أشد الكره.. وشيئا فشيئا يتعاطف الناس مع اليهود الذي يعذبهم النازي ويحرقهم أحياء في الأفران.. وقد أتيح للصحافة ولوسائل الإعلام أن تزيد في الأفران ما تشاء حتى تؤجج العواطف وتحرك الرأي العام لضرورة إنشاء وطن قومي لليهود.. وفي فلسطين.. ليطبق على الفلسطينيين المساكين ما طبق على المسيح من التكفير عن خطايا هتلر والنازية.

---

1) انظر التفاصيل والأرقام المثبتة لذلك في (الموسوعة اليهودية) للمسيري.

ولم يكتفـوا بـذلك.. بـل راح الإعلام يـؤجج الـرأي العـام ضـد العرب المجرمين الذين أبـوا الخـروج من ديـارهم ليسـكنها شـعب الله المختار..

التفتت إلي، وقـالت: هـذا طـبيخ قـديم جديـد.. راح ضـحيته الملايين الكثيرة.. وراح ضـحيته فـوق ذلـك مبـادئ إنسـانية أخطـر وأعظم.. وحصل بسببه لبذور البشرية تشويه خطير لا نزال نعـاني آثاره.

نظرت إلى مزرعتها بأسى، وقـالت: سأضـرب لـك مثـالا عن طبيخ آخر.. يخص الحياة الاجتماعية لا يقل شأنا.

لنفرض أن المطلوب هو تفكك روابط الأسرة ونشـر الفسـاد الخلقي وتحريض المرأة ضد الرجل.. طلبا لمصالح فئة من النـاس يستهويها هذا السلوك.

قد تتخذ وسائل الإعلام لأجل هذا وسائل كثيرة.. منهـا مثلا أن تبدأ الصحافة بمهاجة الزواج المبكر وذكر مضارة.

ومن مضـاره الـتي تـذكرها مثلا، وتؤيـدها بمـا تشـاء من إحصـائيات ودراسـات أن تـذكر بـأن كلا من الـزوجين يكـون قليـل الخبرة بالجنس الآخر نتيجة عدم الاختلاط، ثم قليل الخبرة بالحيـاة لصغر السن وقلة التجربة، ثم قليـل الخـبرة بتربيـة الأولاد.. الـذين يجيئون في أول عهد الزواج فتسوء تربيتهم.. لذلك يلزم تأخير سن الـزواج مـع إباحـة الاختلاط حـتي يتحقـق التعـارف بين الجنسـين، واكتساب الخبرة اللازمة للـزواج، ويتـأخر مجئ الأولاد حـتي تـزداد الخبرة فتحسن تربيتهم.

ثم يظل الحديث عن ضـرورة الاختلاط يلح علي النـاس حـتي يتكون (رأي عام) موافق علي الاختلاط بعد إذا كان معارضا لـه، ثم يظل الحديث يلح علي الناس حتي يتحمسوا له، ثم يظـل الحـديث يلح علي الناس حتي يبلغ لحماس للاختلاط أن يتهموا كـل معـارض

له بالرجعية والتخلف والجمود والتأخر ويهددوه بـأن عجلـة التطـور ستسحقه وتقضي عليه.

ثم يقـال للمـرأة: إن الـزواج البـاكر والانجـاب الكثـير يفسـد رشاقتها.. ويقتل حيويتهـا.. ويمنعهـا من مشـاركة الرجـل في إدارة شئون المجتمع.

وتظل الصحافة.. ومعهـا سـائر القـدور.. تلح علي هـذا الأمـر حتي تخرج المـرأة من فطرتهـا، وتنظـر إلي الـزواج علي أنـه قيـد يعوقها.. وإلى الانجاب علي أنه عدو يفسد جمالها ورشـاقتها، وإلى البيت والانشغال به علي أنه إهدار لطاقتها، بل إهدار لكرامتها.

ثم يظل تأثير الصحافة ووسـائل الإعلام عليهـا حـتي تـري أن من حقها أن تستمتع بالحيـاة اسـتمتاعا حـرا دون أن يفـرض علي اسـتمتاعها قيـد خلقي أو اجتمـاعي أو من أي نـوع، فمن حقهـا أن تؤخر الزواج حتي تشبع من الاستمتاع الحـر.. ومن حقهـا أن تـؤخر الإنجـاب حـتي تشـبع من العمـل خـارج الـبيت، ومن الرشـاقة في الحفلات وحلبات الرقص.

ويصبح ذلك كلـه من مقـررات (الـرأي العـام) النسـائي علي الأقـل، بـل النسـائي والرجـالي كـذلك.. (أي من مقـررات العقـل الجمعي)، ويصبح المعارض لذلك هو المجنون الأبله، وهو المتحجـر علي أوضاع عفي الزمن عليها ولا يمكن أن تعود.

وهكذا يشكل الرأي العام في مطابخ الديمقراطية في القدور التي يمسكها المفسدون في الأرض ممن يملكون المال والجاه.

قلت: ولكن مـع ذلـك.. فمن مزايـا هـذا النظـام أنـه يـتيح للبسطاء من الناس أن ينتخبوا من يمثلهم، ويطالب بحقوقهم.

ابتسمت، وقالت: ألم تفهم بعد من هم الناس الـذين تتعامـل معهم الديمقراطية.. إنها تتعامل مع الناس الذين تشـكلهم بحسـب

أهواء المستبدين؟

إنهـا اسـتبداد يخفي حريـة.. وديكتاتوريـة تختفي في جلابيب ديمقراطية.

قلت: كيف ذلك.. وأنا أرى صناديق حرة.. ومنتخبون أحرارا..

قالت: صدقت في كون الصناديق حرة.. ولكنك لم تصدق في كون الناخبين أحرارا.

قلت: كيف ذلك؟

قالت: هـل يتـاح لأي إنسـان أن يصـل إلي البرلمـان ويوجـه الأمور كما يشاء؟

قلت: هذا ما أفهمه من الديمقراطية؟

قلت: وهذا من التزوير الذي تشهره الديمقراطيـة.. ألم تعلم أن النظم الديمقراطية الحرة عبد رقيق لأهل المال.. فلذلك تخضع المعركة الانتخابية للاغنياء من الناس؟

وأولئك الأغنياء لا ينظرون إلى المساكين على أنهم مساكين.. بل ينظر إليهم على أنهم أولئك الأعداء الحاسدون لما في يـده من النعمـة، الطـامعون، الـذين يريـدون أن ينهبـوه وينتقصـوا أرباحـه.. وينظر إليهم من جهة أخـري على أنهم أولئـك الطفيليـون الـذين لا يحسنون شيئا ويطمعـون في كـل شـئ.. أو ينظـر إليهم على أنهم الاغبيـاء الـذين وقـف بهم غبـاؤهم عن أن يصـعدوا إلي القيم الـتي وصلواهم إليها.

قلت: ولكن هنـاك فقـراء أو متوسـطي يرشـحون أنفسـهم وينجحون في الانتخابات؟

قالت: ولكن كيف يصلون إلى هناك؟

قلت: ينضـــمون إلى أحـــزاب تحملهم، وتحمـــل عنهم عبء المعركة الانتخابية.

قـالت: فـالأحزاب تعرضـهم كواجهـة إذن.. لتملي عليهم بعـد ذلك ما تريد..

بالإضافة إلى ذلك.. أنت تـرى والواقـع يشـهد أن الإنسـان إذا دخل الحزب تتغير أحواله كلها ويصبح إنسانا آخر.. ويصـبح محترفـا في عالم السياسية، وهو وحزبه في أحد حالتين لا ثالث لهما، وفي أحـد مـوقفين: إمـا أن يكـون حزبـه في الحكم فهـو ملـتزم بتأييـد الحكومة في كل ما تصنع، سواء كان في دخيلة نفسـه مقتنعـا بمـا تفعل أو غير مقتنع.. وإما أن يكون حزبه في المعارضة – أي خـارج الحكم – فهو ملتزم بمعارضة الحكومة القائمة في كل ما تصـنع إلا أن تكون مصلحة عامة أي يستفيد منها الرأسماليون جميعا، ســواء كان في دخيله نفسه مقتنعا بالمعارضة أو غير مقتنع!

وهكذا تسمع صيحات: العدل.. والقيم.. والمبادئ.. والإنسـانية ... من الحزب المعارض طالما هـو في المعارضـة، فـإذا وصـل إلي الحكم سلك ذات السلوك الـذي كـان ينتقـده وينـدد بـه من قبـل.. وصار الدور علي الحزب المعارض – الذي كان في الحكم من قبل – لينتقـد من الحكومـة القائمـة ذات الأعمـال الـتي كـان يسـوغها لنفسه وهو في الحكم، ويتصايح بدعاوي الإنسـانية والعدالـة والقيم والمبادئ.

سأضرب لك مثلا يوضح ذلك.. أنت تعرف بدون شـك حـزب العمال في بريطانيا..

قلت: أجل.. لقد ظل يحكم بريطانيا عهودا طويلة.

قالت: لقد ظل وهو في المعارضة ينادي بضرورة زيادة أجور العمال، فلما وصل إلي الحكم رفض أن ينفذ ما كان يدعو إليه وهو

في المعارضة ـ أو عجز عن تنفيذه! ــ وسلك ذات السلوك الذي كان يعيبه من قبل علي حزب المحافظين، وهو تجميد الأجور خوفا من التضخم.

قلت: ولكن هناك أحرارا يصلون إلي البرلمان، ويقولون قوله الحق، وينتقدون بجرأة، ويطالبون بحقوق أصحاب الحقوق.

قالت: ولكن كم عدد هؤلاء؟ وما وزنهم في المجالس النيابية؟.. أنت تعلم أن القرارات تؤخذ بالأصوات.

قلت: لا ضير في ذلك.. فالأخذ بالأصوات حل عادل.

قال: هو عادل وصالح حين يكون أصحاب الأصوات من العدول، لا حين يكونون من أصحاب الأهواء، فأما حين يكونون من أصحاب الأهواء، الملتزمين بالمعارضة أو الملتزمين بالتأييد بحكم موقف الحزب الذي يتبعونه، فعندئذ تضيع أصوات القلة من الأحرار في وسط أصوات الكثرة من المزيفين.. وتنفذ مصالح الرأسمالية كلها من خلال اللعبة الهائلة، لعبة الحرية والديمقراطية والتمثيل النيابي والبرلمان إلا الفتات الذي يتساقط في الطريق، أو يسقط عمدا للتلهية، أو يسقط تحت الضغط الشديد.

أما الحرية الحقيقية التي تتيحها الديمقراطية، وكأنما أنشئت من أجلها، فهي الحرية الشخصية.. أي حرية الالحاد وحرية الفساد الخلقي.. فهنا يلتقي الجميع: المعارضون والمؤيدون والشعب والرأسماليون، والحكام والمحكومون.

التفتت إلى مزرعتها، وقالت: إن الديمقراطية الليبرالية تقيد الحرية حيق ينبغي أن توسع، وتوسعها حيث ينبغي أن تضيق.. فحين تمس مصالح الرأسمالية فلا حرية علي الإطلاق.. لعلك تذكر قصة مقتل كنيدي رئيس جمهورية الولايات المتحدة، حين قتل في عام 1963 م لأنه وقف في طريق مصلحة من مصالح الرأسمالية، ثم لعب بقضيته لعبا بحيث لا تنكشف الحقيقة ولا يوقع

علي المجرمين الجزاء.

لقد كـانت سياسـة الرأسـمالية يومئـذ هي وضـع العـالم علي حافة الحرب من أجل تنشيط صـناعة السـلاح وبيعـه، وهي ــ كمـا تعلم ـ من أربح الصناعات بالنسبة إليهم.

ولكن كنيدي كانت له نظرة أخرى مختلفـة، ينطلـق فيهـا من مصـلحة الولايـات المتحـدة الـتي هـو رئيسـها المنتخب لتحقيـق مصـالحها.. فقـد كـان رأي كنيـدي أن المصـلحة القوميـة للولايـات المتحدة تقتصـي تهدئـه الأحـوال العالميـة، لكي يوجـه الانفـاق إلي رفاهية الشعب الأمريكي بدلا من توجيه إلي صناعة الحرب التي لا عائــد منهــا علي الشــعب.. لــذلك ســعي إلي مصــالحة الاتحــاد السوفيتي والاتفاق معه علي تهدئه الأحوال العالمية، وخطا بالفعـل خطـوة نحـو إشـاعة السـلام، فمـد يـده إلي خروشـوف الـزعيم الروسي القائم بالحكم يومئذ لفتح باب المحادثات الـتي تـؤدي إلي توطيد السلام، وخطا خرشوف من جانبـه خطـوة فقبـل أن يـدخل في محادثات السلام.

ورغم أن هذا كان تصرفا حكيمـا من وجهـة النظـر الأمريكيـة البحتة، فضلا عما فيه من إراحة أعصاب العالم من الخـوف الـدائم من نشوب الحرب، فإن الرأسمالية الأمريكية ذاتها لم توافق عليـه لأنه ضد مصالحها الذاتية، لذلك أنشـأت إضـرابا طـويلا في مصـانع الصلب علي سـبيل الإنـذار، مـع أن هـذا الاضـراب يضـر المصـالح المؤقتة للرأسـمالية ولكنـه يـؤدي إلي كسـب أكـبر بالضـغط علي كنيـدي ليـترك سياسـة التهدئـة الـتي كـان يقـوم بهـا بالاتفـاق مـع خروشـوف، فلمـا لم يأبـه كنيـدي بالإنـذار، ومضـي في سياسـيته، هددوه مرة ثانيـة بإضـراب آخـر في مصـانع الصـلب اسـتمر مـدة أطول من الأولى، ولما لم يرضخ بعـد هـذا الإنـذار الشـديد، وأصـر علي السياسة التي رآها أكـثر تحقيقـا لصـالح الشـعب الأمـريكي ـ فضلا عن إراحة العالم من الخوف ـ قرروا أنه لابد من التخلص منه

بإجراء أشد، فقتلوه! قتلوه وهو لس فردا عاديا من أفراد الشعب، بل هو رئيس الجمهورية المنتخب برضا الشعب، والمسئول عن مصالح الشعب الأمريكي كله! قتلوه ثم لعبوا بالتحقيق، فلم يجد رئيس الجمهورية المقتول ضمانات التحقيق التي تحفظ حقه ـ وإن كان قتيلا ـ في أن يؤخذ له القصاص من قاتله! ولم تجد الديمقراطية كلها نفعا في إقامة العدل في قضية من القضايا الخطيرة في التاريخ الحديث.. ومضت القصة كلها كأنها حادث عادي لا يثير الانتباه ولا يستحق الإهتمام! وطوي التحقيق..

تلك هي الديمقراطية حين تمس المصالح المباشرة للرأسمالية.

الشيوعية

قلت: أعلم أنك من أبرز الخبراء في شؤون (الماركسية الآسيوية)، وقد صدر لك كتاب قيم في هذا سميته (القوميات والدولة السوفياتية).. أهو جزء من بحثك عن النظم التي تحول الأرض إلى مزرعة طيبة؟

قالت: أجل..

قلت: فكيف وجدت الشيوعية التي حاول السوفيت في ذلك الحين تطبيقها؟

ابتسمت، وقالت: أولئك الأغبياء حاولوا أن يقلعوا الإنسان من جذوره.. هل تتصور أن الذي حكم العالم في ذلك الحين حفنة من الشيوعيين؟

قلت: ومن حكمه غيرهم؟

قال: حفنة من اللصوص.. راحوا للبذور يشوهونها ويحرفونها ويتلاعبون بقداستها لتنسجم مع أهوائهم.

قلت: ولكنهم كـــانوا ينـــادون بحقـــوق العمـــال والطبقـــات الضعيفة.

قـــالت: صـــدقت في بعض هـــذا.. فالشـــيوعية هى النظـــام الجاهلى الوحيد الذى فرض على الدولة كفالة كـل فـرد يعيش فى ظلها، ولكن ذلك لم يكن كرما إنسانيا منها، فهى تأخذ مقابـل ذلـك الجهد الفرد كله، وتعتبر (من لا يعمل لا يأكل) على الحقيقة لا على المجاز..

ثم إن الدولـة تسـتذل النـاس بلقمـة الخـبز على نحـو غـير مسبوق فى كل النظم التى مرت بها الجاهلية البشرية على الأقـل فى التاريخ الحديث.

وربمـا كـان من الحـق أن النـاس كـانوا دائمـا فى جاهليـات التاريخ مسـتذلين بلقمـة الخـبز، يـبيعون مقابلهـا بعض كـرامتهم أو كلها، وبعض إنسـانيتهم أو كلهـا.. ولكن النظـام البوليسـى الصـارم الذى يحكم الناس بالحديد والنار والتجسس، ويمنع الناس بـالرعب و الإرهـاب أن يفتحـوا أفـواههم بكلمـة نقـد واحـدة ضـد الدولـة أو الزعيم المقدس أو المذهب أو النظام.. إنه ليفـرض على النـاس ـ مقابل لقمة الخبز ـ قدرا من الذل ومن ضياع الكرامـة الإنسـانية لا مثيل له فى نوعـه ودرجتـه فى كـل النظم الـتى تـزعم أنهـا نظم حضارية على مدار التاريخ.

بالإضافة إلى هذا تلـك التفرقـة الضـخمة فى كـل جـانب من جوانب الحياة بين أن يكون الإنسان مجـرد فـرد فى القطيـع، وبين أن يكـون عضـوا فى الحـزب ولـو فى أسـفل درجاتـه فضـلا على الدرجات العليا.

لقد قال (ميليوفان دجيلاس) نـائب الـرئيس (تيتـو) فى كتـاب (الطبقة الجديـدة): (إن الطبقـة البيروقراطيـة الشـيوعية الجديـدة صـاحبة الامتيـازات الضـخمة تسـتخدم جهـاز الدولـة كسـتار وأداة

لتحقيق مآربها وأغراضها الخاصة.. وإذا ما عدنا لدراسة الملكية فإننا سنجدها ليست أكثر من حقوق الربح وحرية السيطرة، وإذا ما اتجه المرء إلى تحديد ربح الطبقة من خلال هذه الحقوق فى إطار تلك الحرية فإن الشيوعية تتجه فى النهاية إلى خلق شكل جديد من أشكال الملكية وخلق طبقة حاكمة مستثمرة جديدة)

ويقول: (إن الطغيان الشيوعى والإرهاب فى أساليب الحكم هما الضمانة لامتيازات طبقة جديدة تبرز على المسرح السياسى.. لقد سبق أن أعلن ستالين عام 1936 مع صدور الدستور الجديد للاتحاد السوفيتى أن الطبقة المستثمرة قد تم القضاء عليها نهائيا.. وفى الحقيقة لقد تم فى المعسكر الشيوعى القضاء التام على قوى الرأسمالية الوطنية التى استؤصلت تماما من الجذور. ولكن مع زوالها بدأت تبرز فى صلب المجتمع الشيوعى طبقة جديدة لم يسبق للتاريخ أن رأى مثيلا.

ولقد أكدت هذه الطبقة أنها أكثر تسلطا فى الحكم من أى طبقة أخرى ظهرت على مسرح التاريخ، كما أثبتت فى الوقت نفسه أنها تحمل أعظم الأوهام، وأنها تكرس أعتى أساليب الظلم فى مجتمع طبقى جديد.

لقد تم تأميم المقدرات المادية إلا أنه لم يجر توزيعها على أبناء الشعب، بل أصبحت ملكا مكتسبا للطبقة الحاكمة وللأعضاء القياديين للحزب والبيروقراطيين السياسيين.

لقد حاز الأعضاء الكبار من أفراد النخبة الممتازة أفضل المساكن والبيوت كما شيدت لهم الأحياء الخاصة ومنازل الاصطياف، وحصل أمناء سر الحزب ورؤساء البوليس السرى ليس على السلطة العليا وحسب، إنما على أجمل المساكن وأفخم السيارات وسواها من مظاهر الأبهة والعظمة والامتيازات، أما بقية الأعضاء من دونهم فقد حازوا امتيازات متناسبة مع مراكزهم الحزبية.

وليس هنـاك أيـة طبقـة أخـرى فى التـاريخ تشـابه الطبقـة الجديدة فى وحدة تماسكها، ووحدة الفكر والعمل فى دفاعهـا عن نفسها، وفى قدرتها على إحكام القبضة على كل ما هو واقـع تحت سـيطرتها منـا لملكيـة الجماعيـة حـتى السـلطة الاسـتبدادية المطلقة(1).

قلت: ومع ذلك..

قاطعتني بغضب قائلة: ما فائدة أن تملأ البذور الـتي تشـوهها قوتا وإداما..

قلت: لم أفهم.

قـالت: مـا فائـدة أن يملأ الفلاح أرضـه بالسـماد في الـوقت الذي يسيم فيه بذوره الخسف.

قلت: لم أفهم..

قالت: إن الشيوعية لم تكتف بنظام عادل يحكم الرعية.. بل راحت تفرض على الرعية العقائد والأخلاق..

قلت: هل حقا ما تقولين؟

قالت: لقد رأيت الواقع بعيني.. بل عشت بعض ذلك الواقـع المرير الذي كان يمر بـه المسـلمون، وهم يقولـون للشـيوعيين: لا نريد خبزكم.. دعونا نمـوت جوعـا واتركـوا لنـا مسـاجدنا.. فنحن لا نأكل من طعام الأرض.. بل نأكل من غيث السماء.

قلت: لعل ذلك سلوك حفنة من المجرمين..

قالت: بل تلك هي الفلسفة الشيوعية..

ويستحيل أن تنفصل الشيوعية عن فلسفتها.

---

1) انظر كتاب (العلمانية) لسفر عبد الرحمن الحوالى.

قلت: كيف ذلك؟

قالت: اذهب، واقرأ المؤلفات الشيوعية لتجد الإلحاد مقرونا بالاقتصاد والسياسة.

وسر ذلك يرجع إلى أن الشيوعية تبدأ من الإلحاد.. فالشيوعية تصر على أن لها إلحادها الخاص وهو في نظرها إلحاد (إيجابي).. كما قال (غارودى) الذي تاب من الشيوعية وولى وجهه قبلة الإسلام.. لقد قال يصف الإلحاد الشيوعي: (أما الإلحاد الماركسي، فهو في جوهره إنسي (أي إنساني النزعة) منطلقة ليس رفضاً بل هو تأكيد، تأكيد استقلال الإنسان، أما نتيجته فهي رفض كل محاولة لحرمان الإنسان من قدرته المبدعة والمبدعة لذاتها)

ثم يقول في تفصيل ذلك: (إن ما يميز الإلحاد الماركسي البحت هو أنه على خلاف سابقيه، لم يكتف باعتبار الدين خديعة فحسب، اصطنعها المستبدون أو مجرد وهم ولده الجهل بل إن ماركس و أنجلز قد بحثا عن الحاجات الإنسانية التي تلبيها الأديان بهذه الصورة المخادعة، فوصلا ــ كما يقول ماركس ــ إلى أن الأديان هي في وقت واحد: انعكاس لشقاء فعلي واحتجاج على هذا الشقاء.. وهذه الحقيقة التاريخية (أن الدين انعكاس لشقاء فعلي) هي التي يلخصها ماركس في تعبير مقتضب (الدين أفيون الشعوب))[1]

وجرياً مع المادية الجدلية وتطبيقاً للتفسير الاقتصادي للتاريخ حول علاقة الفكر بالوجود ترى الشيوعية أن الفكر البشري انعكاس للواقع المادي، فالمادة هي الأساس الوحيد وعنها ينبثق الفكر وتنبثق المشاعر والأحاسيس، ومن هذه المشاعر الدين نفسه.

1) ماركسية القرن العشرين: مقتطفات: 144 – 146.

أي إن وجود الناس هو الذي يحدد مشاعرهم وليس العكس.

وعنـد تفسـير الـدين على هـذا الأسـاس يقـول أنجلـز: (من الأزمنة الموغلة في القدم ـ إذ وصل الفكر بالناس ـــ وهم بعـد في جهـل تـام ببنيـاتهم الجسـدية الخاصـة، وتحت تـأثير أحلامهم ـــ إلى القول بأن أفكارهم وأحاسيسهم ليست من فعل أجسـادهم ذاتهـا، بل من فعل روح خاصة تسكن هذا الجسد وتفارقه لحظة المــوت، منذ ذلك الحين اضطروا لأن يصطنعوا لأنفسهم أفكاراً عن علاقـات هذه الروح مع العالم الخارجي)

(وعلى هذا النحو تماماً – عن طريق تشخيص القوى الطبيعية – ولدت الآلهة الأولى التي اتخذت خلال التطور اللاحـق شـكلاً غـير أرضي أكثر فأكثر، إلى أن حدث أخيراً عمليـة تجريـد ... فنشـأ على نحو طبيعي خلال التطور العقلي، أن تولـدت في عقـل النـاس من الآلهة المتعـددين ذوي السـلطة الضـعيفة والمقيـدة بعضـهم حيـال بعض، فكرة الإله الواحد المنفرد في الديانات التوحيدية)(1)

ومـع ذلـك يسـتنتج أنجلـز أن المطـالب الجسـدية هي منشـأ الاعتقادات الفكرية وأن الدين ما هو إلا (الانعكاس الخيالي للأشـياء البشرية في دماغ الإنسان)(2)

وما دام أن الوضع الاقتصادي هو الذي يفسر ويحدد المطالب الجسدية فإن النتيجة هي أن الدين ناشئ عن الأوضـاع الاقتصـادية ولا ينبغي أن يفسـر إلا على ذلـك (أمـا المجـالات الأيدلوجيـة الـتي تحوم أعلى في الفضـاء كالـدين والفلسـفة.. الخ فإنهـا مؤلفـة من بقية – تعود إلى ما قبل التاريخ، وقد وجدها العهـد التـاريخي أمامـه فالتقطها – لما قد نسميه اليوم غباء، إن هذه التصـورات المختلفـة الخاطئة عن الطبيعة وعن تكون الإنسـان ذاتـه، وعن الأرواح وعن

---

1) نصوص من أنجلز: 61.

2) المصدر السابق: 133.

القــوى الســحرية وهلم جــرا ليس لهــا في الأغلب غــير أســاس اقتصادي سلبي، فالتطور الاقتصادي الضعيف لعهد ما قبـل التـاريخ تكون فيه ... تصورا خاطئة عن الطبيعة)(1)

إذن فالاقتصاد – أو البحث عن الطعام والشـراب – هـو منبـع كـل عقيـدة وتصـور وأسـاس كـل مبـدأ وقيمـة، بـل إن الشـيوعية لتطبق ذلك على كل معنى وسلوك إنساني: على العلم والحرب ... على المشـاعر والفنـون ... على العلاقـات الاجتماعيـة ... على كـل شــئ، فــالعلم ــ مثلاً ليس أصــله الرغبــة الفطريــة في اكتشــاف الحقيقة ـ فليس في قاموس الشيوعية شئ اسمه الفطـرة ولكنـه كما قال أنجلز: (إذا كانت العلوم قد نهضت فجأة بعد ليـل القــرون الوسطى المظلم بقوة لا ريب فيها، ونمت بسرعة المعجزة، فإننــا مدينون بهذه المعجزة الجديدة للإنتاج)

وعن الحــروب تقــول الشــيوعية: (إن مــا يســمى بــالحروب الدينية ... كانت تتضمن مصالح طبقية مادية إيجابية، فقد كانت هذه الحروب حروبا طبقية تماما ... ورغم أن الصراعات الطبقيــة كــانت عندئذ مغلفة بشعارات دينية، ورغم أن مصـالح وحاجـات ومطـالب مختلف الطبقات كانت مختفية خلف ستار ديني فلم يبدل هذا شيئاً من الأمر، ويمكن تفسيره ببساطة من واقع ظروف تلك الأيام)(2)

وتقول عن الأخلاق: (إن الناس عن وعي أو لا وعي يستمدون مفاهيمهم الأخلاقية – في التحليـل الأخـير – من العلاقـات العمليـة التي يقوم عليها وضعهم الطبقي، أي من العلاقات الاقتصادية التي ينتجون بها ويتبادلون فيها)(3)

---

1) المصدر السابق: 187.

2) حرب الفلاحين في ألمانيا: 46.

3) نصوص من أنجلز: 159.

وليس أغرب من هذه الأفكار إلا قول أنجلز (إن العمل هو الذي خلق الإنسان) وليس الإله كما يقول الرجعيون من البورجوازيين والإقطاعيين، وحتى لا نحسن الظن فنحمل كلامه على المجاز فقد شرح هذه العبارة شرحاً وافياً ـ نرى فيه إلى جانب الاستنباط العجيب الاستمداد الساذج من الداورينية ـ يقول: (منذ مئات عدة من ألوف السنين ... كان يعيش في مكان ما من الدائرة الاستوائية ... عرق من القردة الشبيهة بالبشر بلغت تطوراً رفيعاً بوجه خاص، وقد أعطانا داروين وصفاً تقريباً لهذه القردة التي قد تكون أسلافنا.

وقد أخذت هذه القردة – متأثرة بالدرجة الأولى دون شك بنمط – معيشتها الذي يتطلب أن تنجز الأيدي من أجل التسلق غير وظائف الأرجل – أخذت تفقد عادة الاستعانة بأيديها من أجل السير على الأرض واتخذت أكثر فأكثر مشية عمودية، وهكذا تم اجتياز الخطوة الحاسمة لانتقال القرد إلى إنسان)(1)

وإذا كان الاقتصاد بهذه المثابة فلماذا اعتقد الناس أن شيئاً آخر غيره هو الذي يسير التاريخ وينشئ الأفكار؟ وكيف غابت هذه الحقيقة عنهم حتى أظهرها فلاسفة الشيوعية؟ يجيب الشيوعيون عن ذلك بسهولة قائلين: لا غرابة في ذلك فإن الإنسان أصله قرد وظل يجهل هذه الحقيقة ظاناً أن العناية الإلهية هي التي خلقته حتى عرف ذلك أخيراً.

ويعبر أنجلز عن ذلك قائلا: (ينسى الناس أن الظروف الاقتصادية لحياتهم هي منشأ الحقوق التي لديهم، مثلما أنهم نسوا أنهم قد نسلوا من عالم الحيوان)(2)

وانطلاقاً من تأليه الاقتصاد على هذا النحو وانطلاقاً من اعتبار

---

1) المصدر السابق: 160.

2) المصدر السابق: 162.

تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام، ومن الانتكاس بالإنسان وجعل معدته هي العليا وروحه وعقله السفلي جاء في التفسير الاقتصادي للتاريخ.

وهو تفسير يقوم على مبادئ خطيرة فيها هلاك الإنسان ودماره.. وأخطر ما يقوم عليه حتمية الصراع بين المتناقضات، وذلك يعني بالنسبة للمجتمع البشري الصراع بين الطبقات، وبين المصالح المادية المتعارضة، وهو صراع حام لا يهدأ على الإطلاق، وسببه الوحيد (البحث عن الطعام) و(امتلاك وسائل الإنتاج)

نظام الإسلام

قلت: يكفيني ما ذكرته من نماذج عن نظم البشر، فحدثيني عن نظام الإسلام الذي أبديت إعجابك الشديد به.

قالت: أنا لم أبد إعجابا ناشئا عن مجاملات شخصية.. بل كان نتيجة بحث طويل في هذه المزرعة.. في بطون الفلسفات والتواريخ.

قلت: ما علاقة مزرعتك بهذا البحث؟

قالت: لقد رأيت في علاقاتي الطويلة مع البذور الزراعية أن هناك بذورا تمتلك قوة عجيبة على الحفاظ على شخصيتها وقوتها.. فهي تنبت في كل محل.. وتواجه كل إعصار.. وتقاوم كل الأمراض والطفيليات.. وهي مع ذلك كله تعطي ثمارا يانعة طيبة تتوقف عليها حياة البشر والكائنات.

قلت: أهذه البذور لا تحتاج إلى فلاحين!؟

قالت: هي تحتاج إليهم.. ولكنها قد تعيش من دونهم بنفس قوتها وصلابتها.

قلت: دعيني من هذه البذور.. واعبري بنا إلى بذور البشر.

الفرد:

قالت: لقد بحثت عن النظم التي حولت البشر إلى هذا النـوع المستعصي من البذور، فلم أجد إلا نظام الإسلام.

قلت: لم أفهم ما تقصدين.

قالت: لقد علم محمد أو المصدر الـذي تلقى منـه محمـد أن نظام البشر لـو وكـل إلى طائفـة من النـاس.. فـإن هـذه الطائفـة سوف تستهويها الكراسي والعـروش، فتنحـرف ببـذور البشـر عن الفطرة التي فطروا عليها.

قلت: فماذا فعل؟

قال: بعث من التعاليم السامية والأدوية النافعة ما يجعــل من كل فرد دولة قائمة بذاتها بجميع أجهزتها..

لقــد أشــار محمــد إلى هــذه النتيجــة العظيمــة، فقــال: (: (المؤمنون تتكافا دماؤهم وهم يد على من سواهم ويسعى بذمتهم أدناهم)(1)

قلت: لم أفهم هذا.. هل يمكن هناك أن يكون هناك نظام في الدنيا يقوم على الفرد.

قــالت: كــل الأنظمــة تتلاعب بــالأفراد لتجعلهم محلا صــالحا لإملاءاتها.. لقد ذكر القرآن هذا، فقال: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَـهُ فَأَطَـاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ (الزخرف:54)

لقــد علــل القــرآن ذلــك الهــوان الــذي أصــاب المصــريين المستضعفين على يد الفراعنـة المسـتكبرين بالفسـق والانحـراف الذي جعل فرعون يستخف بهم.

ليس فرعون وحده هو الذي مارس هذا الأسلوب..

---

1) رواه أبو داود والنسائي والحاكم.

كل الفراعنة.. وكل المستبدين في التاريخ.. راحـوا يخـاطبون الرغبة والرهبة في قلوب الرعية ليملوا لها بعد ذلك ما يشاءون.

لقد رأينا النظام الـديمقراطي كيـف ينشـر حريـة الانحـراف.. ليحول من الرعية حميرا يركبهم سادتهم من الرأسماليين.

ورأينـا مثلـه النظـام الشـيوعي الـذي لا يعـترف إلا بـالقيم المادية.. ليحول من الأفراد عجينة لينة يتلاعب بهـا الحـزب ورفقـاء الحزب كما يشتهون.

قلت: والإسلام..!؟

قـالت: الإسـلام جعـل للفـرد ــ بفضـل منظومـة كاملـة من التشريعات والتوجيهات ـ حصونا منيعة يستحيل على أي حـاكم في الدنيا أن يخرقها.

لقـد لاحظت بنفسـي في الاتحـاد السـوفيتي كيـف يـرمي المسيحيون مسيحيتهم غير مبالين بهـا.. بينمـا يتشـبث المسـلمون بإسلامهم.. ولا يتنازلون عنه مهما كان.

قلت: أعـرف صـمود الإسـلام.. ولكـني أبحث عن النظـام.. والنظام لابد له من منظم.

قالت: لقد وضع الإسلام ـ بنصوصه المقدسـة ــ جميـع النظم العادلـة وجميـع الحـرس القـائمين عليهـا في نفـوس المؤمـنين.. فاستغنى المؤمنين بإيمانهم عن سياسة الساسة.

قلت: أنت تعلمين أن المسلمين حكموا فترة طويلـة بـالحكم العضوض.

قالت: ومع ذلـك لم يـؤثر فيهم ذلـك النـوع من الحكم.. لقـد كان ذلـك الحكم قاصـرا على وظـائف محـدودة لا تكـاد تكـون لهـا علاقة كبرى بالرعية.. فلذلك كانت حصون الإيمان التي حصـن بهـا

الإسلام الفرد المسلم حاجزا دون تأثير الحكام الظلمة.

سأضرب لك أمثلة عن النظام الذي كان يحكم المجتمع بعيدا عن السلطة..

يروي الغزالي عن محمد بن المنكدر أنه كان له شقق بعضـها بخمسة دراهم، وبعضها بعشرة فباع غلامه في غيبته لأعرابي شقة من الخمسـيات بعشـرة فلمـا عـاد ابن المنكـدر وعـرف، لم يـزل يطلب ذلك الأعرابي المشتري طول النهار حتى وجـده، فقـال لـه: إن الغلام قد غلط فباعك ما يساوى خمسة بعشرة.

فقال الأعرابي: يا هذا قد رضيت.

فقال: وإن رضيت. فإنا لا نرضـى لـك إلا مـا نرضـاه لأنفسـنا، فـاختر إحـدى ثلاث خصـال: إمـا أن تأخـذ شـقة من العشـريات بدراهمك، وإما أن نـرد عليـك خمسـة، وإمـا أن تـرد شـقتنا وتأخـذ دراهمك.. فرد عليه خمسة، وانصرف الأعرابي.

ويروي أنه كان عند يونس بن عبيد حلل مختلفة الأثمان، منهـا ضرب قيمة كل حلة منه أربعمائة درهم، وضرب كـل حلـة مائتـان، فمر إلى الصلاة وخلف ابن أخيه في الدكان، فجـاء أعـرابي وطلب حلة بأربعمائة فعرض عليه من حلل المائتين، فاستحسنها ورضـيها، فاشـتراها -أي بأربعمائـة- فمشـى بهـا وهي على يديـه فاسـتقبله يـونس. فعـرف حلتـه. فقـال للأعـرابي بكم اشـتريت؟ فقـال: بأربعمائة. فقـال: لا تسـاوى أكـثر من مـائتين فـارجع حـتى تردهـا. فقال: هـذه تسـاوى في بلـدنا خمسـمائة وأنـا أرتضـيها. فقـال لـه يونس: انصرف معي فإن النصح في الدين خير من الدنيا بما فيهـا. ثم رده إلى الدكان ورد عليـه مـائتي درهم. وخاصـم ابن أخيـه في ذلك وقاتله. وقال: أما استحييت؟ أما اتقيت الله أتربح مثـل الثمن، وتترك النصح للمسلمين؟! فقال: والله ما أخذها إلا وهو راض بهـا. قال: فهلا رضيت له بما ترضاه لنفسك!!

ويذكر الندوي كيـف كـانت هـذه الأخلاق العاليـة منتشـرة في المجتمعات الإسلامية إلى عهـد قـريب قـال: حـدثني بعض الثقـات المعمرين الذين أدركوا عهد الأشـراف في الحجـاز، أن تجـار مكـة كـانوا في ذلـك العهـد على جـانب عظيم من المواسـاة لـزملائهم، والنظر في مصالحهم والإخلاص والإيثار لهم، قال: كان بعض التجار إذا أتاه زبون في آخر النهار وقـد بـاع مـا يكفيـه لقـوت يومـه ومـا حدده من الربح والوارد، ولم يكن زميله الجار سعيد الحظ في ذلك اليوم، قـال لـه في لطـف وهـدوء: (دونـك هـذا الـدكان الـذي هـو بجواري! تجد عنده ما تجده عندي، وقد لاحظت قلة الزبـائن عنـده هذا اليوم، فهو أحق بأن تشتري منه)

ويتحدث ليوبولد فـايس ــ الـذي أسـلم بعـد أن أقـام في بلاد المسـلمين مـدة طويلـة ــ عن مدينـة إسـلامية عربيـة كبـيرة هي (دمشق) فيقول: (وقفت على ذلـك الاسـتقرار الـروحي في حيـاة سكانها، إن أمنهم الباطني كـان يمكن أن يـرى في الطريقـة الـتي كان أصحاب الدكاكين يعامل بها بعضـهم بعضـاً، أولئـك التجـار في الحوانيت الصغيرة، أولئك الذين لا ينون ينادون على المارة، أولئـك كانوا يبدون وكأنما ليس فيهم أيما قدر من الخوف والحسـد، حـتى أن صاحب دكان منهم ليترك دكانه في عهدة جاره ومزاحمه، كلمـا دعته حاجة إلى التغيب بعض الوقت، وما أكثر ما رأيت زبونـاً يقـف أمام دكان غاب صاحبه عنه يتساءل فيمـا بينـه وبين نفسـه، مـا إذا كـان ينتظـر عـودة البـائع، أو ينتقـل إلى الـدكان المجـاور، فيتقـدم التاجر المجاور دائماً -للتاجر المـزاحم- ويسـأل الزبـون عن حاجتـه ويبيعـه مـا يطلب من البضـاعة -لا بضـاعته هـو بـل بضـاعة جـاره الغائب- ويترك له الثمن على مقعده. أين في أوروبا يستطيع المرء أن يشاهد مثل هذه الصفقة؟)(1)

المجتمع:

قلت: وعيت مـا ذكرتـه من أهميـة الفـرد في جميـع النظم..

1)الطريق إلى مكة ص 167باختصار.

ولكن الفرد كالبذرة يحتاج إلى التربة الطيبة التي تحتضنه.

قالت: وهذا ما فعله الإسلام.. فقد ركز على بناء المجتمع بناء سليما بنفس تركيزه على الفرد.

ولهذا.. فقد أغنت التربية العظيمة التي امتلأت بها المجتمعات الإسلامية الرعية عن راعيها.. فلم يعد للنظام الحكام أي أهمية في ظل مجتمع يعيش في تكافل وتناصر وتناصح عجيب.

قلت: كيف تقول ذلك.. والدولة بنظامها السياسي هي التي تؤسس المدارس والمستشفيات وجميع المرافق العامة التي تحتاجها الرعية.

قالت: لقد تولى المجتمع الإسلامي الذي نفخ فيه الإسلام روح التكافل كل هذه الوظائف.. فلم يعد للحاكم أي علاقة بأي حاجة من حاجات رعيته.. ولم يعد للحاكم أي قدرة على استذلال رعيته بهذه الحاجات.

قلت: إن هذا لعجيب..

قالت: هو الواقع الذي تدل عليه كل الدلائل.. وسأضرب لك من الأمثلة ما يبرهن لك على ذلك.

لقد ملأت النصوص المقدسة التي يرتلها المسلمون كل حين حبا لبعضهم البعض، فصاروا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

التفتت إلي، وقالت: أتدري ما السر الذي جعلهم يفعلون هذا؟

قلت: ما هو؟

قالت: تلك التعاليم العظيمة التي امتلأت بها آيات القرآن وأحاديث محمد.. لقد جعلتهم يجودون بالغالي والنفيس في سبيل

المصـالح العامـة.. ففي الحـديث: كـان أبـو طلحـة أكـثر الأمصـار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء (اسـم حديقـة له) وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَـيْءٍ فَـإِنَّ اللَّهَ بِـهِ عَلِيمٌ) (آل عمران:92)، قام أبو طلحة إلى رسول اللـه ﷺ فقـال: يـا رسـول الله، أن الله تبارك وتعالى يقـول: لَنْ تَنَـالُوا الْبِـرَّ حَتَّى تُنْفِقُـوا مِمَّا تُحِبُّونَ وإن أحب أمـوالي إلى بيرحـاء، وإنهـا صـدقة. أرجـو برهـا وذخرها عنـد اللـه، فضـعها يـا رسـول اللـه حيث أراك اللـه، فقـال رسول الله ﷺ: (بخ بخ.. ذاك مال رابح! ذاك مال رابح)(1)

قلت: إن كل ما ذكرته طيب.. ولكن حاجـات المجتمـع أعظم من أن تفي بها مثل هذه التصرفات التي تصدر عن فئات محدودة.

قالت: لا.. لم تكن هذه تصرفات فئات محـدودة.. لقـد كـانت تنتشر كـوعي عـام في المجتمـع يسـد كـل حاجاتـه، ويكفي جميـع مصالحه.

سأضرب لك مثالا على شريعة من شرائع الإسلام استطاعت أن تلبي من حاجات المجتمع ما لم تستطع الدول المعاصرة بجميع أساطيلها أن تفي به.

قلت: ما هذه الشريعة؟

قالت: الوقف..

لقد سمع المسلمون محمدا يقول: (إذا مـات ابن آدم انقطـع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم نافع، أو ولـد صـالح يـدعو له)(2)

---

1) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

2) أحمد.

فراحوا يتنافسون على أن يترك كل مسلم خلفه وقفا صـالحا يكتب لـه أجـره بعـد موتـه.. فلـذلك غطت الأوقـاف الخيريـة كـل الحاجات الاجتماعية.

لقــد نهض الوقــف برســالة ضـخمة في إقامــة المؤسســات الخيرية، ورعايتها، وبرزت أهميتـه بوجـه خـاص، في تـوفر الرعايـة الاجتماعية، للطبقات الضعيفة، والفقيرة، ولكل محتاج إلى العــون، والرعاية،كابن السبيل، وطالب العلم، والمريض، بـل اتسـع نطاقـه ليشـمل أوجـه الحيـاة الاجتماعية(1)، وتكـاثرت الأوقـاف، وتنـوعت تعبيراً عن إحساس الواقفين، بأن هناك ثغرة في المجتمع لا بــد أن تســـتر، أو منكـــراً يجب أن يـــزول، أو معروفـــاً مهملاً يجب أن يراعى(2).

ومن نماذج ذلـك مـا ذكـره ابن بطوطـة عن أوقـاف دمشـق حينما دخلها قال: (والأوقاف بدمشـق لا تحصـر أنواعهـا،ومصـارفها لكثرتهـا، فمنهـا أوقـاف على العـاجزين عن الحج، يعطى لمن يحج عن الرجــل منهم كفايتــه، ومنهــا أوقــاف على تجهــيز البنــات إلى أزواجهن، وهن اللـــواتي لا قـــدرة لأهلهن على تجهـــيزهن، ومنهـــا أوقاف لفكاك الأسرى، ومنها أوقاف لأبناء السبيل يعطون منها مـــا يـأكلون، ويلبسـون، ويـتزودون لبلادهم، ومنهـا أوقـاف على تعـديل الطرق، ورصفها، لأن أزقة دمشـق لكـل واحـد منهـا رصـيفان في جنبيه يمر عليها المترجلون، ويمر الركبان بين ذلـك، ومنهـا أوقـاف لسوى ذلك من أفعال الخير)(3)

ومن أطرف أنواع الوقف التي حكاها ابن بطوطة في دمشق وقف الأواني يقول: (مررت يومـاً ببعض أزقـة دمشـق، فـرأيت بـه

1) انظر محمد بن عبد الله، الوقف في الفكر الإسلامي 1/11.

2) انظر د. جمال برزنجي، الوقف الإسلامي وأثره في تنمية المجتمع (نماذج معاصرة لتطبيقاته في أمريكا الشـمالية) ص 140، ضـمن أبحـاث نـدوة نحـو دور تنمـوي للوقف في الكويت عام 1993م.

3) ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة ص104.

مملوكاً صغيراً قد سقطت من يده صحفة من الفخار الصيني، وهم يسمونها الصحن، فتكسرت، واجتمع عليه الناس، فقال له بعضهم أجمع شقفها، واحملها معك لصاحب أوقاف الأواني، فجمعها وذهب الرجل معه إليه، فأراه إياها، فدفع له ما اشترى به مثل ذلك الصحن، وهذا من أحسن الأعمال، فإن سيد الغلام لا بد له أن يضربه على كسر الصحن، أو ينهره، وهو أيضاً ينكسر قلبه، ويتغير لأجل ذلك، فكان هذا الوقف جبراً للقلوب، جزى الله خيراً من تسامت همته في الخير إلى مثل هذا)(1)

ومن أنواع الوقف وقف للقرض المالي بدون فائدة، ووقف لختان الأطفال اليتامى، وأوقاف لنظافة المدينة، وأوقاف لإيناس المرضى، وأوقاف للنساء النافرات من أزواجهن، وأوقاف للمعاقين، هذا فضلاً عن المساجد، والمدارس، والمكتبات، والربط، والمستشفيات، وكان المحسنون يبنون المستشفيات، ويوقفون عليها الأوقاف، وكذا المدارس، والجامعات وأنواع الخدمات الأخرى، كالسقاية، والطرق، والمساكن، وغيرها، مما يصعب حصره(2).

الأمة:

قلت: عرفت أهمية الفرد والمجتمع في النظام الإسلامي.. ولكن المجتمعات لابد لها من نظام سياسي يحميها.. وهذا ما لم يفلح الإسلام فيه مقارنة بغيره.

قالت: وكيف عرفت أنه لم يفلح؟

قلت: لقد حكم المسلمون دول كثيرة كان النزاع بينها شديدا.

قالت: نعم.. لقد وقعت أخطاء كثيرة في هذا الباب.. ولكنها لم تكن ناتجة عن الاستمداد من الشريعة الإسلامية.. بل كان

---

1) المرجع السابق ص137.

2) انظر ناجي معروف، أصالة الحضارة العربية ص310، 311.

مصدرها الأهواء والعصبيات..

ولكن مع ذلك.. فإن ما حصل من ذلك لا يساوي شيئا أمام ما يحصل في هذا العصر..

قلت: كيف ذلك؟

قـالت: إن اهتمامنـا المتزايـد بتفاصـيل التـاريخ السياسـي للمسلمين هو الذي جعلنا نحمل تلك النظرة القاسية.

قلت: لم أفهم ما الذي تريدين قوله.

قـالت: لـو جمعنـا حـالات الاضـطراب الـتي مـر بهـا الحكم السياسي في جميع التاريخ الإسلامي وقارنـاه بحـالات الاسـتقرار.. لوجدنا الاضـطراب حـالات نـادرة في أمـاكن محـدودة في عصـور محدودة..

ألا ترى أن الدولة الواحدة في عصرنا تمر في عقد واحــد من السنين بجميع أنواع الحكم.. وكل حكم يحاول أن يلغي من قبله؟

قلت: هذه حقيقة.. ونحن نعيشها.

قــالت: ولكن الــدول الإســلامية الكــبرى الــتي حكمت بلاد الإسلام حكمته لقرون طويلة.. ساد فيها الاستقرار فترات طويلة.

نعم.. ربما تكـون قـد وقعت بعض المظـالم.. ولكنهـا مظـالم محصورة جداً.

قلت: وحاجات المجتمع.

قـالت: لقـد ذكـرت لـك أن المجتمـع الإسـلامي حـاول أن يستغني بتكافله التام عن تغير السياسات والحكام.. وهذا ما ضمن للمجتمع استقرارا أعظم بكثير من استقرار السياسة.

***

ما وصلت (هيلين كارير دانكوس) من حديثها إلى هذا الموضع حتى سقطت دموع حارة من عينيها، فقلت لها: ما يبكيك؟

قالت: شيئان.

قلت: ما هما؟

قلت: أمــا أولهمــا.. فموقــف قومنــا الــذين تــاهوا بأنفســهم وبعقولهم وبمجالســهم الكثـيرة عن الفضـائل العظيمـة الـتي جـاء الإسلام بها.

فراحوا يفخرون عليـه.. وهم في ذلـك كـالمجرم الـذي يفخـر على القضاة.. وكالأمي الذي يفخر على العلماء.. وكالفاسـق الـذي يفخر على القديسين.

قلت: والثاني؟

قالت: على أولئك المسـلمين الـذين تصـوروا نظـام الإسـلام قاصــرا على كراســي الحكــام.. فراحــوا ينــازعونهم كراســيهم، ويشوهون أنفسهم ودينهم بذلك النزاع.

قلت: ولكن.. هل يرضى مسلم بأن يحكمه فاسق؟

قالت: التغيير ليس بذلك الأسلوب.. التغيير في الإسـلام يبـدأ بإقامة دولة الفرد الصالح.. فـإذا صـلح الفـرد صـلح المجتمـع.. وإذا صلح المجتمع لم يملك الحاكم إلا أن يصلح أو يستقيل.

قلت: إني أعجب لـك حضـرة المستشـرقة الفاضـلة.. كيـف تقفين من الإسلام كل هذه المواقف، ثم لا أراك تعلنين إسلامك!؟

نظرت إلى الأفق البعيد، ثم قالت: ذلـك حلم جميـل عسـاني أفيق بعض الأيام عليه.

قلت: لم أفهم ما تقصدين.

قالت: أتعرف رجاء جارودي؟

قلت: أجل.. وكيف لا أعرفه؟

قالت: لقد كان أستاذا لي.. لقد عرف كل الأنظمة التي حكمت البشرية في جميع مراحلها.. وكان يبحث عن نظام يجمع بين العدالة والرحمة، فلم يجده إلا في الإسلام.. فأسلم.

قلت: سألتك عنك لا عن رجاء.

قالت: أحيانا تجد لغيرك من الجرأة عن التعبير عنك أعظم مما تجده من نفسك.

قالت ذلك، ثم انصرفت..

انصرفت بعدها، ومعي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

ثامنا ـ علوم

في اليوم الثـامن من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة.. التقيت المستشـرقة الـتي قطفت على يـدها ثمـرة (العلـوم)من شـجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر كون أول آيـات القـرآن تبـدأ بقوله تعالى: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَـانَ مَـا لَمْ يَعْلَمْ (5) (العلق)

فهـذه الآيـات الكريمـة ــ الـتي هي أول مـا نـزل من القـرآن الكريم ـ لا تشير إلى أهمية العلم فقط.. وإنما تشير أكثر من ذلــك إلى ارتباط العلم بالله وبالدين وبالخلق..

وقد عرفت منها أن انفصال العلم من الدين.. وانفصاله ـ من ثم عن الخلق ـ سيكون وبالا عظيما على العالم.. وعلى البشرية.

وعرفت بهذه الثمرة سر ذلك التوبيخ والعقاب الذي ناله ذلـك الرجل الذي سلخ علمه من دينه.. قال تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَـهُ الشَّـيْطَانُ فَكَـانَ مِنَ الْغَـاوِينَ (175) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَـوَاهُ فَمَثَلُـهُ كَمَثَـلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِـلْ عَلَيْـهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْـهُ يَلْهَثْ ذَلِـكَ مَثَـلُ الْقَـوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (176) (القصص)

وعرفت بها سرا خطيرا من أسرار قارون.. فقارون لم يطغه ماله فقط.. وإنما جعله يطغى تلك العلوم التي تميز بها بين الناس، فراح يقول: إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي (القصص:78)

وعرفت بها سر النصوص المقدسـة الكثـيرة الـتي تحـذر من فصل العلم عن الدين وعن الخلق.. والتي امتلأ بها القرآن والسنة.

وعرفت بها سر إلحاح الأولياء والقديسين من المسلمين على ربط العلم بالخلق والدين..

وعرفت بها أسرارا كثيرة لا أطيق ذكرها لك الآن..

***

كانت المستشرقة المشهورة الـدكتورة زيغريـد هونكه(1) من الأسـماء الضـخمة الـتي وضـعت في الـدفتر الـذي سـلمني إيـاه المرشـد.. ولـذلك كنت أتحين الفـرص للقائهـا، والحـديث معهـا، لأعرف سر ذلك المروق الذي شرفها بتسجيلها في ذلك الدفتر.

كنت أعلم مـدى اهتمامهـا بـالعلوم الإسـلامية، والحضـارة الإسلامية التي أنتجت تلك العلوم.. ولكني لم أكن أعـرف المحـرك الذي حركها لذلك إلى أن التقيتها ذلك اليوم.

في ذلك الصباح الذي التقيتها فيه كنت مارا على جنـان تمتلئ بعناقيد العنب المباركـة، فبقيت أنظـر إلى تلـك المصـانع الصـغيرة الكثيرة التي تصنع ألذ العصائر وأشهاها وأكثرها إفادة للصحة.

بينمـا أنـا كـذلك إذ سـمعت أصـواتا ترفـع تكـاد تقـترب من الخصـومة.. فسـارعت إلى الـدخول من غـير اسـتئذان لأفـك الخصومة، أو أمنع حدوثها.

---

1) هي الدكتورة زيغريد هونكه Dr. Sigrid Hunke، وهي مستشرقة ألمانيـة معاصـرة، وهي زوجة الدكتور شولتزا، المستشرق الألماني المعروف الذي تعمـق في دراسـة آداب العرب والاطلاع على آثارهم ومـآثرهم. وقـد قضـت هونكـه مـع زوجهـا عـامين اثـنين في مراكش، كما قامت بعدد من الزيارات للبلدان العربية.

من آثارها: (أثر الأدب العـربي في الآداب الأوروبيـة) وهـو أطروحـة تقـدمت بهـا لنيـل الدكتوراه من جامعة برلين، و(الرجل والمرأة) وهو يتناول جانبًا من الحضارة الإسـلامية (1995)، و(شمس الله تسطع على الغرب) الذي ترجم بعنـوان: (شـمس العـرب تسـطع على الغرب)، وهو ثمرة سنين طويلة من البحث والدراسة.

وقد اخترناها للحوار معها في هذا الفصل لشـهاداتها الكثـيرة المعروفـة حـول الإسـلام والعلوم الإسلامية والحضارة الإسلامية.. ومنها قولها:(لقـد أوصـى محمـد كـل مـؤمن رجلاً كان أو امرأة بطلب العلم، وجعل من ذلك واجبًا دينيًا. وكان يـرى في تعمـق أتباعـه في دراسـة المخلوقات وعجائبها وسيلة التعرف على قـدرة الخـالق. وكـان يـرى أن المعرفـة تنـير طريـق الإيمان.. ويلفت أنظارهم إلى علوم كل الشعوب، فالعلم يخدم الدين والمعرفة من الله وترجـع إليه، لذلك فمن واجبهم أن يصلوا إليها وينالوها أيًا كان مصدرها ولـو نطـق بـالعلم كـافر. وعلى النقيض تمامًا يتسـاءل بـولس الرسـول مقـرًا: (ألم يصـف الـرب المعرفـة الدنيويـة بالغبـاوة)؟ مفهومان مختلفان، بل عالمان منفصلان تمامًا، حدّدا بهذا طريقين متناقضـين للعلم والفكـر في الشـرق والغـرب وبهـذا اتسـعت الهـوة بين الحضـارة العربيـة الشـامخة والمعرفـة السـطحية المعاصرة في أوروبا حيث لا قيمة لمعرفة الدنيا كلها.."(شـمس العـرب تسـطع على الغـرب، ص 369) (انظر: قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل)

في ذلـك الحين رأيت تلـك المستشـرقة الـتي طالمـا حلمت بالجلوس إليها..

لقد كانت هي صاحب الصوت المرتفـع، وكـانت تقـول بجـرأة عظيمة لصاحب البستان: إن هذه جريمة.. جريمة بحق الإنسـانية.. وجريمة بحق العنب..

قال لها الرجل: ولكن كل الناس يفعلون ذلك.

قالت: وهل تتبعهم في جرائمهم.. أو في جنونهم..!؟

قال لها الرجل: لست أدري لما تتحاملين علي بهذه الصورة؟

قالت: لأنـك تحـول من البركـة خبثـا.. ومن الـدواء داء.. ومن الترياق سـما.. فكيـف لا أتحامـل عليـك، وأنت تخـرب بنيـان اللـه، والطبيعة التي طبع الله عليها الأشياء!؟

قال لها الرجل: لا أرى إلا أن رحلتك لتلك البلاد.. وسـكنك بين أولئك المتخلفين قد أثر فيك، وفي عقلك.. فدعيني أفعل ما أشاء.. فالأرض أرضي.. وعنبها عنبي.. ولي الحرية المطلقة في أن أحوله داء أو دواء..

قال ذلك بغضب شديد، ثم انصرف إلى عماله..

أمـا أنـا، فـاقتربت منهـا، وسـألتها عن سـر اختلافهـا مـع هـذا الرجل، فقالت: هذا الرجل أخي.. وقد ورث هذا البستان من زوجة له.. وقد كان يبيع عنبه كـل سـنة طيبـا مباركـا، ليأكلـه النـاس كمـا خلقه الله.. ولكنه هذه السنة.. وبتأثير جماعـة من المجـرمين قـرر أن يبيعه لصانعي الخمور، ليحولوا منه سما زعافا.

قلت لها: إن كل الناس يفعلون ذلك.. ولا يرون بذلك بأسا.

قالت: وهذا هو الخطـر الأكـبر.. أن يجتمـع النـاس على عـدم إنكار المنكر.. بل على اعتبار المنكر معروفا..

قالت ذلك، ثم رمت ببصرها إلى الأفق البعيد، وسـالت دمعـة حـارة من عينهـا، ثم قـالت: مـتى يـأتي اليـوم الـذي تشـرق فيـه شمسـك يـا محمـد على هـذه البلاد.. وعلى هـؤلاء العبـاد.. ليعـود الإنسان إلى الإنسان.. وتعود الحياة إلى الحياة.

قلت: مع من تتحدثين؟

قـالت: أشـواقي هي الـتي تتحـدث.. لقـد من اللـه علي أن أعيش بين ثلة من المسـلمين اسـتظلوا بظلال محمـد.. وأشـرقت عليهم أشعة شمسه.. فعرفت الإنسان، وعرفت الحيـاة.. وعـرفت بعدنا عن الإنسان والحياة.

قلت: كيف تقولين هذا!؟.. ونحن أمة العلوم التي فجـرت من أنهار العلوم وبحارها ما كان كامنا مختفيا، لا تراه الأبصار، ولا تسمع به الآذان.

قالت: ونحن من الأمة التي غـرقت في تلـك الأنهـار والبحـار، فلم تجد منقذا.

قلت: ما تقصدين؟

قالت: إن العلوم وتطبيقات العلوم الـتي فتحنـا أبوابهـا كلهـا.. وأكلنا من شجرها جميعا تشبه تلك الجنة التي دخل إليهـا آدم.. مـع فـارق بسـيط هـو أن آدم أقـدم مـرة واحـدة على الأكـل من تلـك الشجرة التي نهي عن الأكل منها.. ولكنا لم نأكل مرة واحدة.. بـل رحنا نمزج من ثمار تلك الشجرة جميع ثمارنا، ونخلط سمها بجميع طعامنا.

قلت: ولكن آدم خــرج من الجنــة بأكلــه من تلــك الشــجرة.. ونحن دخلنا إليها بأكلنا منها.

قــالت: نحن لم نخــرج من الجنــة فقــط.. بــل خرجنــا من الإنسانية.. ونحن نغبط آدم، فقد خرج ـ على الأقل ـ بإنسانيته..

قلت: أنت متشائمة كثيرا!؟

قالت: عندما تكون في الظلام لا تبصر غير الظلام..

قلت: أليس هناك بصيص من النور يمكن أن يخترق حجب الظلام ليعيد نهار البشرية!؟

قالت: أجل.. ذلك كائن لا محالة.. وقد نعمت به البشرية فترة طويلة.. وسيعود.. سيعود.. لي أمل كبير في ذلك.

قلت: أفصحي.. فإني لا أطيق فك ألغازك.

قالت: أعرفك بنفسي أولا.. أنا زيغريد هونكه.. لست أدري هل سمعت بهذا الاسم أم لا..

قلت: بلى.. لقد سمعت به.. وأنا من بلدك.. من ألمانيا.. وقد سمعت بكتابك عن إشراقة شمس الإسلام على الغرب.. وقد تعجبت من كتابتك له.

قالت: لقد بثث فيه بعض ما علي من دين نحو تلك الأمة العظيمة التي غرس شجرتها محمد.

قلت: ما الذي جعلك تميلين كل هذا الميل لمحمد، ولدين محمد؟

قالت: لأنه حافظ على الإنسان، فلم يحوله إلى حيوان.. وحافظ على العنب، فلم يحوله إلى خمر.. وحافظ على الأنهار، فلم يحولها إلى مستنقعات..

قلت: ليس محمدا وحده هو الذي فعل هذا.. حتى أولئك البدائيين البسطاء الذين لم تنفتح لهم فتوح العلم فعلوا هذا.

قالت: فرق عظيم بين ما فعله محمد وثمار محمد، وبين ما فعله أولئك البسطاء.

قلت: ما الفرق بينهما؟

قالت: أولئك البسطاء لم تنفتح لهم العلوم.. ولم يغيروها.. ولكن الثمار التي رباها محمد على عينه فتحت لها خزائن العلوم لكن تربية محمد جعلتهم يتأدبون.. فلا يتناولون منها ما يحرف الإنسان، وما يحرف الأكوان.

لقد سمعوا ربهم يقول لهم: لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ (الروم: 30)، فراحوا يحافظون على أصالة الإنسان وأصالة الأكوان.

وسمعوا ربهم يربط بين العلم والإيمان، فيقول لهم: إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إ (فاطر:28)، فراحوا يمزجون بين العلم والخشية.

وسمعوا ربهم يحدثهم عن الطواغيت الذين حرفوا العلم.. وانحرفوا بالعلم.. وبطروا بالعلم.. فراحوا يفرون من سلوكهم.. ويربطون علمهم بربهم، وبإيمانهم، وبمصالح البشرية التي كلفوا برعايتها.

أما قومنا.. فلا ينطبق عليهم إلا ما ورد في القرآن من خبر ذلك الذي سلخ علمه عن إيمانه.. وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنْ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:175-176)

إن هذا المثال يكاد ينطبق تماما على الكثير من اكتشافات هذا العصر.. حيث تلهث البشرية كل حين وفي كل مجال، وتستغل العلم لتغذي ذلك اللهث الذي لا ينقطع.

قلت: إن في كلامك هذا دعاوى كثيرة تحتاج إلى برهان.. فلا يمكن لعقلي أن يقبل الدعوى من غير برهانها.

قالت: اجلس.. وسـأحدثك عن الحقـائق الـتي اكتشـفتها بعـد بحث طويل في الأديان والمذاهب والأفكار بحثا عن شجرة العلـوم التي سقيت بمياه الإيمان، وأشرقت عليهـا شـمس العرفـان.. فلم أجدها إلا في دين محمد.

علوم الجاهلية

قلت: فهل سنبدأ بالحديث عن الجاهلية!؟

قـالت: لا تعـرف قيمـة الفضـائل إلا إذا قارنتهـا بالرذائـل.. ولا يعرف شرف الحقائق إلا إذا قارنتها بالأباطيل.

قلت: فبأي جاهلية تحبذين أن نبدأ حديثنا؟

المسيحية:

قالت: بالمسيحية.. بالدين الذي تنتسب إليه هـذه الحضـارة.. أو بالدين الذي تخلصت منه هذه الحضارة.

قلت: لا علاقة للمسيحية بالعلوم.. فالمسـيحية دين الملكـوت لا دين الملك.. وهي تبحث في حقائق الأزل، لا في أباطيل الفناء.

قالت: لقـد أتيحت للمسـيحية، ولرجـال الـدين، وللكنيسـة أن تكون لها في فترة طويلة علاقة بالعلم.. فتعال بنا نرى مـاذا فعلت في تلك الفرصة العظيمة التي أتيحت لها(1)؟

نظرت إلى عناقيـد العنب المتدليـة، وقـالت: بمثـل التحريـف الذي يريـد أخي أن يحـرف بـه هـذه العصـارات المباركـة، حـرفت الكنيسة الحقائق.. فتبنت الجهل الذي اعتبرته علما، وقاومت العلم الذي اعتبرته جهلا.. فأخطأت خطأين لا نزال نصلى نارهما: نصرت الجهل، وحولت العلم عن وجهة الدين، لينفصل عن الدين.

قلت: فحدثني عن الخطأ الأول.

1) انظر المراجع التي تتحدث عن العلمانية التي سبق ذكرها.

قالت: كما تسربت الوثنيات إلى عقائد المسيحية، وتسربت طقوس الوثنية إلى شعائرها، تسربت الخرافات إلى علومها.. ولم تكتف بقبولها، بل راحت تحتكرها، وتعتبرها عقائد لازمة يحرم من جحدها.

يقول برنتن: (إن أكثر أصحاب الوظائف العلمية حتى في أوج العصور الوسطى كانوا ينتمون إلى نوع من أنواع المنظمات الدينية، وكانوا جزءاً من الكنيسة، حيث أن الكنيسة بدرجة لا نكاد نفهمها اليوم تتدخل في كل لون من ألوان النشاط البشري وتوجهها وبخاصة النشاط العقلي)

ويقول: (وإذن فقد كان الرجال الذين يتلقون تعليمهم في الكنيسة يكادون يحتكرون الحياة العقلية، فكانت الكنيسة منصة المحاضرة والصحافة والنشر والمكتبة والمدرسة والكلية، وكان أصحاب الميول الفلسفية في الدول الرومية سواء من رجال الكنيسة أو من المسيحيين العاديين، متأثرين بتراثهم من الفكر الإغريقي في ميادين العلم والفلسفة، لا سيما آراء أرسطو وبطليموس، وقد بذلوا جهودهم في التوفيق بين معتقداتهم الدينية وآرائهم الفلسفية.ونشأ عن ذلك فلسفة مركبة تسمى (الفلسفة المسيحية)، وهي خليط من نظريات الإغريق وظواهر التوراة والأناجيل وأقوال القديسين القدامى، ولما كان العلم والفلسفة في ذلك العصر شيئاً واحداً، فقد أدمج الفلاسفة المسيحيون في صرح فلسفتهم كل ما وصل إليه العلم البشري في عصرهم من النظريات الكونية والجغرافية والتاريخية، ورأت الكنيسة في هذه الفلسفة التوفيقية خير معين على الدفاع عن تعليمها ضد المارقين والناقدين، فتبنتها رسمياً وأقرتها مجامعها المقدسة حتى أضحت جزءاً من العقيدة المسيحية ذاتها وامتدت يد التحريف فأدخلت بعض هذه المعلومات في صلب الكتب الدينية المقدسة)[1]

---

1) انظر استمداد المسيحية من الفلسفة من كتاب المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص 101 فما بعد.

لقد تبنت الكنيسة آراء أرسطو في الفلسفة والطب ونظريــة العناصر الأربعة ونظريــة بطليمــوس في أن الأرض مركــز الكــون.. وما أضاف إلى ذلك كله القديس أوغسـطين وكليمـان الإسـكندري وتوما الاكويني.. واعتبرت هذا المزيج من الآراء البشرية أصـولاً من أصول الدين المسـيحي وعقائـد مقدسـة لا يصـح أن يتطـرق إليهـا الشك.

وقـد كـانت هـذه العلـوم المسـيحية تشـتمل على معلومـات تفصيلية عن الكون.. تذكر بـأن اللـه خلـق العـالم ابتـداء من سـنة 4004 ق.م، وتوج ذلـك بخلـق الإنسـان في جنـة عـدن.. والعجيب أنها ظلت مصرة على هذا الرأي حتى مطلع القرن التاسـع عشـر، فقد طبع كتاب الأسـقف (آشـر) الـذي يحمـل هـذه النظريـة سـنة 1779 م [1].

أما تاريخ الطوفـان فتختلـف فيـه تقـاويم التـوراة، لكنـه على أقصى آرائها وقع بعد خلق آدم بـ (2262)سنة[2]، ومعنى ذلك أنــه كان سنة 1742 ق.م.

ومن الطريف أن مجلساً كنسياً كان قد أعلن في بداية القرن العاشر للميلاد أن القرن الأخير من حياة العالم قد استهل، لأن الله قد جعل المدة بين إنزال ابنه ونهاية العلم ألف سنة فقط[3].

هذه بعض معلوماتها التاريخية..

أمـا معلوماتهـا الطبيـة، فقـد كـانت أفضـل وأنجح الوسـائل العلاجية في نظرها إقامة الطقـوس لطـرد الشـياطين الـتي تجلب المرض، ورسم إشـارة لصـليب ووضـع صـور العـذراء والقديسـين تحت رأس المريض ليشفي.

---

1) انظر معالم تاريخ الإنسانية: ج1 ص16.

2) انظر: إظهار الحق:218.

3) انظر قصة الحضارة:14/ 379.

قلت: عرفت الخطأ الأول.. فما الخطأ الثاني؟

قالت: لقد أتيح لقومنا أن يروا بعض ثمار العلوم التي أنتجتها الشجرة التي غرسها محمد.. وذلك بفضل مراكز الحضارة الإسلامية في الأندلس وصقلية وجنوب إيطالية التي كانت بتشع نور العلم والمعرفة على القارة المستغرقة في دياجير الخرافة والجهل، فاستيقظ العقل الأوروبي من سباته وأخذ يقتبس عن المسلمين طرائق البحث ومناهج التفكير التي تجعله يكد ويعمل في مجال اختصاصه.

وفي ذلك الحين وقع الخطأ الثاني الذي لا نزال نعاني آثاره..

لقد ثارت ثائرة رجال الكنيسة على الذين يتلقون علوم الكفار.. والذين لم يكونوا في نظرهم غير المسلمين..

فلذلك أعلنت حالة الطوارئ ضدهم، وشكلت محاكم التفتيش في كل مكان تتصيدهم وتذيقهم صنوف النكال.. وأصدرت منشورات بابوية جديدة تؤكد العقائد السابقة وتلعن وتحرم مخالفيها.. وبذلك قامت المعركة بين الكنيسة والعلم، وأخذت تزداد سعاراً بمرور الأيام.

لقد كان من أول النظريات العلمية التي صادمت الكنيسة نظرية كوبرنيق (1543) الفلكية، فقبل هذه النظرية كانت الكنيسة المصدر الوحيد للمعرفة، وكانت فلسفتها تعتنق نظرية بطليموس التي تجعل الأرض مركز الكون، وتقول أن الأجرام السماوية كافة تدور حولها.

فلما ظهر كوبرنيق بنظريته القائلة بعكس ذلك كان جديراً بأن يقع في قبضة محكمة التفتيش، ولم ينج من ذلك لأنه كان قسيساً، بل لأن المنية أدركته بعد طبع كتابه بقليل، فلم تعط المحكمة فرصة لعقوبته، إلا أن الكنيسة حرمت كتابه (حركات الأجرام السماوية)، ومنعت تداوله وذكرت أن ما فيه هو وساوس

شيطانية مغايرة لروح الإنجيل.

وقد ظن رجال الكنيسة أن أمر هذه النظرية قد انتهى، ولكن رجلاً آخـر هـو (جردانـو برونـو) بعث النظريـة بعـد وفـاة صـاحبها، فقبضـت عليـه محكمـة التفـتيش، وزجت بـه في السـجن سـت سنوات، فلما أصر على رأيـه أحرقتـه سـنة 1600م وذرت رمـاده في الهواء وجعلته عبرة لمن اعتبر.

وبعد موته ببضع سـنوات كـان (جـاليلو) قـد توصـل إلى صـنع المرقب (التلسكوب)، فأيد تجريبياً ما نادى به أسلافه نظرياً، فكـان ذلك مبرراً للقبض عليه ومحاكمته، وقضى عليه سبعة من الكرادلة بالسجن مدة من الزمان، وأمر بتلاوة مزامـير النـدم السـبعة مـرة كل أسبوع طوال ثلاث سنوات (1)..

ولمـا خشـي على حياتـه أن تنتهي بـالطريق الـتي انتهى بهـا برونو أعلن ارتداده عن رأيـه، وهـو راكـع على قدميـه أمـام رئيس المحكمة قائلاً: (أنا جاليلو.. وقد بلغت السبعين من عمري.. سجين راكع أمام فخامتك، والكتاب المقدس أمامي ألمسـه بيـدي، أرفض وألعن وأحتقر القول الإلحادي الخاطئ بدوران الأرض)

ولم يكتف بهذا التعهد.. بل أضاف إليه التعهد بتبليـغ المحكمـة عن كل ملحد يوسوس له الشيطان بتأييد هذا الزعم المضلل(2).

قلت: فما الذي جعل الكنيسة تصر على تلك الآراء كـل ذلـك الإصرار، مع أن ذلك لم يذكر في الكتاب المقدس؟

قالت: وهل تتبنى الكنيسة شيئا مما في الكتاب المقدس!؟.. لقد رأت الكنيسة أن الأرض يجب أن تكون مركز الكون الثابت لأن الأقنوم الثاني.. الذي هو المسيح.. تجسد فيها، وعليهـا تمت عمليـة

1) معالم تاريخ الإنسانية:1/1008.

2) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /205 وانظر كذلك تكوين العقـل الحديث 3/348.

الخلاص والفداء، وفوقها يتناول العشاء الرباني.

وأضافوا إلى هذا ما فهموه من قـول التـوراة: (الأرض قائمـة إلى الأبد، والشمس تشرق والشمس تغرب وتسـرع إلى موضـعها حيث تشرق) (انظر: سفر الجامعة:1/ 5-6)

أما كروية الأرض وسكنى جانبها الآخر، فنفتها الكنيسـة بحجـة أن (من خطل الرأي أن يعتقد الإنسان بوجود أنـاس تعلـو مـواطئ أقدامهم على رؤوسهم وبوجـود نباتـات وأشـجار تنمـو ضـاربة إلى أسفل، وقالت إنه لو صح هذا الزعم لوجب أن يمضي المسيح إلى سـكان الوجـه الآخـر من الأرض ويمـوت مصـلوباً هنـاك من أجـل خلاصهم)[1]

قلت: فهــل أفلحت الكنيســة في نصــرة آرائهــا ومقاومــة الهراطقة؟

قـالت: على العكس تمامـا.. فلم يكـد القـرن السـابع عشـر يستهل حتى كان لنظرية كوبرنيق وما أضـاف إليهـا برونـو وجـاليلو آثار واسعة، ظلت راسخة في الفلسفة الأوروبية عامة.

وذلـك مـا أحـدث أثـرا خطـيرا في ثقـة الجمـاهير بالكنيسـة جعلتهم يشكون في سلامة معلوماتها، وهو أثر له أهميته القصوى.

لقد قدم ذلك الصراع إيحاءات فلسـفية جديـدة، هـزت فكـرة الثبات المطلق التي كانت مسيطرة على العقليـة الأوربيـة وحطت كذلك من قيمة الإنسان ومكانته في الوجود.

والأخطر من ذلك كلـه هـو مـا حصـل من ثـورة العلمـاء على الكنيسة كما ثار العامة عليها.. وتولد من تلك الثورة جاهلية جديـدة فصلت العلم عن المبادئ والمثل.

---

1) قصة النزاع بين الدين والفلسفة: توفيق الطويل /205 وانظر كذلك تكوين العقـل الحديث 3/348.

قلت: فهل سكتت الكنيسة؟

قـالت: لا.. الكنيسـة لم تسـكت.. ولم تبحث عن أي محاولـة توفيق تحفظ للعلم حرمته، وتحفظ للدين قداسته.

قلت: فماذا فعلت؟

قــالت: ســلاح الإرهــاب الــتي تــدربت على اســتعماله في الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش..

لقـد كـان القـرن السـابع عشـر هـو القـرن الـذهبي لمحـاكم التفتيش.. فقد قاسى العلماء أنواع الاضطهاد، واستخدمت ضــدهم أساليب القمع الوحشـية وظهـرت الفهـارس أو (القـوائم البابويـة) التي تحتوى على أسماء الكتب المحرمـة، وكـان وجـود شـيء من هذه الكتب في حوزة إنسان ذريعة لسـوقه إلى محكمـة التفـتيش وتعريضه لأليم عقابها.

لقد قاومت الكنيسـة كـل محاولـة للتجديـد وإن كـانت نافعـة خيرة، فقد كفرت رئيس بلدية في ألمانيا لأنه اخترع غاز الاستصباح بحجة أن الله خلق الليل ليلاً والنهار نهاراً، وهو بمخترعه يريد تغيـير مشيئة الخالق فيجعل الليل نهاراً.

واضـطرب حبـل الكنيسـة بظهـور الـروح الجديـدة اضـطراباً واضحاً وألقت بكل ثقلهـا في معركـة كـانت في غـنى عن دخولهـا أمام الناس، لا سيما المثقفون الذين انتهـزوا الفرصـة وخيـل إليهم أن الأقــدار قــد لاقت أيهم مفتاحــاً ســحرياً يخلصــهم من ســجن الكنيسة وأغلالها ذلك هو مفتاح (العلم والتجربة)

قلت: فهل سكت الناس؟

نظرت إلى عناقيد العنب نظرة ألم، ثم قالت: لقد بــدأ العنب في ذلك الحين ــ بحكم تصـرفات الكنيسـة الحمقـاء ــ يتحـول إلى خمر..

لكن مع ذلك.. بدأت خطايا الكنيسة والمسيحية التي كانت تغطى بستار القداسة تفتضح.. وأصبحت للناس ــ وللعلماء على الأقل ـ الجرأة الكافية ليقولوا للكنيسة: لا.

وكان (سبينوزا) ذلك اليهودي المتحرر من هؤلاء.. بل لعله أعنفهم.. فقد طبق المنهج العقلي على الكتاب المقدس نفسه، ووضع الأسس التي قامت عليها (مدرسة النقد التاريخي) التي ترى أنه يجب أن تدرس الكتب الدينية على النمط نفسه الذي تدرس به الأسانيد التاريخية.. أى على أساس أنها تراث بشري، وليست وحياً إلهيا.

وقد استنتج سبينوزا ــ انطلاقا من تطبيق هذا المنهج ــ أن أسفار التوراة لم يكتبها موسى، مستدلاً بما جاء في سفر التثنية من ذكر موت موسى ورثائه، وقول كاتب السفر: (لم يأت نبي مثله من بعده)(1)

واستطاع أن يثبت أن التوراة قد عينت أماكن بأسماء لم (توضع لها إلا بعد موسى بقرون عديدة)(2)

وفي إنجلترا طور جيبون النقد التاريخي للمسيحية في كتابه (سقوط الإمبراطورية الرومانية واضمحلالها).. أما هليوم فقد ابتدع مذهب الشك المطلق الذي كان ثورة نفسية على الإيمان المطلق طوال القرون الماضية.

كما استطاع (باسكال) أن يوجه نقده إلى عقيدة الخطيئة قائلاً: (لا شيء يزحم العقل الإنساني بالألم كعقيدة الخطيئة الأصلية، وأنه ليبدو أبعد ما يكون عن العقل أن يعاقب إنسان من أجل خطيئة اقترفها أحد أسلافه منذ أربعة آلاف سنة)

أما (جون لوك)، فقد خطا خطوة أبعد من ديكارت بأن طالب

1) انظر: رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

2) انظر: رسالة في اللاهوت والسياسة لسبينوزا، ترجمة: حسن حنفي.

بإخضـاع الـوحي للعقـل عنـد التعـارض قـائلاً: (من اسـتبعد العقـل ليفسح للوحي مجالاً، فقد أطفأ نـور كليهمـا وكـان مثلـه كمثـل من يقنع إنساناً بـأن يفقـأ عينيـه ويسـتعيض عنهمـا بنـور خـافت يتلقـاه بواسطة المرقب من نجم سحيق)

كما دعا إلى تطبيق مبدأ جديد على الحياة الأوربية آنذاك، وهو مبدأ التسامح الديني وإعطاء الحق لكـل إنسـان في أن يعتنـق مـا يشاء ويكفر بما يشاء من الأديان والمذاهب.

قلت: فكيف سكتت الكنيسة على هؤلاء؟

قالت: لقد ظل صوتهم خافتـاً أمـام بطش محـاكم التفـتيش، وضغط المجتمع الذي كان يدين بالمسيحية ويراها جزءاً من كيانه.. ولذلك لم يحرقوا.. ولكن تراثهم مع ذلك تعرض للحرق والمصادرة كما تعرضوا شخصياً للإيذاء والمضايقة من قبـل الكنيسـة.. إلى أن تفجـر البركـان العلمي في كـل مكـان والخلافـات الداخليـة بين الطوائـف المسـيحية شـغلتها عن إعطـائهم مـا يسـتحقون من الاهتمام.

كمـا أن النظريـات الجديـدة عن الكـون في هـذا القـرن قـد غمـرت الأفكـار الفلسـفية، واسـتأثرت بالاهتمـام البـالغ من قبـل الأوساط الدينية والعلمية على السواء.

قلت: فهل توقف النقد عند ذلك الحد المؤدب؟

قالت: بل تجاوز النقـد حـد الأدب ليفسـح الأمـر لإلـه العقـل الذي خلف إله الكنيسة..

لقد ظهر فولتير الذي كان أعدي أعداء الكنيسـة آنـذاك.. لقـد نقد الكنيسة نقدا لاذعا..

وكان أول ما انتقده العقيـدة المسـيحية في التثليث وتجسـيم الاله والصـور المقدسـة وأنحى باللائمـة على بـولس الـذي طمس

المسيحية وحرفها، ولذلك كـان الإيمـان بالمسـيحية في نظـره هـو (الاعتقاد بأشياء مستحيلة أو بأشـياء تستعصـي على الفهم فالحيـة تتكلم والحمار يتحدث وحوائط أريحا تتساقط بعـد سـماعها صـوت الأبواق، إن الإيمـان على هـذا النحـو هـو على مـا يقـول أرازم هـو الجنون)

أما الخطيئة الأولى فيرفضها فولتير، ويعتبرها إهانة لله واتهاماً له بالبربرية والتناقض، وذلك للتجرؤ على القول بأنه خلـق الأجيـال البشرية وعذبها لأن أباهم الأول قد أكل فاكهة من حديقته[1].

وقد انتقد فولتير الطقـوس السـبعة نقـدا مريـرا، وسـخر من الكتــاب المقــدس ســخرية لاذعــة تتجلى في قولــه تعليقــا علي معلومات التوراة الجغرافية: (من الواضح أن الله لم يكن قويـا في الجغرافيا).. وقوله عن صـيام المسـيحية (دواء للفقـراء لا يتعاطـاه الأغنياء)، ويـري (أن الطقـوس والشـعائر والعبـادات و الاحتفـالات الدينيـة جـرائم محليـة يعـاقب عليهـا كـل من يزاولهـا لأنهـا ضـارة بالمجتمع خاصة إذا تمت في صورة أضاح وقرابين)

أما آراؤه السياسية، فقـد عـبر عنهـا بقولـه: (إن التوحيـد بين الدين والدولة لهو أبشع نظام لذلك يجب إلغاؤه وإقامة نظـام آخـر يخضع فيه رجال الدين لنظم الدولة ويخضع فيها الراهب للقاضي)

وقال: (إنه لا يمكن طاعة البشـر باسـم طاعـة اللـه لابـد من طاعة البشر باسم قوانين الدولة)[2]

---

1) سلسلة تراث الإنسانية ج 8 ص 78، 80.

2) وقد كان فولتير صرح ببعض التصريحات ضد الإسـلام قبـل أن يعرفـه، ولكنـه بعـد معرفته أعلن توبته عن مواقفـه من الإسـلام، ومن محمـد ﷺ ولكن الأضـواء لا تسـلط إلا على أقواله الأولى، أما أقواله الأخيرة فقد طُمست، فهو يعترف بأنه كـان ضـحية الأفكـار السائدة الخاطئة:(قد هدم محمد الضلال السائد في العالم لبلوغ الحقيقة، ولكن يبدو أنه يوجد دائماً من يعملون على استبقاء الباطل وحماية الخطأ)

ثم يقول في قاموسه الفلسفي:(أيها الأساقفة والرهبان والقسيسون إذا فُرض عليكم قانون يحرم عليكم الطعام والشراب طـوال النهـار في شـهر الصـيام.. إذا فـرض عليكم الحج في صحراء محرقة.. إذا فُرض عليكم إعطـاء 2,5 بالمائـة من مـالكم للفقـراء.. إذا

قلت: فهل سكتت الكنيسة؟

قالت: لا.. لقد جـزعت الكنيسـة من هـذه الانتقـادات والآراء جزعـا شـديدا ولعنت فولتـير وأشـياعه وكفـرتهم وحـرمت قـراءة كتبهم.. وتعـرض فولتـير للمضـايقة والاضـطهاد من قبـل رجـال اللاهوت، حتى أنه قال مخاطبا إنسان ذلك العصر: (أنت طـائر في قفص محاكم التفتيش.. لقد قصت محاكم التفتيش جناحيك)(1)

العقلانية:

قلت: عرفت هذا ووعيته.. فما الجاهلية الثانية؟

قالت: لقد أسسـت الجاهليـة الأولى للجاهليـة الثانيـة.. وهي جاهلية لبست لباس العقل(2) كرد فعـل ضـد موقـف الكنيسـة من العلم.. وهي جاهلية تدعو للكفر بالكنيسة وبكل دين..

قلت: هذا موقف طبيعي.. وقد كان رد فعل.

قـالت: ولكنـه رد فعـل خـاطئ.. فالـدين ليس محصـورا في الكنيسـة.. لقـد كـان في إمكـان العقلاء أن ينظـروا في الأديـان ويدرسوها دراسة موضوعية ليبحثوا عن الحقيقة، ويسلموا لها.

قلت: ألم يفعلوا؟

قالت: لو فعلوا لما وقعنا فيما وقعنا فيه.

حُرِّم عليكم شرب الخمور ولعب الميسر.. إذا كنتم تتمتعون بزوجات تبلـغ ثمـاني عشـرة زوجة أحياناً، فجاء من يحذف أربع عشرة من هذا العدد، هل يمكنكم الإدعاء مخلصين بأن هذه الشريعة شريعة لذّات؟!)

ويقول:(لقد قـام الرسـول بـأعظم دور يمكن لإنسـان أن يقـوم بـه على الأرض.. إن أقل ما يقال عن محمد أنـه قـد جـاء بكتـاب وجاهـد، والإسـلام لم يتغـير قـط، أمـا أنتم ورجال دينكم فقد غيرتم دينكم عشرين مرة)

1) مقتطفات من سلسة قراءات إنسانية ج 8 ص 80 – 87.

2) نقصد بالعقلانية هنا كل المناهج العلمية التي تسـتبعد الـوحي، لا المنهج الفلسـفي المعروف الذي اشتهر به ديكارت وغيره.

قلت: فماذا فعلوا؟

قالت: لقد استبدلوا إله الكنيسة بإله العقل.. لقد صار العقــل هو الإله الجديد لذلك العصر.. وصـار المخـبر هـو الكنيسـة.. وصـار البشر هم القرابين التي تقدم لمحرقة كنيسة العلم.

قلت: أفصحي عن مرادك.. فلا طاقة لي بفهم ألغازك.

قالت: لقد وصف برنتن ذلك العصر الذي ابتدأت فيـه عبوديـة العقل المصارع لإله الكنيسة، فقال: (كان العقل للرجل العادي في عصر التنوير هو كلمة السر الكبرى لعالمه الجديد، العقل هو الــذي يسـوق النـاس إلى فهم الطبيعـة.. وهـذه هي كلمـة السـر الثانيـة الكبرى.. وبفهمه للطبيعة يصوغ سـلوكه طبقـاً لهـا، وبـذلك يتجنب المحاولات العابثة التي قام بها في ظل لأفكار المسيحية التقليديــة الخاطئة، وما يخالفها في الأخلاق والسياسة ممالا يناقض الطبيعـة) (1)

وقد بين أن السبب في هذا يعود إلى المسيحية الـتي طبعتهـا الكنيسـة بطابعهـا الخـاص، قـال: (إن المسـيحية التقليديـة لم تعـد قـادرة على أن تمـد المسـتنيرين بنظريـة كونيـة فقـد بـدأ النـاس يعرفون ما يكفي من الجيولوجيا لكي يبين أن تاريخ الخليقـة الــذي حدده الأسقف (آشر) بعام 4004 ق م وتاريخ قصة الطوفان بعيدا الاحتمال.. ولكن مبدأ التثليث في المسيحية مثلاً: إن الرياضة كانت ضد هذا المبدأ فإن أي نظام رياضـي محـترم لا يسـمح بـأن يكـون الثلاثة ثلاثة وواحداً في آن واحد، أما عن المعجزات فلماذا توقفت؟ إذا أمكن إحياء الميت في القـرن الأول، فلمـاذا لا يحيـا في القـرن الثامن عشر)(2)

لقـد تخلص الإنسـان في هـذا العصـر من القيـود الـتي كـانت

1)أفكار ورجال: 474، 476.

2)أفكار ورجال: 476.

تربطه بالكنيسة، فراح يتمرد عليها في كل شيء..

لقد انطلق العقل من أغلاله في ذلك العصر، ولم يعـد مقيـداً بأغلال الثنائية الديكارتية، بـل بـدأ يبحث عن ذاتـه، ويسـلك طريقـه لكي يتصرف كما لو كان (إلها) بالفعـل، وتعـالت أصـوات البـاحثين والفلاسفة منادية بأن العقل هو الحكم الوحيد والعقل هو كل شيء وما عداه فوهم وخرافـة، ابتـداء بـالوحي وانتهـاء بالفـداء والصـلب والرهبانية.. فكلها أباطيل مضللة وعقائد مرذولة لأنها لا تتسـق مـع العقل.

قلت: ولكن العقل.. والمنطق العقلي.. يقتضي وجـود اللـه.. بل وجود كمالات الله.

قالت: إن رد فعل العقلانيين على الكنيسة جعلهم ينفرون من الإله نفورا كليا.

قلت: فبم استبدلوه؟

قالت: بالطبيعة.. لقد حلت الطبيعة محـل الإلـه.. كمـا يقـول (سول): (صار لزاماً على الذين نبذوا الإيمان باللـه كليـة أن يبحثـوا عن بديل لذلك ووجدوه في الطبيعة)(1)

وكتب الفكر الغربي تسمي ذلك العصر عصر (تأليه الطبيعة)، أو عبادة الطبيعة، وليست هذه العبارات مجازاً، بـل هي مسـتعملة على الحقيقـة تمامـاً، فكـل صـفات اللـه الـتي عرفهـا النـاس عن المسيحية نقلها فلاسفة الطبيعة إلى إلههم الجديد، مع فـارق كبـير بين الإلهين في نظرهم.

فإله الكنيسة حقود يعـذب السـلالة البشـرية ويقتـل ابنـه لأن الإنسان الأول أكل فاكهة من حديقته.. وهو إله متعنت يضع القيـود الاعتباطية على حرية الإنسـان ويقيـده بالالتزامـات ويفـرض عليـه

---

1) جورج سول: المذاهب الاقتصادية الكبرى:51.

الرهبانية والخضوع المذل لممثليه على الأرض.

أمـا الطبيعـة فإلـه جـذاب رحب الصـدر ليس لـه كـنيس ولا التزامات ولا يسـتدعي طقوسـاً ولا صـلوات، وكـل مـا يطـالب بـه الإنسان أن يكون إنساناً طبيعياً يلبي مطالبـه الطبيعيـة في وضـوح وصراحة.

وميزة الإله الجديد أنه ليس لـه رجـال دين ــ كمـا للكنيسـة ـ يستعبدون الناس لأنفسهم.. ولا كتاب مقدس متناقض.. ولا أسـرار علياً مقدسة.. بل له دعاة من أمثال روسو وفولتـير وديـدرو.. ولـه كتب علميــة هي (دائــرة المعــارف) و(العقــد الاجتمــاعي) و(روح القوانين)

والقانون الطبيعي يجعل الكون مترابطاً متناسقاً لا اضـطراب فيه ولا خلل، وبالمقابـل جعلت الطبيعـة للإنسـان قانونـاً يكفـل لـه السعادة التامة ولكن النظم الإنسانية والأديان طمست هذا القانون فشقي الإنسان وتعذب.

تلك هي المبادئ الأولى للمذهب الطبيعي الذي تبلـور ليصـبح ديناً إنسانياً عنـد (كـومت) في القـرن التاسـع عشـر، وعنـه انبثقت الماديات المتعددة التي تفسر الكون تفسيراً آليـاً حسـب القـوانين التي سميت (قوانين الطبيعة)

قلت: فكيف بدأ ذلك؟

قالت: لم يبدأ ذلك دفعة واحدة بطبيعة الحال.. لقد انفصـلت الفلسفة عن الدين بادئ ذى بدء ونبذت البحث فيمـا وراء الطبيعـة كما كـانوا يطلقـون على أمـور الغيب المتعلقـة باللـه وخلقـه لهـذا الكون، والغاية من هـذا الخلـق، والـوحى الربـانى المتضـمن للقيم الدينية التى ينبغى أن يتبعها الإنسان من أجل الخلاص فى الآخرة.

واتجهت الفلســفة إلى دراســة الطبيعــة والكــون المــادى،

والإنسان باعتباره كائنا موجودا فى الطبيعة، لا بوصفه كائنا قد خلقه الله لغاية معينة وهدف يؤديه.

وكان التقدم العلمى الذى حدث منذ بدء النهضة أحد العوامل الهامة التى ساعدت على اتجاه الفكر الأوربى ذلك الاتجاه من خلال المذهب العقلى والتجريبى.

وقد بدأ ديكارت ــ أولا ــ بتطبيق المنهج العقلي في الفكر والحياة، واستثنى من ذلك الدين والعقائد الكنسية والنصوص المقدسة، وكان يرى أن ميدان العلم الطبيعة، وموضوعه استغلال القوى الطبيعية وأدواته الرياضة والتجربة، ويختص الدين بمصائر النفس في العالم الآخر، ويعتمد على الاعتقاد والتسليم، فلا مضايقة بين العلم والدين، ولا سلطان لاحدهما على الآخر (1).

ومع ذلك فقد وجد فلاسفة آخرون معاصرون لهؤلاء لم ترق لهم هذه الفلسفة، بل أغرتهم تفاهة آراء الكنيسة وحقدهم عليها أن يهاجموا التعاليم الدينية هجوماً مباشراً.

ثم كان نيوتن ونظرياته خطوة دافعة على الطريق..

فقد اكتشف نيوتن بعض ما سمى عندهم (قوانين الطبيعة) التى يجرى الكون المادى بمقتضاها.. وكشف عما يسمى عندهم

---

1) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة: اميل بوترو / 19، وتتلخص نظريته في الاعتقاد بوجود منبعين للتصورات: احدهما الاحساس, فنحن نتصور الحرارة والنور والطعم والصوت لأجل احساسنا بذلك كله, والآخر الفطرة بمعنى أن الذهن البشري يملك معان وتصورات لم تنبثق عن الحس وإنما هي ثابتة في صميم الفطرة, فالنفس تستنبط من ذواتها.

وهذه التصورات الفطرية عند (ديكارت) هي فكرة (الله والنفس والامتداد والحركة) وما إليها من أفكار تتميز بالوضوح الكامل في العقل البشري.وهذه الازدواجية الديكارتية وجدت لها نظيراً في منهج بيكون التجريبي الذي قال عنه أندرسن:(إن أعظم مآثر بيكون الفصل بين العلم البشري والوحي الإلهي)، فعند بيكون يمكن أن تكون أي قضية خاطئة تماماً في نظر العقل، ولكنها صحيحة تماماً لأنها نظر الدين.

والواقع أن المذهب الازدواجي ليس إلا مرحلة طبيعية في سلم التدرج من الإيمان المطلق بالوحي إلى الإنكار المطلق له (راجع: مدخل الى فلسفة ديكارت ـ سلسلة المكتبة الفلسفية رقم 5 منشورات عويدات)

(قانون السببية) أى القانون الذى يفسر ظواهر الطبيعة بردهـا إلى أسبابها الظاهرة، وقد كان هذا فى أوروبا ذريعة لنفى الأسباب غير الظاهرة وغير المحسوسة، أى نفى الأسباب الغيبية.

يقـول برينتـون: (إن السـببية تهـدم كـل مـا بنتـه الخرافـات والإلهامات والمعتقدات الخاطئة فى هذا العالم)

ويقول: (الإله فى عـرف نيـوتن أشـبه بصـانع السـاعة، ولكن صانع هذه الساعة الكونية – ونعـنى بهـا الكـون – لم يلبث أن شـد على رباطها إلى الأبد، فبإمكانـه أن يجعلهـا تعمـل حـتى الأبـد، أمـا الرجـال على هـذه الأرض فقـد صـممهم الإلـه كـأجزاء من آلتـه الضخمة هذه ليجروا عليها، وإنـه ليبـدو أن ليس ثمـة داع أو فائـدة من الصلاة إلى الإله صانع هذا السـاعة الكونيـة الضـخمة، الـذى لا يستطيع إذا ما أراد التدخل فى شئون عمله)(1)

ويقول: (ولكن ثمة أناس ذهبـوا إلى أبعـد من ذلـك، واعتـبروا فكـرة الإلـه فكـرة شـريرة، وخاصـة إذا مـا كـان إلـه الكنيسـة الكاثوليكية، وأطلقوا على أنفسهم بكل فخر اسـم الملحـدين، وهم يعتقدون أن ليس ثمة وجود لمسيح أو لإله المسيحية، ويقولون إن الكـون ليس إلا مجموعـة متحركـة ذات نظـام معين يمكن فهمـه باللجوء إلى السببية المعتمدة على أساس العلوم الطبيعية)(2)

هكذا سار الاتجاه المادى الملحد بخطوات حثيثة حـتى جاء القرن التاسع عشر، فظهـرت الفلسـفة الوضـعية الـتى تقـول بسيادة الطبيعـة على الـدين والعقـل، واعتبارهـا هى الأصـل الـذى ينبثق عنه كل شئ.. والذى يبعث الأفكار فى العقل البشرى، وكان من أهم فلاسفتها (أوجست كومت) و(فرباخ)

نظـرت إلى عناقيـد العنب بحـزن، وقـالت: لم تكن هـذه هي

1) منشأ الفكر الحديث ص 151.

2) منشأ الفكر الحديث ص 152.

النظريات الوحيدة الـتي فصـل فيهـا العلم عن اللـه وعن الإنسـان وعن الحقائق..

لقد ظهر دجالون كثيرون.. لا تـزال سـموم فلسـفاهم تنتشـر في مدارسنا وجامعاتنا..

قلت: إلى أن ظهر ماركس فرعون الإلحـاد ليبشـر بالجدليـة المادية.. والتفسير المادي للكون.

قـالت: لقـد لقـد ظهـر قبلـه (فيشـته) و(هيجـل) ليؤسسـا لأقواله..

لقـد جـاء هـذان الـدجالان بـالتفكير الجـدلى الـذي يبحث عن تصـور فلسـفى يسـمح بوجـود المتناقضـات فى الكـون والحيـاة ويفسرها.. ذلك أن المنطق اليونانى القديم (الذى يسمى المنطـق الصورى) ينفى وجود التنـاقض فى الكـون والحيـاة، ويقيم تفكـيره على أساس أن الشئ ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أى شئ هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه.

ولكن الفكر الأوروبى منذ عصر النهضة – وإن كـان قـد رجـع إلى الفكر الإغريقى يستمد منه ـ كانت له التفاتات مختلفة عنه فى مجالات متعددة. حـتى إذا كـان النصـف الثـانى من القـرن الثـامن عشر الميلادى ـ عصر سيادة العقل فى الفكر الأوربى قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض فى الكون والحياة ويحاولون تفسـيره، من أبرزهم (فيشته) و(هيجل)

فأما فيشته (1762 – 1814 م)، فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة.

وأما هيجل (1770 – 1831)، فيستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة، ثم لـدعم فكـرة الألوهيـة من جديـد، وتأكيـد

الوحى كمصدر أخير للمعرفة، وهو يعتبر الله عقلا (1).

وهذا العقـل المجـرد يتمثـل فى القـانون والأخلاق، وفى الفن والدين والدولة والجماعـة والفلسـفة.. إذن فالعقـل المجـرد الـذى يتحقــق فى أى وحــدة من هــذه القيم العاملــة المــذكورة جــامع للمتقابلين: جامع للفكرة فى العقـل المطلـق وهـو اللـه، وللفكـرة فى العقل المقيد وهـو الطبيعـة.. ذلـك أنـه ليس لـه إطلاق العقـل المطلـق ولا تحديـد عقـل الطبيعـة، بـل فيـه إطلاق بالنسـبة إلى الطبيعة وتقييد بالنسبة للعقل المطلق، ولـذا يعتـبر جـامع الـدعوى ومقابل الدعوى.

بالإضافة إلى هذين، فقـد اسـتلهم مـاركس نظريـة التطـور.. فقد جاء دارون يؤله الطبيعة ويقول عنها إنها تخلق كل شئ ولا حد لقدرتها على الخلق.. ويؤكد أن الإنسان هو نهايـة سلسـلة التطـور الحيوانية.. وأن التطور ذاته – الذى أنشأ الحياة الماديـة الميتـة أول مرة، ثم تدرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان – هو نتيجة أسـباب ماديــة بحتــة، وأنــه يتم مســتقلا عن إرادة الكــائن الحى، وبصورة حتمية لا يملك الكائن الحى الخـروج عليهـا ولا معارضـتها ولا الوقوف فى طريقها.

المادية:

قلت: فهمت هذا ووعيته.. فهـل أورثت هـذه الجاهليـة الثانيـة جاهلية أخرى؟

نظـرت إلى عناقيـد العنب بـألم وقـالت: أجـل.. ولـدت هـذه الجاهلية التي توشحت بوشاح العقل، فلسفات أخرى، كلهـا امتلأت بها جميع علومنا ومدارسنا.. وكلهـا حـولت هـذه العناقيـد الطـاهرة خمرا معتقة يخرج من إنسانيته كل من اقترب منها.

1) عن الفكر الإسلامى الحديث ص 289 بتصرف.

قلت: ما هي هذه الفلسفات؟

قالت: كلها فلسفات مادية تحتقر الإنسان، وتحتقر ما أنيط به من وظائف، بل تحتقر الكون وتملؤه بالخراب..

قلت: لم وصفتها بالمادية(1)؟

قالت: لأنها كالدجال لا ترى إلا بعين واحدة.. فجميع نظريات العلوم الإنسانية التي تتضمنها المناهج الدراسية الحديثة نظريات مغلوطة وناقصة وقائمة على المفهوم المادي الذي لا يؤمن بالأديان المنزلة، ولا بالقيم الأخلاقية المرتبطة بالدين.

وهي تقوم في مجموعها على مفهوم زائف وباطل هو أن البيئة هي التي تخلق تراثها، وهي التي يرجع إليها الفضل في تنشئة الفرد وتوجيهه والإشراف على سلوكه.

ومعنى هذا إنكار الدور الذي يقوم به الدين في تكوين الأفراد وتجاهل وجود الدين كلية أو اعتباره قد خرج من الأرض كما خرجت الجماعة نفسها، على حد تعبير دوركايم.

لقد عمد دوركايم (بوضعه أبرز منظري علم الاجتماع) إلى إقامة منهج التشكيك في القيم والمثل والعقائد والأخلاق من منطلق مفهوم قوامه أن كل الظاهر نسبية متغيرة متبدلة، لا تثبت على حال ولا تستقر على وضع لأنها في كل يوم يتبدل الحال بحال.

ليس هذا خاصا بعلم الاجتماع.. بل صار هذا قاعدة مضطردة في كل مجالات دراسات الاجتماع والنفس والأخلاق وتاريخ الأديان.

قلت: ولكن العلوم التي نشرتها هذه الحضارة ليست هي العلوم الإنسانية وحدها.. بل هناك علوم كثيرة نشأ عنها هذا الترف الذي يعيشه أهل هذا العصر.

---

1)انظر: تجاوزات العلوم الاجتماعية والإنسانية لمفهوم الفطرة والعلم، أنور الجندي.

قالت: بما أن العلوم الإنسانية هي الأساس الفكري الذي يملأ عقول المكتشفين والمخترعين، فإنهم راحوا بما أملى عليهم أولئك الدجالون يسخرون سلاح العلم ليقتلوا به الإنسان، ويدمروا به الأكوان..

إن أنواع الأسلحة التي تنشر الصراع على الأرض.. وأنواع الدمار التي قتلت الحياة فيها.. كل ذلك سببه تلك المفاهيم التي بني على أساسها العلم الذي تحول إلى معول لهدم الحياة وهدم الإنسان.

علوم الإسلام

قلت: عرفت الجاهلية وعلوم الجاهلية.. فحدثيني عن الإسلام.. ولماذا لم يحصل للمسلمين ذلك الفصام الأسود بين علومهم وبين الإسلام.

قالت: لأن الإسلام هو دين العلم والعقل والتجربة والمنطق.. وكل ما توصلت إليه البشرية من مناهج البحث عن الحقيقة[1] ..

فلئن كانت المسيحية تعتمد على الإيمان المجرد.. فإن الإسلام يعتمد على العقل والمنطق.. ويحث على طلب العلم الذي يغذى به العقل والمنطق.

التعميم:

ولئن كانت المسيحية جعلت العلم محصورا في طائفة محدودة.. فإن الإسلام أمر بتعميمه على الكل.. فالعلم في الإسلام ركن من أركان الدين لا يقل عن الإيمان والشعائر التعبدية: فالتعرف على الله الذي هو جوهر الدين وأصله وغايته وموضوعه يحتاج إلى العلم..:﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(محمد:19)

ولهذا كان أول أمر من أوامر هذا الدين هو:﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ

1) تحدثنا عن هذا بتفصيل في كتاب (سلام للعالمين) من هذه السلسلة، فصل العقل.

الَّذِي خَلَقَ (العلق:1)، ثم كرر هذا الأمـر في قولـه:اقْـرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (العلق:3)

والقرآن يعتبر وظيفة الرسل هي وظيفة المعلمين: لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُـو عَلَيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَـلالٍ مُبِينٍ (آل عمران:164)

وأخبر أن كـل الأنبيـاء جـاءوا أقـوامهم بالبينـات، وهي العلـوم الواضحات التي قويت أدلتها..أَلَمْ يَـأْتِكُمْ نَبَـأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَـوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَـاءَتْهُمْ رُسُـلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِـهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (ابراهيم:9)

بل إن القرآن فوق ذلـك كلـه أخـبر عن مزيـة الإنسـان الـتي أهلته للخلافة في الأرض، وأهلته للتكريم الرباني، فقال يقص قصة بدايـة خلـق الإنسـان: وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْـمَاءَ كُلَّهَـا ثُمَّ عَرَضَـهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَـالُوا سُـبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَـا إِلَّا مَـا عَلَّمْتَنَـا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَـالَ يَـا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَـأَهُمْ بِأَسْـمَائِهِمْ قَـالَ أَلَمْ أَقُـلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (البقــرة:31 ـ 33)

انطلاقا من هذا وردت النصـوص الكثـيرة عن محمـد بـالحض على العلم والترغيب فيه ورفع مكانة أهله، فقد أخبر بأن العلم نوع من أنواع العبادة، بل هو من أفضلها:، فقال: (أفضل العبادة الفقه، وأفضل الدين الورع)(1)

وصرح بذلك فقال : (فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير

1)) رواه الطبراني في معاجيمه الثلاثة.

دينكم الورع)(1)، وقال: (قليل العلم خـير من كثـير العبـادة، وكفىٰ بالمرء فقها إذا عبـد اللـه، وكفىٰ بـالمرء جهلا إذا أعجب برأيـه)(2)، وقال: (ما عبد الله بشـيء أفضـل من فقـه في دين ولفقيـه واحـد أشد على الشيطان من ألف عابد، ولكل شـيء عمـاد وعمـاد هٰـذا الدين الفقه)(3)

وقـايس بين بعض النوافـل وبين طلب العلم، فقـال لأبي ذر، وقد رأى حرصه على النوافـل: (يـا أبـا ذر لأن تغـدو فتعلم آيـة من كتاب الله خير لك من أن تصلي مائة ركعـة، ولأن تغـدو فتعلم بابـا من العلم عمل به أو لم يعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة) (4)

وأخبر أن تعليم العلم لا يختلف عن الصدقات، فقال: (أفضــل الصدقة أن يتعلم المرء المسلم علما ثم يعلمه أخاه المسلم)(5)

ويروى أنه ذكر له رجلان: أحدهما عابـد والآخـر عـالم، فقـال: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)، ثم قـال: (إن اللـه وملائكته، وأهل السمٰوات والأرض حتى النملـة في جحرهـا، وحـتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير)(6)

وطلب العلم لذلك دليل على خيرية العبد الطـالب للعلم، بـل دليل على اجتباء الله له، قـال: (من يـرد اللـه بـه خـيرا يفقهـه في الدين)(7)، وقال: (يا أيها الناس إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقـه،

---

1)) الطبراني في الأوسط، والبزار بإسناد حسن.

2)) الطبراني في الأوسط.

3)) الدارقطني والبيهقي.

4)) ابن ماجه بإسناد حسن.

5)) رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

6)) الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

7)) البخاري ومسلم وابن ماجه.

ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الـدين، و إنمـا يخشـىٰ اللـه من عباده العلماء (فاطر: 82))(1)

وهذا الاجتباء هو الذي يؤهله للجنة ولهذا التكـريم الـذي أخـبر محمد عنه، قال محمد وهو يعـدد فضـل طـالب العلم: (من سـلك طريقـا يلتمس فيـه علمـا سـهل اللـه لـه طريقـا إلى الجنـة، وإن الملائكة لتضع أجنحتهـا لطـالب العلم رضـا بمـا يصـنع، وإن العـالم ليستغفر له من في السـمٰوات ومن في الأرض حـتى الحيتـان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهمـا إنمـا ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر)(2)

وقال: (ما من رجل تعلم كلمة، أو كلمـتين، أو ثلاثـا، أو أربعـا، أو خمسـا ممـا فـرض اللـه عـز وجـل فيتعلمهن ويعلمهن إلا دخـل الجنة)(3)

ويخبر عن بعض صور التكريم التي يقابل بها الملأ الأعلى أهل العلم، فعن بعض أصـحاب محمـد قـال: أتيت النـبي ﷺ وهـو في المسجد متكىء على برد له أحمر، فقلت لـه: يـا رسـول اللـه إني جئت أطلب العلم، فقـال: (مرحبـا بطـالب العلم إن طـالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها ثم يركب بعضهم بعضا حتى يبلغـوا السـماء الدنيا من محبتهم لما يطلب)(4)

بل إن محمدا يرفع درجة أهل إلى درجة الأنبياء، فيقـول: (من جاءه أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيـين إلا

---

1)) الطبراني في الكبير.

2)) أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والبيهقي.

3)) أبو نعيم.

4)) أحمد والطبراني بإسناد جيد واللفظ له، وابن حبان في صحيحه، والحاكم وقـال: صحيح الإسناد.

درجة النبوة)[1]

أما الأجور المعدة لأهل العلم، فإنهـا أضـعاف مضـاعفة، قـال محمد: (من طلب علما فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علما فلم يدركه كتب الله له كفلا من الأجر)[2]

ومن أكبر ميزات أجر العلم أن أجره غير منقطع، قال محمد: (إذا مات ابن آدم ٱنقطع عمله إلا من ثلاث: صـدقة جاريـة، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[3]

وفي حديث آخر مفصل، قال محمد: (إن مما يلحق المـؤمن من عمله وحسناته بعد موته علما علمه ونشره وولدا صالحا تركـه أو مصحفا ورثه، أو مسجدا بنـاه أو بيتـا لابن السـبيل بنـاه، أو نهـرا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعـد موته)[4]

وقـد ورد وصـف مفصـل لفضـل العلم وفضـل أهلـه، ففي الحـديث: (تعلمـوا العلم، فـإن تعلمـه للـه خشـية وطلبـه عبـادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمـه صـدقة، وبذله لأهله قربة لانه معالم الحلال والحرام ومنار سبل أهل الجنة، وهـو الأنيس في الوحشـة، والصـاحب في الغربـة، والمحـدث في الخلـوة، والـدليل على السـراء والضـراء، والسـلاح على الأعـداء والزين عند الأخلاء، يرفع اللـه بـه أقوامـا فيجعلهم في الخـير قـادة قائمـة تقتص آثـارهم ويقتـدىٰ بفعـالهم، وينتهىٰ إلى رأيهم، تـرغب الملائكة في خلتهم، وبأجنحتها تمسحهم، ويسـتغفر لهم كـل رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامـه لأن العلم حيـاة

---

1)) الطبراني في الأوسط.

2)) الطبراني في الكبير.

3)) مسلم وغيره.

4)) ابن ماجه بإسناد حسن والبيهقي، ورواه ابن خزيمة في صحيحه مثله.

القلوب من الجهل، ومصابيح الأبصار من الظلم، يبلغ العبـد بـالعلم منازل الأخيار والدرجات العلىٰ في الدنيا والآخرة، التفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسـته تعـدل القيـام، بـه توصـل الأرحـام وبـه يعـرف الحلال من الحرام، وهو إمام العمل، والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء)[1].

نظرت إلي، وقالت: أتدري من قال هذه النصوص.. إنه رجـل لم يدخل مدرسـة ولا جامعـة.. ولم يكتب حرفـا واحـدا.. ولم يقـرأ رسالة واحدة.. ومع ذلك شاء اللـه أن تقـوم على يـده أكـبر نهضـة علمية عرفتها البشرية.

قلت: ما تقولين؟

قالت: منذ قال محمد تلك النصوص هرعت كـل أمـة محمـد تنهل من العلم صغارها وكبارها ورجالهـا ونسـاؤها.. حـتى الشـيوخ الكبار كانوا يحتضرون، وهم يطلبون العلم.

في ذلك الوقت الـذي كنـا فيـه عبيـدا للكنيسـة وفلاحين عنـد رجال الدين، وكان الرهبان عندنا يتقربـون إلى اللـه بالجهـل.. كـان المسلمون يتنافسـون في بنـاء المـدارس والمكتبـات والجامعـات، ويعتبرون ذلك من أقرب القرب إلى ربهم[2].

فانتشرت الكتاتيب التي تمثل المدارس الابتدائيـة الـتي تقـام لتعليم الصبيان القراءة، والكتابة، والقـرآن وبعض العلـوم العربيـة، والرياضيات، وقد وجدت هذه الكتاتيب قديماً في الإسلام، وقد ذكر بعض المؤرخين أنها وجدت في عصر الصحابة، وكـانت من الكـثرة بحيث عـد ابن حوقـل ثلاثمائـة كتـاب في مدينـة واحـدة من مـدن

---

1)) رواه ابن عبد البر في كتاب العلم قال المنذري: ورفعه غريب جدًّا.

2) استفدنا المعلومات الـواردة هنـا من كتـاب: الأوقـاف في العصـر الحـديث، كيـف نوجههـا لـدعم الجامعـات وتنميـة مواردهـا (دراسـة فقهيـة)، د/ خالـد بن علي بن محمـد المشيقح.

صقلية(1).

وكان الكُتَّاب في بعض البلدان من السعة بحيث يضم مئات وآلافاً من الطلاب، ومما يروى عن أبي القاسم البلخي أنه كان له كتاب يتعلم به ثلاثة آلاف تلميذ، وكان كتابه فسيحاً جداً، ولذلك كان أبو القاسم يحتاج إلى أن يركب حماراً ليتردد بين طلابه وليشرف على شؤونهم(2).

وكانت هذه الكتاتيب جميعا تمول بأموال المحسنين الذين يجعلونها وقفا لوجه الله.

بالإضافة إلى هذا.. فقد كانت أموال الموقفين تتوجه لبناء المدارس الكبار.. والتي بدأ إنشاؤها بعد أن تضاعف إقبال طلاب العلم على حلقات المساجد.

وقد كانت الدراسة في تلك المدارس مفتوحة لكل راغب في العلم دون قيد أو شرط، وكان طلاب هذه المدارس يتمتعون بكل الرعاية من طعام وشراب وعلاج وإقامة للغرباء والفقراء، وكان الأساتذة الذين يقومون بالتدريس فيها ينتخبون ممن شهد لهم الشيوخ بالكفاءة العلمية، وكان المتخرجون من هذه المدارس يمنحون إجازة علمية باسم شيخ المدرسة، وما كان يسمح للأطباء بممارسة مهنة الطب إلا بعد نيل هذه الشهادة أو الإجازة من كبير أطباء المدرسة.

بالإضافة إلى هذا فقد أدرك المحسنون من المسلمين والواقفون للمدارس، وزوايا العلم، وحلقات الدرس في المساجد أهمية الكتاب لنشر العلم، وأن الاقتصار على تشييد الأبنية وتوفير جهاز للتدريس غير كاف فاهتموا بوقف الكتب عليها لتكون وسيلة ميسرة للتحصيل والمراجعة، توفر مادة علمية يستند إليها المعلم

---

1) ينظر: معجم البلدان 3/417، 418.

2) مجلة الوعي الإسلامي عدد (382) ص37.

والمتعلم في وقت واحد، فأصبح من المعتاد وجـود مكتبـة في كـل مدرسة، أو جامع، أو رباط وقف على طلبة العلم وغيرهم[1].

وكانت هـذه المكتبـات بكتبهـا الوقفيـة إضـافة إلى المكتبـات الخاصـة مثـل مكتبـات الخلفـاء والأمـراء والـوزراء والعلمـاء، وراء حركة الازدهـار العلمي الـتي شـهدها العـالم الإسـلامي على مـدى قرون طويلة، فقد اعتمد عليها العلماء وطلاب العلم في دراسـتهم ومراجعاتهم، ووضع مصنفاتهم.

الانفتاح:

قلت: ولكن الإسلام مع توسعه في الأمـر بطلب العلم إلا أنـه ضيق في العلم المطلوب.. وفي مصادر العلم المطلـوب.. فخصـه بما يتعلق بالكتاب والسنة ولم ينفتح على باقي الثقافات.

قالت: الأمر عكس ذلك تماما.. لقد انفتح الإسلام على جميـع الثقافات الأجنبية، واستفاد منها، وتعامل معها بإيجابية تامـة.. يأخـذ منها ما يراه مفيـدا، ويـرد مـا لا يـراه صـالحا.. لعلم المسـلمين أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق بها.

ففي الوقت الذي قام رجـال ديننـا بتكفـير كـل انفتـاح علمي كان فقهاء المسلمين يقرؤون الفلسـفة اليونانيـة والثقافـة الهنديـة وجميع أنواع الثقافات.

ولكنهم لا يتعاملون معها تعامل الخاضع الذليل.. بل يتعـاملون تعامل الند للند.. يناقشونها مناقشة موضوعية علمية لا نزال نفتقـد مثلها.

فلم يقبل المسلمون المنطق الأرسـطي، ونقـدوه من جميـع عناصره، وكونوا لهم منطقًا آخر، هو المنطق الاستقرائي.

فقد أدرك مفكـرو الإسـلام تمـام الإدراك أنـه لا بـد من وضـع

1)) انظر: الوقف وبنية المكتبة العربية للدكتور يحيى محمود ساعاتي ص21.

منهج في البحث يخالف المنهج اليوناني، حيث أن هـذا المنهج إنمـا هو تعبير عن حضارة مخالفة، وتصور حضاري مختلف، وقـد وصـل المسلمون إلى فكرة (الخـواص) اللازمـة لكـل ذات، وهي الفكـرة التي صبغت المنهج الاستقرائي الحديث بصبغتها الخاصة، وأخذ بهـا جون استيورت مل وغيره، وأعلن المسـلمون أن الإنسـان يتوصـل إلى القضية الجزئية قبل التوصل إلى القضية الكلية.

واختلـف قيـاس المسـلمين عن قيـاس أرسـطو، فـاعتبر المسلمون القياس: هو قياس الغـائب على الشـاهد، فوصـلوا إلى اليقين، أما قياس أرسطو الذي هو حركة فكرية ينتقل فيهـا العقـل من حكم كلي إلى أحكام جزئية، فإنه يوصل فقط إلى الظن.

وفي الوقت الذي احتقر فيه اليونان التجريب والتجربة، وجـاء منطق أرسطو أكبر معبر عن روح اليونان، رفضه المسلمون إيمانًا بروح الحضارة الإسلامية وروح القـرآن الـذي دعـا إلى وضـع منهج ومنطـق مختلـف في كـل خصائصـه عن منطـق أرسـطو وروح الحضارة اليونانية.

ومنهج القرآن منهج ينأى عن البحث في الشـيء ذاتـه ويـدعو إلى البحث في آثاره: (تفكروا في خلـق اللـه، ولا تفكـروا في ذات اللـه فتهلكـوا)، وكـان ذلـك العمـل الإسـلامي هـو مصـدر التحـول العـالمي من النظـرة المفكـرة للـدنيا المعزولـة عنهـا المسـقطة للإرادة والتكليـف القائمـة على التشـاؤم والانسـحاب والعجـز إلى نظرة التكليف والإرادة والبناء والعمل.

وقد صحح المسـلمون أغلاط أرسـطو وجـالينوس وأفلاطـون في الفلسفة والعلوم والكثير من أخطاء الفلسفة اليونانية، وأبطـل صناعة التنجيم وبطلان القول بأن بعض الكـواكب يجلب السـعادة، وبعضـها يجلب النحس، وعللـوا ذلـك بـأن اليونـان أخـذوه من غـير برهان ولا قياس..

وأبــان علمــاء المســلمون ضــعف نظــام بطليمــوس ونقــط القصور فيه، وقد عكف (التباني) على دراســة بطليمــوس، وحقــق مواقع كثير من النجوم، وصحح حركات القمر والكـواكب السـيارة، وخالف بطليموس في ثبات الأوج الشمسي.

وأنكر الغزالي ما قاله فلاسفة اليونان من أن بالسـماء حيوانًـا وأن له نفسًا، ونقد الأطباء المسلمون طب اليونان، ورفضوا الأخــذ ببعض نظرات أبقراط وجالينوس، ومن طريق التجربة والاختبارات الشخصية، ورفض ابن النفيس قبـول نظريـة جـالينوس عن الـدور الذي تلعبه الرئتان في نقـل الـدم من تجويفـة القلب الواحـدة إلى الأخرى، وأعلن أنها خاطئة.

قلت: ولكــني قــرأت كثــيرا من المنشــورات والكتب الــتي يصدرها قومنا تذكر أن الثقافة الإسلامية والعلوم الإســلامية مجــرد نقل للثقافة اليونانية..

ففي الطب مثلا يقـول سـانجور وجـو داريلانـو: (ليس الطب الإســلامي إلا مجموعــة ترجمــات كتبت باللغــة العربيــة، من قبــل فارسيين ويهود ومسيحيين)

ويقول داريمبرغ: (كانت سيطرة الطب الإسلامي في القرون الوسطى سيطرة كاملة في أوروبا. لكن هذا لم يغير جــوهر العلم، فقد كان وبقي جالينوسيا فالطب العربي بأجمله، ما هو إلا ترجمــة أو بالأحرى تزييف وتزوير للطب الأغريقي)

ويقول بارياتي: (أن الميزة المهمة للطب العربي هــو حفظــه ونقله للمؤلفـات اليونانيـة العديـدة الـتي كـانت منسـية في الجـزء الأول للقرون الوسطى)

ويقول كاسـتيجليوني: (إن الطب الإسـلامي مـا هـو إلا الطب اليوناني القديم، لابسا حلة جديدة)

قــالت: أنت تعــرف قومنــا.. وتعــرف أســلوب تفكــيرهم، والطريقـة الـتي يبثـون بهـا مـواقفهم.. فلـذلك لا أحتـاج إلى الـرد عليهم.. لأنهم يلقــون بــالمواقف الــتي تملى عليهم، ولا يلقــون بالمواقف التي يجدونها بالبحث الموضوعي.

ولكني أقول لك ـ وخصوصا في هذا الجانب ــ أن المسـلمين لم يكتفوا بترجمة المؤلفات اليونانية والهندية، لكنهم أعطوا العـالم أطباء بكل معنى الكلمة، وأعطوا للطب شكلاً لم يكن معروفـاً من قبل، وكانت مدارسهم مثلاً اقتدى الغرب بها، فجعـل جامعاتـه على نفس النمط، وعلم فيها ما كان يعلم في المدارس الإسلامية.

فمنذ القـرن العاشـر أخـذ الطب بفضـل الأطبـاء المسـلمين، شكلاً جديداً لم يكن معروفاً من قبل، لا عنـد إبقـراط ولا جـالينوس ولا عند غيرهم، وكـان هـذا الطب الجديـد يرسـخ على ثلاث ركـائز متينة:

فهو نظام طبي للتعليم والممارسة.. وهو يقوم على تشخيص الأمــراض ووصــف أمــراض جديــدة، ولــه اهتمــام بعلم الصــيدلة واكتشاب أدوية جديدة.

أما تنظيم التعليم الطـبي وممارسـة مهنـة الطب.. فقـد كـان هذا التنظيم يعتمد على مدرسة للعلم تعطى فيها الدروس النظرية وتشـرح فيهـا الكتب العلميـة، وإلى جـانب هـذه المـدارس، كـانت بيـوت الكتب تغص بالمؤلفـات من كـل الأنـواع، كمـا كـانت هنـاك مستشــفيات للمرضــى، يعطي فيهــا المعلم الــدروس العمليــة. ومستشفيات بغداد والري وابن طولون أمثلة حية على ذلك.

وكـانت هنـاك قواعـد لهـذا النظـام، فقـد كـان على من يـود ممارسـة مهنـة الطب، الحصـول على أجـازه لـذلك. وكـانت هـذه الإجــازة، تعطى من قبــل لجنــة تتشــكل من أعضــاء لهم خــبرة ويرأسها عالم، وكان لهـذه اللجنـة الحـق في سـحب الإجـازة ممن

كانت معلوماتهم غير كافية.

وإلى جانب هذا التنظيم، كان الطب في مضمونه وفي مادتـه جديـداً فكتب الحـاوي للـرازي، و(الملكي) لابن العبـاس، والقـانون لابن سـينا، لم تكن ترجمــة لكتب القــدماء. بــل اعتمــد الأطبــاء المســلمون على تشــخيص كــل مــرض بظــواهر عديــدة، وعلى اكتشاف ووصف أمراض لم تكن معروفة قبلاً.

وكانت المؤلفات الطبية الإسلامية عديدة وهامـة: فموسـوعة الحاوي للرازي كانت مؤلفة من 24 كتاباً أو فصلاً وتحتوي على كل المعلومات الطية المعروفة في القرن العاشر.

وكان كتاب القـانون لابن سـينا مرجعـاً طبيـاً، وبـدون منـازع، طيلة القرون الوسـطى، وإن كـان ابن سـينا قـد لقب في الشـرق باسم (الشيخ الرئيس)، فقد كان لقبه في الغرب (أمير الأطباء)

وإلى جانب هذا كان علم الصيدلة منظماً كغـيره من العلــوم، وللعرب فضل كبير في نهضته وتطوره، فمنذ القرن العاشــر، نجــد فرقا بين الصيادلة والعطارين ونجد قواعـد وقـوانين الصـيدلة في كتاب (نشاجة الرطبة)، الذي كتب في سنة1236.

وقد انتشر الطب الإسلامي وتطور بسرعة هائلة فكان هنــاك منذ القرن العاشر أطباء ذوو شهرة واسعة، واستفادت أوروبا كلهـا من ازدهـار الطب الإسـلامي عمومـاً وازدهـاره في إسـبانيا على الأخص.. فقد كان هنـاك أوروبيـون يدرسـون الطب الإسـلامي في الجامعـات الإسـلامية، ومن أشـهرهم جيريـبر دوريـاك، جـيرار دي كريمونه، ارنو دي فيلنوف وقسطظين الإفريقي..

وأولى هذه المدارس هي مدرسة ساليرن في جنوب إيطاليا، ومن بعدها مدرستي مونبليه وباريس في فرنسا[1].

---

1) انظر: الطب الإسلامي: عامل أساسي في خروج أوروبا من عصر الظلام، الدكتور عبد الرحيم حجازي، موقع: الإسلام ست.

القيم:

نظرت إلى عناقيد العنب بحزن، ثم قالت: ناحية مهمة تميز بها العلم في الإسلام عن العلم الذي نعاني ويلاته بنفس القدر الذي نتنعم بخيراته.

قلت: ما تقصدين؟

قالت: القيم.. والآداب الرفيعة.. والنيات الصالحة التي كانت تحرك طلبة العلم والعلماء.

لقد بلغ الاهتمام بمزج التربية بالعلم في الإسلام حدا لم تبلغه أي حضارة.

فقد اعتبر الإسلام الإيمان والتقوى والصلاح من أهم خصائص العلماء وطلبة العلم.. وقد وصف القرآن أهل العلم بأنهم يسجدون لله ويخشعون ويبكون حين يسمعون آياته:﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ (الاسراء: 107 ـ 109)

وقد وصف القرآن العلماء بانهم أهل خشية:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(فاطر: 28)

ووصفهم بأنهم يحذرون عذابه ويرجون رحمته:﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر: 9)

وفي الحديث عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فشخص ببصره إلى السماء، ثم قال: (هذا أوان يُخْتَلَسُ العلم من الناس، حتى لا يقدروا منه على شيء)، فقال زياد بن لبيد الأنصاري: يا رسول الله، وكيف يُخْتَلَسُ منا وقد قرأنا القرآن؟

فوالله لنقرأنه ولنقرئه نساءنا وأبناءنا، فقال: (ثكلتك أمـك يـا زيـاد، إن كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذه التوراة والإنجيـل عنـد اليهود والنصارى فماذا يغني عنهم؟)

ولهذا كـانوا يقولـون: (ليس العلم بكـثرة الروايـة، إنمـا العلم خشية الله)، وكانوا يقولون: (العلم والحكمة نور يهدي بـه اللـه من يشاء، وليس بكثرة المسـائل)، ويقولـون: (إن حقّـاً على من طلب العلم أن يكون له وقار وسكينة وخشية، وأن يكـون متبعـاً لأثـر من مضى قبله)

قلت: لست أدري كيف تطـرحين مثـل هـذه الطروحـات في عصرنا هـذا الـذي بلـغ العلم فيـه شـأوا بعيـدا لم يصـله عصـر من العصور.

قالت: لأن كل السلبيات التي نعانيها في حياتنا سببها تسخير العلم في خدمة أهواء الشياطين..

تصور لو أن القائمين على برامج التلفزيون والإنترنت وغيرهـا من وسائل العصر كان لهم من الخشوع والتقـوى مـا يحـول بينهم وبين صناعة الإجرام التي يمارسونها.. أكنت ترى هذا الواقع؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن أولئـك العلمـاء الـذين مـدوا أيـديهم للطغـاة.. فراحوا يصنعون لهم أحدث الأسلحة وأفتكها.. كانوا ممتلئين تقــوى وخشوعا.. أكانوا يقدمون على صناعة تلك الأسلحة؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن أولئك العلماء الذين احتكرتهم شركات الأدويـة الكبرى ليحولوا من السموم أدوية قاتلة تنشر وهم الصـحة الكاذبـة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على ذلك؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن خبراء التغذية الذين راحوا يتلاعبون بأغذية الله ليحولوها سموما قاتلة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على ذلك؟

قلت: لا..

قالت: ولو أن مهندسي الأزياء ومصممي الموضة كانوا ممتلئين خشوعا أكانوا يقدمون على مثل تلك التصاميم التي تنشر الخراب في المجتمعات؟

قلت: لا..

قالت: فقد رأيت إذن أن كل المصائب التي تعانيها هذه الحضارة سببها انعدام التقوى والخشوع..

ولذلك كان من الثمار العظيمة لشجرة العلوم التي غرسها محمد كونها شجرة مسقية بماء التقوى والورع والإيمان.. فلذلك لم تنحرف بالبشرية عن الفطرة التي خلقها الله عليها.

الرفاه:

قلت: ما ذكرته صحيح.. ولكن ناحية مهمة ربما تكون قد غابت عنك.

قالت: ماهي؟

قلت: نعم.. لقد اهتم الإسلام بالعلم.. ولكن العلم الذي يقصده هو العلم بالدين.. ولذلك لم يهتم المسلمون بعلم الدنيا..

لقد اعتبر الغزالي من أول مواصفات العلماء إدراكهم لحقارة الدنيا بجانب ما أوتوا من العلم، فقال: (إن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة

ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنهما متضـادتان، وأنهمـا كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهمـا ككفـتي المـيزان مهمـا رجحت إحـداهما خفت الأخـرى، وأنهمـا كالمشـرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ فبقـدر مـا تصـب منـه في الآخـر حـتى يمتلىء يفـرغ الآخـر. فـإن من لا يعـرف حقـارة الـدنيا وكـدورتها وامتزاج لذاتها بألمها ثم انصرام ما يصفو منهـا فهـو فاسـد العقـل. فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيـف يكـون من العلمـاء من لا عقل له؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخـرة ودوامهـا فهـو كـافر مسلوب الإيمان فكيف يكـون من العلمـاء من لا إيمـان لـه ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بـينهما طمع في غير مطمـع؟ فهو جاهل بشرائع الأنبـياء كلهم، بل هو كافر بالقرآن كله من أوّلــه إلى آخره، فكيف يعدّ من زمرة العلماء؟ ومن علم هـذا كلـه ثم لم يؤثر الآخـرة على الـدنيا فهـو أسـير الشـيطان قـد أهلكتـه شـهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته؟) (1)

ابتســمت، وقــالت: إن هــذا الكلام العظيم الــذي نطــق بــه الغزالي كما نطق به جميع علماء الإسـلام هـو الـذي أعطى لعلـوم المسلمين تلك الروحانية العميقة والآداب الرفيعة التي نفتقر إليها.

والغزالي لا يقصد ما فهمته من ترك علوم الدنيا.. لأن الإسلام لا يفرق بين علوم الدنيا وعلوم الـدين.. فالـدنيا لابـد أن تخضـع في الإسلام للدين ليقيها من الانحراف.

والغزالي نفسه ـ الذي استندت إليـه في ذلـك الفهم ــ يعتـبر جميع ما نسميه علوم الدنيا من علوم الدين.. بل من العلـوم الـتي يفتقر إليها في فهم القرآن.. لقد قال في بيان نسـبة هـذه العلـوم للقرآن: (ثم هذه العلوم مـا عـددناها ومـا لم نعـدها ليسـت أوائلهـا خارجة عن القرآن، فان جميعهـا مغترفـة من بحـر واحـد من بحـار

1) الإحياء: 1/60.

معرفة الله تعالى وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد، فمن أفعال الله تعالى ـ وهو بحر الأفعال ـ مثلا الشفاء والمرض كما قال الله تعالى عن ابراهيم ﷺ: وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ((الشعراء: 80)، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب الا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه)(1)

وضرب مثالا آخر عن ذلك بعلم الفلك، وهو ـ فيما نرى ـ علم محض إلا إذا هدف من ورائه إلى تحقيق مصلحة من المصالح ـ فقال: (ومن افعاله تبارك وتعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان وقد قال الله تعالى: الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (الرحمن:5)، وقالتعالى: هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ (يونس:5)، وقال تعالى: وَخَسَفَ الْقَمَرُ (القيامة:8)،ـ وقال تعالى:ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (الحج:61)،ـ وقال تعالى: وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (يّس:38)، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر الا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه)(2)

وضرب مثالا آخر عن ذلك بقوله تعالى: يَا أَيُّهَا الْأِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (الانفطار:6 ـ 8)، فلا يعرف مراد هذه الآية (إلا من عرف تشريح الأعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع اليها)

1) جواهر القرآن: 45.

2) جواهر القرآن: 46.

بـل إن الغـزالي بنـور بصـيرته الإيمانيـة يـذكر بـأن العلـوم لا تنحصر في علوم عصره، ويتنبأ بعلوم كثيرة ستظهر للوجـود، كلهـا تغترف من بحار أفعال الله، فيقول: (بل أقـول ظهـر لنـا بالبصـيرة الواضحة التي لا يتمـارى فيهـا أن في الامكـان والقـوة أصـنافا من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول اليهـا، وعلـوم كـانت قـد خـرجت الى الوجـود واندرسـت الآن فلن يوجد في هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها، وعلوم أخــر ليس في قوة البشر أصلا ادراكها والإحاطة بها)(3)

ومثل الغزالي بين النورسي مدى الفوائد التي تجنى من هـذه العلوم إذا ما استنارت بنور الله، وبهـدي الإيمـان، فيقـول: (العلـوم التي تبحث في حقيقة الموجـودات - كالفيزيـاء والكيميـاء والنبـات والحيوان.. ـ هذه العلوم التي هي (حكمة الاشـياء) يمكن ان تكـون حكمة حقيقية بمشاهدة التجليات الكبرى لاسم اللـه (الحكيم) جـل جلاله في الاشياء، وهي تجليات تدبير، وتربية، ورعاية. وبرؤية هــذه التجليات في منافع الاشياء ومصـالحها تصـبح تلـك الحكمـة حكمـة حقـاً، أي باسـتنادها الى ذلـك الاسـم (الحكيم) والى ذلـك الظهـير تصبح حكمة فعلاً، وإلاّ فإما أنها تنقلب الى خرافـات وتصـبح عبثـاً لا طائـل من ورائهـا أو تفتح سـبيلاً الى الضـلالة، كمـا هـو الحـال في الفلسفة الطبيعية المادية)

ويذكر علة مهمة لذلك غـابت عن العلـوم الحديثـة، فأغرقتهـا في الجزئية، وأبعدتها عن جمال الوحدة والتناسق والكمال، فقــال: (إن نظر النبوة والتوحيد والايمـان يـرى الحقـائق في نـور الالوهيـة والآخــرة ووحــدة الكــون لأنــه متوجــه اليهــا، أمــا العلم التجريــبي والفلسـفة الحديثـة فانـه يـرى الامـور من زاويـة الاسـباب الماديـة الكثيرة والطبيعة لأنه متوجه اليها، فالمسافة اذن بين زاويتي النظر بعيدة جداً. فـرب غايـة عظيمـة جليلـة لـدى اهـل الفلسـفة تافهـة وصغيرة لا تكاد ترى بين مقاصد علماء اصـول الـدين وعلم الكلام.

3) جواهر القرآن: 47.

ولهـذا فقـد تقـدم اهـل العلم التجريـبي كثـيراً في معرفـة خـواص الموجـودات وتفاصـيلها واوصـافها الدقيقـة في حين تخلفـوا كثـيراً حتى عن ابسط المؤمـنين وأقلهم علمـاً في مجـال العلم الحقيقي وهو العلوم الإلهية السامية والمعارف الاخروية)

قلت: ربما يكون الغزالي والنورسي وغيرهمـا تـأثرا في ذلـك بنا وبالفلسفة اليونانية التي كانت مهتمة بالعلوم.

قالت: لا.. لم يستمد الغزالي ولا النورسـي ولا جميـع علمـاء الإسلام هذه المعاني النبيلة إلا من القرآن..

فالقرآن يشير إلى هذه الناحية، ويعتبرهـا من تمكين الإنسـان في الأرض، ففيـه عن ذي القـرنين:﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَـهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَـاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ (الكهف:84)

بل إن القرآن نوه بأنواع الصناعات، وقـد كـانت محتقـرة في الجاهلية لا يقوم بها إلا العبيد أوعامة الناس وبسطاؤهم:

فـذكر صـناعة الحديـد، ونـوه بهـا، وذكـر اشـتغال الأنبيـاء والصالحين بها:﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ (الكهـف:96)..:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَـا دَاوُدَ مِنَّا فَضْـلاً يَـا جِبَـالُ أَوِّبِي مَعَـهُ وَالطَّيْـرَ وَأَلَنَّا لَـهُ الْحَدِيدَ﴾ (سبأ:10)، بل قرن بإنزال الحديـد إنـزال الكتـاب:﴿ لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَـاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَـابَ وَالْمِـيزَانَ لِيَقُـومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَـافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (الحديد:25)

وذكر الصناعات النسـيجية وأنواعهـا وأغرضـاها:﴿ وَاللَّهُ جَعَـلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُـودِ الْأَنْعَـامِ بُيُوتـاً تَسْـتَخِفُّونَهَا يَـوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَـوْمَ إِقَـامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْـوَافِهَا وَأَوْبَارِهَـا وَأَشْـعَارِهَا أَثَاثـاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ (النحل:80)

وذكـر مـا يرتبـط بـالعمران من أعمـال: وَبَـوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (لأعراف:74)

وذكر الصناعات المرتبطة بالنقل: وَالْخَيْـلَ وَالْبِغَـالَ وَالْحَمِـيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَـا لا تَعْلَمُـونَ((النحـل:8)..: وَاصْـنَعِ الْفُلْـكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ((هــود:37)..

وذكر الصناعات البحرية: وَهُوَ الَّذِي سَـخَّرَ الْبَحْـرَ لِتَـأْكُلُوا مِنْـهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُـونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ مَـوَاخِرَ فِيـهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ((النحل:14)..

بل إن القرآن دعا إلى بذل كل الجهود لتحصـيل جميـع أنـواع القـوى، ويـدخل فيهـا هـذا النـوع من أنـواع القـوى، قـوة الصـناعة والسياسة، ففيـه: وَأَعِـدُّوا لَهُمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُـوَّةٍ وَمِنْ رِبَـاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ((لأنفال:60)

والقرآن لا ينهى عن هذه العلـوم بـذاتها، وإنمـا ينهى على مـا تفرزه في الإنسان من قيم الطغيان حين يبتدئ فيها باسـم أهوائـه لا باسم الله، فالقرآن يحكي عن هود قوله: وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ((هود:52) فهو لم يخبرهم بأن نتيجـة إيمـانهم باللـه زوال قوتهم التي كانوا يحرصـون على الظهـور بهـا، بـل أخـبر عن زيادة قوتهم.

بل أخبر القرآن أن القوة التي لا تستضيء بهدي الله مصيرها الهلاك المحتم، ولـــذلك يـــدعو إلى الســـير في الأرض للبحث عن مصير الحضارات العظيمة التي لم يبق منها إلا فلول آثار تدل على مدى طغيانها: أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُـرُوا كَيْـفَ كَـانَ عَاقِبَـةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُـوَّةً وَأَثَـارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَـا أَكْثَـرَ

مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ((الروم:9)

وذلك لأن أخطر ما تنفخه الصناعة في عقول أصحابها ذلك الاغترار بالقوة، والذي حجبهم عن الله:) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآياتِنَا يَجْحَدُونَ((فصلت:15)

قلت: ربما يكون ما ذكرته صحيحا.. ولكنه يبقى على المستوى النظري، فلم يستطع المسلمون أن يترجموا تلك التوجيهات القرآنية إلى أفعال تنهض بالعلم، وتحقق به مصالح البشر.

انتفضت قائلة: لا.. بل لم يفعل المسلمون غير ما أمرهم به دينهم.. لقد نهضوا ـ على ضوء تلك التوجيهات المقدسة ــ فحققوا في التراث الذي وصل إليهم من الأمم المختلفة، ونقحوه، وأضافوا إليه كما كبيرا من العلم لولاه ما قامت الحضارة الحديثة.

قلت: فكيف لم يصلوا إلى ما وصلنا إليه من تطور؟

قالت: لا شك أنك تعلم أن التقدم العلمي يسير بطريقة خاصة.. فالمبادئ النظرية قد تستدعي الواحدة منها قرونا عديدة.. لكن تحويل تلك النظريات إلى تطبيقات عملية لا يستغرق وقتا طويلا..

لقد أجريت مقارنة بين الفترات الزمنية التي كان يستغرقها الوصول من الكشف العلمي النظري إلى التطبيق في ميدان الإنتاج منذ عصر الثورة الصناعية حتى اليوم.. فوجدت مدى التسارع الذي يصل إليه هذا التطبيق العملي.

لقد احتاج الإنسان ــ على سبيل المثال ــ إلى 112 سنة (1727 - 1839 م) لتطبيق المبدأ النظري الذي يبنى عليه التصوير

الفوتـوغرافي.. واحتـاج إلى 56 سـنة (1820 ـ 1876 م) لكي يتوصل من النظريات العلمية الخالصة إلى اختراع التليفـون.. وإلى 35 سنة (1867 - 1902 م) لظهور الاتصال اللاسلكي.. وإلى 15 سنة (1925 ـ 1940 م) للرادار.. و12 سنة (1922 ـ 1945 م) للتلفزيون.. و6 سنوات (1939 ـ 1945 م) للقنبلـة الذريـة.. و5 سنوات (1948 ـ 1953 م) للترانزستور.. و3 سنوات (1959 - 1961 م) لإنتاج الدوائر المتكاملة.. وهكذا ترى مدى التسارع الذي يسير به التطبيق العلمي بعـد أن تـوفر الكم الكبـير من النظريـات العلمية.

قلت: تقصدين أن المسـلمين كـان يمكن أن يصـلوا إلى هـذا التطور التكنولوجي الذي وصلنا إليه.

قالت: أجـل.. كـل البشـائر كـانت تـدل على ذلـك.. لـولا مـا أصابهم من ضعف، وما أصابهم بسببنا من عدوان.

لقد قطفنا ثمرات علومهم ناضجة لنخلط فيها الحق بالباطل، والمنفعة بالمضرة.

قلت: فهل ظهر علماء مسلمون في ميادين العلوم؟

قالت: في كل ميادين العلوم كان للعلمـاء المسـلمين موقـع الريادة والسيادة والسبق.. سأضرب لك أمثلة تقـرب لـك ذلـك، أو تبرهن لك عليه[1].

لقـد اتجـه علمـاء الفلـك المسـلمين ــ منطلقين من اهتمـام القرآن بالكون ـ نحو مظاهر الكون وعلاقاتهـا وأسـبابها ومسـبباتها، فربطوا حركة المد والجزر بحركة القمر، وطبقوا حساب المثلثـات على الأرصاد الفلكية، وقاسوا أجـرام الشـمس والقمـر والنجـوم بطرق هندسية حسـابية قريبـة من الحقيقـة، وقاسـوا أبعادهـا عن

1) المعلومـات العلميـة الـواردة هنـا مقتبسـة من محـال مختلفـة من كتابـات (أنـور الجندي)

الأرض، وتأسس على أيدهم علم المثلثات الكروية في القرن الرابع الهجري مما أدى إلى تسهيل حساب المسافات بين الأمكنة على الأرض، كما قاسوا محيط الأرض بأمر الخليفة المأمون بطريقة مبتكرة فبلغ (41248 كم)، وتمكن البتَّاني (القرن الرابع) من حساب السنة بمقدار 365 يوماً وخمس ساعات و46 دقيقة و 24 ثانية، والفرق بين تقديره والتقدير الحالي دقيقتان واثنان وعشرون ثانية.

واعتمد المسلمون على الرصد الفلكي المستمر من مراصدهم الممتدة من مراغة وسمرقند إلى اشبيلية.. وطوروا آلات الرصد من الاسطرلابات والمناظير المتنوعة، وعرفوا أن الأرض تدور حول الشمس منذ القرن الثامن الهجري على يد ابن الشاطر الدمشقي، ووضعوا الجداول الرياضية (التقاويم) مستندين على علم الأزياج..

وكان أبرز علماء الفلك المسلمين ينكرون التنجم ــ الذي يعني أثر النجوم في حياة الإنسان ــ كالخوارزمي والفرغاني والبيروني، وهذا من أثر العقيدة الإسلامية عليهم.

وقد مهد علماء الفلك المسلمين للنهضة العلمية الأوروبية حيث لا زالت مصطلحاتهم تستعمل في علم الفلك المعاصر، وقد أحصيتها بـ 160 مصطلحا وكلمة.

واهتم المسلمون بالرياضيات، فابتكر العالم المسلم أبو الحسن علي الاقليدسي (القرن الرابع الهجري) نظام الكسر العشري في الحساب، مما كان له أثر كبير في تقدم الحساب وفي اختراع الآلة الحاسبة (الكومبيوتر) في العصر الحديث.. ووضع المسلمون علم الجبر الذي لازال يعرف باسمه العربي في مختلف لغات العالم Algebra حيث ألَّف محمد بن موسى الخوارزمي (ت 235 هـ) كتابه المشهور (الجبر والمقابلة) في عصر المأمون (198-218هـ)..

ووضع المسلمون اللبنات الأولى للهندسة التحليلية عندما حلوا المعادلات التكعيبية الصعبة، كما برعوا في الهندسة التطبيقية حيث طبقها ابن الهيثم 0ت430هـ) في العديد من المسائل في علم المناظر (البصريات) لتحليل الشعاع وانعطافه وانكساره وانعكاسه على المرايا المستوية والمقعرة والمحدبة والأسطوانية..

وقام المسلمون بتنظيم علم المثلثات وهو يبحث في الزوايا وعلاقتها بالأبعاد، وأضافوا إليه اكتشاف جيب الزاوية وجيب التمام والظل (المماس) وقاطع التمام.

والمسلمون هم الذين أنشأوا علم الكيمياء واكتشفوا بعض أجزائها المهمة كحامض الكبريتيك والنيتريك، والكحول، وقاموا بعمليات التقطير والترشيح والتصعيد والتبلور والتكليس، وهيأوا الأدوات والمختبرات اللازمة لهذه العمليات، ولا زالت كثير من مصطلحاتهم تستعمل في الكيمياء المعاصرة، وقد بنى المسلمون صناعتهم على اكتشافاتهم العلمية مثل صناعة العقاقير وتنقية المعادن وصناعة الورق والأقمشة والزجاج ودبغ الجلود وصناعة العطور، واعتبر ابن حيان (ت 200هـ) أكبر عالم في مجال التأليف والبحث في هذا العلم.

أما في الطب فالمسلمون هم أول من استخدم المخدر (المرقد) في الطب والعمليات الجراحية مستخدمين الإسفنجة المخدرة من محلول الأفيون يستنشقها المريض.. كما اكتشف الأطباء المسلمون العديد من الأمراض وشخصوها، فاكتشف ابن سينا المرض المعروف اليوم بالانكلستوما وهي الدودة التي وصفها بالمستديرة، واكتشف ابن النفيس (ت 686) الدورة الدموية الصغرى بعد تشريح القلب، كما ألف في علم التشريح كتاباً، وبذلك استقل هذا الفرع من العلوم الطبية.. واهتم أبو القاسم الزهراوي (ت 404 هـ) بعلم الجراحة ووصف أكثر من مائتي آلة

جراحية مع صورها، وصار كتابه بعـد ترجمتـه إلى اللاتينيـة يـدرس في أوربا خمسة قـرون، واسـتعمل الزهـراوي خيـوط الحريـر في خياطة العمليات الجراحية لأول مرة، كما كان الرازي قد اسـتعمل الخيـوط المصـنوعة من أمعـاء الحيوانـات لأول مـرة.. وألَّف ابن الجزار القيرواني (ت 369 هـ) أول كتاب في طب الأطفـال، وقـد اسـتمرت عنـايتهم بطب الأطفـال حـتى وصـلوا إلى تلقيحهم ضـد الجدري الذي كان معروفاً في المغرب العربي.

وعلى يد المسلمين استقل علم الصـيدلة، وألحقـوا الصـيدلية بالمستشفى، وأجروا امتحاناً للصيادلة منذ القرن الثـالث الهجـري، ونموا علم العقاقير بالتأليف في الأدوات المفردة والمركبة، وظلت كثير من الأسـماء العربيـة للعقـاقير تسـتعمل في اللغـات الأخـرى حتى الوقت الحاضر، وظلت مؤلفـاتهم في الصـيدلة يسـتفاد منهـا في أوروبا حتى أوائل القرن التاسع عشر.

وقد ألحق المسلمون المعاهد الطبية بالمستشفيات مما نجم عنـه تقـدم الطب السـريري (الإكليـنيكي)، وقـد ذكـر المستشـرق الألمـاني (مـاكس مـاير هـوف) 43 مؤسسـة طبيـة تعليميـة مـع المستشفيات المنتشرة من فارس إلى مراكش.

إن الاعتراف العـالمي بجهـود المسـلمين في الطب يظهـر في الموسوعات العلمية وفي صورتي الرازي وابن سينا المعلقتين في كليـة الطب بجامعـة بـاريس، وفي إطلاق اسـم الـرازي على قاعة من أفخم قاعات جامعة برنستون الأمريكية.

أما في علوم الطبيعة (الفيزياء) فتظهر جهـود ابن الهيثم (ت 430 هــ) في تطـور علم البصـريات وفيزيولوجيـة الأبصـار، وكـان بحثـه في العدسـات قـد مهَّد لظهـور العدسـة المكـبرة للمجهـر والتلسـكوب، وجهـود البـيروني في بيـان أن سـرعة الضـوء أعظم بكثير من سرعة الصوت، وبحث المسلمون في الصوت وتموجاتـه في الأثير، وهو أساس اختراع الإذاعة المسموعة.

كما استبط علماء المسلمين طرقاً واخترعوا آلات تمكنوا بواسطتها من معرفة الوزن النوعي لعدد من المعادن والأحجار، وبحثوا في الضغط الجوي وعرفوا بأن الهواء كالماء يحدث ضغطاً من أسفل إلى أعلى مما مهَّد السبيل لاختراع البارومتر ومفرغات الهواء.

واهتموا بعلم الميكانيكا وأسموه (علم الحيل)، ووصف ابن الجوزي خمسين آلة ميكانيكية كالساعات المائية والنافورات مع صورها بالألوان الجميلة، كما بحثوا في هذا العلم نظرياً مثل موضوعات القوة وأنواعها والحركة وقوانينها، وتصادم الأجسام وتساقطها، وطبيعة الزمان والمكان وقوة الجذب والجاذبية الأرضية، مما يقلب مفاهيمنا عن كثير من النظريات التي كانت تنسب إلى علماء الغرب.

واهتم المسلمون بعلم الحيوان والنبات وصنفوا في أنواعها وصفاتها، ونشأ عندهم علم البيطرة، وعلم الفلاحة فصنفوا في ذلك كله منذ القرن الثالث الهجري، وقد ظهر تأثير دراساتهم على نظام الري المعقد في العصر العباسي والذي ضمّ مائة قناة للري، كما ظهر على المستوى الراقي للحدائق والبساتين وخاصة في الأندلس.

والميزة الكبرى للمسلمين أنهم نقلوا هذه العلوم لقومنا الذين استفادوا منها كثيرنا.. بل لولاها لما قامت هذه العلوم الحديثة.

لقد حاول بعض الحقدة طمس هذه الحقيقة والزعم بأن النهضة الأوروبية بنيت على تراث اليونان مباشرة دون وساطة المسلمين وإضافاتهم الكبيرة، لكن الدراسات الحديثة الجادة تؤكد أن أوروبا في عصر النهضة اعتمدت على ترجمة المؤلفات العربية ودرستها في جامعاتها عدة قرون، وطبعت منها بعد اختراع الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي عشرات

الطبعات في سنين قليلة (طبع كتـاب (القـانون) لابن سـينا خمس عشر مرة خلال ثلاثمائة وست وعشرين سنة (1174 - 1500) وطبع كتاب (الحـاوي) في الطب للـرازي مـرارا وتكـرارا حـتى القرن الثامن عشـر بعـد ترجمتـه إلى اللاتينيـة سـنة 1279 م في صقلية، وثمة مؤلفات أساسية عديدة ترجمت في القـرن العاشـر والحادي عشر وظلت متداولة في الجامعات ولدى العلمـاء قرونـاً طويلـة)، ومن هنـا قـال فـؤاد سـزكين: (كلمـا أمعن الإنسـان في دراسة المصـادر الأصـلية للنهضـة الأوروبيـة ازداد تصـوره أن هـذه النهضة المزعومة أشبه ما تكون بالولد الذي نسـب إلى غـير أبيـه الحقيقي)

***

ما وصلت (زيغريد هونكه) من حديثها إلى هـذا الموضـع حـتى أقبل أخوها.. وقد كان في محـل قـريب منـا يتنصـت لنـا.. وقـال ـ والدموع تسيل من عينيه ـ: أعتذر إليك ـ أختي ـ على ذلك السلوك المشين الذي سلكته معك..

لقد كنت أنتصت لحديثك مـع هـذا الرجـل.. وقـد سـمعت من الحقـائق مـا جعلـني أنـدم على هـذه النيـة الـتي نويتهـا.. وأنـا الآن أعاهدك، وأعاهد هذا الرجـل الفاضـل على أن أحافـظ على العنب حتى يبقى عنبا..

وأعدك فوق ذلـك بـأن أبحث عن أسـرار ذلـك الرجـل الـذي تزينت الحياة بمجيئه، وأظلمت بفقده.. إن لي أشواقا نحوه لسـت أدري سرها.

قال ذلك، ثم انصرف، ليتركها ودموعها تختلط بابتسامتها.

قلت لها: أخوك رجل طيب..

قالت: انظر.. إن دين محمد علي لا ينتهي.. فهذا أخي بمجـرد

سماعه حديث محمد تحول إلى ما رأيت.. فيا خسارة البشرية التي لم تسمع بمحمد.. ولم تسمع لمحمد.

قلت: أنا أعجب لك.. فمع كل هذه الأشواق والمحبة لم تعلني إسلامك..

قالت: ذلك سر آخر (1).. أحيانا يتطلب منك حبك للشيء أن تكتم محبتك له.

قلت: لم؟

قالت: أرأيت لو أني أعلنت إسلامي.. ثم كتبت جميع شهاداتي للإسلام.. هل ترى أحدا من الناس سيقبلها؟

---

1) ورد في مقال بعنوان (مستشرقون أعلنوا إسلامهم) قول مؤلفه ـ لم أجد اسمه ـ :(ويطيب لي هنا أن أُثَلثَ بثالثة الأثافي، قصة العالمة الألمانية زيغريد هونكة صاحبة الكتاب الشهير (شمس العرب تسطع على الغرب) والذي بينتْ فيه، كما هو معلوم، فضل حضارة المسلمين وتمدنهم على الغرب ونهضته الأخيرة بعد عصور الظلام التي غطتْ أوروبا في غطيطها قرونا طويلة.. زيغريد هونكة التي تَمَلّك حبُّ العرب وثقافتِهم ومجدِهم شَغاف قلبها بما لا يكاد أن يكون له مثيل بين الأوربيين وأحبتْ الإسلام لحبها لهم ولعلمها بأنه هو الذي أخرجهم بين الأمم خير أمة أخرجت للناس.

وقد حدثني بخبرها الدكتور علي الدفاّع عالم الرياضيات المعروف في جامعة البترول بالظهران بنفسه مشافهة قال: كنت في أحد المؤتمرات العلمية في أوربا وقد تحدثتُ إلى الدكتورة هونكة وكنت مطلعا على كتاباتها وإنصافها لعقيدتنا وحضارتنا ورأيتُها وقد كبِرتْ سِنُّها قلت لها: إن لي حلما جميلا أرجو له أن يتحقق!! فقالت لي: وما هذا الحلم.. قال فأجبتُها: بأن حياتك العلمية والثقافية الطويلة في الدفاع عن مآثر العرب والمسلمين وتاريخهم أرجو أن يكون لهذه الحياة الحافلة وهذه السيرة العلمية المميزة تكملة جميلة وأن تختم بأحسن ختام وذاك بأن تدخلي في الإسلام!! قال محدثي: وقد رأيتُ عينيها اغرورقتا بالدموع ثم قالت لي بالعربية الفصيحة:(بيني وبين ذلك قاب قوسين أو أدنى) قال فما مر عام أو أكثر حتى سمعتُ خبر اعتناقها للإسلام وسمعتُ خبر وفاتها بعد ذلك بمدة رحمها الله..

وعندما سُئلتْ في أحد المؤتمرات الإسلامية ما نصيحتها للمرأة العربية التي تريد طي الماضي وخلع الحجاب، قالت زيغريد هونكة:(.. لا ينبغي لها أن تتخذ المرأة الأوربية أو الأمريكية أو الروسية قدوة تحتذيها، أو أن تهتدي بفكر عقدي مهما كان مصدره، لأن في ذلك تمكينا جديدا للفكر الدخيل المؤدي إلى فقدها مقومات شخصيتها، وإنما ينبغي عليها أن تستمسك بهدي الإسلام الأصيل، وأن تسلك سبيل السابقات من السلف الصالح، اللاتي عشنه منطلقات من قانون الفطرة التي فُطرنَ عليها، وأن تلتمس العربيةُ لديهن المعايير والقيم التي عشن وفقا لها، وأن تكيف تلك المعايير والقيم مع متطلبات العصر الضرورية وأن تضع نصب عينيها رسالتها الخطيرة الممثلة في كونها أم جيل الغد العربي، الذي يجب أن ينشأ عصاميا يعتمد على نفسه)

قلت: لا أظنهم يفعلون..

قالت: هذا ما أطيق أن أجيبـك عنـه.. فلا تسـألني المزيـد من الأسئلة.

قلت: فأنت مسلمة تكتمين إسلامك!؟

قالت: ليس هناك أحد يعرفـه.. ثم ينكـره.. وليس هنـاك من يراه.. ثم لا يحبه.

قالت ذلك، ثم انصرفت تطلب أخاها، وانصـرفت على إثرهـا، وفي قلبي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلـك إلى شـمس محمد ﷺ.

تاسعا ـ فنون

في اليـوم التاسـع من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشــرق الــذي قطفت على يــده ثمــرة الفنــون من شــجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قولـه تعـالى في التنبيـه إلى الجمال الـذي اشـتملت عليـه السـماء: أَفَلَمْ يَنْظُـرُوا إِلَى السَّـمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (قّ:6).. وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (الحجر:16)

وقوله في التنبيه على الجمـال الـذي اشـتملت عليـه الأرض: وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَـا مِنْ كُـلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (قّ:7)

وقولــه في التنبيــه على جمــال حــدائق الأرض: أَمَّنْ خَلَــقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِـهِ حَـدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْـدِلُونَ (النمل:60).. وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْـهُ خَضِـراً نُخْـرِجُ مِنْـهُ حَبّـاً مُتَرَاكِبـاً وَمِنَ النَّخْـلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْـرَ مُتَشَابِهٍ انْظُـرُوا إِلَى ثَمَـرِهِ إِذَا أَثْمَـرَ وَيَنْعِـهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيـاتٍ لِقَـوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الأنعام:99)

وقوله في التنبيه على الجمـال الـذي جعلـه اللـه في الأنعـام: وَلَكُمْ فِيهَـا جَمَـالٌ حِينَ تُرِيحُـونَ وَحِينَ تَسْـرَحُونَ (النحـل:6).. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَـالَ وَالْحَمِـيرَ لِتَرْكَبُوهَـا وَزِينَـةً وَيَخْلُـقُ مَـا لا تَعْلَمُـونَ (النحل:8)

وقوله في الجمـال الـذي جعلـه اللـه في البحـر: وَهُـوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمـاً طَرِيّـاً وَتَسْـتَخْرِجُوا مِنْـهُ حِلْيَـةً تَلْبَسُـونَهَا وَتَـرَى الْفُلْـكَ مَـوَاخِرَ فِيــهِ وَلِتَبْتَغُــوا مِنْ فَضْــلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْــكُرُونَ (النحل:14)

وقولـه في التنبيـه على جمـال الإنسـان: وَصَـوَّرَكُمْ فَأَحْسَـنَ صُوَرَكُمْ (غافر:64).. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِـالْحَقِّ وَصَـوَّرَكُمْ

فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (التغابن:3)..: الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (الانفطار:7)

وقوله في الحض على أخذ الزينة والاهتمام بالجمال: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (لأعراف:31)

وفوق ذلك كله قوله تعالى وهو يصف جمال أفعاله ودقة صنعه: صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (النمل:88).. الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (السجدة:7)

وعرفت به سر نصوص أخرى كثيرة توجه الأبصار والأسماع وجميع وسائل الإحساس والإدراك إلى النظر إلى الجمال المبثوث في الأشياء وتذوقه وشكر الله عليه..

وهذا ما يجعل من كل مسلم فنانا ذواقة ممتلئا بالأحاسيس الجميلة التي يعبر عنها بأجمل قصائد مديح ربه وحمده.

***

كان من ضمن الأسماء التي وضعت في دفتر المرشد اسم (سير هاملتون جيب)(1)، ولم أكن أعرفه، ولكني كنت أسمع بحبه

---

1) هو سير هاملتون الكساندر روسكين جب (1895 – 1967) Sir Hamilton R. A. Gibb، ولد في الإسكندرية، ثم انتقل إلى اسكتلندا وهو في الخامسة من عمره للدراسة هناك ولكنه كان يمضي الصيف مع والدته في الإسكندرية. التحق بجامعة أدنبرة لدارسة اللغات السامية. عمل محاضراً في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن عام 1921وتدرج في المناصب الأكاديمية حتى أصبح أستاذاً للغة العربية عام 1937 وانتخب لشغل منصب كرسي اللغة العربية بجامعة أكسفورد. انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل مديراً لمركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد بعد أن عمل أستاذاً للغة العربية في الجامعة.

هو إمام المستشرقين الإنكليز المعاصرين، وهو عضو مؤسس في المجمع العلمي المصري، تفرغ للأدب العربي وحاضر بمدرسة المشرقيات بلندن.

بالإضافة إلى اهتمامه اللغوي فقد أضاف إلى ذلك الاهتمام بتاريخ الإسلام وانتشاره وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال تومارس آرنولد وغيره.

ومن أقواله التي جعلتنا نختاره لهذا الفصل:(إذا رأى أحد أن إلحاح القرآن على فعل الخير غير كثير أثبتنا له بالحجة القاطعة خطأه وسقنا إليه ذلك التعريف الشامل للبر في تلك

للأدب العربي وللفنون الإسلامية.. ولم أكن أدري سر ذلــك إلى أن التقيته في ذلك اليوم المبارك.. فعلمت سر ذلك الحب.

في ذلــك اليــوم من أيــام الربيــع، خــرجت إلى منــتزه من المنتزهات الطبيعية التي لم تمتد إليها بعد يد الإنسان.. وقد احترت إذ رأيت المنتزه خاليا، وكأن الجماهير زهدت في الطبيعة العــذراء، فراحت تبحث عن الطبيعة التي تلاعبت بها يد الصناع.

لكني رأيت رجلا مستلقيا على عشب ذلك المنتزه، وهو يترنم بشعر عربي فصيح، يتغنى به، ويكاد جسمه يرقص مع ترنيماته.

لم أشأ أن أكدر عليــه صــفوه، ولكــني في نفس الــوقت كنت مشتاقا أن أحدثه، فقد ناسب ذوقه ذوقي وســلوكه ســلوكي.. فأنــا أحب الشعر، وأتذوقه كما لا أتذوق أي فن من الفنــون، وخاصــة إذا امتزج مع الألحان الطيبة التي تحيله نغمات روحية رفيعة.

استلقيت مثل استلقاءته.. غير بعيد عنه.. ورحت أتــرنم بقــول علي بن أبي طالب:

ليس الجمال بأثوابٍ تزينُنا   إِن الجمالَ جمالُ العقلِ والأدبِ

الآية العظيمة:﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْـرِبِ وَلَــكِنَّ الْبِـرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَـامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَـابِ وَأَقَـامَ الصَّـلاةَ وَآتَى الزَّكَـاةَ وَالْمُوفُـونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَـئِكَ الَّذِينَ صَـدَقُوا وَأُولَــئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة 177)، فالبر إذن تاج الإيمان الحـق، حين يـدرك المـؤمن أخـيرًا أن اللـه شاهد أبدًا، ويستجيب لشهوده في كـل أفكـاره وأعماله) (دراسـات في حضـارة الإسـلام، ص 254)

وقوله:(هذه، إذن، هي الرسـالة الـتي بلغهـا القـرآن إلى الجيـل الأول من المسـلمين وظل يبلغها إلى جميع الأجيال منذ ذلك العهد. فـالقرآن سـجل لتجربـة حيـة مباشـرة في ميدان الألوهية، تجربة ذات طرفين: واحـد مطلـق وآخـر متصـل بشـؤون الحيـاة العامـة، ودعوة للمخلوق كي ينظم حياته ليتمكن من الأخـذ بنصـيب في تلـك التجربـة. وحين يتبـع المسلم أوامر القرآن ويسعى ليستكنه روح تعاليمه، لا بفكره فحسـب بـل بقلبـه وروحـه أيضًا، فإنه يحاول أن يستملك شيئًا من الرؤى الحدسية ومن التجربة التي كانت للرسـول الحبيب. ويعظم في عينيه مغزى كـل آيـة فيـه، لإيمانـه بأنـه كلام اللـه. ولـو لم يكن هـذا الإيمـان شـعبة من عقيدتـه لمـا تناقصـت قيمتـه لديـه من حيث هـو منبـع حي للإلهـام والاستبصار الديني) (دراسات في حضارة الإسلام، ص 254) انظـر: قـالوا عن الإسـلام، عماد الدين خليل.

فانتفض الرجل من مكانـه، وأسـرع يحث الخطـا إلي، وقـال: أعد علي ما كنت تقرأ.

أعدت عليه البيت، لكن بقراءة سريعة له..

قال: لا.. أعده كمـا كنت تقـرؤه.. فلا ينبغي أن يهـان الشـعر هكذا.

أعدت قراءته كما طلب مني، فقال: أرأيت.. هـذا هـو الأدب.. وهذا هو الفن.. وهـذا هـو الـذوق الرفيـع الـذي يرفـع الإنسـان إلى الإنسان.

قلت: أراك مهتما بالأدب العـربي.. ألـك علاقـة بـالعرب؟.. أم أنك عربي؟

قال: أنا لم يجذبني إلى هذا الأدب كونه عربيا؟

قلت: فما الذي جذبك إليه؟

قـال: أنـا رجـل أحب الفنـون الرفيعـة، وأشـعر أن إنسـانية الإنسـانية لا تكتمـل إلا بـالفن الرفيـع الـذي ينمي ذوقـه، ويصـقل مداركه، ويحيله طائرا جميلا يحلق في سماء الكون.

قلت: ما دمت بهذه الصورة.. فارحل إلى أمريكا.. ففيها بلـدة يقال لها (هوليـود) تنتج في كـل يـوم من أنـواع الفنـون مـا أنتجتـه البشرية في عمرها جميعا.

قال: قد عرفت تلك البلدة.. وسـكنت فيهـا.. وامتلأت بالغثـاء منها ومن أهلها ومن فنها.

قلت: فـاذهب إذن إلى المتـاحف العالميـة.. هنـا في بـاريس واحـد منهـا.. اذهب وانظـر إلى تلـك اللوحـات الزيتيـة الـتي تبـاع بملايين الدولارات..

قال: قد ذهبت.. ولكـني لم أشـعر بشـيء.. تلـك اللوحـات لا تمثل لي أي شيء.. لأن كل شخص يقرأ منها ما يشاء.

قلت: وما الحرج في ذلك؟

قال: أنا أبحث عن الفن الرفيع الذي يرفعـني.. لا الفن الـذي يضعني أو يحدث في تأثيرا مؤقتا سرعان ما يزول.

قلت: أنت تبحث عن الفن المرتبط بالإيمان.

قال: أجل..

قلت: فاذهب إلى الكنائس، فهي تمتلئ بالصور والأيقونات.

قال: لقد زرت الكثير منها.. ولكـني لم أر إلا آلهـة تـزاحم إلـه الكنيسة..

قلت: أراك لا يعجبك شيء..

قال: بلى.. لقد ظفرت بغايتي..

قلت: أين؟

قال: عند محمد.. وعند ورثة محمد.

قلت: أنت مسلم إذن؟

قال: إلى هذه الساعة لست مسلما.. ولكني أشـعر أنـه ليس هناك دين يستحق أن يتبعه عاقل وذواقة مثل الإسلام.

قلت: لم؟

قال: لقد بحثت في دور الفن وألوانه وأنواعه ورجالـه عن فن يحلق بالإنسان إلى الآفاق العليا من مراقي الكمال.. فلم أجــده إلا في دين محمد.

قلت من غير أن أشعر: من أنت؟.. لكأني بك أحد من أبحث عنهم.

قال: ما تقصد؟

تداركت الموقف، فقلت: لا أقصد شيئا.. لكن من أنت؟

قال: أنا (هاملتون جيب)

قلت: أعرفك.. أنت العالم والمستشرق المعروف.

قال: أجل.. وفوق ذلك أنا الباحث عن الفنون العاشق لها.

قلت: أعلم حبك للأدب العربي.. ما الذي جذبك إليه؟

قال: حبي للفن.. والأدب بالنسبة لي أرفع أنواع الفنون وأرقها وأبلغها في التعبير عن المشاعر.

قلت: فهل تحدثني عن نتيجة أبحاثك؟

قال: أجل.. لقد وجدت بعد تأمل طويل أن الفن الرفيع هو الفن الذي يحقق غايتين جليلتين كلاهما ترفعان الإنسان إلى أعلى مدارج الكمال.

قلت: ما هما؟

قال: التهذيب والتوحيد.

قلت: ما تقصد بذلك؟.. وما وجه الحصر في ذلك؟

قال: لقد وجدت أن الإنسان معدن لا يختلف عن سائر المعادن.. هو كسبيكة الذهب.. وسبيكة الذهب لا يعرف جمالها إلا بعد صقلها وتزيينها وتهذيبها.

قلت: والتوحيد.

قال: ليس للعقود ولا الأسورة أي قيمة ما لم تؤد الغاية منها..

قلت: فــأنت تــرى أن الغايــة من الفن هي الوصــول إلى التوحيد.

قال: أجـل.. لأن الغايـة من الفن أن يوصـلك إلى السـكينة.. ولن تجد السكينة في غير التوحيد.

قلت: فهل تحدثني عما توصلت إليه.

قال: يسرني ذلك.. فأنا لا أبشر إلا بذلك.

فنون الجاهلية

قلت: فهل سنبدأ بالحديث عن فنون الجاهلية؟

قال: أجـل.. فلا يعـرف الإسـلام من لا يعـرف الجاهليـة.. ولا تعرف الثمرة الطيبة إلا بمقارنتها بالثمرة الخبيثة.

قلت: فبأي جاهلية نبدأ؟

المسيحية:

قال: بالجاهليـة الـتي عقـدت البسـاطة.. وعـددت التوحيـد.. وحرفت التهذيب.

قلت: من تقصد؟

قال: المسحية التي عقدتها الكنيسة.

قلت: ولكن المسيحية دين.. وليست مدرسة فنية.

قال: لكـل دين مدرسـته الفنيـة.. ويسـتحيل أن تكـون هنـاك فكرة في الدنيا لا تعبر عن نفسها بأسلوب فني.

قلت: فكيف عبرت المسيحية عن نفسها؟.. ولماذا اعتبرت تعبيرها جاهلية؟

قال: لقد بحثت المسيحية في الفنون التي تستطيع بها أن تعبر عن ذاتها، فلم تجد إلا الصور والتماثيل.

قلت: لم اختارتها دون غيرها؟

قال: هي لم تختر.. ولكنها فرضت عليها.. المسيحية لم يكن لها من الحصون ما كان للإسلام، فلذلك اخترقت، وسهل التلاعب بها إلى أن صارت وثنية، أو اقتربت من الوثنية.

فكما اخترقت المسيحية في عقيدتها وشريعتها.. فقد اخترقت أيضا في فنونها.. بل تحولت فنونها إلى طقوس شعائرية لا تختلف عن طقوس الوثنيين.

قلت: ولكن شريعة التوراة تحرم التصوير ونحت التماثيل وتعده من أعمال الوثنيين.

قال: وشريعة التوراة دعت إلى تقديس السبت.. فهل تراه مقدسا عندنا؟

قلت: لا..

قال: فكذلك هذا.. وكذلك غيره..

أنت تعلم أن المسيحية كلها ــ بجميع شعائرها وطقوسها ـ عبارة عن محدثات تروق لرجال الدين.. فيجتمعون.. وسرعان ما يقررون.. وسرعان ما تتحول قراراتهم المشبعة بأهوائهم.. أو المشبعة بأهواء السلطة التي تحكمهم إلى دين.. ثم نأتي نحن لنصفها بالقداسة، ونظل نتعبد بها.

قلت: أهذا ما حصل مع الفن المسيحي؟

قال: أجل.. لقد نشأت عبادة الصور والتماثيل كأي بدعة أخرى ـ محدودة النطاق ـ ثم نمت تدريجياً وانتشرت في أرجاء واسعة لكنها لم تدخل في صلب الديانة المسيحية بصفة رسمية إلا في مجمع نيقية الثاني(1).

يقول ول ديورانت: (كانت الكنيسة أول أمرها تكره الصور والتماثيل وتعدها بقايا من الوثنية وتنظر بعين المقت إلى فن النحت الوثني الذي يهدف إلى تمثيل الآلهة، ولكن انتصار المسيحية في عهد قسطنطين وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية من أثر كل هذا قد خفف من حدة مقاومة هذه الأفكار الوثنية، ولما أن تضاعف عدد القديسين المعبودين نشأت الحاجة إلى معرفتهم وتذكرهم وظهرت لهم ولمريم العذراء كثير من الصور، ولم يعظم الناس الصور التي يزعمونها أنها تمثل المسيح فحسب بل عظموا معها خشبة الصليب حتى لقد أصبح الصليب في نظر ذوى العقول الساذجة طلسماً ذا قوة سحرية عجيبة)

ويذكر ديورانت كيف انتشرت هذه الوثنية بين العامة كانتشار النار في الهشيم، فقال: (وأطلق الشعب العنان لفطرته، فحول الآثار والصور والتماثيل المقدسة إلى معبودات يسجد لها الناس ويقبلونها ويوقدون الشموع ويحرقون البخور أمامها ويتوجونها بالأزهار ويطلبون المعجزات بتأثيرها الخفي.. وفي البلاد التي تتبع مذهب الكنيسة اليونانية بنوع خاص كنت ترى الصور المقدسة في كل مكان في الكنائس والأديرة والمنازل والحوانيت وحتى أثاث المنازل والحلي والملابس نفسها لم تخل منها، وأخذت المدن التى تتهدد أخطار الوباء أو المجاعة أو الحرب تعتمد على قوة ما لديها من الآثار الدينية، أو على ما فيها من الأولياء والقديسين.. للنجاة من الكوارث)(2)

---

1) انظر الكتب التي تتحدث عن العلمانية التي سبق ذكرها.

2) قصة الحضارة 24/154.

قلت: لقد سمعت أن بعض قومنا قاموا في وجه هذا النوع من الوثنية.

قال: نعم.. لقد حصل ذلك بتأثير الإسلام(1).. ولكن ذلك ـ للأسف ـ لم يتم بالصورة المثلى.. فقد ظل المتعصبون من رجال الدين هم الحكم في هذا.. بل إنه اجتمع مجلس من أساقفة الغرب دعا إليه البابا (جريجورى الثاني) وصب اللعنة على محطمي الصور والتماثيل.

وفي مجمع نيقية الثاني سنة 787 صدر القرار التالي، والذي عدل نوعا ما كان سائدا من عبادتهم: (إنا لا نحكم بأن توضع الصور في الكنائس والأبنية المقدسة والملابس الكهنوتية فقط، بل في البيوت وعلى الجدران في الطرقات، لأننا إن أطلنا مشاهدة ربنا يسوع المسيح ووالدته القديسة والرسل وسائر القديسين في صورهم شعرنا بالميل الشديد إلى التفكير فيهم والتكريم لهم، فيجب أن تؤدى التحية والإكرام لهذه الصور، لا العبادة التي لا تليق إلا بالطبيعة الإلهية)(2)

سكت قليلا، ثم قال: ليت الأمر اقتصر على المسيح وأمه، بل إن الكنيسة تجرأت فصورت الله كما تصور المخلوقين..

لقد قال الفنان الذي هرب من المسيحية إلى الإسلام (ناصر الدين دينيه): (الدين الإسلامي هو الدين الوحيد الذي لم يتخذ فيه الإله شكلاً بشريا أو ما إلى ذلك من الأشكال.. أما في المسيحية فإن لفظ الله تحوطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن في السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال، فمن تجاعيد الوجه غائرة إلى لحية بيضاء مرسلة مهملة تثير في النفس ذكرى الموت والفناء، ونسمع القوم يصيحون (ليحي الله) فلا نرى للغرابة محلاً، ولا نعجب لصيحاتهم وهم ينظرون إلى رمز الأبدية

1) انظر الفصل الأول من هذه الرسالة.

2) محاضرات في النصرانية: 164.

الدائمة، وقد تمثل أمامهم شيخاً هرماً قد بلغ أرذل العمر، فكيـف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء، وكيف لا يطلبون له الحياة؟ كذلك (يا هو) الذي يمثل بـه طهـارة التوحيـد اليهـودي، فهم يجعلونـه في مثـل تلـك المظـاهر المتهالكـة تـراه في متحـف الفاتيكـان ونسـخ الإنجيل القديمة المصورة)[1]

والعجب أن أحـد علمائنـا الكبـار يقـول مقـررا: (لا يمكننـا أن نفهم الله إلا عن طريق تصوره بالصور البشرية)[2]

التفت إلي، وقـال: أتـدري كيـف تسـربت هـذه الوثنيـة إلى المسيحية؟

قلت: لا..

قال: لقد كان الهدف الأكبر لمبشرينا هو إدخال أكبر عدد من الناس، ولـو على حسـاب المبـادئ والقيم والقـوانين الـتي تحفـظ صفاء الدين.. وهذا ما تختلف فيه مع الإسلام اختلافا جذريا.

سأضــرب لــك مثــالا على ذلــك.. لقــد دخلت بعض الجــزر البريطانية في المسيحية.. وكانت شـديدة التمسـك بوثنيتهـا.. ودار بينهم وبين الكنيسة صراع طويل، ولما رأى البابا (جريجورى) ذلــك اصطنع اللين مع من بقى في إنجلـترا من الوثنـيين، وأجـاز تحويـل الهياكل إلى كنائس بـأن تحـول عـادة التضـحية بـالثيران في يسـر ولطف إلى ذبحها لأنعشهم لمديح الله، وبهذا كان كل ما طـرأ على الإنجليز من تغير، هو تحولهم من أكل لحم البقر حين يحمدون الله إلى حمد الله حين يأكلون لحم البقر)[3]

التيه:

1) أشعة خاصة بنور القرآن: 25.

2) الله واحد أم ثالوث: 14.

3) قصة الحضارة 14: 368.

قلت: لقد طلق الناس الكنيسة.. فهل وجدوا فنا صالحا يخدم ما وجدته من أهداف بعدها؟

قال: الفن مثل الثمـرة.. وكمـا أن الثمـرة لا تلام على نوعهـا ولونها، فكذلك لا يلام الفن؟

قلت: فمن الملوم؟

قال: البذرة.. البذرة هي التي تنتج الثمرة.. كما قال المسيح: (هل تجتنون من الشوك عنبا، أو من الحسك تينا.. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة، وأما الشجرة الرديـة فتصـنع أثمـارا رديـة) (إنجيل متى:7/16-17)

قلت: فما البذرة؟

قال: هي الأفكار التي تملأ عقل صـاحبها وقلبـه، فيـأبى إلا أن يعبر عنها بما يطيق من صنوف التعبير.

قلت: فهمت هذا.. ولكني سألتك عن أنواع الفنون التي هــرع إليها قومنا بعد أن طلقوا الكنيسة.

قال: قد أجبتـك.. لقـد تـوزعت عقـولهم تبحث عن أي شـيء يغطي ذلك اللهث وراء الحقيقة.

قلت: فهل وجدوها؟

قال: للأسف قل من وجدها.. مع أنها كـانت أقـرب إليهم من حبل الوريد.

قلت: فما الذي منعهم منها؟

قال: أنفسهم.. الكبر الذي كانت نفوسهم ممتلئـة بـه منعهم.. فلذلك وقعوا في وديان سحيقة لم تزدهم إلا بعدا عن الحقيقة.

قلت: هذا كلام عام أريد تفاصيله.

قال: كثيرة هي تفاصيله.. ولكني سأذكر لـك نمـاذج عن ذلـك التيه الذي وقع فيه قومنا، ووقع فيه الفن بسبب ضياعهم.

الكلاسيكية الجديدة:

قلت: فما النموذج الأول؟

قال: أول قبلة التفت إليها قومنا ــ بعـد أن طلقـوا الكنيسـة ـ جـذورهم الأولى.. وجـاهليتهم الأولى.. لقـد وجـدوا أن الكنيسـة لم تلب مطالبهم النفسية.. فعادوا إلى الخلف يبحثون عنها.

قلت: تقصد المدرسة الكلاسيكية؟

قال: أجل.. فقد اقترن مـا نسـميه (عصـر النهضـة) الأوربيـة بالحركة التى نشأت فى إيطاليا، واستهدفت بعث الآداب الإغريقيـة القديمة التي أطلق عليهـا أسـم (الآداب الإنسـانية) تميـيزا لهـا عن كتابات رجال الكنيسة اللاهوتية.

لقد فوجئت أوروبا الغارقة فى سبات القرون المظلمـة بنـور الحضـارة الإسـلامية فـانبهرت بـه وأحسـت بواقعهـا المريـر تحت ضـغط الكنيسـة الـتى جثمت على فكرهـا وشـعورها وسـلوكها وأفقدتها الإحساس بإنسانيتها.

وهذه اليقظـة المفاجئـة أوقعت النفسـية الأوربيـة فى مـأزق حرج إذ تصادم فى داخلها دافع ومانع قويان: الأول دافع الاسـتمتاع بنور الإسلام والدخول فى فـردوس حضـارته حيث التـوازن الفريـد بين الـدنيا والآخـرة، وبين الـروح والجسـد، ففى ظلـه تنطلـق إنسـانيتهم لتعـبر عن ذاتهـا بعيـداً عن أغلال الرهبانيـة وشـطط الكنيسة.

والآخر مانع التعصب والعداوة الحاقدة للإسلام وحضارته تلـك التى عمقتها الحروب الصليبية.

وكان المانع أقوى من الدافع، فخرجت أوربا من ذلك التناقض النفسى بالبحث عن وسـيلة تـتيح لهـا الخلاص من بـراثن السـلطة الكهنوتيـة الطاغيـة دون أن تتخلى عن تعصـبها وعـداوتها للإسـلام وأهله ولم تكن تلك الوسيلة سوى عمليـة (اجـترار الماضـى) ببعث تراثهـا الوثـنى الإغـريقى والالتصـاق بـه لاسـيما جوانبـه الشـهوانية البهيمية.

قلت: لقد كان للكنيسة بعض سلطة في ذلك الحين.. فكيــف لم تثر عليه؟

قال: نعم.. لقد أزعج هذا التوجه الكنيسة.. ولكنه ـ مـع ذلـك ـ كان أفضل لديها من إقبال أتباعها على الإسلام.

لقد حاولت جهدها أن تسير الموجة لصـالحها، وتسـيطر على الوضع بحيث تبقى عقائدها وتصوراتها تصبغ الأدب، وتظل بصــماتها بارزة فى فنه المنحوت والمرسوم، ولكن عوامل التحرر والانطلاق كـانت أقـوى من حواجزهـا، واسـتطاع عصـر النهضـة أن يخطـو خطوات كبيرة وجريئـة للوصـول إلى علمانيـة كاملـة للأدب والفن عليها قام الأدب العلمانى الحديث وارتكز(1).

قلت: أراك تتكلم عن هـذا النـوع من الفن باعتبـاره جاهليـة.. ولكني بحسب ما أعلم هو الفن الذي تـولى التعبـير عن العواطـف الإنسانية العامة.. وربطه بالمبادئ الأخلاقية، ووظفه لخدمة الغايات التعليمية واحترام التقاليد الاجتماعية السائدة.

قـال: هـذا مـا يقـال.. وفيـه بعض الحقيقـة.. وفيـه كثـير من الباطـل.. سـأذكر لـك بعض خصـائص هـذا التوجـه لـترى نـواحي الجاهلية فيه.

لقد كانت الخطوة الأولى التي خطاها هذا النوع من الفن في انفلاته من الكنيسة هو إحياء الآداب الإغريقية.. حيث استطاع أدبـاء

---

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب.

وفنانو النهضة النفاذ إلى عالم آخر خـارج من مـألوف عصـرهم ولا أثر فيه لشيء من اللاهوتيات.

لقد نفذوا أول الأمر من كوة صغيرة، لكنها ظلت تتسـع حـتى انتفض بنـاء الكنيسـة والتقاليـد من أساسـه، وطلعـوا على الفكـر الأوروبى بمفـاهيم جديـدة ومعـايير سـبقوا بهـا النهضـة الفكريـة العقلانية، وذلك ما يعده الفكر الحديث أعظم مآثر النهضة.

قلت: لقد وضعت معيارين للحكم على الفنـون، همـا التوحيـد والتهذيب.. فهل ترى هذا النوع من الفن مناقض لهما؟

قال: كل المناقضة.. ولا ينبغي أن يكـون الأمـر إلا كـذلك.. فلا يمكن لمن زرع شوكا أن يجني عنبا.

قلت: فحدثني عن دلائل ذلك.

قال: هذه المدرسة كما ذكرت لك ـ أو هذا العصر ـ انطلق رد فعل على الكنيسة وعلى انحرافات الكنيسة..

ولذلك كان أول ما اهتم به هو الحيـاة الـدنيا.. والإنسـان.. لأن الكنيسة كانت تلغي كليهما.

قلت: هذا مكسب جيد.

قال: ولكنه مكسب منحرف.. لأنه لم ينتج فعلا.. وإنما نتج رد فعل.. ورد الفعل صراع.. والصراع لا يأتي بخير.

لقد كانت الكنيسة تحصر كل النشاط الفكرى والفنى لأتباعها فى مجال الحديث عن الثالوث والقديسـين والملائكـة والمعجـزات وكبت المشـاعر والأحاسـيس الإنسـانية أيـا كـانت مـا لم تكن فى حدود دائرتها اللاهوتية.

ولهذا جاءت هذه الحركة تناقض ذلك تماما حتى أطلـق عليهـا وصف (الإنسانية)

لقد قام دانتى (ت 1321م) فى هذا المجال بمثل ما قـام بـه (مكيافيللى) فى مجال السياسة، فقد خـرج على الكنيسـة خروجـاً صريحاً، وناقص تقاليدها ومقاييسها، وابتداء منه أخـذ الأدب الأوربى بحل الإنسان شـيئا فشـيئا محـل (الإلـه).. وبـذلك انتقضـت عـروة التوحيد.. وارتباط الفن بالغاية الكبرى من وجود الإنسان.

لقد صار الاهتمام بالإنسان ـ الذى نبه إليه دانتى ومعاصـروه ـ المنطلق لمحاولـة تأليـه الإنسـان وتصـويره على أنـه الـه حقيقى، وهى المحاولة التى بدأت فى القرن التاسع عشر واكتملت على يد (سارتر) وأشياعه فى هذا القرن مـروراً بتأليـه الطبيعـة الـذى دعـا إليه عصر التنوير.

ذكر (داونز) ذلك، فقـال: (يقـف (دانـتى) كمـا وقـف صـديقه ومعاصره المصـور الرسـام (جيوتـو) على رأس حقبـة جديـدة فى تطور الفكر البشرى، ولما كان كلاهمـا فنانـاً عظيمـاً، فإنهمـا عـبرا أصدق تعبير عن ذلك الشـيء الجديـد الـذي ربمـا كـان يجيش فى صدور الكثير من معاصـريهم، ولكنهم لم يسـتطيعوا الإفصـاح عنـه كما أفصحا)

ويقول: (وهذا الشيء الجديـد هـو (الإنسـانية).. أو هـو بتعبـير آخر الاهتمام بشئون الإنسان فى الحياة الدنيا.

ونستطيع أن نتفهم خطورة هذا الجديد الذى يزاحم القديم إذا قارناه بالعقائد المسيطرة على أذهان الناس فى ذلـك العصـر عن الحياة والكون … ومؤداها أن الحياة الدنيا ليست إلا تمهيداً لاستقبال الحياة الأخـرى، وقـد هيمن هـذا الاعتقـاد على النـاس فى القـرون الوسطى جيلاً بعد جيـل تحت سـطوة الكنيسـة وسـيطرتها العاتيـة على جميع نواحى النشاط الإنسانى وجميع المؤسسات الاجتماعية بينما كـان علم العلمـاء كلـه يـدور حـول المبـادئ الدينيـة والعقائـد الكنسية)

ويقول: (ثم جاء عقب ذلك عصر الاستنارة، وهو أول تبديل جديد طرأ على الناس فى نظرتهم للحياة، فاتجهوا إلى أحضان الطبيعة يستوحون منهما أسرار الكون ووضعوا ثقتهم المطلقة فى مقدرة العقل الإنسانى)

ويقول: (وقد نادى بهذا نفر من عباقرة ذلك العصر، ... كان مجالهم الفكرى فى ناحية الاهتمام بشؤون الإنسان فى هذه الدنيا وترك الاهتمام بشؤون الآخرة)

ويقول: (وأما (جيوتو) فكان فنان هذه النهضة كما كان دانتى شاعرها فقد أخذ جيرتو يرسم على جدران كنائس مدينة (أسيزى) صوراً وأقاصيص لحياة القديس فرانسيس عرض بها رسوماً من الناس والطبيعة والطير والحيوان والزهور من واقع الحقيقة والمشاهدة وهو حدث جديد فى الفن وخروج التقليد القديم فى تصوير العذراء والطفل وتصوير القديسين).

ويقول: (إن ملحمة الكوميديا كانت حدثاً جديداً فى الأدب، حدثاً ضخماً لم يسبق له مثيل، فليس إذن من العجب أن يدعوها الناس بلقب (الإلهية) لأنهم شعروا عند ظهورها أن أدبا أوروبيا جديداً قد انبثق فجره)

ويقول: (إن الناس كانوا يعتقدون ما علمتهم الكنيسة من أن كل إنسان يكفر بالمسيحية جزاؤه جهنم، وأما من يؤمن بها فمآله إلى الجنة، وجاء دانتى فخرج من تلك العقيدة القديمة وأقام موازين جديدة للعقاب والثواب على أساس من الأخلاق.. وعندما ننظر اليوم إلى الوراء نجد شاعراً يوزع بالقسطاس العقاب والثواب بدلاً من أن يوزعها البابا، فإننا لا نرى فى عمله شيئا خارقاً غير أنه بالقياس إلى عصره كان لا شك انقلاباً خطيراً)

ويقول: (وقد صدق الشاعر بوب عندما عبر عن فلسفة القرن التالى (18) بقوله: (إن خير دراسة يقوم بها البشر هى

دراستهم للإنسان)، وقـد كـان شكسـبير قبلـه خـير من قـام بهـذه الدراسـة، والحـق أن شكسـبير يمثـل أرقى مـا بلغت إليـه حركـة النهضــة الأوربيــة بأجمعهــا، وهى فى لبابهــا تتلخص فى اكتشــاف الجنس البشرى لقيمته وأهميته الـتى كـانت قـد ضـاعت على مـر العصور)(1)

وبذلك بدأ الانحـراف الثـاني للفن.. وهـو الانحـراف عن غايـة التهذيب..

وذلـك شـيء منطقي.. فكـل فن يبتعـد عن التوحيـد لابـد أن يبتعـد عن التهـذيب.. ويكـون بعـده عن التهـذيب بقـدر بعـده عن التوحيد.

وبما أن هذا المذهب ابتعد كثيرا عن التوحيد.. فقد ابتعد بمثل ذلك عن التهذيب..

لقد عاد المذهب المناهض للكنيسة وللرهبانية، فأحيـا الإباحـة الرومانية، وأعاد معها إحياء المذهب الأبيقورى فى التمتـع بضـروب الملذات والانغماس في الشهوات الجسدية.

وهكذا كان عصر النهضة يتسم بطابع كلاسيكى خاص يقــدس الجســد، ويعبـد اللـذة فى وقت لا تـزال الرهبانيـة فيـه هى المثـل الأعلى، ووجه زعماء ذلك العصر أنظار الناس إلى مثالب الرهبانيـة بحجة منافاتها (للإنسانية)، وهو الوصف الذى كانوا يتسترون به.

وكمثال على ذلك هذه القصيدة المبتذلة:

نحن فى تجوالنا مغتبطون مشرقون ...

نأكل حتى الشبع نشرب حتى الثمالة ...

---

1) كتب غيرت وجه العالم: مقتطفات: من 362 – 368.

نمرح إلى الأبد ننهل من الجحيم ...

تلتصق صدور بعضنا ببعضنا ...

وعندما نشأ أدب علمانى عامى لم يجد إلا أن يصدر من نفس التمتع الوثنى بخيرات الحياة الرفيع منها والوضيع، فالشعراء المغنون (التروبادور) حولوا الفروسية المسيحية إلى تمجيد للحب الإنسانى ... ومن الجدير بالملاحظة أن أكثر هذه القصائد صراحة وواقعية نشأت من الثقافة البرجوازية فى المدن، فالأقاصيص الفرنسية البذيئة وصفت بصورة حاذقة التمتع بضروب الحياة كما كان يحصل فى الواقع وتميزت بشغف خاص بسرد قصص الماكرين الأوغاد ومثالب الكهنة كما نجد ذلك فى قصائد شوسر ومعرض صور الأوغاد التى رسمها بوكاشيو.

لقد رسم بعضهم صورة للفن في ذلك العصر، فقال: (انفجرت العاصفة بكامل عنفها على رأس الراهب، ذلك أن فشل الراهب فى تحقيق الطهارة التى بشر بها جعلت أدب القرون الوسطى منذ ولادته يعطى لزلات الراهب صورة أكثر بشاعة، وصورته بأنه أكثر حيوانية من سواه، وجاء أحذق الإيطاليين وأجرؤهم إطلاقاً لورنزفالا ... فأنكر فى كتابه (حياة الرهبانية) كل قيمة للتقشف والقداسة، وذهب أبعد من ذلك فى رسالته عن اللذة التى يتفق فيها مع المذهب الأبيقورى، فأعلن أن المرأة المتزوجة بل المستهترة أيضا هى أفضل من الراهبة، لأنها تسعد الرجل أما الراهبة فهى تعيش فى تبتل لا فائدة منه، وينعت موت الإنسان فى سبيل بلاده أو من أجل أى مثل أعلى بأنه لا يقره العقل.

وهذا التحول المفاجئ يوحى فى بعض الأحيان بالرجوع إلى ما يشبه الوثنية الخالصة، ويمثل الفن الإيطالى أحسن تمثيل المزج الكامل بين المسيحية والوثنية فلو ألقينا نظرة على بعض الرسوم

الشهيرة هل نستطيع التفريق بين اللــه والملاك والعـذراء والصـبى وكيوبيد والقديس)

وقال: (ثار الإيطاليون على الأخلاق المسيحية، واسـتبدلوا بهـا مجــرد التمتــع بــالملايين من أشــكال الجمــال ... لكن الشــعوب الشمالية وجدت فى الحياة أكثر من الجمال وقد مثـل هـذه الـروح فيما كتب رابليه الكبير ...

وتتجسم روح ثـورة النهضـة فى مقطـع يطلب منارابليـه فيـه (أن نهــرب من أولئــك الرعــاع ذوى العقــول الزائفــة المــاكرين والقديسين المـزورين الوقـورين الهيئـة المـرائين مـدعى الإيمـان، الإخوان الخشنين الرهبان الذين يلبسون النعال ... أهرب من هـؤلاء الرجـال عليـك بكـراهيتهم واحتقـارهم قـدر مـا أكـرههم أنـا وإنـنى لأقسم لك أنك إن فعلت فستجد نفسك أفضل حالاً)(1)

هذه هي بداية جاهلية التيه والضياع.. وقـد تلى هـذه الجاهليـة جاهليات أخرى عمقت ما بدأ به هذه الجاهلية من البعـد عن اللـه.. والبعد عن الإنسان.

الرومانسية:

قلت: لقد خرجت أوروبا من عصر النهضة وابتدأ مـا يسـمونه (العصر الحديث)

قال: ولم تطق أوروبا الاستمرار مع (الكلاسيكية).. بل ارتدت عليها كما ارتدت على الكنيسة..

قلت: لقد ارتدت عليها فيما يسمى (عصر التنوير)(2)..

---

1) مقتطفات من: راندال: 2/185 – 198.

2) لا شك أن الثورة الفرنسية (1798م) هي أحد العوامل الكـبرى الـتي كـانت باعثـاً ونتيجـة في آن واحـد للفكـر الرومانسـي المتحـرر والمتمـرد على أوضـاع كثـيرة، أهمهـا الكنيسة والواقع الفرنسي وما فيه.

قال: أجل.. وقد بدأ مذهب فني جديد.. أو عصر فني جديـد.. هو (الرومانسية)

قلت: إن سمعة الرومانسية بيننا طيبة، فهي مذهب فني يهتم بالنفس الإنسانية وما تزخر به من عواطف ومشاعر وأخيلة.

قال: ولكنه اهتمـام منصـرف عن الركـنين الأساسـين اللـذين يجعلان الأدب سلما للكمال والتهذيب والإصلاح.

قلت: ما تقصد؟

قال: لعل أصدق تعبير عما حصل في ذلك العصر هو ما قاله مؤلفو كتاب (ثلاثة قرون من الأدب).. لقد قالوا: (إن القرن الثـامن عشر لم يخصص للدين، وإنمـا خصـص للعلم والسياسـة، فلم يعـد زعماؤه قساً مسيحيين ... بل فلاسفة طبيعيين ..... لقـد كـان التغـير عميقـاً ومن نـواح عـدة كـان القـديم والجديـد عن طـرفى نقيض، فالتطلع إلى ما وراء أشياء هذا العالم قـد تراجـع أمـام التطلـع إلى أشياء هذا العالم، لقد أصبح القديسين الدائر حول محور الله عالما إنسانيا محوره هذا العالم والحيـاة الـتى كـانت تسـير بهـذا الكتـاب المقدس، ولم يعد العالم مكاناً حيث العناية الإلهيـة دائمـة الحضـور والفعل تضبط وتدير كل ما يحدث حـتى التافـه منـه (!) حـتى اللـه ذاته لم يعد شخصياً، أبا يحب ويرهب، بل أصبح قوة عاقلة سـحيقة البعـد لا شخصـية، (علـة أولى) أدارت الآلـة وتركتهـا تعمـل بنظـام كامل وفق نواميس رياضية وفيزيائية ويسوع ابن الله أصبح يسـوع ابن الإنسان(؟!))

(ولم يعـد موضـوع البحث للجنس البشـرى هـو اللـه، بـل الإنسان)

(وتحسين حال الإنسان يمكن توقعها لا عن طريق الدين بقدر مـا يمكن توقعهـا عن طريـق العلم والتربيـة والسياسـة الـتى بهـا يستطاع إصلاح المجتمع)

هذه هي الميزة الأول للرومانسية، وعنها نشأ (تأكيدها على سيادة القلب وحياة النفس الداخلية).. أي حصر كل الاهتمامات فى حدود الكائن البشرى، بل فى أعماق النفس الفردية.

ولهذا ينتقد الرومانسيون الكلاسيكية بأن الهدف منها تصوير البشر، لا كما هم فعلياً ولكن كما هم مثالياً..مما جعل الأدب تقليدا وليس تعبيراً، ولذلك فقد أهمل الرومانسيون الملاحم وحوروا المسرحيات، ونحوا بالأدب منحى شخصياً داخلياً، فالكتابة الفنية تأتى فى صورة اعترافات أو سيرة ذاتية والشعر يصبح غنائيا عاطفياً يعبر عن المعانى الوجدانية للبشر كالعشق والفرح والألم ويبتغى ـ بالدرجة الأولى ـ إثارة السامع وامتاعه.

وكان من أبرز العوامل الاجتماعية المهيئة لذلك طابع الفروسية التى كانت فى ريعان شبابها إذ احتضنت الرومانسية حتى اندمجت فى كيانها، وأصبح الرومانسيون اللسان المعبر عن الحياة الفروسية بخصائصها وفضائلها.

وقد أفصح بعض زعماء المذهب عن علاقة (رد الفعل) القائمة بين الاتجاه الرومانسى والمسيحية، فالمسيحية كما عرفوها تكبت الإنسان و(تصيبه بالميلانخوليا)، ومن ثم فهى مسؤولة عما أصاب الإنسانية من الانطواء والكآبة (وقد عزا الناقد الرومانسى الألمانى شليجل الكآبة إلى الدين المسيحى الذى جعل الإنسان منفياً يشتاق إلى وطنه البعيد)(1)

وانطلاقاً من ذلك وتمشياً مع التركيز على التعبير عن الذات جهد أولئك فى أن يحولوا الشرق الصوفى المسيحى الذى كان يتجه إلى الله أو (يسوع) إلى حب عذرى أو إباحى يعبر عنه فى أسلوب غنائى، ويتجه إلى الجمال الخارجى للمحبوب الذى كان فى الغالب امرأة وأحياناً (الطبيعة)

---

1) ثلاثة قرون من الأدب: 1/134.

قلت: فقد انحرفت الرومانسية بالفن إذن عن الغايـات الـتي ذكرتها.

قال: أجـل.. وذلـك شـيء طـبيعي.. فقـد انتشـرت في ذلـك العصر عبودية إلهين مقدسين بدل أقـانيم الكنيسـة همـا (الطبيعـة والعقل).. الطبيعة التي حلت محل (الله).. والعقل الذي حل محـل (الوحى)

وقد وثـق الهـاربون من طغيـان الكنيسـة العلمى فى مقـدرة العقـل وثوقـاً أعمى، وكـان لكشـف كـوبرنيكس وقـانونين جـاليلو ونيـوتن ومبـادئ بيكـون وديكـارت العقليـة أعظم الأثـر فى تمجيـد العقل بل عبادته، ولما كان جل همم إغاظة الكنيسـة والانتقـام من عبوديتها فقد اشتطوا وغلوا فى ذلك إلى أبعد الحدود.

لكنهم مـا كـادوا يلتقطـون أنفاسـهم وتسـتقر أعصـابهم من مطاردة الكنيسة حتى بدأ بعضهم يبحث عما إذا كـان إلـه (العقـل) جديراً بما أعطى من قيمة وتقديس أم لا؟

وكانت النتيجة مـرة.. وهى أن العقـل عـاجز حقـاً عن تفسـير الطبيعة، وإذ كـان كـذلك فهـو أعجـز عن تفسـير النفس الإنسـانية وفهمها.

واسـتطاعوا أن يكتشـفوا طريقـاً آخـر أرحب من العقلانيـة بمنطقهـا الجامـد وقوالبهـا المحـددة، وأقـوى من العقـل اختراقـاً للأسـرار وتبديـداً للغمـوض، ألا وهى (الشـعور العـاطفى)، ذلـك الشعور الذى يمتطى آفاق الخيال الواسـعة، فيسـبر أغـوار الـذات الإنسانية العميقة ويستجلى جمال الطبيعة.

وهكـذا أخـذ الرومانسـيون يرتفعـون رويـداً رويـداً عن الأرض ويحلقـون فى الفضـاء السـحيق ولكن إلى غـير اللـه.. ومن غـير طريق المسيحية.

كانوا يتحدثون عن الحب، ويبحثون عن الجمـال، ويفلسـفونها فى أسـاليب ضـبابية كثيفـة، كمـا كـانوا يتحـدثون عن الشـياطين والملائكة والسحر والعوالم المجهولـة فى محـاولات دائبـة ويائسـة لاستكناه أسرار الكون وتحقيق السعادة الداخلية.

وأصبحوا ينقبون عن الحقائق الأبدية ـ لا فى الكتاب المقدس، ولا فى المؤلفـات العقليـة ــ ولكن فى صـفحة الطبيعـة الخلابـة ومناظرها الحالمة، وكل هذا أفضى بهم إلى مثاليـة معرفـة جوفـاء أعظم فى بعض جوانبها من تلك التى انتقدوها على الكلاسيكيين.

ونتيجـة أخـرى مهمـة هى أن الرومانسـية باعتقادهـا أن غايـة النشوة وقمة السـعادة تكمن فى أن يطلـق الإنسـان عنـان نفسـه لتذوب فى حب الطبيعة ويفـنى الصـوفى فى معبـوده ولـذا أحلت (الطبيعة) محل (الله) والشعور محل العقل.

وبهـذا تكشـفت الرومانسـية عن صـورة وثنيـة جديـدة (وكـل الكلام الجميل المعسول الذى قيل لتبرير هذه الوثنية: أن الطبيعــة (محراب) الله وأن الجمال (صورة الله).. إننا نعبد الله فى خلقـه ... إلى آخـر هـذه الجمـل (الرومانتيكيـة) البراقـة.. كـل هـذا الكلام لا يستطيع أن يخفى تلك الروح الوثنية الغارقة فى الوثنية الـتى تعبـد المحسوس فى حقيقة الأمر لأنها تعجز عن إدراك (اللـه) بـالروح ... والروح غنية بالمحسوسات)(1)

لقد عبر روسو ـ رائد الرومانسية ـ عن ذلك أوضح تعبـير فى (راهب سافوى) الذى هو صـورة لذاتـه، إنـه راهب بالفعـل، ولكنـه يختلف جذرياً عن رهبان الكنيسة، فهو راهب فى صـومعة الطبيعـة يسبح بحمدها ويقدس لها.

وفى كتابات روسو (الاعترافات مثلاً) وقصائد بوب (مقال عن الإنسـان) وجوتـه (فاوسـت) وكـذلك كيتس ولامـارتين وأضـرابهم

1) جاهلية القرن العشرين: 226 – 227.

نماذج واضحة للمذهب الرومانسى فى أوج مجده.

الواقعية:

قلت: لقد ارتددنا على الرومانسية كما ارتددنا على الكلاسيكية.

قال: ذلك شيء طبيعي.. لقد عبر القرآن عن هذه الارتدادات التي تصيب من لا يصيب الحق، فقال: وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (النور:39)

فالظمآن حسبما تشير إليه هذه الآية يظل ظمآن ما دام لا يجد إلا السراب.. وحبه للماء يجعل يلهث وراء كل سراب طمعا في أن يكون ماء.. ولكن السراب لا يتحول إلى ماء.

قلت: فأين القرار؟

قال: لقد ذكرته الآية: وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ .. القرار لا يكون إلا عند الله.. ولا يكون إلا في التوحيد.. لقد قال القرآن: وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (القمر:3)

القرار والسكينة والطمأنينة مفردات لا يمكن أن توجد إلا في النصوص المقدسة التي لم تمتد إليها يد العابثين.

قلت: فما السراب الجديد الذي خلف الرومانسية؟

قال: عقلك يدل عليه..

قلت: لم أفهم..

قال: ما دامت الرومانسية التي هي هروب للخيال لم تطفئ ظمأ الإنسان.. فإنه سيفر من الخيال ليبحث عن الواقع..

قلت: فقد خلفتها الواقعية إذن؟

قـال: أجـل.. وبئس الخلـف كـان.. لقـد وقعت الواقعيـة في رذائل لم تسبق إليها.

قلت: كيف كان ذلك؟

قال: لقد كانت الرومانسية بخيالها الجانح صـورة صـادقة لمـا يمكن أن يسمى (عصر الهـروب).. الهـروب من طغيـان الكنيسـة، والهــروب من نــير الإقطــاع، والهــروب من تقاليــد الماضي(1).. وجـاءت الثورتـان الفرنسـية والصـناعية وجـاءت الحـروب الدينيـة والقومية، وتغـيرت ملامح الحيـاة تغـيراً بـارزاً، فكـان لا بـد لصـورة الحياة (الأدب) أن تتغير كذلك.

في هذا العصر ــ الـذي دخلت فيـه الآلـة حيـاة الإنسـان ــ لم ينحصـر الاهتمـام بالإنسـان دون الآلـة فحسـب، بـل اقتصـر ــ من الإنسان ـ على وضعه الدنيوى ومكانتـه الاجتماعيـة.. وعلى واقعـه المعيشى وجزء معين من نزواته ورغباتـه والظـروف المحيطـة بـه التى يتأثر بها سلباً وإيجاباً.

وكعادتنــا في الســقوط الحــر ســقطنا ســقوطاً مفاجئــا من الفضاء السحيق إلى الوحل الهابط.

لقد كانت الرومانسية تحاول تصوير أعلى مـا يمكن أن يصــل إليه الإنسان من القوة والمثالية فى مواجهة تحدى الإله أو الطبيعة أو حتى نزواته وأهوائه، فجاءت الواقعية لتصوره فى أدنى ما يمكن أن يصل إليه من الهبوط فى لحظات الضعف القاتلة.

لقد كان الإنسان ـ في الرومانسية ـ يصـارع الأقـدار، ويحـاول إخضاع الطبيعة.. ولكنه في (الواقعيـة) ينهـزم بضـعف أمـام نـزوة عابرة ولذة ساقطة.

لقد أخذ الواقعيـون على الرومانسـية أنهـا في جميـع أعمالهـا

---

1) انظر: جاهلية القرن العشرين: 221.

الفنيـة تقتصـر على تصـوير الإنسـان المثـالى واللحظـة المثاليـة والمنظر المثالى.. ولذلك راحوا للواقع يصورونه، بل يفضـحونه من غير محاولة تهذيبه ورفعه.

نظر إلى الأفق البعيد، وقال: لقد كـان انحـراف الكنيسـة هـو السبب في كل تلك المصائب.. ولهذا جوزيت بما صنعت..

لقد كال لها هذا النوع من الفن من الهجوم ما لم يتجرأ عليــه من سبقه..

يقـول مؤلـف (قصـة الفكـر الغـربى): (يـرد كثـيراً فى الأدب الشـعبى الوسـيط ذكـر القسـيس الجشـع والقسـيس الفاسـق والقسـيس المغـرور الـذى تشـغله أمـور الـدنيا، وكـذلك لا يعطينـا شوسر صورة طيبة عن رجال الدين.. ومع ذلـك فلم يكن فى كـل هذا إلا قليل من المرارة وإنما كان يرمى إلى إنزال القسـيس إلى المسـتوى البشـرى العـام ولم يقصـد إلى تحـدى بنـاء المسـيحية الفلسفى والدينى أى نظرتهـا الشـاملة إلى الكـون كمـا قصـد إلى تحديها فى أيام فولتير وتوم بين)

اللامعقول:

قلت: ثم ارتددنا على الواقعية..

قال: بسبب ضغوط الواقـع ارتـددنا على الواقعيـة.. فسـقطنا في أوحال اللامعقول.

قلت: اللامعقول!؟

قال: أجل.. ونحن لا نزال نئن تحت وطأة هذا النوع من الفن.

قلت: كيف سقطنا كل هذا السقوط؟

قال: لقد اجتمعت أسباب كثيرة.. أهمها الدجالون..

قلت: الدجالون!؟

قـال: أنت تعـرفهم.. ولعلـك مـررت في حياتـك بمن حـدثك عنهم(1).

قلت: من تقصد؟

قـال: من أعطـوا صـورة للإنسـان انحـرفت بهـا عن معـنى الإنسان.. فصار الإنسان غير الإنسان.

قلت: فهمت قصدك.. أنت تريد داروين.. وماركس.. وفريزر.. وفرويد وغيرهم من بناة الفكر الذي تنبني عليه هذه الحضارة.

قال: أجل.. وقد كان لداروين وفرويد أعظم الأثر فى ذلك:

فالداروينية ولـدت فى النفسـية الأوربيـة شـعورين عميقين لا يمكن للفن الأوروبى مهما تعددت مدارسـه ومناهجـه إلا أن يكـون تعبيراً عن أحدهما:

أمـا الأول، فحيوانيـة الإنسـان الـتى تلغى المشـاعر الروحيـة تماماً، وتجعل الكائن البشرى كتلة من اللحم كأى حيوان آخر لا هم له إلا إرواء غرائزه البهيمية، والحصول على أكبر قسط من المتـاع الجسدى المحض.

وأما الثاني، فالشعور بتفاهـة الحيـاة وحقارتهـا ونفى أي غايـة سامية لوجودها، وهو الشـعور الـذى عـبرت عنـد مـدارس الضـياع المختلفة تحت أسماء وشعارات شتى(2).

وأما الفرويدية، فقد عمقت الاتجاه الحيواني موصلة إيـاه إلى الحضيض.. وقد صاغته فى فلسفة نظريـة منمقـة تجعـل الوصـال الجنسى هو الغاية والوسيلة، بل تجعله محور الحياة ومحور البحث

---

1) انظر الفصول السابقة، خاصة (قيم) و(إنسانية)

2) كما سنرى في هذا المبحث.

ومناط التفكير وعلة العلل.

وعمقت كـذلك الشـعور بالضـياع والحـيرة، لأن فلسـفتها الجنسية ـ حول العقل الباطن واللاوعى واللاشعوري والأنا المثاليـة ـ قدمت العوض المعاكس للإيمان والإحساس الروحى.

قلت: هذه البذور.. فما الثمار؟

قال: لا يجنى من الشوك إلا الشوك.. لقد جنينا وجنت أخلاقنا وقيما من ذلك الزقوم الـذي غرسـه أولئـك الشـياطين مـا لا نـزال نصلى بناره.

قلت: أفصح.. وفصل.. فلا دليل أقوى من التفصيل.

قال: أول ثمـرة جنيناهـا من شـعورنا بحيوانيتنـا وضـياعنا هـو الإباحية المفرطة..

قلت: اسمح لي بأن أصارحك بأننا في جميع مراحلنـا تاريخنـا الأدبي والفني لم ننفك عن الإباحية.. لقد قال برنتن: (إن الخشـونة والفحش من الصفات الدائمة تقريباً فى ثقافتنا الغربية)(1)

فالأغـانى البذيئـة ومثلهـا المسـرحيات المبتذلـة فى عصـر النهضـة، ثم عبـادة اللـذة والجمـال فى الرومانسـية، ثم الـدعوة الصريحة إلى الفجور فى الأدب الـواقعى.. وتظـل الصـورة تفحش إلى أن تصل إلى الأدب المكشوف.

قال: وقد كان هذا النوع من الفن الذي سـقطنا فيـه مرحلـة خطيرة من مراحل سقوطنا في حمأة الرذيلة..

لقـد ظهـر فنـانون كثـيرون في ذلـك العصـر كرسـوا فنهم وحياتهم كلها للإباحية..

لن أحتاج لذكر أمثلة لذلك.. فأنت تعرف (الفريـددى موسـيه)

1) قصة الفكر الغربى: 297.

شاعر (الليالى) الذى كان أبيقورياً بأوسع معانى الكلمة.

ومثلــه (بروســبير) صــاحب قصــة (كولومبيــا).. وألكســندر دومــاس، الكبــير والصــغير.. الصــغير المشــهور بقصــة (غــادة الكاميليــا).. والكاتبــة العربيــدة (جــورج ســاند) صــاحبة (ليليــا) و(أنديانا).. وغيرهم كثير.

إن أدب كل هؤلاء محصور فى تمجيد الرذيلـة وتـبرير أعمـال العــاهرات والإشــفاق عليهن، ودخــل هــذا الاتجــاه مرحلــة أتم بالمدرسة (الطبيعية) الـتى يتزعمهـا الكـاتب اليهـودى (أميـل زولا) وهى مدرسة إباحية متخصصة.

لقـد قـال تولسـتوى عن هـذا الاتجـاه سـنة 1898: (أصـبح المقيـاس الوحيـد للفن الجيـد والفن الـردئ هـو اللـذة الشخصـية، فالخير هو ما يبعث اللذة فى نفوسهم وهذا هو الجميل، وبذا ارتدوا إلى تصور الإغريـق البـدائيين الـذين أدانهم أفلاطـون، وطبقـاً لهـذا الفهم فى الحياة تكونت نظرية فى الفن)(1)

ويقول: (إننا نشبه الفن المعاصر ـ مـع غرابـة هـذا التشـبيه ـ بامرأة تبيع جسدها لإرضاء الذين يبتغـون اللـذة بـدلاً من أن تجعلـه مستودعاً للأمومة، فالفن المعاصر يشبه العاهر فى أدق التفاصــيل فهو مثلها ليس وقفا على عصر معين، وهو مثلها مبهرج، وهو مثلها قابل للبيع دائما، وهو مثلها كله إغراء وكله هدم)

ثم جــاءت الحــرب الأولى، فاكتســب هــذا الاتجــاه قــوة واستشرت رذائله فى الأوساط العامة وانهـال الإقبـال على إنتاجـه الرخيص ووجـدها الهـدامون والمتكسـبون فرصـة لنفث سـمومهم واستغلال مشاعر الناس واللعب بعواطفهم وإثارة غرائزهم.

أما ما يسمى الأدب المكشوف الذى لا يصـح أن يسـمى أدبـاً بحال، فهو فى بلادنا ملء السمع والبصر.. يملأ الحوانيت.. ويستنفذ

1) دراسات أدبية: يوسف الشارونى: 84.

الصــحافة.. ويســيطر على دور العــرض الســينمائى.. ويســتغرق أوقات الملايين من النـاس.. حـتى الأطفـال تكتب لهم مسلسـلات جنسية وروايات جنسية ومسرحيات جنسية.

قلت: هذه الثمرة الأولى.. فما الثمرة الثانية؟

قـال: الضـياع والتيـه.. فكـل المـذاهب الفكريـة الفلسـفية الاجتماعيـة عجـزت عن إعطـاء الإنسـان أى نـوع من أنـواع الثقـة والطمأنينة.

لقد كان دورها منحصرا في رد الفعل.. منحصـرا فى اجتثـاث موروثات الكنيسة الهشة.

وأمام العملاق الميكـانيكى الـرهيب وسـيطرة الآلـة الطاغيـة شعر الإنسان بأنه قد سحق وأن وجـوده قـد تضـاءل إلى حـد أدنى مما كان عليه وهو يواجه جبرية الكنيسـة واضـعا مصـيره بين يـدى قدرها المحتوم.

لقـد تحققت نبـوءة شـبنجلر وتكهنـات أورويـل عن مسـتقبل القطيع البشرى، وأصبحت مشكلة الإنسان العظمى فى الحياة هـو وجوده حياً، فالكلمة الـتى قالهـا أوغسـطين: (أصـبحت أنـا نفسـى مشكلة بالنسبة لنفسى) لم تعد خاصة بالفلاسفة بل بـاتت ترددهـا شفاه الفرد العادى من أجيال الضياع.

قلت: هذه فرصة عظيمة للبحث عن الحقيقة.. والوصول لها.

قال: ولكن اللامعقـول كـان متغطرسـا متكـبرا عن الحقيقـة وعن البحث عن الحقيقة.. فلذلك آثر لذة الضـياع والتيـه على لـذة الوصول.

إن هذا الفن يصرح بكل بـرودة: (إننـا لا نـؤمن أبـداً بالمعـانى الجامدة الجاهزة التى يقدمها النظام الإلهى القديم للإنســان وعلى أثره نظام القرن التاسع عشر العقلانى، ولكننا نضـع كـل أملنـا فى

الإنسان: إن الأشكال التى خلقها هى التى تستطيع إعطاء العالم معنى)[1]

قلت: لم هذا التكبر على النظام الإلهي؟

قال: وهم الحرية.. مع اختلاط المدارك التي جعلتهم يرون الكون متناقضا تعجز عقولهم عن تفسيره.

ولم يظل هذا الاعتقاد فكرة مجردة، بل بنى عليه الدستور العلمى للفن الذى ينص على أن (الفن للفن)

لقد قال بعضهم تحت عنوان (الالتزام الوحيد الممكن للكاتب هو الأدب): (ليس الصواب الزعم أننا نخدم فى روايتنا قضية سياسية مهما كانت قضية تبدو لنا عادلة، وحتى لو كنا فى حياتنا السياسية نحارب فى سبيل انتصارها، إن الحياة السياسية تضطرنا دون انقطاع إلى افتراض معانى (كذا) معروفة: معانى تاريخية، معانى أخلاقية، إن الفن أكثر تواضعاً أو أكثر طموحاً، ففى نظره ليس هناك من شىء معروف مسبقاً، وقبل العمل لا يوجد شىء: لا يقين ولا قضية ولا رسالة فالظن أن عند الروائى شيئا يريد أن يقوله وأنه يبحث بعد ذلك كيف يقوله يمثل أخطر عمل مناقض للحقيقة)[2]

قلت: هذه الثمرة الثانية.. فما الثمرة الثالثة؟

قال: مدارس الضياع.

قلت: ما مدارس الضياع!؟

قال: هي مدراس كثيرة تأسست من بذرة اللامعقول لتزيد في ضياع الإنسان عن حقيقة الإنسان.

---

1) معجم الأدب المعاصر: 62، 63.

2) معجم الأدب المعاصر:63.

قلت: فهلا عرفتني ببعضها؟

قال: لعلك تعرفها.. بـل لا بـد أنـك تعرفهـا.. فنحن نصـبح في مدرسة.. ونمسي في أخرى..

قلت: حدثني عنها.

قال: تعرف **الوجودية!؟**

قلت: تلك الـتي تنتسـب إلى جـان بـول سـارتر (ولـد 1905 م)الفيلســوف والأديب صــاحب (الغثيــان)، و(الــذباب)، و(البــاب المغلق).. وعشيقه سيمون دي بوفوار التي قضت حياتها كلها معـه دون عقد زواج تطبيقاً لمبادئ الوجودية(1).

قال: نعم.. فالوجودية ليسـت سـوى ثـورة سـلبية يائسـة، لم تستطيع أن تشخص الداء فضلاً عن تقديم الدواء، وكل ما تسـتطيع أن تقـول بصـدق أنهـا قدمتـه للإنسـانية هـو عـرض بعض جـوانب المأساة البشرية، تلك المأساة التى تعبر عنها جملة واحدة (البحث عن الإله).. فهى ترفض الإيمان بالله كما تصـوره الأديـان ولكنهـا لا تجد البديل.

والإنســان الــذى تحــاول تأليهــه محصــور مقهــور أمــام القــدر الكونى وأمام سيطرة الآلة وأما وضعه التاريخى المحدد.

وهي تهرب من الضياع والتناقض إلى شعارات شتى كالحرية عند سارتر، والعبث عند البير كامو.

قلت: أعرف الوجوديـة.. وأعـرف مـدى ضـياعها.. فـاذكر لي

---

1) ترجع بذور مذهب الوجوديـة إلى الكـاتب الـدانمركي كيركـا جـورد 1813-1855م وقد نمى آراءه وتعمق فيها الفيلسوفان الألمانيان مارتن هيدجر الذي ولـد عـام 1889م، وكـارك يسـبرز المولـود عـام 1883م.. وقـد أكـد هـؤلاء الفلاسـفة أن فلسـفتهم ليسـت تجريدية عقلية، بل هي دراسة ظواهر الوجود المتحقق في الموجودات.

والفكر الوجودي لدى كيركاجورد عميق التدين، ولكنه تحول إلى ملحـد إلحـاداً صـريحاً لدى سارتر.

غيرها؟

قال: السريالية.. فهي مدرسة حديثة تهتم بالشـعر والرسـم.. وتبتدئ من الخط الذى تبتدئ منه الوجودية، ولكنها تفترق عنها فى الإيغال في اللامعقول والأعـراض عن الخـوض فى حقـائق التـاريخ والمشــادات الفكريــة والبحث المنطقى فيمــا يفــوق الإدراك إلى الخوض فى أعماق المجهول بلا موضوعية.

قلت: أعرفها.. وهي ترجع في أصـلها إلى نظريـة فرويـد عن العقـل البـاطن، فهي تريـد أن تجعـل من العقـل البـاطن الحقيقـة النفسية بالذات، وتحول الفن إلى كتابة آلية لإيضاحه.

قـال: ومنهـا فن التفسخ.. وهـو نـوع من أدب الضـياع الـذي يميل إلى التشاؤم والابتذال ويتميز بأن أبطاله هم نوع من الكائنات التى فقدت الثقة وبمسـتقبلها والـتى لا تـؤمن أبـدا بإمكـان قيامهـا اليوم بحياة إنسانية.

ومنهـا الفن العـدمي، وهـو نـوع أخـر أكـثر تشـاؤما وقنوطـاً، وإنتاجه هو عبارة عن ذلك العمل المؤلم الذى يصرخ بصـوت عـال فى كل صرخة من صرخاته المبتورة (إن الإنسان قد مات)

وغيرها من الفنون الكثيرة التي تولد كل يوم..

فنون الإسلام

قلت: عــرفت فنــون الجاهليــة.. وأحســب أن كــل النــاس يعرفونهــا، فهم يصــبحون عليهــا ويمســون.. فحــدثني عن فنــون الإسلام.

قال: فنون الإسلام تنطلق من القـرآن.. فـالقرآن لوحـة فنيـة عظيمة.. بل مدرسة فنية عريقة نشأت على أساسها جميع الفنون الإسلامية.

قلت: هــــل طبقت المقـــاييس الـــتي ذكرتهـــا على الفن الإسلامي؟

قال: أجل.. وقد وجدت المعاني الإسـلامية العظيمـة مصـاغة بقوالب غاية في الجودة.

التهذيب:

قلت: فلنبدأ بالتهذيب.. فقد ذكرت أنه غاية جليلـة من غايـات الفن.

قال: لقد رسم القرآن للفن الإسلامي الأسلوب الصحيح الذي يرفـع بـه الواقـع من الانحطـاط إلى الارتفـاع.. ومن السـقوط إلى الصعود.

اقرأ سورة يوسـف في القـرآن، وقارنهـا بكتابنـا المقـدس(1) لترى سر تلك النزعة النبيلة التي صـاحبت الفن الإسـلامي مقارنـة بأدبنا وفننـا الـذي اسـتوحى بذاءتـه وفحشـه من نفس القصـة في الكتاب المقدس.

قلت: فننا يصور الواقع كما هو.. ويحاول أن يعالجــه من خلال ذلك.

قال: وهذا سـر انحرافـه وجاهليتـه.. الفن الـراقي النبيـل هـو الذي يملأ النفس طهرا وعفافـا وسـموا.. وهـو الـذي يعين النزعـة الطيبة في النفس، لا الذي يعين الشياطين عليها.

إن الواقع الذي يبحث عنه فننا هـو الواقـع الهابـط.. المنسـلخ من الدين.. ومن القيم.. ومن الأخلاق!

ففى الفترة التى اسـتغرقتها الرومانسـية وارتـدت بعـدها إلى الواقع كان الناس قد ساروا خطوات على خط العلمانية المنسلخة من الدين فهبطوا، فجـاءت الواقعيـة لترصـد واقعهم حيث هم.. ثم

1) انظر هذه المقارنة في (الكلمات المقدسة)

تقول هذا هو الواقع البشرى!

فأما كون هذا هو الواقع الذى كـان عليـه النـاس وقتئـذ فهـذا حق لا شك فيه، وأمـا أن هـذا الواقـع البشـرى على إطلاقـه فـأمر يكذبه التاريخ، وتكذبه فترات الهدى فى حياة البشرية، الـتى ارتفـع النـاس فيهـا إلى قمم تبـدو ــ فى هـذا الواقـع المنحـرف ــ كأنهـا خيالات، ولكنها كانت واقعا عاشه الناس بالفعل، وينبغى أن يحاولوا على الدوام أن يعودوا إلى ذلك المسـتوى السـامق أو يعـودوا إلى قريب منه.

قلت: أتريـــد من الفن أن يـــدارى على هبـــوط النـــاس وأن يصورهم فى صورة غير واقعية من أجل إرضاء المثل العليا[1].

قال: لا.. فالفن المزور لا يستطيع أن يعيش.. لكن هناك فرقا بين تصوير الواقع على أنـه واقـع، وأنـه واقـع منحـرف عن الأصـل الذى كان ينبغى أن يكون عليه، وبين تصويره على أنـه هـو الواقـع الإنسانى الذى لا يمكن تعديله أو لا ينبغى تعديله أو لا يعنينا تعديله!

كلاهما تصوير للواقع. ولكن أحـدهما يصـور الواقـع المنحـرف بروح الإنكار، ويدعو إلى الارتفاع عنه، والآخر يعطيه شرعية الوجود فتكون النتيجة الحتمية – دائما – مزيدا من الهبوط.

لقد ذكر القرآن في سورة يوسـف نموذجـا للواقـع، فقـد ورد في قصـة يوسف:﴿ وَرَاوَدَتْـهُ الَّتِي هُـوَ فِي بَيْتِهَـا عَنْ نَفْسِـهِ وَغَلَّقَتْ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَـالَ مَعَـاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَـنَ مَثْـوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (23) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَـوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَـانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (24)﴾ (يوسف)

ولكن هذه ليست اللقطة الأخيرة.. إنمـا اللقطـة الأخـيرة هى الأوبة والتوبة والترفع والارتفاع:﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُـفَ

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، ومنهج الفن الإسلامي، لمحمد قطب.

عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ امْرَأَةُ الْعَزِيــزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَـا رَاوَدتُّهُ عَنْ نَفْسِـهِ وَإِنَّهُ لَمِنْ الصَّـادِقِينَ (51) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْـدِي كَيْـدَ الْخَـائِنِينَ (52) وَمَا أُبَـرِّئُ نَفْسِـي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّـوءِ إِلاَّ مَـا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (53)(يوسف)

ونموذج الواقعية الهابطة هو الأدب الذى يدعى الواقعيـة وهـو فى الواقـع يـدعو إلى الهبـوط.. وهبـه صـادقا فى ادعـاء الواقعيـة، فلماذا يصر على التقاط اللحظات الهابطة وحدها ويتجنب لحظـات الارتفــاع!؟ ثم لمــاذا لا يســمى الهبــوط باســمه الحقيقى وهــو الهبوط!؟

قلت: إن مـا ذكرتـه من هـذه القيـود هـو الـذي جعـل الفن الإسلامي فنا هزيلا متخلفا عن سائر الفنون.. فـإذا مـا قارنـا الأدب الإسلامي بالآداب الاغريقية والرومانية، فإننا نرى كثـيراً من الألـوان الفنية ـ غير الشـعر ـ تنقصـه، مثـل القصـة والمسـرحية والملاحم الشعرية.

ومثــل ذلــك يقــال في فن النحت.. فلا نجــد في الحضــارة الإسلامية أي تماثيل كتلك التماثيل التي تركها الرومان وغيرهم من أصحاب الحضارات العريقة.

قـال: صـدقت في هـذا.. ولكن هـل هـذا من النقص أم من الكمال؟

قلت: ما تقصد؟

قـال: أرأيت لـو أن أحـدهم ظـل طـول الليـل يسـرد عليـك حكايـات كاذبـة مملـوءة بالخرافـة والمجـون ليمتعـك.. أتختـاره أم تختـاره الـذي يحكي لـك قصـة قـد تكـون قصـيرة، ولكنهـا بمنتهى النظافة والجمال والعفاف؟

قلت: بل أختار الثاني.

قال: وهذا ما فعل المسلمون.. لقد أنف شعرهم من أن يضع الملاحم التي تحشر نفسها في صياغاته آلهـة الشـر والخـير والنـار والحـرب والشـعر والجمـال، وكـان يـأنف من روايـات الأسـاطير الميثولوجية لمنافاتها لاعتقاداته، وخروجها على مألوف تصوراته لله والقوى التي يرمز اليها بما وراء الطبيعة.

قلت: فأين توجه؟

قال: إلى شـعر نظيـف يشـكل الـبيت الواحـد منـه موسـوعة قيمــة في الأخلاق الرفيعــة.. أو إلى القصــة القصــيرة الــتي تملأ النفس بالإيمـان والتقـوى والصـلاح.. أو إلى الإنشـاد الطيب الـذي يعمق المعاني الجميلة في النفوس..

قلت: والنحت والتصوير؟

قال: لقد توجه المسلمون إلى الخطوط يصوغون منها أجمل اللوحات الفنية المعبرة.

قلت: ذلك لا يكفي.

قال: لكل شعب من الشعوب طريقـة تعبـيره الفـني.. وربمـا تكون لك بعض الأمور لا أهمية لها، ولكن في نظر آخـرين تكتسـي أهمية كبرى.

الفن ـ يا صاحبي ـ أذواق.. والذوق ملك لصاحبه، والكمال في الفن هو استخدام الذوق لخدمة التربية النبيلة.

قلت: ولكن ما ذكرته من هـذه المعـاني لم يحصـل.. فـأغلب الشعر العربي يضم مدائح كاذبة، ترفع البشـر من الحكـام والقـواد وزعماء القبائل والعشائر الى مصـاف المثاليـة المغرقـة، فجـودهم كالبحر أو الـريح المرسـلة، وشـجاعتهم فـوق التصـور، وأخلاقهم لا

مأخذ فيها، ولا ضعف في بنائها، وبيانهم معجز لا ركاكة ولا إسفاف، ووجوههم مشرقة كالشموس أو البدور.. ومن هنا يرمون الشعر والشعراء بالنفاق والكذب الصراح، والتزلف وإغفال جانب الجماهير في المطالبة بحياة أسعد وأرغد..

قال: إن كل ما ذكرته صحيح.. ولكنه يصب في صالح الفن الإسلامي، وفي خدمته لهذه الغاية العظمى من الفن غاية التهذيب.

قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا ترى أن فننا يتوجه ليصور واقع المنحرفين كما هو بمجونه وصراعه وانحرافه.

قلت: أرى ذلك.. فهو على الأقل يصور الواقع.

قال: ولكنه يملأ النفوس بالكدورات.. إن الفن مدرسة.. والنفوس تتلقى منها.. وهي في تلقيها تنشغل عن الوقائع بالمفاهيم والقيم.. ولذلك تمتلئ بقيم الإجرام إذا أدمنت مشاهد الإجرام.

قلت: وشعر المديح الذي اشتهر في الإسلام.

قال: إن الشاعر في مدائحه يحاول ان يرسم صورة مثالية رائعة لما يجب أن يكون عليه الممدوح، إن فضيلة الكرم اذا وضحت في الأذهان، واتخذت أغنية أو قصيدة تترنم بها المحافل، وارتبطت بشخصية من الشخصيات، فإن إشاعة مثل هذه الفضيلة يؤدي الى ترسمها والنسج على منوالها، فتسود فضيلة الكرم فعلاً.. والتغني بالعدالة والحرية والنبل، وربط الممدوح بها، يلفت النظر إليها ويجعلها بالممارسة والحديث الطويل عنها حقيقة كائنة.

لقد مدح المتنبي بقصائده الكثير من الأمراء.. وامتلأ شعره حكمة بسبب ذلك، ولكنا نرى العامة يرددون شعره من غير أن

يعرفوا أميرا من الأمراء.. فقد انشغلوا بالغاية عن الواسطة.

قلت: ولكن القــرآن ذم الشــعر.. ففيــه:﴿وَالشُّــعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (الشعراء:224)

قال: القرآن لم ينه عن الشعر.. بل وجهه نحو الوجهة النبيلة، ولهذا، فقد جاء بعد تلك الآية السابقة تعليل سر ذلك، واستثناء الذين آمنوا:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (225) وَأَنَّهُمْ يَقُولُــونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (226) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (227)﴾ (الشعراء)

وقد قال محمد يبين الغاية التي ينبغي أن يتوجه لها الشعر: (إن من الشعر حكما)(1)

قلت: أجل ذلك ما صحيح.. وقد قال الشاعر يبين الدور العظيم الذي قام به الشعر في هذا المجال:

ولولا خِلالٌ سَنَّها الشِّعْرُما درى بناةُ المعالي كيفَ تُبْنى المكارمُ

التوحيد:

قلت: عرفت الغاية الأولى من غايات الفن.. فحدثني عن الغاية الثانية.

قال: الغاية الثانية هي التوحيد.. وهي عبودية الفن لله.

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد عرفنا كيف توجهت الفنون في جميع الجاهليات إلى خدمة الآلهة المزاحمة لله.

---

(1)) الترمذي، وقال: حسن صحيح، وابن ماجة.

قلت: أجل.

قال: مقابل هذا، فقد توجه الفن الإسلامي إلى التوحيد الذي يملأ القلوب معرفة لله ومحبة له.

قلت: أين أجد هذا في الفن الإسلامي؟

قال: اذهب إلى دواوين الصالحين الكثيرة لترى تلك الأشعار الرقيقة في محبة الله وذكر كمالاته.

قلت: ولكن ليس الفن شعرا وحده.

قال: فاذهب إلى تلك المجالس التي تترنم بتلك القصائد لتحولها إلى ألحان تموج بجميع معاني الإيمان.

قلت: قد سمعت بعضها وأثرت في نفسي تأثيرا عميقا.

قال: فقارن ذلك بما تسمعه من قومك من أنواع الغناء والموسيقى التي تملأ النفس بالضياع والقلب بالألم.

***

ما وصل (سير هاملتون جيب) من حديثه إلى هذا الموضع حتى سالت دموع حارة من عينيه لم يملك حبسها، فقلت له: ما يبكيك؟

قال: أمران.. كلاهما ملأ قلبي بحزن وانقباض وكآبة.

قلت: ما هما؟

قال: أما أولهما فهو من آلت إليه قيادة الفن في عصرنا.

قلت: ما به؟

قال: هم لم يكتفوا بما وصل إليه الإنسان من انحراف عن إنسانيته، بل راحوا يعمقون هذا السقوط.. فكل يوم ينتج لنا

الشياطين الذين يحتكرون وسائل الإعلام من ألوان الغثاء مـا يزيـد به تيه الإنسان عن الإنسان.

قلت: عرفت هذا.. وأنا أتألم له بمثل تألمك.. فما الثاني؟

قال: أولئك المسلمون..

قلت: ما بهم؟

قال: أراهم يعرضون دينهم والحقائق العظيمة الـتي جـاء بهـا في أسلوب جاف قاس جعلهم وجعل دينهم عرضة للتهكم.

قلت: فما تريد منهم؟

قال: ما يريد المريض من طبيبه؟

قلت: العلاج.

قال: والعلاج يحتـاج إلى مسـكنات ومهـدئات وتطـييب نفس، فلا يمكن للطبيب أن يغرس سكينه لاستئصـال الآلام من دون كـل ذلك.

قلت: أجل..

قـال: ولكن أولئـك االمسـلمين لم يفعلـوا هـذا في مـداواتهم للبشرية، وأتاحوا بذلك المجال للمجـرمين لينحرفـوا بالبشـرية عن مسارها الصحيح.

قال ذلك، ثم انصرف، وانصرفت خلفـه ومعي بصـيص جديـد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

عاشرا ـ حضارة

في اليوم العاشـر من تلـك الأيـام العشـرة المباركـة، التقيت المستشـرق الـذي قطفت على يـده ثمـرة الحضـارة من شـجرة النبوة..

وهي الثمرة التي عرفت بها سر قوله تعالى على لسان هــود ـ عليه السلام ـ:﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْـهِ إِنَّ رَبِّي قَـرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (هود:61)

فقد عرفت من هذه الآية غاية جليلة من الغايـات الـتي خلـق من أجلهــا الإنســان، وهي عمــارة الأرض.. ولكن لا بالخراســانة المسلحة وحدها، بل بذكر الله والتقرب إليه.

***

كـان من الأسـماء المارقـة الـتي سـجلت في الـدفتر الـذي سلمني إياه المرشد اسم (كوستاف لوبون)[1].. وقد كنت أعرفــه، وأعرف تأثره الشديد بالحضارة الإسلامية، والـذي ملأ بـه كتبـه.. إلا أني لم أكن أعرف سر ذلك إلى أن التقيته في ذلك اليوم المبارك.

عندما رأيته في البدء تصورته مجنونا قد فقد عقلـه.. ولم أكن وحدي في ذلك التصور.. بل كان كل من كان معنا في ذلك المحل يحمل ذلك التصور.

في ضاحية من ضواحي باريس كـانت تسـكن غابـة لم يفكـر إنسي ولا جني في قطع أشجارها.. فقد كـانت الرئـة الـتي تتنفس منها باريس.. وكانت القلب الذي يمدها بدماء الحياة..

---

1) هو كوستاف لوبون Dr. G. Lebon ولد عام 1841م، وهو طبيب، ومؤرخ فرنسي، عني بالحضارات الشرقية.

من آثاره: (حضارة العرب) (باريس 1884)، و(الحضارة المصـرية)، و(حضـارة العـرب في الأندلس)

ولكنهم في ذلـك اليـوم أحضـروا كـل مـا أمـدتهم بـه هـذه الحضـارة من وسـائل التـدمير ليقطعـوا أشـجار تلـك الغابـة.. بـل يجتثوها من أصولها.. ليقيموا بدلها مصنعا للكوكاكولا.

وجاءت الآلات، واقتربت من الأشجار لتقطعها.. أو لتجتثها من أصولها.

لكنها فوجئت برجل يصيح فيها كمـا يصـيح المجـانين: ابتعـدي أيتها الآلات الحمقاء.. اتركي لي أسرتي.. لا تقطعي جذوري.

ضحك أصحاب الآلات وغيرهم من الناس الـذين اجتمعـوا في ذلك الموقف.

استمر في صـياحه يقـول: ملعونـة أنت أيتهـا الحضـارة الـتي تهـدم الحيـاة.. ملعونـون أنتم يـا من خلفتم عـادا وثمـودا وسـدوما وعمورية.. ملعون كـل من يقطـع أشـجار اللـه ليسـتبدلها بشـراب الشياطين..

نظــر إلى الآلات، وصــاح: حــتى أنت أيتهــا الآلــة الخرســاء ملعونة.. لأن تلك الأيادي الآثمة امتدت إليك وصنعتك..

أسرع رجال الشرطة إليه ليبعدوه عن طريـق الآلات.. فصـاح فيهم، وهم يمسـكون بـه: هـذه هي حضـارة الجـبروت.. هـذه هي حضارة المعتقلات والسجون والزنازن والدماء.. هذه هي الحضـارة التي حلمت بها الشياطين منذ ابتدأت الشياطين.

أبعدته الشـرطة عن ذلـك المحـل.. ثم قيدتـه بعيـدا عن تلـك الأشجار، لتدع للآلات ممارسة ما تتقنه من أدوار.

في ذلك الحين.. وفي ذلك الموقف الشديد الـذي تنفطـر لـه القلوب التقيت (كوستاف لوبون)

اقتربت من ذلك الرجل الذي توهموه مجنونا، فوجدته مع كل

ذلك الصياح هادئا غاية الهدوء.. مطمئنا عظيم الطمأنينة.

قلت: أراك ناقما على الحضارة..

قال: أي حضارة!؟.. ليس هناك شيء اسمه حضارة.. نحن في بدائية تفوق بدائية البدائيين إن كان هناك بدائيون.

قلت: حضارتنا الغربية التي نشرت العلوم والفنون.. وأحيت من الحياة ما كان خاملا.. ألست ترى ناطحات السحاب.. والمركبات التي تزور الأفلاك.. وصناديق الانتخابات التي تتجول على الرعايا لتعطيهم ما يريدون؟

قال بألم شديد، وهو شارد الذهب: نعم (1).. الإنسان.. السوبرمان.. أو السوبر شيطان.. مشى على القمر، وأرسل السفن إلى المريخ والزهرة وأورانوس والمشتري.. وأرسل الكاميرات الفلكية إلى ما وراء الشمس.. وأرسل المجسات الفضائية تقيس الأشعات الخفية في أرجاء الكون.. وزرع الأرض بالميكنة.. وضاعف المحصولات بالهندسة الوراثية.. واستولد الجديد المبتكر من الفواكه والثمار، واخترع السيارة والقطار والطائرة والصاروخ والتليفزيون والفاكس.. واخترع الحاسبات والذاكرة الكمبيوترية المذهلة وصنع الأعاجيب في الطب والجراحة.

زرع قلوب الموتى في الأحياء.. وزرع الشعر والجلد والكبد والكلية والأمعاء والرئتين.. وزرع أجهزة السمع والبصر في الدماغ.. قضى على الجدري.. وأوشك أن يقضي على التيفود والتيفوس وشلل الأطفال والجذام..

وامتد بصره عن طريق المناظير الفلكية العملاقة، فأصبح يرى شموسا على بعد 15 مليون سنة ضوئية.. واخترق بصره

______

1) الكلام التالي لهذا منقول من (سواح في دنيا الله)، لمصطفى محمود.. ببعض التصرف.

العــالم الأصــغر عن طريــق المجهــر، فأصــبح يــرى الميكروبــات والفيروســات.. وامتــد ســمعه إلى مــا وراء المجــرات.. فالتقــط ضوضاء الانفجار الذي بدأ به الكون.

أما قوة ذراعه فقد تعملقت إلى روافع وصواريخ وقنابل ذريــة وهيدروجينية وتحولت إلى قوة تدميرية هائلة..

قلت: نعم.. هذه بعض منجزات هذه الحضارة العظيمة..

التفت إلي، وقال بغضب: أي عظمة هذه.. إن الانحطاط أقــل وصف يمكن أن توصف به هذه الحضارة.

قلت: كيف ذلك.. وقــد تهيــأ لهــا مــا لم يتهيــأ لأي حضــارة في الدنيا.

قــال: أجــل.. أجــل.. لقــد تمكن الإنســان من خياطــة شــبكة الانترنت..

قلت: أجل.. إنها عجيبة العجائب.. يتصــل بهــا أطــراف العــالم للتجارة الإلكترونية ونشر العلوم والمعارف.

قال: ولكن هذه الحضارة المجنونة.. حضارة سدوم وعموريــة استعملتها في نشر الدعارة والقمار.. وجميع أنواع الانحراف.

بينما نحن كذلك إذ سمعنا رجلا ينادي عــاملا باســم (محمــد).. فصاح الرجل بكل قوة: ابتعد يا محمد.. فأولئك مجرمون.. عــد إلى بلــدك.. وعــد إلى أصــلك.. فــإن هــؤلاء ســيزجون بــك في هاويــة الجحيم.

قلت: مع من تتحدث؟

قال: لقد ذكروا اسم (محمد).. أليس كذلك؟

قلت: بلى.. هو أحد العمال..

قـــال: اذهب إليـــه.. واطلب منـــه أن يبتعـــد عن هـــؤلاء المجرمين.. ومره أن يلجأ إلى محمد ليغسل الأدران التي ملأه بهـا هؤلاء المجرمون.

قلت: إلي أي محمد يلجأ؟

قال: إلى ذلك الذي مزج حضـارة الأرض بحضـارة السـماء.. ذلك الذي رفع الإنسان إلى عالم الإنسان.. ذلك الذي بـنى حضـارة القيم والمثل العليا.

قلت: تقصد نبي العرب؟

قال: بل أقصـد النـبي الـذي بشـر وأقـام حضـارة لم يقم في الدنيا مثلها.. ولن يقوم.

قلت: ولكن محمدا لم ينجز أي إنجـاز ممـا أنجزتـه حضـارتنا.. بل كان يركب الحمار، ويأكل الشعير.. بل أحيانـا لا يجـد مـا يأكـل، فيعصب الحجر على بطنه من الجوع.

ونحن الآن في عصر التخمة.. أقل فقير يمكنه لو أطاع بطنــه أن يموت من التخمة.

قال: بل نحن في عصر الجوع.. والألم.. والكآبـة.. ولكنـا نفـر من جوعنا وآلامنا وكآبتنا إلى أنواع كثـيرة من السـموم.. فلا يزيـدنا أكلنا لها إلا جوعا وألما وكآبة.

قلت: لم أفهم ما تقصد.

قال: نحن في جاهلية لبست لباسا مزركشا، ووضعت عطورا سامة.. ثم توهمت أنها حضارة..

قلت: إن لم يكن ما نحن فيه حضارة.. فليست هناك حضارة على الأرض.

قال: إن كانت هذه حضارة.. فليس هناك حقيقة في الأرض.

قلت: أهذه الحضارة تناقض الحقيقة؟

قال: هذه الحضارة تناقض كل شيء، وتصارع كل شيء.. ولو ترك لها الزمام قرنا آخر.. فستقطع آخر شجرة في الأرض.. وستقتل آخر إنسان في الأرض..

قلت: أنت متشائم كثيرا..

قال: لا.. أنا مع ألمي وصياحي وكآبتي متفائل كثيرا.

قلت: لم؟

قال: لأن هذه الحضارة تقتل نفسها، وتقطع جذورها..

ألا ترى إلى هذه الآلات التي تجتث هذه الأشجار؟

قلت: بلى.. وأنا متألم مثلك لذلك.

قال: ستصيب هذه الحضارة اللعنة التي أرسلتها هذه الأشجار.

قلت: ستدمر الأرض إذن.

قال: بل ستعمر.. ستعمر عمرانا لم تعمر مثله.

قلت: ألست متناقضا فيما تقول؟

قال: لا.. بل أنا متفائل.. هذه الحضارة ستموت كما ماتت قبلها كل الحضارات الطاغية لتبنى على أنقاضها حضارة السماء.

قلت: ومن الذي ينزل لنا بحضارة السماء؟

قال: الذي أنزلها أول مرة لن يعجز عن أن ينزلها مرة أخرى.

قلت: وهل نزلت حضارة من السماء.. لم أسمع بهذا.

قال: إنها الحضارة التي غرس شـجرتها محمـد.. هي لا تـزال حية نضرة تنتظر فقط من يسقيها.. لتعود ثمارها الطيبة من جديـد تطعم جوع البشرية.. وتسقي ظمأها.

قلت: أراك تعود إلى محمد.

قال: لولا أن لي ثقـة كبـيرة في إنقـاذ ورثـة محمـد للإنسـان ولحضارة الإنسان لكنت الآن في مارستان المجانين.. إن أملي في ذلك الرجل العظيم.. وفي ورثته العظام.. إن ذلـك هـو زاد تفـاؤلي الوحيد.

قلت: أراك مغرما بالحضارة الإسلامية..

قال: لقد طفت الحضارات البشرية جميعا، وبحثت في تراثهـا وآثارها.. وسألت إنسانها وبنيانها.. فلم أجد حضارة أطهر ولا أصفى ولا أرفع من الحضارة التي أقامها محمد.

قلت: لكأني بك أحدهم.. فمن أنت؟

قال: أنا (كوستاف لوبون)..

قلت: المستشرق العاشق لحضارة المسلمين.

قال: أنا الباحث عن الحضـارة الـتي تحفـظ الأكـوان.. وترفـع الإنسان.

قلت: لقد كنت مشتاقا للقائك لأسألك عن سـر ذلـك التفـاني الذي أبديته تجاه حضارة المسلمين.

قال: يسرني أن أجد من يسمعني.. فأنا لا أبشر إلا بذلك.

قلت: فهل وضعت مقاييس تميز بها الحضارات؟

قـال: لم أضـع أنـا.. ولكن الحقـائق الأزليـة الـتي وردت في القرآن.. والـتي تنطـق بهـا العقـول الـتي لا تـزال عقـولا هي الـتي وضعت تلك المقاييس.

قلت: فهل هما مقياسان؟

قال: أجل.. ولكنهما يؤولان إلى واحد.

قلت: ما هما؟

قال: الفطرة والسلام.. وكلاهما يؤول إلى الفظـرة، وكلاهمـا يؤول إلى السلام.

قلت: لم أفهم هذه الألغاز.

قال: لقد نطق القرآن ـ كتـاب الحقـائق الأكـبر ــ فقـال على لسان موسى عندما سأله فرعون عن الله: قَالَ رَبُّنَـا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طـه:50)

فالله جعل لكل شيء برنامجا يسير عليه.. وهذا البرنـامج هـو الفطرة.. والخروج عنها هو الشذوذ.

والشذوذ هو نوع من الصراع.. ولكنه صراع مع الداخل.

وأما السلام.. فهو الفطرة التي تحكم العلاقات بين الكائنات.. وهي التوافق والتكامل والانسجام.. فإذا خـرج عنهـا كـان صـراعا.. وكان في نفس الوقت شذوذا.

قلت: فهمت قصدك.. أنت تريـد أن تقـول بـأن الفطـرة هي سلام الداخل، والسلام هو فطرة الخارج.

قـال: أجـل.. وقـد طبقت هـذه المقـاييس على جميـع أنـواع الحضارات.. فلم أجد حضارة تكتمل لها الفطرة مع السـلام إلا في الإسلام.

قلت: هذه دعوى..

والدعاوى إن لم تقيموا عليها بينات فأبناؤها أدعياء

قال: الحياة كلها والمجتمعات كلها دليل على صدق هذه الدعوى..

حضارة الجاهلية

قلت: فهل نبدأ بحضارة الجاهلية؟

قال: لا يمكن أن تعرف فضل حضارة الإسلام من دون مقارنتها بحضارة الجاهلية..

قلت: فعن أي جاهلية تريد أن نتحدث؟

قال: بهذه الحضارة التي ذكر قومنا أنها نهاية التاريخ (1)..

---

1) هذا ما زعمه المفكر الأمريكي الياباني فرانسيس فوكوياما (Francis Fokoyama الذي طرح نظريته، أو فكرته، حول (نهاية التاريخ)، وهو يختلف مع كل من لويس، هنتنجتون، ودانيال بايبس (Danial Pipes) في ديمومة الصراع.

وهو يرى أن هذا الصراع كان قائماً بالفعل بين هذه الحضارات، ثم انتهى الآن لصالح الحضارة الغربية، بعد وصول البشرية إلى المرحلة الأخيرة من اكتمالها، أي بعد وصولها إلى النموذج الأوحد، وهو الحضارة الغربية.. وقد انتهت زعامة العالم إلى هذه الحضارة، لذا وجب على جميع شعوب الأرض أن تنطاع لها.

أي أن النظام الغربي: الليبرالي في السياسة، والرأسمالي في الاقتصاد هما وحدهما النظامان اللذان يتناسبان مع الفطرة الإنسانية ؛ لأنهما اللذان يحققان ما في تلك الفطرة من نشْدَانٍ للكرامة ؛ فهما يمثلان لذلك نهاية التاريخ في هذا المجال، مجال النظم السياسية والاقتصادية، وأن هذا هو الذي يفسر سير العالم كله نحوهما.

وقد طرح هذه النظرية العنصرية في صيف 1989م بمقال نشره في مجلة National Interest ، وإن كان قد سبقه بها هيجل بقوله: (إن تاريخ العالم يتجه من الشرق إلى الغرب، لأن أوروبا هى نهاية التاريخ على نحو مطلق، كما كانت آسيا هى بدايته..)

وقد كتب بعد عشر سنوات من صدور كتابه ذاك مقالاً تراجع فيه عن تلك الفكرة، وعزا تراجعه إلى أن فكرة الكتاب كانت قائمة على افتراض الثبات في الفطرة الإنسانية، وأن تتبعه للتطورات التي حدثت في علم الأحياء في هذه السنوات العشر، ولا سيما في مجال هندسة الجينات، أقنعته بأن العلم الطبيعي يمكن أن يغير الطبيعة البشرية! وإذا كانت الطبيعة البشرية متغيرة فإن النظم السياسية والاقتصادية المناسبة

وأنها الأمل الذي انتظرته البشرية طويلا.

قلت: ألم يكونوا محقين؟

قال: لقد طبقت المقياسين اللذين ذكرتهما لك على هذه الحضارة.. فوجدتها تتربع على قمة الشذوذ، وعلى قمة الصراع..

ثم وجدتها فوق ذلك قد جمعت شرور الحضارات السابقة، وأضافت إليها من الكبرياء والغفلة ما جعلها تسد آذانها وأبصارها عن كل صالح ومصلح.

الشذوذ:

قلت: فلنبدأ بشذوذ هذه الحضارة [1].

قال: لن أطيق الحديث عن كل شذوذ هذه الحضارة.. ولكني سأقتصر على نماذج بسيطة تستطيع أن تعبر منها إلى غيرها من العظائم..

قلت: يمكنك أن تستدل بالأمثلة..فهي عينات صالحة.

قال: أتعرف النوم؟

ابتسمت، وقلت: وكيف لا أعرفه.. وأنا أقضي ثلث عمري نائما.

قال: لقد وضع البرنامج الإلهي للنوم مواقيت محددة تتوافق مع الفطرة.. ووضع في نظام الكون ما يتوافق مع هذا البرنامج.. لقد ذكر القرآن ذلك، فقال: ﴿ وَهُوالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴾ (الفرقان:47).. وعد القرآن من نعم الله على عباده أن جعل الليل بصورة معينة تتناسب مع حاجة

لها ستكون أيضاً متغيرة!!!

1) استفدنا الكثير من المعلومات حول هذا العنصر من مقال جيد للكاتب الكبير فتحي يكن بعنوان (فقه الفطرة) نشرته مجلة المجتمع، 1414.

الإنسـان الجدسـية إلى الراحـة، فقـال:﴿ قُـلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَـلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَـأْتِيكُمْ بِضِـيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَـارَ سَـرْمَداً إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَـةِ مَنْ إِلَـهٌ غَيْـرُ اللَّهِ يَـأْتِيكُمْ بِلَيْـلٍ تَسْـكُنُونَ فِيـهِ أَفَلا تُبْصِـرُونَ﴾ (القصص:71 ـ72)

قلت: أنا لا أزال أتعجب من ذكر القرآن لهذا مع كونـه يكـاد يكون معلوما من الفطرة بالضرورة.

قال: القرآن يتحدث مع الإنسان.. ويصف له البرنامج الإلهي.. والله يعلم أن البرنامج الذي يضعه لهم سـتغزوه الفيروسـات الـتي تحرفـه وتحولـه عن مسـاره الحقيقي.. فلـذلك كـان القـرآن هـو الكتاب الذي يصف الفطرة التي طبع عليها الإنسان.

قلت: نحن نتحدث عن حضارتنا وعن شذوذها.

قال: وهذا من أخطر مظاهر شذوذها.

ابتسمت، وقلت: وما علاقة النوم بالحضارة؟

قال: أليس للنوم علاقة بالإنسان.. أليس النـوم ركنـا أساسـيا من أركان الحياة!؟

قلت: بلى..

قال: فالحضارة التي تنحرف بهذا الركن من أركان الحياة عن الفطرة التي فطر الله عليها الأشياء حضارة شاذة.. وهذا نــوع من شذوذها.

قلت: ربمـا يكـون مـا تقولـه صـحيحا.. ولكن مقـاييس نجـاح الحضارات أعظم من هذا.

قال: لا تحتقر هذا.. ولا تحتقـر شـيئا من الفطـرة الـتي فطـر الله عليها الأشياء.. فإن شيئا بسيطا يغزو برنامج الحياة قـد يفسـد

الحياة جميعا ويملؤها بالكدورة.

إن انحراف الليل في هذا الحضارة تبعه انحرافـات كثـيرة في السلوك وفي الصحة وفي العلاقات الاجتماعيـة.. وهـو مـا لا يمكن أن تنهض الحياة بسببه.

سـكت قليلا، ثم قـال: في الولايـات المتحـدة يعـاني نصـف الأمريكيين من الأرق واضطرابات النوم، وقد ازدادت هـذه النسـبة عما كانت عليه.

وقد ذكر الدكتور آلن باك ـ المدير الطبي للمؤسسـة الوطنيـة لأمراض النـوم ــ الـذي أشـرف على اسـتطلاع خلص إلى النتيجـة المذكورة ـ سبب هذا المرض قائلاً: (إن طبيعة الحياة المعقـدة في المجتمع الحديث قد أفقدت الكثيرين قدرتهم على التمتـع بـالنوم.. بسبب زحمة العمل وتوتر الأعصاب)[1]

قلت: ولكن التنمية تقتضـي هـذا.. وعلى كـل حـال.. فمن لم ينم في الليل نام في النهار..

قال: أكثر ما يطلـق عليـه البشـر تنميـة انحـراف.. ومـرض.. ومصائب.. لا تقل عن هذه المصائب التي تراها الآن.

أما نوم النهار.. فلا يغني عن نوم الليل.. لأن الله خلـق الليـل ليلا، والنهار نهارا.. وقد قال الأطباء: (ولا يخالف أحد أن باستطاعته تعويض ما فاته من نوم ساعات الليل، ويا بعد ما بين هيمنة الظلام الهـادئ السـاكن، وبين انتشـار النـور الخـاطف للأبصـار والمثـير للأعصاب.

ويسـتغرق النـائم عـادة في نومـه آخـذاً القسـط الأوفى من راحته في ساعاته الأولى، لهذا كانت الفائدة المجتنـاة من نـوم مـا قبل منتصف الليل، ضعف الفائدة المتوخاة من نوم ما بعد منتصف

1) الشرق الأوسط: العدد ـ 6247.

الليل)[2]

ويقول جورج ألفرد تينيس ـ أحد أتباع ثيودور ستوكمان ـ وهو صاحب نظرية (النوم الطبيعي) القائلة إن النوم الذي يسبق منتصف الليل تكون له ضعف القدرة على إعادة العافية إذا قيس بالنوم الذي يعقب انتصاف الليل: (الصباح هو أفضل الأوقات وأنسبها للعمل، لأننا نكون عندئذ قد استعدنا حيويتنا وأصبحنا أكثر مرونة ونشاطاً واستجابة للتنبيه، أو بعبارة أخرى، نكون أكثر حظاً، في تمتعنا بخصائص الشباب)

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف (الريجيم)؟

ابتسمت، وقلت: هل له هو الآخر علاقة بالحضارة؟

قال: أجل.. له علاقة كبرى بالحضارة.. لأنه من شذوذ هذه الحضارة.

قلت: كيف ذلك.. أتريد من البشر أن يصبحوا بأجسام الفيلة.. إن الأرض لا تستطيع حمل هذا العدد الضخم من الفيلة.

قال: ولم يصبح البشر فيلة؟

قلت: لولا الريجيم لصاروا فيلة.

قال: ولم لا يأكلون أكل الفطرة.. ويعيشون حياة الفطرة.. فلا يضطرون إلى الريجيم ولا إلى غيره..

أعرف قريبة كانت تأكل بلا حساب.. وخارج فطرية الغذاء.. حتى أصبحت ممتلئة البدن وغير مقبولة الشكل، وبخاصة من زوجها، فلما أحست منه ذلك سارعت إلى اعتماد ريجيم صارم دفعة واحدة، ودون تدرج، فأصيبت بالهزال وفقدان المناعة إلى أن ابتليت بمرض (السحايا) وأدخلت المستشفى في حالة الخطر

2) الدكتور صبري القباني في كتابه (طبيبك معك)

الشديد، ثم رد الله لها عافيتها بعد فقدان الأمل.

إن حاجة الجسم إلى الأغذية المتنوعة تبعثها الغدد من خلال الإحساس بالرغبة في تناول هذا الطعام أو ذاك، ومن الفطرية مراعاة التجاوب مع هذه الرغبات دون تفريط ولا إفراط، لأن عدم التجاوب مع هذا الإحساس الفطري، يعتبر لوناً من ألوان الشذوذ.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف الزواج.. والعلاقات الزوجية؟

قلت: أجل.. ولولا الزواج ما استمر نوع الإنسان.

قال: هذه الحضارة المسمومة عبثت به وبهذا النوع من العلاقات ما شاء لها أن تعبث.. فعالم الجنس اليوم ــ في حضارة سدوم وعمورية ـ قد خرج بالكلية عن الممارسة الفطرية، فلم تعد هناك علاقة بين الزوج وزوجته، بل اتخذ أنماطاً من الممارسات الجنسية القذرة الممعنة في الحيوانية، حيث الممارسات الجماعية، بين الذكور والإناث، وبين الذكور والذكور، كما بين الإناث والإناث، بقصد الوصول إلى المتعة القصوى.. لقد بلغ الجنون والهوس الجنسي اليوم، درجة باتت تهدد المجتمعات العالمية بالأوبئة الفتاكة..

قلت: هذه ممارسات شاذة لبعض الشواذ.. ولا نستطيع أن نحكم من خلالها على حضارة كاملة.

قال: لم يعد الأمر شذوذا.. إن هذه الحضارة الشاذة تريد أن تجعل من الشذوذ فطرة.. لتصبح الفطرة بعدها شذوذا.

إن الشذوذ الجنسي ومخالفة الفطرة في الزواج، أخذ طريقه عبر التشريعات والقوانين.. فقد راح الكثير من الدول، وحتى بعض الكنائس الغربية ـ في بريطانيا تحديداً ـ تجيز الزواج المثلي الأحادي الجنس.

سكت قليلا، ثم قال: أتسمع ببراءة الأطفال؟

قلت: أسمع بها.. وأرها في عيونهم البريئة.

قال: ويوشك أن لا تراها.. لو استمرت هذه الحضارة المجنونة..

لقد امتد جنون هذه الحضارة إليهم ليلتهم براءتهم.. لقد ذكر المصادر الإعلامية أن ملايين الأطفال، يقعون ضحية عصابات الدعارة والشذوذ.

وما حدث في بلجيكا على سبيل المثال، يعطي نموذجاً واضحاً لما آلت إليه أوضاع البشرية، من جراء انحدارها وبعدها عن الفطرة.

ففي هذا البلد الأوروبي.. اكتشفت عصابات تقوم على تجارة الأطفال وقتلهم بعد اغتصابهم، والأنكى من ذلك، أن الرأي العام البلجيكي والعالمي اكتشف تورط مسؤولين حكوميين في الفضيحة، مما استدعى ردات فعل قوية ستؤدي إلى تغييرات دستورية مهمة، والأمر نفسه يحدث الآن في بريطانيا وعدد آخر من دول العالم.

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف العلف؟

ابتسمت، وقلت: هو طعام الحيوانات.. أله علاقة هو الآخر بالحضارة؟

قال: أجل.. له علاقة عظمى بالحضارة.. فالحيوانات شركاء لنا في الأرض.. وينبغي أن لا نطعمهم سموما وإلا أصابونا بلعناتهم.

قلت: وهل أطعمتهم هذه الحضارة سموما؟

قال: أجل.. لقد دنست هذه الحضارة فطرهم كما لم تدنس شيئا آخر.

قلت: فما فعلت؟

قال: لقد ذكر القرآن أنواع الرزق التي أفاضها على الأنعام، فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إلى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾(السجدة:27)، وقال بعد أن ذكر ما أخرج لعباده من أصناف الرزق: ﴿ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾(طه:54).. ولكنهم أبوا إلا أن يطعموها سموما.

قلت: ولكن ما حصل من جنون البقر جعلهم يثوبون إلى رشدهم.

قال: ومن قال ذلك؟.. لقد وردتنا الأخبار بأن المزارعين، ومثلهم الشركات المنتجة للأعلاف بدأوا في استخدام أو محاولة استخدام فضلات الأطعمة الجافة المستخرجة من حاويات القمامة، ومخلفات المطاعم من الشحوم وزيت القلي والشحوم المتجمعة في محابس الشحوم والغبار المتصاعد من مصانع الإسمنت.. وحتى أوراق الجرائد والورق المقوى المستخرج من النباتات، كما أجرى الباحثون بعض التجارب على سماد المواشي والخنازير والرواسب الطينية.

ولا تتوافر في الوقت الراهن أي إحصائيات دقيقة حول عدد المزارعين الذين يطعمون مواشيهم بفضلات الدواجن، لكن يعتقد بأن هذه الظاهرة قد عمت في نصف الولايات المتحدة أو ثلاثة أرباعها، وبالرغم من الرائحة الكريهة المنبعثة من فضلات الدجاج والديك الرومي، فإنه يمكن استخدامها كعلف بعد تكديسها على نحو سليم وإخضاعها لمدة تتراوح ما بين 4 ـ 8 أسابيع لدرجة حرارة تتراوح ما بين 160 ـ 170 درجة فهرينهايت، وهي درجة عالية تكفي لقتل البكتيريا، وقد ذكر بعض المزارعين بأنهم يقدمون لدواجنهم سماد المواشي الخام دون إخضاعها لأي تصنيع.

وقد ازداد الاهتمام بمكونات أعلاف الحيوانات في الولايات المتحدة مؤخراً في أعقاب الضجة التي قد أثارها في بريطانيا

موضوع جنون البقر والمخاوف التي انتابت الشـعب الأمـريكي من أن تنتقـل العـدوى إليهم، وقـد لقي مئـات من البريطـانيين حتفهم نتيجة تناولهم لحوم الأبقار الملوثة.

وتفيد الإحصائيات بـأن 75 بالمائـة من رؤوس المواشـي في أمريكـا والبـالغ عـددها 90 مليـون رأس ظلت تأكـل مخلفـات المسـالخ، وأن الحظـر المفـروض على تقـديم المنتجـات الثانويـة لمصـانع اللحـوم قـد يـدفع مـربي المواشـي ومصـانع الأعلاف إلى اللجوء إلى مضافات مثل السماد ومخلفات أخرى مشكوك فيها.

نظر إلى العمال الذين يقومون بتقطيع الأشـجار بأسـى، ثم قال: البشر في هذه الحضارة الملعونة لم يشوهوا فطر الحيوانات وحدها.. بل ذهبوا يشوهون أنفسهم..

لقد ذكر القرآن مقالة الشيطان عنـدما أطلـق تهديداتـه على تضليل بني آدم.. يقول القرآن حاكيا ذلك: إِنْ يَـدْعُونَ مِنْ دُونِـهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا (117) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَـالَ لَأَتَّخِـذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًـا (118) وَلَأُضِـلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُـرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّـيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (119) (النساء)

وعلى هذا الأساس نهى محمد عن كـل تغيـير للفطـرة الـتي فطر عليها جسد الإنسان، إلا مـا كـان منـه لضـرورة شـرعية حـدد ظروفها وشروطها، فقال: (لعن الله الواصلة والموصولة)(1)

وفي الحديث: رأى رسول الله ﷺ صبياً قـد حُلِـق بعض شـعر رأسه وترك بعضه فنهاهم عن ذلك وقال: (احلقـوه كلـه أو اتركـوه كله)(2)

قلت: فهل حدث تشويه لفطرة أجساد البشر؟

---

1) البخاري ومسلم.

2) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

قال: أجل.. لقد أقيمت مستشفيات خاصة بذلك.. لعلك سمعت بـ (بياولا يندسكو)

قلت: تقصد الممثلة الإيطالية المعروفة.

قال: أجل.. هي مثال على هذا الشذوذ.. لقد أقدمت ــ بطلب من هذه الحضارة المسمومة ـ على عملية تجميل الأنف، وعللت ذلك بقولها: (أقدمت على عملية تجميل الأنف بوصفي ممثلة، وليس بوصفي امرأة، وقد انقضى الآن شهران على ذلك.. كان الجميع قبل ذلك يقولون: إن عيبي الوحيد هو ذلك التقوس البسيط الذي يظهر في أنفي، فما إن لاحت لي فرصة إجراء العملية حتى أقبلت عليها بنفس مطمئنة، وخاصة أن الطبيب أكد لي أنه ليس هناك أي خطر منها)

قلت: كونها ممثلة هو الذي دعاها إلى هذا؟

قال: أجل.. وقد أقرت بذلك.. أقرت بأن هذا مخالف لفطرتها، فقالت: (على أن الشيء الذي أود أن أسر به إلى سائر النساء هو أنه لو لم تكن مهنتي هي التمثيل في السينما لما جرؤت على هذه العملية خاصة أن فيها بعض المتاعب.. ومن ذلك: أني أمضيت أسبوعين أتنفس ليلا ونهار من فمي، ولا أستطيع أن أنقلب على الوسادة عند النوم يمينا أو يسارا، وإلا ضاع أثر العملية)

قلت: فالمرأة كانت تحت سيطرة المخرجين الذين أرادوا أن تكون على صورة مقبولة لأذواقهم؟

قال: أجل.. هذه الحضارة الشاذة صارت تفرض قوانينها البشر، وتغير جميع الأنماط التي عرفتها الحياة من قبل.. لقد قالت شبيلا جابل: (كنت في بداية العمل في السينما، وكان ذلك حوالي عام 1960 م ولم أكن اسمع من المخرجين الذين قدموني إلا العبارة التالية: (لن تمهري في السينما، ولك هذا الأنف).. فإذا كان

أنفي يحد من انطلاقي ويمنعني من الظهور أمام الجمهور،وفكرت طويلا في الأمـر، ثم عـزمت على الإطاحـة بهـذا الأنـف، وأسـلمت نفسي لجراح مشهور، وأجريت لي الجراحة)

سكت قليلا، ثم قال: أتعرف الرحمة؟

قلت: أجل.. فليس بشرا من لا يعرف الرحمة.

قال: ولكن هذه الحضارة الشاذة انتكست الرحمة عندها..

قلت: لم أفهم قصدك.

قال: لعلك رأيت الذين يأسفون ويمتلئون حزنـا عنـدما يـرون المسلمين، وهم يذبحون ضحاياهم من الكباش.

قلت: أجل.. ويعتبرونها مظهرا للقسوة.

قال: ولكنهم هم أنفسهم الـذين يـذبحون البشـر آلاف البشـر في وقت واحد وبملايين القنابل دون أن يهتز لهم عرق واحد.

قلت: أتقصد أن البشر وجهوا الرحمة للحيوانات بدل البشر؟

قال: ليس مطلقا.. هم يعذبون الحيوانات كما يعذبون البشر.. ولكن منطـق الرحمـة الـذي انتكس عنـدهم جعلهم يتعـاملون مـع الحيوانات معاملات شاذة (1)..

في الغرب عندنا تصـرف البلايين على الكلاب والقطـط.. في الوقت الذي يعيش فيه الملايين تحت مستوى الفقر.

يقـول خـبراء اجتمـاعيون من جامعـة بنسـلفانيا: إن محـبي الحيوانات في الولايـات المتحـدة وحـدها ينفقـون أكـثر من ثمانيـة بلايين دولار للاعتناء بحيواناتهم من القطـط والكلاب.. أي أكـثر من

1) انظر الإحصائيات التالية في (الحضـارة المعاصـرة.. الوجـه الآخـر)، مجلـة البيـان، العدد2، ص84.

الدخل الوطني في أكثر من دولة من دول العالم النامي[1].

هـذا مـا ينفقـه الشـعب الأمـريكي المتحضـر على الكلاب والقطط سنوياً.. يتم هذا في الـوقت الـذي يمـوت فيـه الآلاف من الجـوع والأمـراض الناتجـة عن سـوء التغذيـة في كثـير من الـدول الأفريقيـة والآسـيوية وغيرهـا.. بـل إن هـذه البلايين من الـدولارات تصرف على الكلاب في أمريكا رائدة الحضارة الغربية في الـوقت الـذي يعيش فيـه الملايين من الشـعب الأمـريكى نفسـه في فقـر مدقع.. فلو قدر لك أن تـدخل حياً من الأحيـاء الفقـيرة في مدينـة نيويورك أو غيرها من كبريات المدن الأمريكية ــ وخصوصـاً الأحيـاء التي تقطنها أغلبية سوداء ـ لحدثتك نفسك أنـك في بلـدٍ من أفقـر بلدان العالم الثالث.. وما الدول الغربية الأخرى عن هذا ببعيـدة إن لم تكن أسوأ حالاً منها...

الصراع:

قلت: عرفت شذوذ هذه الحضارة، فحدثني عن صراعها.

قال: هذه الحضارة قامت على الصـراع.. لقـد بـدأت بصـراع الكنيسة، وانتهت بصراع الإنسان.. وهي الآن لا تزال تصارعه.

وسبب ذلك أنهـا حضـارة مليئـة بالمتناقضـات[2]: تنـاقض في الأفكـار، وتنـاقض في القيم، وتنـاقض في المواقـف، وتنـاقض بين الأقوال والأفعال.

وأخطر أنواع تناقضها هو ذلـك التنـاقض بين ضـجتها الصـوتية العالية عن حرية الأفراد والشعوب، في الحين الذي تسلك فيه كـل السـبل لفـرض قيمهـا الخُلُقيـة، وتجربتهـا السياسـية، ونظمهـا الاقتصادية، بل ومعتقداتها الدينية على سائر شعوب الأرض، ووصم كل ما يخالفها، بـل كـل مـا يتعـارض مـع مصـالحها، بكونـه انتهاكـاً

1) جريدة الرياض 30/12/1406هـ

2) الحضارة الغربية: ضجة عن الحرية.. وممارسة للهيمنة الثقافية، أ. د. جعفر شيخ إدريس، رئيس الجامعة الأمريكية المفتوحة، مجلة البيان.

للحقوق الإنسانية، أو إضراراً بالمصالح العالمية، أو ممارسة للإرهاب، أو سبباً للتخلف، وما شاءت من تهم جائرة.

نظر إلى العمال الذين يقطعون الأشجار بحزن، ثم قال: إن المجرمين من أهل هذه الحضارة مصابون بنوع من المرض الثقافي الذي يجعل على بصر صاحبه غشاوة تهول له قيم ثقافته، بل وأباطيلها، حتى يراها هي القيم الإنسانية التي يجب على كل الأمم أن تؤمن بها وتطبق مقتضياتها، بل وهي المعيار الذي تقاس به إنسانية الأمم، ويحدد على أساسها استحقاقها للمصالحة والمساعدة أو المشاقّة والإعنات.

لقد عبر عن شيء من هذا مندوب أو مندوبة باكستان في جلسة الأمم المتحدة الخاصة بقضية المرأة، فقد قالت لهم المندوبة كلاماً نقلته بعض الصحف الأمريكية فحواه أن مشكلة المرأة في باكستان هي أن تشرب ماءً نقياً، لا أن تتزوج امرأة مثلها، ولا أن تكون لها حرية الاتصال بمن شاءت من الرجال.

قلت: إن الحضارة الغربية تطرح أفكارها في هذه الجوانب، ولا تفرضها.

قال: بل هي تحاول كل السبل لتفرضها..

إن أولئك المجانين الذين يعتلون عرش القوة في العالم.. وبعد أن قضوا على المعسكر الشيوعي تصوروا أن لهم القدرة على القضاء على كل منافس لهم.. وقد كان الإسلام أحد أهم منافسيهم، فلذلك راحوا يوجهون رماحهم إلى نحره.

لعلك سمعت بـ (صراع الحضارات)(1)

---

1) روج لهذه الفكرة مجموعة من المستشرقين والمؤرخين والمفكرين المشبوهين بارتباطاتهم بالدوائر الصهيونية العنصرية، ومن أبرزهم المؤرخ اليهودي برنارد لويس (Bernard Lewis)الذي روج لهذه الفكرة بمقال نشره في مجلة Atlantic Monthly عدد سبتمبر 199.م. ثم سار على دربه ونسج على منواله المؤرخ اليهودي الأمريكي صموئيل هنتنجتون (Samuel Huntington) في مقالة نشرها في مجلة Forein Affairs عام 1993م، ثم طورها ووضع لها كتابا حمل نفس العنوان (صدام الحضارات) The Clash of

قلت: أجــل.. وقــد ولــد هــذا المصــطلخ بعــد انهيــار الاتحــاد الســوفيتي الــذي كــان العــدو الأول للغــرب ــ وخصوصــا الغــرب الأمريكي ـ من عام 1947 م إلى عام 1990م، ثم دارت الدائرة على هذا (الخطر الأحمر) ـ كما يســميه الغــرب ــ وانهــار، وتفتتت هذه الإمبراطورية الضخمة إلى مجموعـــة من الـدول والـدويلات، وانتهى بذلك عصر (الحرب البادرة)

قال: لقد وجدت الولايـات المتحـدة الأمريكيـة، وأتباعهـا ومن يدورون في فلكها من دول أوربا، نفسها بلا عــدو تمـارس الصــراع ضده وتطور عدتها وآلاتها لمهاجمته، فأوعز نفر من كبار المفكرين الاستراتيجيين هناك إلى أصحاب القرار باتخاذ الإسلام جبهة صالحة لتصويب آليات الصراع نحوها، واعتباره (الخطـر الأخضـر) بحسـب تعبيرهم.

وذلك للحفاظ على تماسك واندفاع الحضارة الغربية ضد هـذا (الزحــف الإســلامي)، وخصوصــاً بعــدما نمــا الإســلام في أوربــا، وظهـرت فيـه دويلات تحمـل اسـم الإسـلام، كمـا تزايـدت أعـداد المسـلمين في الولايـات المتحـدة، سـواء المهتـدين من أهلهـا، أم النازحين إليها من خارجها..وأصـبح من الحاقـدين من يحـذر حكـام أوروبا من الانتشار المتزايد للإسلام.

لقـد ظهـرت فكـرة (صـراع الحضـارات)، أو نظريـة (صـدام الحضارات)، وخصوصاً الصراع الحتمي بين الإسـلام كحضـارة وبين الحضارة الغربيـة الـتي تتزعمهـا الولايـات المتحـدة الأمريكيـة في العقود الأخيرة.

وإذا كـان هنتنجتـون يتحـدث في كتابـه المشـبوه عن ثمـاني حضــارات في العــالم الآن، فإنــه ركــز على حتميــة الصــدام بين الحضارة الغربية والحضارة الإســلامية، وهو صراع قائم ــ حســب

Civilizations وهو الكتاب الذي تنـــاولته أجهزة الإعلام في الدول الغربية، ومنهـا الولايـات المتحدة، بالشرح والتحليل وتســليط الأضواء عليه بشـكل مـــكثف، منـذ ظهـرت طبعتـه الأولى.

زعمه ـ وسيصبح أكثر خطرا على الحضارة الغربية، أما الصراع بين الحضـارات الأخـرى والحضـارة الغربيـة فهـو ضـعيف ولا يسـتحق الاكتراث(1).

قلت: أهذا هو صراع الحضارة الغربية؟

قال: هذا بعض صراعها.. وهي لا تكـف عن الصـراع.. فجميـع إنتـاج هـذه الحضـارة ينطلـق من الصـراع، وينتهي بـه.. أفلامهـا.. ألعابها.. موسيقاها..

نظر إلى الأفق البعيد، ثم قـال(2): حينمـا نـادى أفلاطـون في جمهوريتـه المثاليـة منـذ ألـوف السـنين بتربيـة النشـء على حب الموسيقى والرياضة وجعل من الموسيقى والرياضة حصصـا ثابتـة في منهج الطـالب، كـان صـاحب فلسـفة وكـانت لـه وجهـة نظـر، فالموسـيقى هي الوسـيلة لتربيـة الـذوق وتنميـة الحس الجمـالي، والرياضـة هي الوسـيلة لكمـال الجسـد وتنميـة الشـجاعة والخلـق الكريم.

وقد عشنا ورأينا ألوانـا من الموسـيقى الرفيعـة تـربي الحس الجمالي وترفع الذوق.. كما رأينا على أيامنا ما تفعلـه الرياضـة في كمال الأجسام وفي كمال الأخلاق.. ولكن يبدو أن العصر اختلــف.. والموسيقى اختلفت.. والرياضة اختلفت..

لقد أصبحنا نقرأ عن مبـاراة عالميـة في دور تشسـتر يسـقط فيها عشرات القتلى ويتقاتل فيها المشجعون بالسـكاكين والعصـي والزجاجات الفارغة، ورأينا معارك أشـد في مبـاراة عالميـة أخـرى في إيطاليـا وثالثـة في الـدنمارك وتحـول الملعب الرياضـي إلى مسرح جرائم.

وفي كل أوليمبياد تكتشف اللجنـة أبطـالا مشـهورين يلجـأون

1) انظر: الموسوعة اليهودية للمسيري، وكتاباته الأخرى.

2) من سواح في دنيا الله لمصطفى محمود، ببعض التصرف.

إلى الغش وتعــاطي الحقن الممنوعــة ليتفــوق كــل واحــد على منافسيه بدون وجه حق.

وفي آخر خبر جاء من أمريكا رأينا بطلة أوليمبياد الـتزلج على الجليد تونيا هارودنج ترشو زوجها جيـف جـالوا ليقـوم بعمـل كمين لمنافستها نانسـي كاريجـان ويضـربها على مفصـل الركبـة اليمـنى ضربة تكسحها و تمنعها من دخول الملعب.

و يعترف الـزوج على زوجتـه، ويقـول إنـه تلقى منهـا رشـوة خمسة آلاف دولار ووعودا بآلاف أخرى إذا أنجز مهمته على الوجــه الأكمل.. و انفجرت فضيحة تناولتها كل الصحف..

ثم إن الرياضة نفسها تحولت إلى تجارة مفترسة، و أصبح لها سماسرة و أصبح لكل بطل مدير محـترف ومكتب دعايـة وملحـق صحفي وعصابة تتحرك لحراسـته أينمـا ذهب، و أصـبحت البطولـة بابا مفتوحا لملايين الدولارات.. ونجوم التنس والملاكمة و السباحة والجـري والقفـز أصـبحوا أصـحاب ملايين ونجـوم شـهرة، وأصـبح العرف السائد هو الوصـول إلى الكـأس.. بـأي سـبيل ولـو بـالغش والتدليس والإجرام.. وأصبحت الرياضة شـيئا آخـر غـير الـذي تكلم عنه أفلاطون.

بل رأينا نجوما مثل مارادونا يسقطون من قمة النجوميـة إلى هاوية الإجرام والمخدرات ثم يفقدون كل شيء.

وكـان مـا حـدث للموسـيقى أكـثر.. فسـيمفونيات بيتهـوفن وشوبان وفاجنر.. تـراجعت لتحتـل المسـرح راقصـات و راقصـون يهزون الصدور و الخصور، وظهر الديسكو الغربي الذي حول الغناء إلى زار و صراخ و ضجيج و عجيج.

ونفس الشيء حدث في السينما و المسرح..

وأبطال كمال الأجسام الآن تلتقطهم السينما لأفلام الرعب و

الإجرام..

والرياضة والموسيقى والغناء والسينما والمسرح وباقي الفنون تحولت في ظل الصراع إلى المواصفات الأمريكية، واتجهت إلى القبلة التي تفرضها بورصة هوليوود ويحكمها الدولار.

ولو أن أفلاطون بعث اليوم حيا لأنكر ما يرى و ما يسمع و لسحب كلامه و حل جمهوريته، وفضل عليها بيع الخضار في الأسواق. فلم تعد هناك علاقة بين الموسيقى وتنمية الذوق، ولا بين الرياضة وتنمية الأخلاق الحميدة.

قلت: ألا ترى أنك تبالغ في تشاؤمك من هذه الحضارة؟

قال: لست وحدي في ذلك.. كل العقلاء لديهم تشاؤم كبير من هذه الحضارة التي تريد أن تمحو آخر رسم للإنسان..

لعلك تعرف (الدكتور ألكسيس كاريل)

قلت: أجل.. وكيف لا أعرفه.

قال: لقد كان صديقا لي.. وقد وضع يده على الأسباب الحقيقية لهذا الضياع.. فقد قال: (إن الحضارة العصرية تجد نفسها فى موقف صعب، لأنها لا تلائمنا، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية، إذ أنها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم، ونظرياتهم ورغباتهم. وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا، إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا) (1)

ويقول: (لقد أهمل تأثير المصنع على الحالة الفسيولوجية والعقلية للعمال إهمالاً تاماً عند تنظيم الحياة الصناعية. إذ أن الصناعة العصرية تنهض على مبدأ: الحد الأقصى من الإنتاج بأقل قدر من التكاليف، حتى يستطيع فرد أو مجموعة من الأفراد أن

1) الإنسان ذلك المجهول: 38.

يحصلوا على أكبر مبلغ مستطاع من المال.. وقد اتسع نطاقها دون أى تفكير فى طبيعة البشر الذين يديرون الآلات، ودون أى اعتبار للتأثيرات التى تحدثها طريقة الحياة الصناعية التى يفرضها المصنع على الأفراد وأحفادهم)(1)

ويقول: (وهؤلاء النظريون يبنون حضارات، بالرغم من أنها رسمت لتحقيق خير الإنسان، إلا أنها تلائم فقط صورة غير كاملة أو مهولة للإنسان. إن نظم الحكومات التى أنشأها أصحاب المذاهب فى عقولهم عديمة القيمة.. فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس ولينين، تنطبق فقط على الرجال الجامدين (غير الأحياء أو المتحركين)، فيجب أن نفهم بوضوح أن قوانين العلاقات البشرية ما زالت غير معروفة. فإن علوم الاجتماع والاقتصاديات علوم تخمينية افتراضية)(2)

نظر إلي، وقال: لم يكن ألكسيس كاريل وحده هو الذي نطق بذلك.. بل قامت في سوق الفكر كتب كثيرة تحذر من هذا السلوك الذي تسلكه هذه الحضارة.. وتنبئ بالعواقب الخطيرة التي تنتظرها.

وكمثال على ذلك كتاب صدر قبل سنوات أطلق عليه صاحبه (فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي) لمؤلفه المؤرخ الأكاديمي: آثر هيرمان.

لقد ناقش هذا الكتاب آراء العديد من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد وغيرهم من أمثال هيزيود، سوفوكليس، تيرجوت، فيختة، جينون جوزيف، آرثر دو جوبينو.. إلى أن وصل إلى الفصل الرابع، ليناقش فيه قضية الانحلال بوصفها نهاية الليبرالية الغربية (وهو يقصد الحضارة الغربية)، واستند في ذلك إلى أطروحات عدد من المفكرين والمتخصصين،

---

1) الإنسان ذلك المجهول: 40.

2) الإنسان ذلك المجهول: 43.

وعلى رأسهم الطبيب الإيطالي (سيزار لومبروزو) الذي أكد في عام 1870م، أن الأوربيين (لم يعودوا قادرين جسمانيا على الاحتفاظ بمتطلبات الحياة المتحضرة)

وفي الجزء الثاني من الكتاب، تحدث المؤلف عما كان سائداً من اعتقاد، في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، بأن أمريكا هى أرض المستقبل، بل أنيط بها حمل رسالة تخليصية لبقية العالم و(إمبراطورية الحرية) هو الاسم الذي كان يطلق عليها، إشارة إلى رسالة نشر الفضيلة والسيادة الشعبية التي أنيط بها حملها العلم ومنذ ذلك التاريخ، وقبل أن يتحقق هذا أعلن (جي كيو، آدمز) في عام 1785م، بعد أن تبدد أمله في أن يحافظ الأمريكيون على فضائلهم واستقلالهم قائلا: (إن الأمريكيون لم يكونوا أبداً أهلا لفضيلة رفيعة) واعترف بغبائه لأنه قال فيما سبق من حياته: (إنهم سيصبحون أفضل من غيرهم) مؤكداً أن أمريكا محكوم عليها بالهلاك

وفي باقي فصول الكتاب يناقش المؤلف آراء كثير من العلماء والمفكرين، من أنحاء متفرقة من العالم منهم: آدمز ش، جاكوبي، هنري آدمز، دوبوا، أوزوالد شبنجلر، إدوارد سعيد، اليجا بول (أو اليجا محمد ـ بعد إسلامه).. إلى أن وصل إلى الفصل الذي ألقى فيه الضوء على (شبنجلر) في كتابه الشهير (أفول الغرب) كما ناقش فكر المؤرخ البريطاني الشهير (توينبى) الذي حدد لاضمحلال الحضارة الغربية ثلاث مراحل.

كما أن توينبي تنبأ بقيام الولايات المتحدة كحضارة جديدة، فإنه رأى ـ مثل غيره من المفكرين الأوربيين ــ أنها تمثل الجانب المظلم للغرب الحديث نفسه وبقدر ما اعتبر الشيوعية هرطقة غربية، وصحف منزوعة من العهد القديم، اعتبر الولايات المتحدة وإسرائيل أخطر قوتين استعماريتين في عالم الحرب الباردة (التي امتدت من النهاية الحرب العالمية الثانية إلى مطلع التسعينات

حين انفرط عقد الاتحـاد السـوفيتي)ومكمن الخطـر فيهمـا ــ كمـا يقول توينبي ـ ليس لأنهما قوتان عسكريتان فقط، بل لأنهما تمثلان ـ أيضا ـ غربا منحلا وشدد توينبي على أن أعمال الولايـات المتحـدة وإسرائيل في لاوس، وفيتنام، وفلسطين، ليست مجرد جرائم، بـل جرائم ومفارقة تاريخية أخلاقية في الوقت نفسه.

وفي الفصل العاشر تناول المؤلف أطروحات سـارتر، فوكـو، وفـانون، وهــو يشــرح آراء ومواقــف ســارتر الــتي كـانت تعــد (الأمريكيــة) الخطــر الحقيقي على أوروبــا كمرحلــة أخــيرة للقيم البرجوازية الغربية وذهب سارتر ـ الذي كان على عـداء واضـح مـع الهيمنة الأمريكية ـ إلى أن الفيتناميين كانوا يقـاتلون نيابـة عن كـل البشر، وأن الأمريكيين يقاتلون ضد كل البشر.

وينقل المؤلـف آراء (نعـوم تشوميسـكي) الـذي يـرى أمريكـا (تـديرها القــوى التآمريــة الخبيثــة للرأســمالية الكبـيرة)، أقــامت إمبراطورية شاسعة بالتحالف مع المصالح الرأسمالية العالمية من خلال دول إرهابية في أمريكا اللاتينية، وأعمـال عـــــنف تـؤدي إلى إبادة جماعية في آسيا والشرق الأوسط ويسـوى تشوميسـكي بين ألمانيـا النازيـة في الـداخل، والاحتفـاظ بشـبكة عالميـة من القـوة والإرهاب الوحشي ويقول تشوميسكي: إن الإمبراطورية الأمريكية مؤسسة محكوم عليها بالفناء.

وبالاستناد إلى آراء كل من نعوم تشومسكي، بارنتي، بـارنت، وريتشـــارد ســـلوتكن، فـــإن الثقافـــة الأمريكيـــة تمجـــد العنـــف، والاستعمار، والإبادة الجماعية..

التفت إلي، وقال: هذه بعض الشهادات.. وإذا أردت المزيــد.. فاذهب إلى وكـالات الأنبـاء.. وتتبـع جـرائم هـذه الحضـارة.. فليس هناك شهادة أخطر من شهادة الإنسان على نفسه.

حضارة الإسلام

قلت: عـرفت حضـارتنا ومـا فيهـا من عيـوب.. فحـدثني عن حضـارة الإسـلام.. أو بـالأحرى: هـل للإسـلام حضـارة.. فأنـا لم أر للمسـلمين الأوائـل أهرامـات كأهرامـات المصـريين، ولا مسـارح كمسارح الرومان.

بل إن المسلمين ظلـوا يسـكنون في بيـوت الطين البسـيطة إلى أن تداركتهم هذه الحضارة بالخراسانة المسلحة وبأنواع الرقي الحضاري.

ابتسم، وقال: لقد ذكرتني بعمر بن عبد العزيز، فقد كتب إليه أحـد ولاتـه يسـتأذنه في أن يبـني لمدينتـه سـورًا يحفظهـا من اللصوص، فقال عمر: حصن مدينتك بالعدل.

قلت: لو أن هذا الحاكم كان بيننا لأقيل.. أينهى عن بناء يحفظ المدينة؟

قال: وقد أمر ببناء هو أشد حفظا للمدينة من جميع الأسوار..

قلت: ما تقصد؟

قال: لقد عرفت ما كان يمتلكه الاتحاد السوفيتي من أسـلحة جبارة لا يكاد أحد يفكر في غزوها.

قلت: أجـل.. وقـد كـان ذلـك سـببا لكـون الحـرب بينـه وبين أمريكا باردة، ولو أن أسلحته كـانت ضـعيفة لكـانت الحـرب حـارة ساخنة.

قال: ولكن كل تلك الأسلحة.. وكل تلك الشرطة التي قـامت عليها دولته البوليسية لم تستطع أن تحفظ كيانه.

قلت: ذلك صحيح.. فما سره؟

قـال: لأنهم توجهـوا إلى البنيـان، ولم يتوجهـوا إلى الإنسـان.. والحضارة لا تبنى إلا على الإنسان.

ولذلك فـإن أهم مزايـا الحضـارة الإسـلامية أنهـا حضـارة قيم ومبادئ إنسانية رفيعة..

نعم لم يترك المسلمون مسارح كمسـارح الرومـان.. ولكنهم تركوا مقابل ذلك من القيم ما لا تقوم معه جميع مسـارح الرومـان وأبنيتهم، بل وأبنية هذه الحضارة جميعا.

نعم.. لم يبن محمد وورثته أهرامـات كأهرامـات المصـريين.. ولكن الأكواخ التي كانوا يسـكنونها كـانت أشـرف بكثـير من جميـع الأهرامات.. بل من جميع قصور الدنيا.

قلت: فما مبادئ الحضارة الإسلامية؟

قال: ما ذكرته لك من مقاييس الحضارة: الفطرة.. والسلام.

فالحضارة الإسلامية هي الحضـارة الوحيـدة في العـالم الـتي اجتمع لها هذان الركنان، ولم يتفرقا طيلة تاريخها.

قلت: فكيف انسجمت حضارة الإسلام مع الفطرة والسلام؟

قـال: إن المفهـوم الإسـلامي للحضـارة ينطلـق من تصـوره لوظيفة الإنسان في هذا الوجود.. والذي يسميه الإسـلام (العبـادة) (1).. فالعبادة هي غاية الوجود الإنساني التي حددها القـرآن: ﴿ وَمَـا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات)

فتحقيق غاية الوجود الإنساني هو الذي نشأت عنـه الحضـارة في الواقع البشري، وهو المعيار الذي تقـوّم بـه صـعودا أو هبوطـا، واستقامة أو انحرافا.

وحين تختلـف النظـرة إلى غايـة الوجـود الإنسـاني تختلـف النظرة إلى الحضارة، وتختلف النظرة كذلك إلى التاريخ.

فحين تكـون غايـة الوجـود الإنسـاني هي الفنـاء في الكـائن

1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة لمحمد قطب وغيره من كتبه وكتب سيد قطب.

الأعظم كما تقـول (النرفانـا) أو الخلاص من ربقـة الجسـد وإطلاق الروح لتتحد مع الخالق.. تصبح الحضـارة هي تحقيـق عـالم الـروح على حسـاب الجسـد، وعلى حسـاب الجـانب المـادي من عمـارة الأرض.

وحين تكـون غايـة الوجـود الإنسـاني هي الاسـتمتاع بمـا في الأرض من متاع، بصرف النظر عن القيم المصاحبة لهذا المتاع من حلال وحرام، وخير وشر، وفضيلة ورذيلة، ورفعة وانتكاس.. تكـون الحضارة هي العمارة المادية للأرض، وهي تيسـير الحيـاة الأرضـية وتزيينها، والانكباب على متعها ولذائذها، وتكون في الوقت ذاته هي محاولـة التغلب على الآخـرين للاسـتئثار بـأكبر قـدر من المتـاع، ومحاولة إخضاعهم بالقوة والقهر، سـواء بـالقوة الماديـة أو القـوة العسكرية أو القوة السياسية أو القوة الاقتصادية أو القوة العلمية.. أو كلها جميعا..

وحين تكـون الغايـة هي عبـادة اللـه يكـون مفهـوم الحضـارة مختلفا عن هذا المفهوم وذاك، وكـذلك يكـون تفسـير التـاريخ، لأن المعيار الذي يقوم على أساسه التفسير، هو مدى تحقيـق الإنسـان لغاية وجوده، ومدى تفوقه أو تخلفه في تحقيق هذا الوجود.

قلت: لكل دين من الأديان شعائره التعبديـة الخاصـة بـه.. ولا يمكن أن نقيم الحضارات على هذه الأسس.

قال: مفهوم العبـادة في الإسـلام ــ والـذي هـو غايـة الوجـود الإنساني كما يرى الإسلام ـ مختلف تماما عن كل المفـاهيم.. ذلـك أن له علاقة كبرى بفطرة الإنسان، وفطرة الوجود.

قلت: لم أفهم.

قـال: الوجـود في التصـور الإسـلامي كلـه متوجـه للـه توجهـا فطريا، فهو لا يعرف إلا الله، ولا يعبـد إلا اللـه..:﴿ وَقَـالُوا اتَّخَـذَ اللَّهُ وَلَـداً سُـبْحَانَهُ بَـلْ لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُـلٌّ لَـهُ قَـانِتُونَ﴾

(البقرة:116)،: وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (الروم:26)

وبما أن الإنسان فرد في هذا الوجود، فإنه من الشذوذ الخطير أن ينفصل عن هذه العبادة التي يمارسها الكون، ويستمر بها وجوده.

قلت: ما محل الخطر في ذلك؟

قال: أرأيت لو أن القمر بدا له أن ينفصل بمسار خاص.. ومثل ذلك الشمس.. ومثل ذلك جميع النجوم والكواكب.. أيمكن للوجود أن يظل وجودا؟

قلت: لا.. ستدب الفوضى للوجود.. وسيفنى العالم.

قال: فعبودية الكواكب وسجودها لله هو الذي حفظ كيان الكون.

قلت: والإنسان؟

قال: لا يحفظ الإنسان إلا بالقوانين التي تحفظ الكون.. إلا إذا اعتبرنا الإنسان كائنا غير كوني.

قلت: فكيف ينتظم الإنسان في حلقة الكون؟

قال: بممارسة العبودية التي طلبت منه، والتي تحفظ له فطرته.. أو التي يمارس بها ما تتطلبه فطرته.

قلت: لا شك أنك لا تقصد بالعبودية الشعائر التعبدية.

قال: الشعائر التعبدية جزء من هذه العبادة.. أما كل العبادة فهو أن تتوجه الحياة كلها إلى الله.. لقد عبر القرآن عن ذلك، فقال: قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام:162)

وهذا هو معنى الإسلام الذي جاء محمد للدعوة إليه..

لقد جاء محمد لا ليقاوم النشاط البشري.. وإنما جـاء ليوجهـه الوجهـة الـتي يسـير بهـا الكـون جميعـا حـتى يقي المجتمـع ويقي الإنسان ويقي الكون من عواقب الشذوذ والصراع.

إن إقامة الحياة كلها - بكل ألوان النشاط فيهـا - على قاعـدة أخلاقية مدارها تقوى الله وخشيته هي الأسـاس الـذي تقـوم عليـه الحضارة الإسلامية.

لتصير السياسة ذات أخلاق قائمـة على حكم الحـاكم بالعـدل والشورى والنصيحية، والتعاون على البر والتقـوى، وعـدم التعـاون على الإثم والعدوان.

ويصير الاقتصاد له أخلاق، تبتعد به عن كل ما يتنافى معها من ربـا واحتكـار وغش وسـلب ونهب، وسـرقة وغصـب، وأكـل مـال الأجـير، وأكـل أمـوال النـاس بالباطـل، والشـح بحقـوق الفقـراء والمساكين..

وتصـير العلاقـات الاجتماعيـة ذات أخلاق قائمـة على التـواد والتحـاب والتكافـل، والتعـاون على الـبر والتقـوى، وحرمـة الـدم والعـرض والمـال، وكظم الغيب والعفـو عن النـاس، والكـف عن الغمز واللمز والغيبة والنميمة والتجسس والاطلاع على العورات..

وتصير علاقات الأسرة ذات أخلاق.. وعلاقـات الجنسـين ذات أخلاق.. والحياة كلها قائمة على قواعد أخلاقية رفيعة.

وتصـير الفنـون ذات أخلاق.. تلتفت إلى الجمـال في الكـون وفي الحيـاة البشـرية وتعـبر عنـه في أداء جميـل.. فنـون لا تـزين الفاحشة لأن الفاحشة ليست جمالا ولكنها هبوط.. ولا تزين لحظـة الضعف لأنها ليسـت جمـالا إنمـا هي لحظـة غفلـة عن إدراك غايـة الوجـود الإنسـاني، أو لحظـة تقصـير في تحقيـق ذلـك الوجـود. ولا

تزين الانحراف والشذوذ لأنه ليس جمالا، وإنما هـو نشـاز نـافر عن الجمال، ولا تزين عبادة الشيطان وعبادة الهـوى والشـهوات، لأنهـا ليست جمالا، وإنما هي حطـة للإنسـان الـذي كرمـه اللـه وفضـله، وأراد له أن يتحرر من كل عبودية زائفـة تزري بكيانه وتستذله.

هذه هي العبادة التي جاء الإسلام بها ليحفظ الإنسان ويحفـظ الأرض من الشذوذ الذي يريد فرضه هؤلاء الدجالون..

قلت: إن كل مـا ذكرتـه جميـل.. ولكن هـل يتنـافى ذلـك مـع التطور المادي العظيم الذي وصلت إليه هذه الحضارة.

قال: أنا لا أنكـر على هـذه الحضـارة تطورهـا المـادي.. ولكن أنكر بطرها وكبرياءها وانحرافها بسبب هذا التطور.. إني أصيح في هذه الحضارة كما صاح هود:﴿ أَتَبْنُونَ بِكُـلِّ رِيـعٍ آَيَـةً تَعْبَثُـونَ (128) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (129) وَإِذَا بَطَشْـتُمْ بَطَشْـتُمْ جَبَّارِينَ (130)﴾ (الشعراء)

فهـو لم ينكـر عليهم اهتمـامهم بـالعمران.. ولكن أنكـر عليهم ذلك الطغيان والشذوذ الذي وقعوا فيه بسبب ذلك العمران.

لقد ذكر القرآن مثالا لإنسان هذه الحضارة المملـوء بالكبريـاء بسبب أمواله.

قلت: تقصد قارون.

قال: أجل.. لقد نبهه المؤمنـون إلى الطريقـة الـتي ينبغي أن يتعامل بها مع ماله، فقالوا:﴿ وَابْتَغِ فِيمَـا آتَـاكَ اللَّهُ الـدَّارَ الْآخِـرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْـكَ وَلا تَبْـغِ الْفَسَـادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص:77)

لكنه أبى كما أبت هذه الحضارة، وصـاح كمـا صـاحت:﴿ إِنَّمَـا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ (القصص:78)

أتدري ما مصيره؟

قلت: لقد خسف به.

قال: وكذلك هذه الحضارة سيخسف بها.

قلت: ولكن حضارة المسلمين سقطت.

قال: ولكن القيم التي قامت عليها حضارة الإسلام لا تزال باقية.. ويمكنها أن تنبت من جديد.. فلا يمكن للبشر أن يستمر لهم وجود بدونها.

***

ما إن وصل (كوستاف لوبون) من حديثه إلى هذا الموضع حتى سمعنا صراخا عظيما من العمال، فحثثت خطاي أبحث عن سببه، وإذا بي أرى قتيلين مشوهين غاية التشويه.

أما أحدهما، فقد سقطت عليه شجرة من تلك الأشجار الضخمة، وأما الثاني، فقطعه منشار ضخم من تلك الآلات..

أسرعت إلي (كوستاف لوبون) لأخبره، فبكى، وقال: هذا ما تفعله الحضارة.. وهذا هو مصيرها.. ستحطِّم هذه الحضارة بفطرة الأشجار التي ستنتصر على كل مصانع الدنيا.

وستكون الآلات التي يصنعها البشر هي السيوف التي تغمد في قلوبهم لتطهر الأرض من شرهم.

قال ذلك.. ثم انصرف إلى وجوم جعلني أبتعد عنه..

لم يمض وقت طويل حتى عاد العمال إلى عملهم، منشغلين عن الجثتين اللتين أزيحتا جانبا في انتظار سيارات الإسعاف.

وقفت أمامهما بحزن لأرى ما جنت عليهما هذه الحضارة اللئيمة.. وأنظر في نفس الوقت إلى يدي (كوستاف لوبون) المقيدتين.

وفي ذلك الحين تنزل علي بصيص جديد من النور اهتديت به بعد ذلك إلى شمس محمد ﷺ.

الهداية

بعـد انتهـاء تلـك السـنة الـتي تشـرفت فيهـا بلقـاء أولئـك المستشرقين الذين قطفت على أيديهم ثمـارا مباركـة من شـجرة النبوة، جـاءتني رسـالة من أخي التـوأم يبشـرني فيهـا بتحولـه إلى الفاتيكان، واستلامه فيها منصبا محترمـا قـد يرفعـه في المسـتقبل لأن يصبح من مستشاري البابا وخصوصه.

وقد طلب مـني أن أزوره في الفاتيكـان حيث يقيم.. أو حيث أصبح مقر إقامتنا.

لم أملك إلا أن ألبي طلبه، وأحزم متاعي لأخرج من فرنسا.

في طريقي دخلت مكتبـة لأشـتري جريـدة.. فـرأيت صـاحب المكتبـة يتفـرج على فيلم إسـلامي يحكي قصـة بدايـة الإسـلام.. فبقيت أتفرج معه بعض الوقت.

وقد شـد انتبـاهي في الفيلم قصـة جعفـر بن أبي طـالب مـع النجاشي.. لقد كنت قرأتها من قبل.. ولكني في ذلك الحين رأيتهـا بجميع مشاعري..

لقد سأله النجاشي ملك الحبشة: (ما هذا الدين الذي فـارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الأمم؟)

فقال جعفر: (أيهـا الملـك، إنـا كنـا قومـا أهـل جاهليـة ؛ نعبـد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطـع الأرحـام، ونسـيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلـك حـتى بعث اللـه إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصـدقه وأمانتـه وعفافـه، فـدعانا إلى اللـه لنوحـده، ونعبـده، ونخلـغ، مـا كنـا نعبـد وآباؤنـا من دونـه من الحجارة والأوثان، وأمر بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة، – فعدد عليه أمور الإسـلام – فصدقناه وآمنا به واتبعناه)

رأيت صاحب المكتبـة مسـتغرقا في هـذا المشـهد، فـاقتربت

منه، وحييته، وسألته: هل أنت مسلم؟

قـال: قبـل سـاعة لم أكن مسـلما.. لكـني الآن.. والآن فقـط نضج الإسلام في قلبي.. لقد اكتملت جميع الأشعة.. وأنا الآن أبصر شـمس محمـد، وهي تملأ الآفـاق.. فيـا بشـراي، وأنـا أتنعم بـدفئها وحنانها.

قلت: فما الذي جـذبك إلى الإسـلام.. وأنت تـرى الكـل ينفـر منه.

قال: لقد وضع أولئك الحسدة الحقدة على الإسلام أول بـذور الإسلام في قلبي.. وأحسبني مدينا لهم بالشكر ما حييت.

قلت: ما تقول؟

قال: لقد رسموا صورة مشـوهة للإسـلام في نفسـي.. ولكن نفسي التي تعـرف ألـوان الطلاء الـتي يسـتعملونها لم تقبـل منهم تلـك الصـورة.. فـرحت أبحث في الثمـرات المختلفـة.. ثمـرات الأديان.. وثمرات الأفكار.. وثمرات المـذاهب.. ورحت أقـارن ذلـك بالإسلام.. فوجدت ما بهرني.

لقد نطـق جعفـر بالحقيقـة.. فليت لنـا أمثـال جعفـر في هـذا الزمان.

قلت: أي جعفر تقصد؟

قال: ذلك الذي كان يتحـدث.. إنـه ابن عم محمـد.. وقـد أوى إلى النجاشي، وهو حـاكم مسـيحي عاقـل.. وقـد كـان لجعفـر من الذكاء والفطنة والإيمان بحيث عرف كيف يخاطب الحاكم..

لم يشأ أن يـدخل معـه في جـدل عقيم.. بـل راح يحدثـه عن الثمرات.. عن الحصاد العظيم الذي جنته البشرية من زرع محمد..

إن ذلك الحصاد هو وحده الذي يكفي لكل عاقـل لكي يعـرف طيبة البذور التي طلب محمد من البشرية أن تغرسها.

أخذ الجريدة من يدي، وأخـذ يقـرأ عناوينهـا.. وقـد صـادف أن كانت العناوين مملوءة بـإفرازات هـذه الحضـارة السـامة.. وقـال:

هذه ثمراتهم.. وتلك ثمرات الإسلام، ولا نجاة للبشرية إلا بالإسلام.

***

لما وصل الغريب من حديثه إلى هذا الموضع التفت إلي، فرآني في غاية السرور، وقد انزاحت عني تلك الكآبة التي كانت تعلو وجهي، وتملؤني بالإحباط، وقال: هذه حكايتي مع ثمار شجرة النبوة.

قلت: أكل هذه ثمار للنبوة؟

قال: هذه بعض ثمار النبوة.. ولا يمكن لأي بشر في الدنيا أن يحيط بثمار النبوة علما..

إن الفضل العظيم الذي من الله به على البشرية بإرسال نبيه محمد ﷺ لا يمكن حده ولا حصره ولا الإحاطة به..

إن الحياة جميعا تتوقف على هذا الفضل العظيم كما تتوقف حياة الأرض على تلك الأشعة الدافئة الحنون التي ترسلها الشمس.

قلت: فهل أسلمت بعدها..

قال: لا .. لقد ظلت الشياطين تنفخ في عقلي وقلبي من الشبهات ما كان يصرفني عن كل خطوة أخطوها لإعلاني إسلامي.. لكني عندما امتلأت بالضعف والتواضع، ولجأت إلى ربي أن يتداركني برحمته وهدايته، أرسل لي من الأنوار ما أراني الأمور على حقيقتها.. فامتلأت بفضل الله بأنوار الهداية، ورفعت عن قلبي أدران الغواية.

هذا الكتاب

تجري أحـداث هـذه الروايـة بين مبشـر مسـيحي - هـو بطـل الروايـة، وهـو الـذي أسـلم بعـد ذلـك، وحكى قصـته للمؤلـف –

ومجموعـة من المستشـرقين المنصـفين الكبـار الـذين بهـرتهم القيم العظيمة التي جاء بها الإسلام، فشـهدوا شـهادات صـادقة كـانت أحســن رد على شــهادات المجحفين والمنــاوئين من المبشرين والمستشرقين والمستغربين.

وتدور أحداث الرواية في جامعة السربون وما حولهـا.. وفيهـا مقارنات كثيرة بين كل ثمرة جاء بها الإسلام من خلال مصـادره المقدسـة، والثمـار الـتي جـاءت بهـا سـائر الأديـان والمـذاهب السماوية أو الوضعية.